

روضة الورد في أولية هذا الإمام الفرد<sup>(١)</sup>

نسب عياض

أقول ، وعلى الله أعتمد ، ومن بحر كرمه أستمد :

هذه ترجمة نذكر فيها أصله ومختده ، وأوليته ومولده .

قال الشيخ الإمام الرحال أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى<sup>(٢)</sup> ، الملقب عند الوادى آشى

بشمس الدين ، رحمه الله ورضى عنه :

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد

ابن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي . هكذا ذكر نسبه الشيخ

أبو القاسم الملاحى . وعمرون ، ثبت عنده بنون بعد الواو .

عند ابن الأبار وقع في معجم أصحاب الصديقي ، للإمام الشهير القاضى أبي عبد الله محمد بن

عبد الله القضاعى ، المعروف بابن الأبار : « عمرو » ، دون نون .

قلت : ونحوه لابن خاتمة<sup>(٣)</sup> في الكتاب المسمى بـ « مزية المريية » ، على غيرها

من البلاد الأندلسية .

عند ابن الملجوم

وقال الشيخ أبو القاسم بن الملجوم :

إجتاز علينا القاضى عياض عند انصرافه من سبتة قاصدا إلى الحضرة ،

زائراً لأبى بداره<sup>(٤)</sup> عشية يوم الاثنين الثامن لرجب ، سنة ثلاث وأربعين وخمس

(١) فيما سبق عند الكلام على تقسيم الروضات (ص ١٧ من هذا الجزء) : « العالم الفرد » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن على الهوارى ، من أهل المريية ، كان كفيف البصر ، وهو من

شيوخ لسان الدين بن الخطيب ، وصاحب البدعية المعروفة ببديعية العميان . وقد

رحل إلى المشرق في طلب الحديث . والوادى آشى : نسبة إلى وادى آش ( ويقال

فيه : وادى الأشات ) . وهى مدينة جبلية من أعمال غرناطة . ( عن نفع الطيب ) .

(٣) ابن خاتمة : هو أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى ، من

أهل المريية ، يكنى أبا جعفر . ( راجع الإحاطة ونفع الطيب ) .

(٤) فى ت : « فى داره » .

مئة ، وفي هذه العشية استجزته<sup>(١)</sup> ، وسألته عن نسبه ؛ فقال لي : إنما أحفظ :  
« عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض . وأحفظ أيضا  
بعد ذلك : محمد<sup>(٢)</sup> بن عبد الله<sup>(٣)</sup> بن موسى بن عياض . ولا أعرف أن محمدا هذا  
هو أبو عياض أو بينهما أحد » . انتهى كلام ابن الملجوم .

وقوله « اجتاز علينا » يعني بمدينة فاس ، وقوله « قاصدا إلى الحضرة » [١٢]  
يعنى مرّا كُش .

وأفادني الشيخ العارف المتبتل ، الرباني البركة ، سيدي حسين الزروبي  
أبقى الله بركاته ، وأدام وجوده والنفع به :

نزوله بدار ابن  
الغرديس

أن القاضي عياضاً ، رضى الله عنه ، لما دخل الحضرة الفاسية ، حاطها الله ،  
نزل بدار ابن الغرديس التعلبي<sup>(٤)</sup> بزقة حجامه ، حسبا أشار إليه ابن الأحرر ،  
ولم تنزل هذه الدار إلى الآن بيد أولاد ابن الغرديس .

وقال نجل عياض الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عياض ، قاضي  
دانية<sup>(٥)</sup> ، على ما قال ابن خلكان ؛ وقاضي غرناطة ، على ما قال<sup>(٦)</sup> ابن قنفذ  
وغيره . ولعله تولى القضاء فيهما معا رحمه الله ، المتوفى سنة خمس وسبعين  
وخمس مئة :

عند ولده محمد

- (١) استجزته : طلبت منه أن يجيزني ، أي يأذن لي بقراءة مؤلفاته وحروياته .
- (٢) كذا في ت ومعجم أصحاب الصدف لابن الأبار ، وفيها سيأتي في الأصلين . وفي ط  
هنا : « أحمد » وهو تحريف .
- (٣) لم يذكر ابن الأبار « عبد الله » في أجداد القاضي عياض .
- (٤) هو محمد بن الغرديس قاضي فاس إذ ذاك . ( انظر كتاب البستان لابن مريم  
طبع الجزائر صفحة ٥٤ ) .
- (٥) دانية : مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية ، على ضفة البحر شرقا . ( عن معجم البلدان ) .
- (٦) في ط : « ما قاله » .

« كان أبي يقول : لا أدري : هل محمد والد عياض ، أو بينهما رجل ؟ فهو جدّه » . انتهى .

وهو مثل ما حكى ابن الملقوم عن عياض ، كما سبق قريبا .  
ورأيت في تاريخ الشمس ابن خلدكان ، المسمى بـ « وفيات الأعيان » ، عند ابن خلدكان في تعداد آباء القاضي عياض ، خلاف ما سبق ؛ ولا أدري : هل ذلك تحريف من الناسخ أو وهم من المؤلف ؟ ونصه : « عياض بن موسى بن عياض بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي » . انتهى .  
فأنت تراه قد أسقط « عمرو<sup>(١)</sup> » فيما بين عياض وموسى ، وأسقط أيضا « عبد الله » فيما بين « محمد » و « موسى » .

وقد وافقه على إسقاط « عبد الله » الشيخ العلامة ابن خاتمة في « مزية المريية » ، فإنه قال في باب العين ما نصه : « ومن الغرباء : عياض بن موسى ابن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي<sup>(٢)</sup> » . انتهى .

على أن ابن خلدكان وغيره من المشاركة ربما يقع لهم الغلط في تاريخ أهل المغرب ، لبعده الديار ، ولغير ذلك ، مما لا يخفى على من مارس علم التاريخ ؛ كما أن كثيرا من المغاربة لا يُحررون تاريخ المشاركة ، لما ذكرناه ؛ ولذا قال شيخ الإسلام ابن حجر<sup>(٣)</sup> في تأليفه المسمى بـ « إنباء العُمر ، بأنباء العُمر » حين عرّف

(١) الذي في وفيات الأعيان لابن خلدكان المطبوع يخالف ما ذكره المؤلف ، إذ فيه :

« عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي » بذكر « عمر » في مكان « عمرو » .

(٢) ووافقهما أيضا ابن الأبار في معجمه على إسقاط اسم « عبد الله » من نسب عياض .

(٣) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي ، الشهير بابن حجر العسقلاني ،

المولود سنة ٧٧٣ هـ ، والمتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

شيء عن ابن  
خلدكان وابن  
خلدون

عند ابن خاتمة  
أيضا

بشيخه وليّ الدين بن خلدون الحَضْرَمِيّ المَغْرِبِيّ قاضي القضاة المالكية ،  
بالديار المصرية ، وهو صاحب التاريخ الكبير المشهور ، الموسوم بـ «ديوان العبر ،  
وكتاب المبتدأ والخبر ، في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عصرهم من  
ذوى السلطان الأكبر<sup>(١)</sup>» ما نصه :

«وصنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ضخمة ، ظهرت فيه فضائله ،  
وأبان فيه عن براعته ، ولم يكن مطالعا على الأخبار على جليتها ، ولا سيما  
أخبار<sup>(٢)</sup> الشرق ، وهذا<sup>(٣)</sup> بين لمن نظر في كلامه . انتهى .

وأين هذا الكلام وقول<sup>(٤)</sup> الشيخ<sup>(٥)</sup> شمس الدين البغدادي في الشيخ  
وليّ الدين عبد الرحمن بن خلدون المذكور ، رحم الله الجميع :

قاضي القضاة ابن خلدون أتى عَجَبًا تاريخه مُخْبِرٌ عن سائر الدُّوَلِ  
قالوا وَلِيٌّ قتلنا من كرامته وكشفه جاء يُنَبِّئنا عن الأوّل<sup>(٦)</sup> [١٣]  
وليس يدّعا ولا في الله مُمْتَنِعًا أن يجمع العالم الكُلِّي في رجل<sup>(٧)</sup>  
وبالجملة فما ذكرنا أولاً في تعداد آباء القاضي عياض ، رحمه الله ، هو الذي

(١) اسم الكتاب على النسخة المطبوعة ، وفي كشف الظنون ، وفي نفح الطيب :

« كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ... الخ .

(٢) كذا في ط وأنباء الغمر . وفي ت : « أخبار أهل المشرق » .

(٣) كذا في ط وأنباء الغمر المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٧٦ تاريخ .

وفي ت : « وهو » .

(٤) في ت : « من قول » .

(٥) هذه الكلمة : « الشيخ » ساقطة في ت .

(٦) يشير بقوله : « ولي » إلى لقب ابن خلدون وهو : « ولي الدين » .

(٧) ينظر في هذا البيت إلى قول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

عليه المعول ، وعليه أعتمد ولده ، وابن الملجوم ، وابن بشكوال<sup>(١)</sup> ، وابن جابر ، وابن الخطيب في « الإحاطة » ، وغير واحد ؛ وكفى بهؤلاء حجة . وناهيك بولده وابن الملجوم ، الذي أخذ ذلك من لفظه ، حسبا سبق آتفا ؛ وهو الصواب الذي لا يُعدّل عنه ، والله تعالى أعلم .

والْيَحْصِيّ ، بضم الصاد وكسرهما ، وزاد بعضهم فتحتها<sup>(٢)</sup> ، ونحوه الكلام في ضبط « اليحصي » لابن خلكان ؛ واقتصر بعضهم على الكسر قائلا : وهو الصواب ، بناء على أنها ، أعنى القبيلة ، يَحْصِب ، بكسر الصاد ، كتغلب . ولا أشك أن النسب إليه إن كان بكسر الصاد : يَحْصِيّ ، بالكسر كتغلب<sup>(٣)</sup> ؛ وأما ضم الصاد في النسب ، فهو مبني على أن « يَحْصِب » بضم الصاد<sup>(٤)</sup> في الحى . قال ابن سيده في مُحْكَمه : وَيَحْصِب : قبيلة ، وإنما هي يَحْصِب ، يعنى بضم الصاد ، نُقِلت من قولك : حَصَبه بالخصى يحصبه ؛ قال ابن جابر : وليس بالقوى<sup>(٥)</sup> . وَيَحْصِب : من خمير ، وهو يَحْصِب بن مُدْرِك ، حسبا هو مذكور في كتب الأنساب .

محمد بن عياض  
يخبر عن موطن  
أجداده

قال القاضي أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي الفضل عياض :

- (١) لم يذكر ابن بشكوال في الصلة غير : « عياض بن موسى بن عياض اليحصي » .
- (٢) زيد في هامش ط عند هذه الكلمة : « فيكون مثلنا ، ونقل التثنية الجعبرى في شرح الشاطبية ، وابن مالك في مثلثاته ، وغيرها » .
- (٣) يجوز في النسب إلى تغلب ونحوه كسر التاء وفتحها . وزيد في هامش ط عند هذه الكلمة : « فيه نظر يعلم من شرح الشفاء للشهاب . وفي كتب الصرف في التسهيل : الفتح ، وهو الجاري على قواعد النسب وإن كان بالكسر ، كأنه كسر ونحوه » .
- (٤) في ط : « يعنى بضم الصاد » .
- (٥) أى أن جعل الفعل من باب نصر ليس بالقوى ، وإنما القوى فيه أنه من باب ضرب .

« استقر أجدادنا في القديم بجهة بسطة<sup>(١)</sup> ، من بلاد الأندلس ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس ، وكان لهم استقرار بالقيروان ، فلا أدري أكان قبل أستقرارهم بالأندلس أم بعده ؟ ولذلك يقول عبد الله بن حكيم :

وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان  
قال :

وكان « عمرو » والد جد أبي ، رحمة الله على جميعهم ، رجلاً خيراً صالحاً ، من أهل القرآن ، حجّ إحدى عشرة حجة ، وغزا مع ابن أبي عامر<sup>(٢)</sup> غزوات كثيرة ، وانتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة ، بعد دخول بني عبّيد<sup>(٣)</sup> المغرب ، وكان سبب ذلك أنه كان له ولأبيه نباهة بمدينة فاس ، فأخذ ابن أبي عامر رهناً من أعيان مدينة فاس ، فأخذ فيهم أخوى « عمرو » : عيسى والقاسم ، فخرج عمرو إلى مدينة سبتة ، ليقرّب من أخبارها بمدينة قرطبة ، فاستحسن سكنى مدينة سبتة ، وكان مؤسراً ، فاشتري [بها<sup>(٤)</sup>] أرضاً ، وهي المعروفة بالمنارة ، فبنى في بعضها مسجداً ، وفي بعضها داراً ، حبسها على المسجد ، وهو حتى الآن منسوب إليه ، وحبس باقي الأرض للدفن ، ولم يزل منقطعاً في ذلك المسجد إلى أن مات ، رحمه الله ، سنة سبع وتسعين وثلاث مئة . ووُلد له [١٤] قبل وفاته بيسير ابنه عياض ، ثم وُلد لعياض ابنه موسى ، ثم ولد لموسى ابنه

(١) بسطة : من أعمال جيان . (عن تقويم البلدان) .

(٢) هو المنصور محمد بن أبي عامر العافري الوزير الحاجب في دولة المؤيد هشام بن الحكم المستنصر الأموي . كان من أهل الفقه والحكمة والدهاء ، وأبلى في محاربة الإشبان أعظم البلاء .

(٣) يريد الفاطميين أولاد عبّيد الله المهدي .

(٤) زيادة عن ت .

عياض ، أبي ، رحمهم الله أجمعين ؛ وذلك ، فيما رأيتُه بخطه ، في النصف من شعبان عام ستة وسبعين وأربع مئة بسبته . انتهى .

والسبتي : نسبةٌ إلى سبته ، مدينة بساحل بحر الرُّفَّاق ، مشهورة ، واختلف في سبب تسميتها بذلك ، فقيل لانقطاعها في البحر ، من قولك : سبتُ النعل : إذا قطعها<sup>(١)</sup> ، وقيل لأن مَحْتَطَّها هو سبت بن سام بن نوح ، وإلى هذا الأخير ينظر قولُ لسان الدين الوزير الشهير ، العلامة أبو عبد الله بن الخطيب السَّلماني الغرناطيّ ، رحمه الله ، من قصيدة :

حُيِّتَ يَا مَحْتَطَّ سَبْتِ بْنِ نُوحٍ      بَكلِ مُزْنٍ يَغْتَدِي أَوْ يَرُوحُ  
مَعْنَى أَبِي الْفَضْلِ عِيَاضِ الَّذِي      أَصْحَتْ بِرِيَّاهُ رِيَاضُ<sup>(٢)</sup> تَفُوحُ  
وفيهما يقول الأديب أبو الحكم مالك بن المرحّل ، من قصيدة طويلة بديعة<sup>(٣)</sup> جداً ، مطلعها :

سَلامٌ عَلى سَبْتَةِ المَغربِ      أُخِيَّةِ مَكَّةَ أَوْ يَثْرِبِ  
وفى مَدْحِها يَقولُ أيضاً رَحِمَهُ اللهُ :

أَخْطَرَ عَلى سَبْتَةِ وَأَنْظَرَ إِلَى      جَمَاهُا تَصْبُو إِلَى حُسْنِهِ  
كَأَنَّهَا عُودٌ غِنَاءٌ وَقَدْ      أُلْقِيَ فِي البَحْرِ عَلَى بَطْنِهِ

وقال الحِجَّارِيُّ فِي المَسْهَبِ :

« أول من سكن برّ العُدوة وبر الأندلس من ولد نوح بعد الطوفان ، سبت وأندلس ابنا<sup>(٤)</sup> يافث بن نوح ، فنزل سبت في آخر المعمور من بر العُدوة ،

(١) في ط : « قطعته » . والمعروف أن النعل مؤنثة .

(٢) في ت ونفح الطيب : « رياضا » .

(٣) هذه الكلمة « بديعة » ساقطة في ت .

(٤) في ط : « ابن » وهو تحريف .

و بنى له منزلاً في موضع سَبْتَةَ ، فدُعيت <sup>(١)</sup> باسمه ، وتناسات منه قبائل البربر ،  
واتسعت في برّ العُدوة إلى أن بلغت إلى فِلَسْطِين ، وكان مَلِكُهُمْ يسمي  
جالوت ، وكان مَجُوسِيًّا ، وهزَمَه طالوت ، وقتله داودُ ، فانضَمَّت البربر عن  
فِلَسْطِين ، وعن الديار المصرية ، واقتصرت من بَرَقَّة إلى آخر المعمور ؛ وسكن  
أخوه أندلس [مقابلاً له في <sup>(٢)</sup>] انتهاء المعمور ، فعرفت باسمه « . انتهى .  
وأكثر بلاد العُدوة في الإقليم الثالث <sup>(٣)</sup> ، وفيه حَضَرَتها مَرَّأ كَش ، وما  
قارب منها الأندلس كسبْتَةَ <sup>(٤)</sup> وما قرب منها في الإقليم الرابع .  
قال ابن سعيد :

« ولا نُطالب في هذا البر بما صنعناه في الأندلس <sup>(٥)</sup> ، فأهل الأندلس إما  
عرب أو متعربون <sup>(٦)</sup> ، قد توارثوا قوام اللسان <sup>(٧)</sup> وحافظوا عليه ، وأهل برّ العُدوة  
إما برّبر أو مُتَبَرِّبون » . اهـ .

وفي وصفها يقول لسانُ الدين بن الخطيب في مَقامَة وصف البلدان :  
« قلت : فمدينة سَبْتَةَ ؟ قال : تلك عروس المَجَلَى <sup>(٨)</sup> ، وثَنِيَّة الصَّبَاح الأَجَلَى ؛

وصف ابن  
الخطيب لسبته

- (١) في ت : « فعرفت » .  
(٢) زيادة عن ت .  
(٣) هذا حسب التقسيم الجغرافي القديم . ( انظر تقويم البلدان لأبي الفداء ، ومسالك الأبصار  
للعمري ، ونزهة المشتاق للإدرسي ) .  
(٤) كذا في ط . وفي ت : « وما قاربها منها الأندلس كسبته في الإقليم الرابع » .  
(٥) في ت : « في هذا الفن عما صنعنا بالأندلس » .  
(٦) كذا في نفتح الطيب ( ج ١ ص ٦٣ طبع مصر ) . وفي الأصلين : « فكان أهل  
الأندلس إما عرب أو متعربون » .  
(٧) كذا في نفتح الطيب وفي ط : « أقوام الأندلس » . وفي ت : « قدام الأندلس »  
ولا يستقيم بهما الكلام .  
(٨) في ط : « مجلى » .

تبرجت تبرج العقيله ، ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصقيلة ، واختص  
ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ؛ وإذا قامت بيض أسوارها (١) ، وكان جبل  
بليونش (٢) شمامة أزهارها (٣) ، والمنارة منارة أنوارها ؛ فكيف (٤) لا ترغب  
النفوس في جوارها ، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؛ إلى الميناء الفلكية ،  
والمراقى الملكية (٥) . والركية (٦) الزكية ، غير المنزورة (٧) ولا البكية (٨) .  
ذات (٩) الوقود الجزل ، المعد للأزل (١٠) ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ؛  
والجوه الزهر السحن ، المضمون بها عن المحن ؛ دار الناشبه (١١) ، والحامية  
المضرمة للحرب المناشبه (١٢) ؛ والأسطول المرهوب ، المحذور الألهوب (١٣) ،  
والسلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ؛ كرسى الأمراء  
والأشراف ، والوسيطه ، خامس أقاليم البسيطة ، فلا حظ لها في الانحراف ؛

[١٥]

- (١) في ت : « أسوارها » وهو تحريف .  
(٢) كذا في تفويم البلدان لأبي الفداء إسماعيل ، والمغرب ، في بلاد إفريقية والمغرب ،  
للبيكري ، وفي نفتح الطيب للمؤلف في بعض مواضع ، وفي الاستبصار ، في عجائب  
الأمصار ، عند الكلام على سبتة ، وفي الأصلين هنا وفيما سيأتي : « بليونش » .  
(٣) الشمامة : ما يتشمم من الأرواح الطيبة . يريد أن جبل بليونش أعطر رياضها .  
(٤) في الأصلين وفتح الطيب : « كيف » .  
(٥) في ت : « الفلكية » .  
(٦) الركبة : البئر . ورواية هذه الكلمة في الأصلين « الذكية » وظاهر أنها محرفة  
عما أثبتناه . ويعين عليه قرينتا « المنزورة والبكية » بعده .  
(٧) المنزورة : القليلة الماء .  
(٨) البكية : القليلة الماء . ورواية هذه الكلمة في الأصلين : « البكية » وظاهر أنها  
محرفة عما أثبتناه .  
(٩) يريد سبتة .  
(١٠) الأزل : الضيق والشدة .  
(١١) كذا في ت . والناشبه : القوم الذين يرمون بالشباب ، أي الثبل .  
(١٢) يقال : ناشبه الحرب ، أي نابذه .  
(١٣) الألهوب (هنا) : السوط والبطش ، مأخوذ من الهوب الفرس ، وهو اضطرامه  
في عدوه .

بَصْرَةَ عُلُومِ النَّسَانِ ، وَصَنَعَاءِ الْحُجَلِّ الْحَسَانِ : وَتَمَرَةَ اِمْتِثَالِ قَوْلِهِ : « إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » ، الْأَمِينَةَ عَلَى الْأَخْتِرَانِ ، الْقَوِيْمَةَ الْمَسْكِيَالِ وَالْمِيزَانَ ، مَحْمَشَرِ أَنْوَاعِ الْحَيْتَانِ ، وَنَحْطُ قَوَافِلِ الْعَصِيرِ وَالْحَرِيرِ وَالسَّكَّتَانِ ، وَكِفَايَا السَّكْنَى بِبَلْيُونِشِ فِي فِصُولِ الْأَزْمَانِ ، وَوُجُودِ الْمَسَاكِنِ النَّبِيِيَّةِ بِأَرْخِصِ الْأَثْمَانِ ؛ وَالْمَدْفُنِ الْمَرْحُومِ غَيْرِ الْمَرْحُومِ ، وَخَزَانَةِ كِتَابِ الْعُلُومِ <sup>(١)</sup> ، وَالْآثَارِ الْمُنْبِيِيَّةِ عَنِ أَصَالَةِ الْحُلُومِ ؛ إِلَّا أَنَّهَا فَاعْرَةَ الْأَفْوَاهِ لِلجَنُوبِ <sup>(٢)</sup> ، لِلغَيْثِ الْمَصْبُوبِ ، عُرْضَةَ لِلرِّيَاحِ ذَاتِ الْهُبُوبِ ، عَدِيْمَةَ الْحَرِّثِ قَعِيْرَةَ مِنَ الْحُبُوبِ ، ثَعْرَ تَنْبُو فِيهِ الْمَضَاجِعُ بِالْجَنُوبِ ، وَنَاهِيكَ بِحَسَنَةِ تَعَدُّ مِنَ الذَّنُوبِ ؛ فَأَحْوَالِ أَهْلِهَا رَقِيْقِهِ ، وَتَكَالُفِهِمْ ظَاهِرٌ مَهْمَا ظَهَرَتْ وَرَلِيْمَةٌ أَوْ عَقِيْقِهِ <sup>(٣)</sup> ، وَاقْتِصَادِهِمْ لَا تَلْتَبِسُ مِنْهُ طَرِيْقَتُهُ ؛ وَأَنْسَابِ نَفَقَاتِهِمْ فِي تَقْدِيرِ الْأَرْزَاقِ عَزِيْقِهِ ؛ فَهَمَّ يَمَحُورُونَ الثَّبَالَةَ مِصَّ الْمَحَاجِمِ <sup>(٤)</sup> ، وَيَجْعَلُونَ الْخُبْزَ فِي الْوَلَاثِمِ بَعْدَ الْجَاجِمِ ، وَفَتَنَتِهِمْ بِبِلْدِهِمْ فَتَنَةَ الْوَاجِمِ ، بِالْبَشِيرِ الْمَهَاجِمِ <sup>(٥)</sup> ، وَرَاعِي الْجَدِيْبِ بِالْمَطْرِ السَّاجِمِ <sup>(٦)</sup> ؛ فَلَا يَفْضَلُونَ عَلَى مَدِيْنَتِهِمْ مَدِيْنَةَ ، الشُّكِّ عِنْدِي فِي مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَةَ . اِتْمَهَى .

قلت : ولعله عرض بقوله : « الشك عندى فى مكة والمدينة » ، بقول مالك بن النرجل : « أُخِيَّةٌ مَكَّةَ أَوْ يَثْرِبَ » . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وكان لسان الدين بن الخطيب كثيراً ما ينزل فى وجهاته المغربية ، عند الشريف الشهير ، سيدى أبى العباس أحمد بن سيدى محمد ، ابن سيدى أحمد ،

الشريف أبو  
العباس وحفاوته  
بابن الخطيب

- (١) هذه العبارة : « خزانة كتب العلوم » . ساقطه فى ت .
- (٢) فى ت ونفتح الطيب : « أفواه الجنوب » .
- (٣) العقيقة : الطعام يدعى إليه الناس عند حاق شعر المولود .
- (٤) المحاجم : جمع محجم ، أو محجمة ، وهى شبه الكأس يمس به الدم من الجسم .
- (٥) فى ت : « المهاجم » .
- (٦) المطر الساجم : القليل .

ابن سيدي طاهر<sup>(١)</sup> ، ابن سيدي رفيع ، ابن سيدي علي المدعو بالمكين ، ابن سيدي أحمد ، ابن سيدي علي ، ابن سيدي أبي الطاهر ، ابن سيدي الحسين ، ابن [سيدي<sup>(٢)</sup>] مؤهوب ، ابن سيدي أحمد ، ابن سيدي محمد ، ابن سيدي طاهر ، ابن سيدي الحسين ، ابن مولانا علي ، المدعو بالهادي ، ابن مولانا محمد ، المدعو بالجواد ، ابن مولانا علي الرضا ، ابن مولانا موسى ، المدعو بالكاظم ، ابن مولاي جعفر الصادق ، ابن مولاي محمد الباقر بن زين العابدين ، ابن مولاي علي ، ابن مولانا الحسين الشهيد<sup>(٣)</sup> ، ابن مولانا أمير المؤمنين ، مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ونفعنا ببركة هؤلاء السادات ، الذين سردنا أسماءهم تبرّكا بها . قال صاحب كتاب « الكواكب الوقادة » ، في ذكر من دُفن في سبّته<sup>(٤)</sup> من العلماء والصلحاء القادة :

« كان هذا السيّد الشريف يُوسع ابن الخطيب إكراما ، وكان من عادة الشريف المذكور أن يخرج إلى بساتينه في المصيف بقرية بليونس ، كمنية العبا ، وجنّة الحافة ، ويجلس في القبة السامية المطلّة على البحر بجنة الحافة ، ويجعل الطريق تحته ، فإذا رأى جماعة سائرين من أيّ صنف كانوا ، من التجار أو الغرباء أو البلديين ، يوجه رجاله إليهم ، ويقدم لهم الطعام ، ويرتاح إلى ذلك ، ويُسرّ به ، ويؤنس كلاً بما يناسبه ، من ذكر عيون أخبار بلده<sup>(٥)</sup> ، وخاصيّة قطره ، وما يجرُّ إلى ذلك ويرجع إليه ، من بديع الحكايات ، ولطيف

[١٦]

(١) في ت : « الطاهر » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) في ط : « الصهير » .

(٤) في ت : « سبّته » . واسم هذا الكتاب في البستان لابن صريم (ص ٣١٤) :

« الكواكب الوقادة ، فيمن كان بسبّته من العلماء والصلحين القادة » .

(٥) في ت : « بلاده » .

النوادير ؛ ثم يأمر بإدارته على تلك البساتين ، ورؤية ما بها من المصانع<sup>(١)</sup> ، ثم يبعث وراء آخرين ، ويُنزل كل واحد منزلته ؛ ويغيب<sup>(٢)</sup> عن يُحجّله حضوره ؛ ويُغضّي عن مُداعبة إن وقعت ، ويتجاهل المفقوة إن بدرت . وكان يُخرج الوزير ابن الخطيب — عند نزوله عنده — إلى هذه القرية البليونشية .

ومن بديع نظم ابن الخطيب فيها :  
 وأجلّ أرض الله طراً شائناً  
 نال الرضا والروح والريحاناً  
 حيوانها قد قارب الإنساناً<sup>(٤)</sup>  
 وفيها يقول القاضي عياض<sup>(٥)</sup> :

شعر لابن الخطيب  
 في بليونش

بليونش جنة ولكن طريقها يقطع النياطاً  
 كجنة الخلد لا يراها إلا الذي<sup>(٦)</sup> جاوز الصراطاً  
 ونقلت من خط ابن حيان<sup>(٧)</sup> — بعد كلام في سبته — ما نصّه :

شعر لعياض  
 فيها أيضاً

« ومتنزهاتها أعظمها بليونش ، تحتوى على مياه عيون ، وأودية ، ومتنزهات ، وأبنية عظيمة ؛ وفيها من جميع الأشجار والثمار » .

وصف ابن  
 حيان لها

(١) المصانع : جمع مصنع ، أو مصنعة (بفتح النون وضمها) ، وهي شبه الحوض يجمع فيها ماء المطر ؛ والمصانع (أيضاً) : المباني من القصور ونحوها .

(٢) في ت : « ويغيب » .

(٣) في ت : « من شأنها » . ولا يستقيم بها الكلام .

(٤) قال في الاستبصار : « وعلى قرية بليونش المذكورة جبل عظيم فيه القردة » . وسيعرض المؤلف لهذا بعد قليل .

(٥) نسب هذان البيتان في تقويم البلدان لابن عياض .

(٦) كذا في تقويم البلدان . وفي الأصلين : « إذا » ، وما أثبتناه أظهر .

(٧) في الأصلين : « أبو حيان » وهو تحريف .

شعر المنصفي  
فيها أيضا

وفيها يقول أبو الحجاج المنصفي<sup>(١)</sup> :

بليونش شكُّها بديع أفرغ في قالب الجمال<sup>(٢)</sup>  
فيها الذي ما رأته عيني يوماً ولم يختطر بيالي<sup>(٣)</sup>  
طريقها كالصدود لكن تعقبه لذّة الوصال<sup>(٤)</sup>

شعر الكميلي فيها

قال ابن رشيد :

وأشدني القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الرحمن الكميلي<sup>(٥)</sup> قاضي

أزمور<sup>(٦)</sup> فيها :

بليونش كلُّها عذاب<sup>(٧)</sup> فالمشى في سبيلها عقاب<sup>(٨)</sup>  
يكنفها شامخ منيف كأنه فوقها عقاب

وهذا الشامخ يعرف بجبل موسى . [ وإليه أشار المنصفي في مخمسة :

وطوّد موسى<sup>(٩)</sup> لها تاج على الراس

وبهذا الجبل متعبّد مبارك ، و بساحله مغطس المرجان ، ومن عجائب هذا المتعبّد أن من دخله ممن ليس له أهلاً فإنه يجد في عنقه<sup>(١٠)</sup> صفعاً إلى أسفل الجبل ؛ وهو مسيرة ثلاثة أميال ، وهو من سبته على تسعة أميال ، وبهذا الجبل منشأ

(١) نسبة إلى « منصف » بفتح الميم والصاد ، من قرى بلنسية .

(٢) في ط : « في قالب كمال » .

(٣) لم ترد صيغة « اختطر » في القاموس وشرحه ولا في اللسان ولا في الأساس .

(٤) في ط : « من الصدود لكن » وهو تحريف .

(٥) في ت : « الأبي » .

(٦) أزمور (بفتح الهمزة والزاي المعجمة وتشديد الميم ثم واو وراء مهملة) : من مدن بر العدوة على ميلين من البحر . ( عن تقويم البلدان ) .

(٧) في ط : « عقاب » .

(٨) في ط : « عذاب » .

(٩) زيادة عن ت .

(١٠) في ط : « في شقه »

القُرود ، وهو مستشرف على بعض الأندلس . وبسببته مدرسة بناها أبو الحسن الشاري<sup>(١)</sup> ، ووقف بها كتباً عظيمة .

وبموضع يقال له التوتة يوجد كثير من الياقوت الأحمر<sup>(٢)</sup> دقيق<sup>(٣)</sup> . ومن عجائبها أن البلاج<sup>(٤)</sup> لا تعشش فيها<sup>(٥)</sup> ، وقلمًا تخطر عليها . ويقال إنها<sup>(٦)</sup> بناها سبت بن سام بن نوح ، وإنه دعا لها باليمن والبركة ، ورووا في ذلك حديثاً عن مالك عن نافع عن ابن عمر . قال عياض : وأبرأ أنا من عهدته ، وقد خرجه في الغنية ، ولذلك قال بعض الشعراء :

فكل جبّار إذا ما طغى      وكان في طغيانه يُسرفُ  
أرسله الله إلى سبتة      فكل جبّار بها يُقصفُ  
أنشدها أبو عبد الله محمد بن حمادة [البرنسي<sup>(٧)</sup>] ، خال أبي لأمه<sup>(٨)</sup> ، في كتابه المسمى بـ « المقتبس » ، في أخبار المغرب والأندلس .

ومن نظم المنصفي في بليونش من قصيدة :

شعر المنصفي فيها

انظر إلى نضرة زهر الربا      كأنه وشى على كاعب  
ومتّع الطرف ببليونش      ومائها المنبعث الساكب  
تشاركت والحسن في وصفها      تشارك العين مع الحاجب

(١) في ت : « الشاوي » .

(٢) في ت : « كسر من الياقوت السم » .

(٣) كذا في ت : وقد وردت هذه الكلمة مطموسة في ط .

(٤) البلاج : اللقائ . (عن تكملة المعجمات العربية لدوزي) .

(٥) في ت : « بها » .

(٦) في ت : « إنه » .

(٧) زيادة عن ت . والبرنسي : نسبة إلى برانس (بوزن قنفذ) : قبيلة من البربر ، سميت

بهم مساكنهم .

(٨) في ت : « قال أبي لأمه » . وهو تحريف .

وقد أرتنا<sup>(١)</sup> اليوم من حُسْنِها ما لم يكن في زمن الحاجب  
— والحاجب: أحد<sup>(٢)</sup> ملوك سبته ؛ [وله عمل ابن مرانة<sup>(٣)</sup> قصيدة في  
الكوائن والحوادث<sup>(٤)</sup>] —

فَعَالَةٌ بِالطَّبْعِ فِي أَهْلِهَا مَا تَفْعَلُ الْقَهْوَةَ بِالشَّارِبِ  
تُذَكِّرُ الشَّيْخَ زَمَانَ الصَّبَا وَتُفْسِدُ<sup>(٥)</sup> التَّوْبَةَ لِلتَّائِبِ  
وله :

انظر إلى بهجة بليونشٍ وحسنِ ذاك المنظر اللامع  
تحكى الثريا عندما أُسْرِجَتْ بليلة الختملة في الجامع<sup>(٦)</sup>

مثل من كرم  
الشريف  
أبي العباس

ولما قفل السلطان الأشهر أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر من المغرب ،  
حين رجوعه إلى بلده<sup>(٧)</sup> مع قاضي حضرته غرناطة ، أبي الحسن علي بن الحسن ،  
المعروف بالنباهي شيخنا ، ووزيره أبي عبد الله بن الخطيب ، صنع له ضيافة  
ملوكية<sup>(٨)</sup> بالمنية ، من قرية بليونش المشار إليها ، حيث القصر هنالك ، وعُنصر

(١) في ت : « رأنا » .

(٢) في ت : « آخر » .

(٣) كذا في معجم البلدان طبعة أوربة عند الكلام على سبته . وفي ت : « مرانة »  
بالتاء المثناة الفوقية .

(٤) زيادة عن ت .

(٥) في ط : « وتكسر » .

(٦) في ت : « بالجامع » . ولعله يريد بليلة الختملة ما يفعله أهل المغرب من الاحتفاء  
بحتم حفظ القرآن أو تفسيره أو ختم صحيح البخاري في حفل عام بالمساجد تضاء له  
الأنوار ، ويحضره الناس خاصتهم وعامتهم . وقد أفاض في شيء من ذلك ابن أبي دينار  
في كتابه « المونس » ، في أخبار إفريقية وتونس .

(٧) في ت : « ملكه » .

(٨) كذا هنا وفيها سيأتي . والنسبة إلى الملوك : « ملكي » ، وشاع على أقلام بعض  
الكتاب كالجاحظ : « ملوكي » .

الماء المختص بها . ومن هناك ركب البحر ليلا ، وذلك في جُمادى الآخري<sup>(١)</sup> من عام ثلاثة وستين وسبع مئة . وفي الحادى والعشرين من الشهر المذكور دخل دار ملكه حمراء غرناطة ، وأكل من فضل هذه الضيافة مُعظم من كان بالقريّة ، من قوى وضعيف ، ورفيع ووضيع .

وكان شيخنا القاضى أبو الحسن المذكور يُثني عليه ، ويُعظمه تعظيما يليق بمثله ، ويقول في أثناء حديثه : فعل أبو العباس الشريف صاحب سبته كذا ، وصنع كذا . ولم تزل حالته هذه ، رحمة الله عليه ، إلى أن أسنَّ وأقعد ، فلزم منزله ثلاث سنين ، من غير أن ينقص ذلك من منصبه شيئا ، ولا من انتفاع الناس به ؛ وكان أبيض اللون ، حسن الهيئة والملبس ، يخضب بالحناء ؛ وتوفى في زمانته وقد نيف على<sup>(٢)</sup> الثمانين ، عام ستة وسبعين وسبع مئة ، وله الآن قرابة بمدينة فاس بقيد الحياة .

ثناء أبي الحسن  
النباهى على  
الشريف وشيء  
عنه

[١٧]

انتهى كلام صاحب الكواكب الوقادة باختصار ، وبعضه بالمعنى .

ومن نظم هذا الشريف ، مما أمر به أن ينقش بالقبة المذكورة آنفاً في

شعر للشريف

معنى الاستعاذة :

وَوَثِقْتُ بِاللَّهِ رَبِّي وَحَسْبِيَ اللَّهُ حَسْبِي  
وَاللَّهُ كَافٍ وَوَاقٍ وَدَافِعٌ كُلَّ خَطْبٍ  
وَلَسْتُ أَخْشَى إِذَا مَا وَوَثِقْتُ بِاللَّهِ رَبِّي  
بَلَّغْتُ فِيهَا مُرَادِي مُهَيَّأً مَعَ صَاحِبِي  
وَالخَمْسُ تَنْفَقًا عَيْنًا لِكُلِّ حَاسِدٍ نَدْبٍ<sup>(٣)</sup>

(١) في ط : « الآخر » .

(٢) في ط : « عن » وهو تحريف .

(٣) الندب : الخفيف في الحاجة الظريف .

حقاوة أبو عنان  
بالشريف أبي  
العباس ومنزلته  
في سبته

وكان السلطان المرحوم أبو عنان فارس ، ابن السلطان أبي الحسن المرينيّ  
يُجِلُّ هذا الشريف ، ويعترف له بالفضل ، ويعطيه العطاء الجزل ، وكان يستدعيه  
كل سنة إلى حضرته فاس ، لحضور المولد السعيد ، الذي سنّه ببلاد المغرب  
الشيخ أبو العباس العزفيّ ، وتلك السنّة باقية إلى الآن بحسن نيّته ، واعتناؤه  
بالجناب العليّ<sup>(١)</sup> ، نفعه الله بذلك ، ويخلع عليه الخلع الملوّكيّة ، ويُعِدُّ له دينارا  
مَسْكُوكَا يُصْنَعُ بمدينة مرّاكش ، زِنْتُهُ مِئَةُ دِينَارِ ذَهَبًا ، يدفع له ذلك مع جائزته ،  
إلى غير ذلك مما كان يُتَحَفُّ به ، رحمه الله ، ويصحبه في وجهته تلك من الضعفاء  
والتجار ما لا يُحصى كثرة ، ويتولّى هو الإنفاق على الجميع من ماله ، ويرفع<sup>(٢)</sup>  
عنهم اللوازم المخزنيّة ، فكان التجار لأجل ذلك يرصدون وقت سفره وقفوله .  
وقدّمه السلطان أبو عنان المذكور ناظرا على بلده سبته ، وأمر صاحب قصبتهما  
ألا يقطع أمرا إلا بمشورته ، فكان العمّال يخافونه ويشاورونه ، فإذا رأى من  
أحدهم خروجا عن العادة ، أو خيفا على الرعية ، كتب إلى السلطان في شأنه ،  
فيمعزله من فوره ، ويُعوّضه بغيره . وكان يقول للسلطان : لعلك تحسبني خديما<sup>(٣)</sup> ،  
لست كذلك ، وإنما نحن معشر أهل البيت شفعاء في الدنيا ، وشفعاء في الآخرة .  
فكان أهل سبته في أيامه في عيش هنيئ ، ونعمة شاملة ، بقي على هذه الحالة  
المرضية مدة عشرين سنة . وله بسبته آثار تحكي الآثار العزفية<sup>(٤)</sup> ، كالرياض<sup>(٥)</sup>

[١٨]

(١) في ت : « العالى » .

(٢) في ت : « يدفع » .

(٣) يريد : « خادما » . ولم تنقل المعاجم : « الخديم » بمعنى الخادم ، لكن شارح  
القاموس ذكر هذه العبارة : « والخدمان (بالضم) : جمع خادم ، هكذا تقول  
العامة ، وكأنهم تصوروا فيه جمع خديم » .

(٤) في ت : « العربية » .

(٥) كذا في الأصلين هنا وفيما سيأتي ، يريد به القصر وما يحيط به من بساتين ، وقد  
يجرى في لسان المغاربة حتى اليوم استعمال لفظ الرياض مفردا مذكرا بهذا المعنى .

الأعظم ، الذي أمام باب الميناء الأسفل الذي تأنق في بنيانه وأبدع صنّعه ، وجلب إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة ؛ وكألرياض الذي بالصقارين ، حيث كان قعوده مع خواص الناس وعامتهم .

قال صاحب الكواكب الوقادة :

« سمعت أحد كتّابه الخاصّ به ، الملازم له ليلا ونهارا ، مع مرور الأيام والسنين ، يقول : ما أمرني قطّ سيدي ومولاي الشريف بكتّاب شيء يخالف للشرع ، بل في رفع المظالم ، وإنهاء الشفاعات ، وتوجيه الأمانات ، وما في معنى ذلك ، مما ندب إليه الشرع ، وحضّ عليه ، ووعد بالثواب على فعله . وطالما سمعت الكاتب المذكور يُقسم على ذلك ، نفعه الله [ به ] »<sup>(١)</sup> . انتهى .

وصف أحد  
كتّاب  
الشريف له

قلت : تذكرت بهذا الفعل الجميل ما كتّاب [ به ]<sup>(١)</sup> على دواة أمير المؤمنين أبي عنان ، رحمه الله ، وهو :

دواة أبي عنان  
وشعر مكتوب  
عليها

أنا دواة فارس أبي عنان المعتمد  
حكّفت من يكتبُ بي بالواحد الفرد الصمد  
أن لا يمدّ مدّة في قطع رزق لأحد

وقد رأيت في هذه الأيام دواة في غاية ما يكون من الإتقان والصنعة والتذهيب ، وفيها مكتوب البيتان الأخيران ، وهي عند بعض أصحابنا الكتّاب بالحضرة الفاسية — حاطها الله — وأظنها هي الدواة التي كانت لأبي عنان ، والله أعلم .

(١) زيادة عن ت .

## رجع إلى ذكر الشريف

شيء من كرم  
الشريف وشعره

وكان الشريف المذكور يصنع أنواع المطاعم الرفيعة ، ويتبسط في ألوانها ،  
ويطعمها الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، ممن يحضر مجلسه أو يأتي إليه ، وبالجملة  
فهو قُطْبُ الجود الذي عليه المدار ، وإمام الأدب الذي لا يجاريه الرَضِيُّ ولا مهيار ؛  
ومن نظمه ، وقد سائر قاضي الجماعة بحضرة غرناطة ، أبا البركات البَلْفَيْقِي (١) الشهير  
بأبن الحاج الشَّامِي ، من ولد العباس بن مرْداس رضى الله عنه ، زمن الشيبية  
في بعض أسفاره ببر الأندلس ، فلما انتهيا إلى قرية بزليانة (٢) وأدر كهما النصب ،  
واشتد عليهما حرّ الهجير ، نزلا وأكلا من باكر التين الذي هنالك ، وشربا من  
ذلك الماء العذب ، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلا بظلها ،  
ثم التفت إلى الشريف وقال :

ماذا تقول ، فدَتَكَ النفس في حالى      يفنى زمانى في حلّ وترحالٍ (٣)  
وأرتج عليه ؛ فقال لأبي العباس : أجز ؛ فقال بديها :

كذا (٤) النفوس اللواتى العزى يصحبها      لا ترتضى بمقام دون آمال

[١٩]

(١) البليقي : نسبة إلى بليقي (بالفتح ، ويروى بتشديد اللام المكسورة مع كسر

الموحدة) : حصن بالمرية . (عن تاج العروس) .

(٢) كندا في معجم البلدان . وبزليانة (بكسر تين وسكون اللام) : بلدة قريبة من مالقة

بالأندلس . وفي ط وفتح الطيب (ج ٤ ص ٢٤٩ طبعة مصر) : « ترليانة » . وفي

ت : « قرليانة » .

(٣) في ت : « في حل وترحالى » .

(٤) كندا في ط وفتح الطيب . وفي ت : « إن » .

دَعَهَا تَجُوبُ الْغِيَابِ وَالْقِفَارَ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ السُّؤَالَ أَوْ تَفْنَى بِتَجْوَالِ (١)  
 وكان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال ، ثلاثين ديناراً من  
 الذهب العين (٢) في رأس كل شهر ، وهو خاتمة الشرفاء العظام بمدينة سبته  
 وهؤلاء الشرفاء بمدينة سبته نحو الثلاثين قهراً ، في روضتهم المنسوبة إليهم ، بالجانب  
 الشرقي من رابطة الفصال . وهؤلاء الشرفاء من ذرية أبي الطاهر الذي خرج  
 من جزيرة صقلية ، وكانت لهم بسبته وجاهة (٣) وسياده ، وجلالة ومجاده ؛ لمكان  
 بيتهم الشريف ، ونسبهم العالی المنيف ؛ ما منهم واحد إلا غداه العلمُ بليانه ،  
 والأدبُ ببيانه . ووليَ منهم قضاء بلدهم سبته رجلان ، لم يُطْلِعْ مثلهما التالوان ؛  
 تقيَّ وعِلماً ، وأناة وحِلماً ؛ أولهما القاضي أبو الشرف (٤) رفيع ، والثاني ابنه القاضي  
 أبو الحسن علي . وم نشأ عن هذا الأصل الطاهر من جهبذِ نحرير ، وعالم ماهر ؛  
 وسخى جواد ، له إلى الإعطاء (٥) ارتياح وإلى الكرم استناد (٦) ؛ وناهيك  
 بخاتمهم أبي العباس المذكور .

أشراف سبته

وكان فائد مَضْرِب (٧) الميناء لهذا الشريف أبي العباس الحسيني ، دون  
 أن يَشْرَكَه غيره ؛ وكان له بمَضْرِب أو يات يوم يضرب فيه ، ويومان لبيت المال ،

دخل الشريف  
 من مضرب الميناء  
 وما كان ينفقه فيه

(١) رواية هذا البيت في نفع الطيب :

دعها تسر في الغياب والقفار إلى أن تبلغ السؤل أو موتا بتجوال  
 وزاد بعده :

الموت أهون من عيش لدى زمن يعلى اللئيم ويدنى الأشرف العالی

(٢) في ت : « ذهباً » .

(٣) في ط : « وجهة » .

(٤) في ط : « الشريف » .

(٥) في ت : « العطا » .

(٦) في ط : « استناح » وهو تحريف .

(٧) المضرب ( كما هو ظاهر من السياق هنا ) : سوق يتخذها حاكم الميناء لبيع ما يستخرج  
 من السمك ونحوه .

وكانت عادة عامل المضارب ، الناظر في فوائدها وما تحتاج إليه من نفقة وآلة ، أن يأمر رجاله وأعوانه ، حين يُقعد التَّوَاتِيَّةُ السكيسَ ، بالوقوف إليه ، والدفاع عنه ، بعد أن يحضر الشهود ، خَفَرًا وضبطًا لما يحصلُ من فائدٍ <sup>(١)</sup> المضرب المالى فى يوميه <sup>(٢)</sup> ؛ فإذا كان يوم [ السَّيِّد <sup>(٣)</sup> ] الشريف يأمر رجاله وخدامه وأعلاجه <sup>(٤)</sup> الإسلاميين ، بإباحة المضرب للمساكين ، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه ، ممن يحضر منزَّها ، إما لحفظ مروءة ، وإما لغير ذلك . ولا يزال الناظر من قِبَلِه ، وهو القائد فأرح أحد أعلاجه ، واقفاً على حصانه ، وقد أحاطت به رجاله ، إلى أن يرضى كلٌّ من يحضُر ، وما فضل عن ذلك فهو له . وأما السيد الشريف فلا يحضُر ، إذ همته أرفع من ذلك ، وقدره أعظم ، ومكانته بسببته مكانته ، بحيث يأتي إليه فى الموضع الذى أعده لجلوسه برياضه الذى بالانصمارين صبيحة كل يوم صاحب القصبه ، كأنما من كان ، مساماً <sup>(٥)</sup> عليه ، ثم ينصرف ، ثم يأتي الوالى على قبض الجباية مساماً ، ثم ينصرف بعد تقبيل قدمه ، ثم يأتي صاحب الشرطة ، وكذا جميع أمراء سببته ، إلا القاضى ، لمكان حُطَّتِه ، فيعامل كلاً بما يستحق من إكرام وإهانة ، وإغلاظ ومجاملة ، فلا يتخالف أحد عن غرضه ، ولا يصدر إلا عن رأيه ونظره . وهذا كله مع النصيحة للمسلمين ، وجلب المنفعة لهم بالقول والفعل ، وإطعام الطعام الذى لا يقدر عليه الأمير فمن دونه ، ورفع المظالم ، ومنح الجاه ، إلى غير ذلك ، نفعه الله . فكان من حكمة الله عز وجل وبركة أهل البيت ،

[ ٢٠ ]

(١) فى ط : « فوائده » .

(٢) فى ت : « فى يومه » .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) أعلاجه : مواليه من غير العرب ؛ مفرده : عالج (بوزن ملح) .

(٥) العبارة من « عليه » إلى « مساماً » : ساقطة فى ت .

وقضل الجود والكرم ومكارم الأخلاق ، وإيصال المنفعة للعباد ، أن يخرج في اليوم الذي نه بالتحضرب من الحوت ، أي نوع كان من الجارى ، أضعاف ما يخرج في اليومين ، ويحصل له من الفائدة أكثر مما يحصل لمتولى النظر فيهما ، فيتصل (١) بيده من فائد يومه خمس مئة الدينار (٢) وسبع المئة ، وربما يزيد وينقص ؛ وقد انتهى في بعض الأحيان إلى ألفي دينار في اليوم ، حسبما يستنيه (٣) الله عز وجل ؛ هذا بعد العادة التي عودها لنفسه النفيسة ، من الإيثار والبذل ، للسرى والنذل . ولم تكن له همّة ، رحمه الله ، في احتكار المال وجمعه ، بل يصرف ذلك كله في إطعام الطعام ، الخاصّ والعام ، وفي تشييد البنيان ، والإنفاق على القعلة والشناع والخدم ، وآثاره ومصانعه بداخل سبته وخارجها شاهدة بذلك مدى الأيام ؛ وكم في أثناء هذا التصرف من مؤاسة فقير ، وإعانة ضعيف ، وإغاثة ماهوف ، برفع (٤) لازم أو وظيف (٥) ، حسبما هو معلوم معروف منقول .

وكان ملوك بني مرين يعثنون به أتم اعتناء ، ويبادرون إلى موافقة أغراضه ، وقبول شفاعته ، وما كان يتلقاه حين وروده على حضرتهم فاس إلا الملك بنفسه ، إلى غير ذلك من مناقبه رضى الله عنه ، ونفعنا به ، وإسلفه الطاهر .

حفاوة ملوك  
بني مرين به

قلت : وإنما ذكرت التعريف بهذا الشريف الفيّاض ، تفاعلاً بالابتداء [٢١] به بعد عياض ، لأنى اشترطت أنى أخرج من انشىء إلى ما يناسبه ، فبدأت

سبب تعريف  
المؤلف بهذا  
الشريف

(١) في ت : « ويحصل » .

(٢) في الأصابع : « الخمسمائة دينار ، وسبعمائة » .

(٣) يستنيه الله : يسهله ويسره .

(٤) برفع : بعمل .

(٥) يريد : « الوظيفة » وهي الراتب الجارى من الأرزاق ونحوها .

في ذلك بهذا السيد الشريف ، الذي عظمت مجادته<sup>(١)</sup> ، وكرمت مناصبه ، وزكت مآثره ، وعلت مناصبه<sup>(٢)</sup> ؛ والأعمال بالنيات ، والله يُبلغنا في الدارين غاية الأمنيات .

استيلاء العدو  
على سبعة

وبعد أن بلغت سبته ما ذكرناه من أحوالها ، وبقيت مدة أمنة من شرور الدنيا وأهوالها ؛ وأطلعت في سمائها نجوما ، كانت علومها<sup>(٣)</sup> للمردة رجوما<sup>(٤)</sup> ؛ كعياض المؤلف فيه هذا الكتاب ، وهؤلاء الشرفاء الذين لا يُمتري في فضلهم ولا يرتاب ؛ وبنى العزف المشاهير ، الذين برزوا في ميدان السبب على الخاصة<sup>(٥)</sup> والجماهير ؛ وحازوا رياسة الدين والدنيا ، وفازوا بالمكانة السامية والمرتبة العليا ؛ وغيرهم ممن لا يحصى كثره ، ممن كان لهم تقديم وأثره ؛ عدا عليها الدهر بعدوانه ، وسقط شرفها من إيوانه ؛ واستولى عليها العدو الكافر ، في قضية يطول شرحها ، وعظم على أهل الإيمان قرحها ، وأعضل أطباء الملوك إلى الآن جرحها ، ولم يزل بنفوس المؤمنين شجوها وبرحها .

أخبرني الفقيه الطيب العدل الفرّخي ، سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني رحمه الله : أنه لما دخل سبته ، حين وجهه أمير المؤمنين ، مولانا المنصور ، رحمه الله ، إليها ، في شأن فداء الكفار المأخوذين بالغزوة الشهيرة ، ذهب إلى المدرسة التي كان بناها أحد ملوك بني مرين رحمهم الله ، وأظنه أبا عنان<sup>(٦)</sup> ،

(١) في ط : « مآثره » .

(٢) في ت : « وهدهد مناصبه » .

(٣) في ت : « علومهم » .

(٤) في ت : « نجوما » .

(٥) في ت : « الخواص » .

(٦) هذه العبارة : « وأظنه أبا عنان » ساقطة في ت .

وهي من أجل المدارس وأعظمها ، فرأى في محرابها ناقوساً وصليباً ، قال : فسألتني ذلك ، فرفعت بصرى فإذا كتابة بخطِّ رائق ، في تلك النقوش فوق ذلك الناقوس ، فيها قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » . وكان ذلك الكتب قديماً فيها من جملة ما كتب المسامون بها حين بنائها ، على ما جرت به عادة الملوكة من كتب الآيات القرآنية في النقوش بالزليج<sup>(١)</sup> والمرمر . قال لي رحمه الله : فتعجبت<sup>(٢)</sup> من ذلك الاتفاق ، وسألني ذلك بعض التسلي ، وإلى الله تُرجع الأمور .

وكان أخذ سبته ، أعادها الله ، سنة تسع عشرة وثمان مئة ، بعد ما استولى العدو الكافر على معظم بلاد الأندلس ، مثل قرطبة ، ومرسية ، وطليطلة ، وبلنسية ، وغيرها ، مما يطول تعداداه .

وقد قال بعض الشعراء حين أخذت طليطلة ، وكانت من أول ما أخذ من القواعد العظام ، يخاطب أهل الأندلس :

رثاء طليطلة

يأهل أندلسٍ شدُّوا رحالكُم      فما المُقام بها إلا من الغلظِ  
السُّلكُ يُغتمُّ من أطرافه وأرى      سلكَ الجزيرة منشوراً من الوسطِ  
من جاور الشرَّ لا يأمن بوائقه      كيف الحياة مع الحيات في سَفَطِ

[٢٢]

(١) الزليج : نوع من الخزف الفاخر الأملس ، تلبط به الأرض أو يلبق على الجدران للزينة ، وهو ما يسمى في لسان العامة « الفاشاني » . (عن مجلة المجمع الملكي للغة العربية) . وقد وردت هذه الكلمة في نفع الطيب (ج ١ ص ٩٤) ، كما وردت في صبح الأعشى (ج ٥ ص ١٥٦) مشروحة بما لا يخرج عن هذا المعنى .  
(٢) في ت : « فعجبت » .

قصيدة الرندي  
في رثاء الأندلس

ولله درّ الإمام العالم<sup>(١)</sup> العلامة خاتمة أدباء الأندلس ، أبي الطيّب<sup>(٢)</sup> صالح  
ابن شريف الرندي [ رحمه الله ]<sup>(٣)</sup> إذ قال يندب بلاد الأندلس ، ويبعث العزائم  
ويجرحها من أهل الإسلام لنصرة الدين ، وإنقاذ البلاد من يد الكافرين ،  
ولسان الحال ينشده « لقد سمعت لو ناديت حيا » :

للكل شيء إذا ما تم نقصانُ      فلا يُغَرَّ بِطِيبِ العِيشِ إنسانُ  
هي الأمورُ كما شاهدتهمُ أدولُ      من سرّه زمن ساءته أزمانُ  
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ      ولا يدوم على حالٍ لها<sup>(٤)</sup> شانُ  
يُمزّق الدهرُ حتماً كلَّ سابعٍ      إذا نبت مشرفيات وخرصان<sup>(٥)</sup>  
ويُنْتَضِي كلَّ سيفٍ للقناء ولو      كان ابن ذى يزن والغمد عُمدان<sup>(٦)</sup>  
أين الملوكُ ذوو التيجان من يمين      وأين منهم أكاليل وتيجان  
وأين ما شاده شدّاد في إرم      وأين ما ساسه في القُرس ساسان  
وأين ما حازه قارون من ذهبٍ      وأين عادٌ وشدّاد وقحطان  
أتى على الكلِّ أمره لا حرَدَّ له      حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا  
وصار ما كان من ملكٍ ومن ملكٍ      كما حكى عن خيال الطيّف وسنان  
دار الزمان على دارا وقتلتهُ      وأمّ كسرى فما آواه إيوان<sup>(٧)</sup>

(١) في ت : « الأديب » .

(٢) في نفتح الطيب : « أبي البقاء » .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) كذا في ط ونفتح الطيب . وفي ت : « قوم بها » .

(٥) السابغة : الدرع الكاملة . والمشرفيات : السيوف المنسوبة إلى المشارف ، وهي  
قرى من أرض العرب تدنو من الريف . والخرصان ( بكسر الخاء ) : الرماح ،  
الواحد : خرص .

(٦) سيف بن ذى يزن : من ملوك اليمن . وعُمدان : قصره .

(٧) دارا : أحد ملوك الفرس .

كأنما الصَّعبُ لم يسهلْ له سببٌ      يوماً ولا ملكٌ الدنيا سُلَيْمانُ  
 فبجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوعَةٌ      وللزَّمانِ مَسرَّاتٌ وأحزانُ  
 وللحوادثِ <sup>(١)</sup> سُلوَانٌ يهويها      وما لما حَلَّ بالإسلامِ سُلوَانُ  
 دهَى الجزيرةِ أمرٌ لا عزاءَ له      هوى له أحدٌ وانهدتْ شهْلانُ <sup>(٢)</sup>  
 أصابها العَيْنُ في الإسلامِ فارتزنتُ <sup>(٣)</sup>      حتى حلتْ منه أقطارُ وُبلدانُ  
 فاسألْ بِلنسيةٍ ما شئتْ مُرسِيَةً      وأين شاطبةُ أم أين جَيَّانُ  
 وأين قُرطبةُ دارِ العلومِ فكم      من عالمٍ قد سما فيها له شانُ  
 وأين حمصُ <sup>(٤)</sup> وما تحويه من نزهٍ      ونهرها العذْبُ فيأضُ ومَلانُ  
 قواعدُ كُنَّ أركانُ البلادِ فما      عسى البقاءُ إذا لم تبقِ أركانُ [٢٣]  
 تبكى الحنيفةُ البيضاءً من أسفٍ      كما بكى لفراقِ الإلفِ هَيَّانُ  
 على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ      قد أسلمتْ <sup>(٥)</sup> ولها <sup>(٦)</sup> بالكفرِ عمرانُ  
 حيثُ المساجدُ قد صارتْ كدائنٍ ما      فيهنَّ إلا نواقيسُ وصلبانُ  
 حتى الحارِيبُ تبكى وهي جامدةٌ      حتى <sup>(٧)</sup> المنابرُ ترثي وهي عِيدانُ  
 يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ      إن كنتَ في سِنَةِ فالدهرِ يَقْظانُ  
 وماشياً مرِحاً يُلهيه موطنه      أبعدَ حمصَ تغرُّ المرءُ أوطانُ

(١) ق ت : « والمصائب » .

(٢) أحد وشهْلان : جبلان في بلاد العرب .

(٣) كذا في ت : ونفح الطيب . وفي ط : « فامتحننت » .

(٤) يريد بحمص : « إشبيلية » لأن الذين سكنوها عند الفتح كانوا من أهل حمص بالشام .

(٥) في نفح الطيب : « أقفرت » .

(٦) في ط : « فلها » .

(٧) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « حيث » .

تلك المصيبة أنست ما تقدمها  
يا أيها الملك البيضاء رايتسه  
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة  
وحاملين سيوف الهند مرهفة  
وراعتين وراء البحر في دعة  
أعندكم نبأ من أهل أندلس  
كم يستغيث بنو المستضعفين<sup>(٢)</sup> وهم  
ما ذا التقاطع<sup>(٣)</sup> في الإسلام بينكم  
ألا نفوس أبيات لها هم  
يا من<sup>(٤)</sup> لذلة قوم بعد عزهم  
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم  
فلو<sup>(٦)</sup> تراهم حيارى لا دليل لهم  
ولورأيت بكاهم عند بيعهم  
يارب أم وطفل حيل بينهما

وما لها مع طول الدهر نسيان  
أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا<sup>(١)</sup>  
كأنها في مجال السبق عقبان  
كأنها في ظلام النقع نيران  
لهم بأوطانهم عز وسلطان  
فقد سرى بحديث القوم ركبان  
أسرى وقتلى فما يهتز إنسان  
وأتم يا عباد الله إخوان  
أما على الخير أنصار وأعوان  
أحال حالهم ككفر<sup>(٥)</sup> وطغيان  
واليوم هم في بلاد الكفر عبдан  
عليهم من ثياب الذل ألوان  
لهالك الأمر واستهوتك أحزان  
كما تفرق أرواح وأبدان

(١) هذا البيت ساقط من نفع الطيب .

(٢) في ت : « بنا المستضعفون » .

(٣) في ط : « التنافر » .

(٤) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « من ذا » .

(٥) في ت : « قهر » .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « ولو » .

وطفلةٍ مارأتها الشمس إذ<sup>(١)</sup> برزت كأنما هي يا قوت ومرجان  
يقودها العليج للكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران  
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان  
انتهى (٢)

وكان الشيخ [الإمام] (٣) العلامة الفقيه الوزير الكاتب أبو يحيى بن عاصم  
صاحب الشرح على تحفة أبيه ، رحم الله الجميع ، عند ما رأى اختلال أمر الجزيرة  
— أعادها الله — وأخذ النصارى — دمرهم الله — لمعظمها ، ولم يبق إذ ذاك بيد  
المسلمين إلا غرناطة ، وما يقرب منها ، مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ ،  
ثم أفضى الملك إلى بعضهم ، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها ، ألف كتابا سماه :  
« جنة الرضى ، في التسليم لما قدر الله وقضى » ، وهو كتاب عجيب جدا غريب ،  
رأيت بعضه بتلمسان ، ونقلت منه ما نصه :

ابن عاصم وبعض  
ما جاء في كتابه  
عن انحلال أمر  
الأندلس

« من استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن  
النصارى — دمرهم الله — لم يدركوا في المسلمين ثارا ، ولم يرخصوا<sup>(٤)</sup> عن<sup>(٥)</sup>  
أنفسهم عارا ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلادا  
جامعة وأمصارا ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع  
الافتراق ، بين المسلمين والاختلاف ؛ وتصريفهم<sup>(٦)</sup> بالسكر والخديعة بين ملوك

(١) في ت : « قد » . ورواية هذا الشطر في نفح الطيب :

« وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت »

(٢) أشار المؤلف في نفح الطيب بعد ذكر هذه القصيدة إلى أنها قد زيد عليها أبيات

آخر ليست منها ، وأنه نقلها على هذه الصورة عن يوثق به وليس فيها تلك الزيادة .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) كذا في نفح الطيب ، ورحض : غسل . وفي الأصلين : « لم يدحضوا » .

(٥) في ت : « على » .

(٦) كذا في ت : ونفح الطيب . وفي ط : « وتصريفهم » .

الجزيرة ؛ وتحريشهم بالكيد والخلافة بين حُجَّاتها في الفتن المُبيرة ؛ ومهما كانت الكلمة مؤتلفه ، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفه ، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفه ؛ فالحرب إذ ذاك سِجال ، والله في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، والممانعة<sup>(١)</sup> في غرض المدافعة<sup>(٢)</sup> ميدان رحب ومجال ، وروية وارتجال .

ثم قال : وتطاوت الأيام ما بين مهاذنة ومقاطعته ، ومضاربة ومقارعه ، ومنازلة ومنازعه ، وموافقة وممانعه ، ومحاربة وموادعه ؛ ولا أمل للطاغية إلا في التمرُّس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ؛ وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى ؛ وأنه مُهْتَمٌّ بِمُرَاعَاةِ أُمُورِهِمْ ، وناظرُ بنظر المصلحة لخاصتهم ومُجْمُورُهُمْ ؛ وهو يُسِرُّ حَسَوًا فِي أُرْتِعَائِهِ<sup>(٣)</sup> ، وَيُعْمِلُ الحيلة في التماس هلك الوطن وأبتغائه . فتبًّا لعقول تقبل مثل<sup>(٤)</sup> هذا المِحَال ، وتصدِّق هذا الكذب بوجه أو بحال<sup>(٥)</sup> ؛ وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه ، وعرض هذا السموع على مُدْرَكَاتِ حِسِّهِ ، وراجع<sup>(٦)</sup> أوليات عقله وتجربات<sup>(٧)</sup> حدسه ، وقاس عدوه الذي لا تُرجى مودته على أبناء جنسه ؛ فأنا أناشده<sup>(٨)</sup> الله ، هل بات قطُّ بمصالح النصارى وسلطانهم مُهْتَمًّا ، وأصبح من خَطْبِ طَرَقِهِمْ مُعْتَمًّا ؛ ونظر لهم نظرَ المفكِّر في العاقبة الحسنه ، أو قصد لهم قصد

(١) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « وللمبالغة » .

(٢) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الموافقة » . وهو تحريف .

(٣) الحسو : شرب السائل شيئًا بعد شيء . والارتغاء : احتساء الرغوة . وهذا مثل يضرب لمن يظهر أسرها وهو يريد غيره ، أو لمن يظهر طلب القليل وهو يسر أخذ الكثير .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « تقبل هذا المحال » .

(٥) في ط : « حال » .

(٦) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « ورجع » .

(٧) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « تجربات » .

(٨) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « أنشده » .

المدبر في المعيشة<sup>(١)</sup> المستحسنه ؛ أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القرية<sup>(٢)</sup> أربابهم وصلبانهم ، أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أخبارهم ورهبانهم ؛ فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الحبيث ، ولم يُشرب قلبه حب التثليث ؛ ويكون صادق الالهجة ، مُنصفا عند قيام الحجة ؛ فسيترف أن ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مرّة له ببال ، وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال<sup>(٣)</sup> ، وإن نسب لذلك المعنى<sup>(٤)</sup> ، فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشدّ على قلبه من وقع النبال ؛ هذا وعقده<sup>(٥)</sup> التوحيد ، وصلاته التعميد ؛ ومِلته الغراء ، وشريعته البيضاء ؛ ودينه الحنيف القويم ، ونبيه الرؤوف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم<sup>(٦)</sup> ، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم ؛ فكيف نعتقد هذه المزية الكبرى ، والمنقبة الشهري ؛ لمن عقده التثليث ، ودينه المليث<sup>(٧)</sup> ؛ ومعبوده الصليب ، وتسميته التصليب ؛ ومِلته المنسوخة ، وقضيته المنسوخة ؛ وختانه التتغطيس ، وغافر ذنبه القسيس ؛ وربّه عيسى المسيح ، ونظره ليس البين<sup>(٨)</sup> ولا الصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضُرج بالدماء ، وسُقي الخل عوض الماء ؛ وأن اليهود قد<sup>(٩)</sup> قتلته مصلوبا ، وأدرسته مظلوبا<sup>(١٠)</sup> ، وقهرته<sup>(١١)</sup>

- ( ١ ) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « العيشة » .
- ( ٢ ) كذا في ت ونفع الطيب . والقرية : التقرب . وفي ط « القرية » .
- ( ٣ ) الاهتبال : تحين الشيء واغتنامه .
- ( ٤ ) كذا في نفع الطيب ، وفي ط : « وإن نسب ذلك لا معنى » . وفي ت : « وإن نسب ذلك المعنى » . وما أثبتناه أولى بالسياق .
- ( ٥ ) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « وعظه » .
- ( ٦ ) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « العظيم » .
- ( ٧ ) مليث : مختلط أحمر . يقال : رأس مليث إذا اختلط شعره الأبيض بالأسود .
- ( ٨ ) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « لا أبين » .
- ( ٩ ) هذه الكلمة : « قد » ساقطة في ت ونفع الطيب .
- ( ١٠ ) هذه العبارة « وأدرسته مظلوبا » ساقطة في ت .
- ( ١١ ) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « وقتلته » .

مغلوبا ؛ وأنه جَزِعَ من الموت وخاف ، إلى سِوَى<sup>(١)</sup> ذلك مما يُناسب هذه الأقاويل السَّخَاف ؛ فكيف يُرَجَى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال<sup>(٢)</sup> الذرَّة ، أو يُطَمَع<sup>(٣)</sup> منهم في جَلْبِ المنفعة أو دفع المضرة ؛ اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين . انتهى .

ومنه أيضاً ما نصه :

« كانت خزانة هذه الدار النصيرية<sup>(٤)</sup> ، مشتملة على كل نفيسة من الياقوت ، وبتيمة من الجواهر ، وفريدة من الزُّمُرُود ، وثمانسة من الفيرُّوزج ، وعلى كل واقٍ من الدُّروع ، وحامٍ من العُدَّة ، وماضٍ من الأسلحة ، وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عُقود فذَّة<sup>(٥)</sup> ، وسُلوك حِجَّة ، وأقراط تُفضِّل على قُرطَى مارية<sup>(٦)</sup> ، نفاسة فائقة ، وحُسناً رائقاً ، ومن سيوفٍ شواذٍ في الإبداع ، غرائب في الإعجاب ، مَنسوبات<sup>(٧)</sup> الصَّفاح في الطَّبع ، خالصة<sup>(٨)</sup> الحَلَى من التَّبَر ؛ ومن دُرُوع مُقدَّرة<sup>(٩)</sup> السَّرْد ، متلاحمة النسيج ، واقية للباس<sup>(١٠)</sup> في يوم الحرب ، مشهورة النسبة إلى داود نبيِّ الله ؛ ومن جِواشِن<sup>(١١)</sup> سابغة اللَّبسة ، ذهبية الحلية ،

( ١ ) في ت : « غير » .

( ٢ ) في نفتح الطيب : « مقدار » .

( ٣ ) كذا في ت وفتح الطيب . وفي ط : « يطب » . وهو تحريف .

( ٤ ) النصيرية : نسبة إلى بني نصر ، وهم بنو الأحرار أصحاب قرناطة .

( ٥ ) في هامش نفتح الطيب : « عدة » .

( ٦ ) هي مارية بنت ظالم بن وهب السكندرية ، زوجة الحارث الأكبر الغساني ؛ وكان

في قرطبتها لؤلؤتان عجيبتان ضربت العرب بنفاستهما المثل .

( ٧ ) معروفة بصانعيها .

( ٨ ) في ت وفتح الطيب : « خالصات » .

( ٩ ) في ط : « المقدودة » ، وهو تحريف .

( ١٠ ) في ط وفتح الطيب : « للناس » .

( ١١ ) الجواشِن : الدروع .

هندية الضرب ، ديباجية الثوب ؛ ومن بيضات عسجدية الطوق <sup>(١)</sup> ، جوهريية التنضيد <sup>(٢)</sup> ، زبرجدية <sup>(٣)</sup> التقسيم ، ياقوتية المركز ؛ ومن مناطق أجبينية الصوغ ، عريضة <sup>(٤)</sup> الشكل ، مزججة <sup>(٥)</sup> الصفح ؛ ومن درق لمطية <sup>(٦)</sup> ، مضممة المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ؛ ومن قسي ناصعة الصبغة ، هلالية الخلقة ، منعطفة الجوانب ، زارية بالحوجب ، إلى آلات فاخرة ، من أتوار <sup>(٧)</sup> نحاسية ، ومناور <sup>(٨)</sup> بلورية ، وطيافير <sup>(٩)</sup> دمشقية ، وسبجات <sup>(١٠)</sup> زجاجية ، وصحاف صيدنية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيرية <sup>(١١)</sup> ، وسوى

- ( ١ ) في نفح الطيب طبع مصر : « الطارق » .  
 ( ٢ ) في ط : « التنضيض » وهو تحريف .  
 ( ٣ ) كذا في ت : ونفح الطيب . وفي ط « يجرديية » وهو تحريف .  
 ( ٤ ) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « عرضة » . وهو تحريف .  
 ( ٥ ) كذا في نفح الطيب . وفي ت : « فرجية » وفي ط « برعمة » .  
 ( ٦ ) نسبة إلى لمطة مدينة من المغرب الأقصى ينسب إليها الدرق ، لأنهم ينقعون الجلود في الحليب سنة ، فيعملونها ، فينبو عنها السيف الفاطم .  
 ( ٧ ) كذا في ت . والأتوار : آنية يشرب فيها ، وأحدها تور . وفي نفح الطيب : « أوتار » . وفي ط : « أتواق » ولا معنى لهذه الأخيرة .  
 ( ٨ ) المناور : جمع منارة ، وتجمع على منائر ومناورات . وهي ما يوضع عليه السراج . وقد ذكرها دوزي نقلا عن أبي إسحاق الشيرازي في عبارة نصها : « في آنية مختلفة الأعلى والأوسط والأسفل كالأباريق والأساطن انضيقه الرؤس والمناورات (المناور) » .  
 ( ٩ ) الطيافير : كلمة مولدة لم ترد في معاجم اللغة . وذكرها دوزي في كتابه تكلمة المعاجم العربية : « وهي أطباق مستديرة عميقة ، قاعها مستو ، وحافاتها مرتفعة نحو ثلاث بوصات أو أربع ؛ الواحد : طيفور ، ويقال فيه « تيفور » وتجمع أيضا على طياقرو وطوافير » . وقد وردت أيضا ضمن عبارة في صبح الأعشى ( ج ٥ ص ٢٠٥ ) هذا نصها : « فيمد لهم السماط ثرائد في جفان حولها طوافير ، وهي الخافي ، فيها أطعمة ملونة منوعة » . وظاهر من عبارة صبح الأعشى أنها آنية ذوات أعظية .  
 ( ١٠ ) كذا في الأصلين ونفح الطيب . والسبجات : جمع سبجة ، وهي خزرات تنظم في خيط للتسبيح ، وهي مولدة . وذكرها هنا بين أسماء آنية الطعام ووصفها بالزجاجية ، يشعر بأنها محرقة عن لفظ آخر .  
 ( ١١ ) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين ورواية أخرى في نفح الطيب : « طباشيرية » ، وإعمل المراد بالطباشير هنا : مادة خزفية أو نحوها .

ذلك مما لا يُحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العَدُّ ؛ وكل ذلك أَلْهَبَهُ (١) شُواظُ (٢) الفِتْنَةِ ، والتقمه تَبَّار الخِلاف والفرُّوقه ؛ فَرَزَيْتُ الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله ، وتَقَصَّر ديار الملوك المؤنَّلة النعممة عن بعضه فضلا عن كُله . انتهى .  
وسنذكر من كلامه رحمه الله بعد هذا ، زيادة على ما جابناه الآن ، والله المستعان .

وكانت غرناطة منتهى الآمال ، ووُسْطَى قِلادة الأعمار ، ولم تزل محاسنها  
مَجْلُوءَةً على مَنْصَةِ الدهور والأعصار . وقد استولى (٣) وصفها لسانُ الدين الوزير  
أبو عبد الله بن الخطيب في كتاب الإحاطة ، ويرحم الله القائل :

غَرْنَاطَةٌ ما لها نَظِيرٌ ما مِصْرٌ ما الشَّامُ ما العِراقُ ؟  
ما هيَ إلا العروسُ تُجَلَّى والأرضُ من جُملة الصِّداقِ (٤)

تقريظ لابن  
عاصم على كتاب  
الإحاطة

قال الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن [أحمد بن (٥)] الحدَّاد الشَّهير  
بالوادي أشي ، نزيل تِلْمِسان :

كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، الفاتقة الكمال ، من الإحاطة ، في  
تاريخ غرناطة ، المُحَبَّسة على المدرسة اليوسُفِيَّة ، من الحضرة العَلِيَّة (٦) ، بخط  
قاضي الجماعة ، ومنفَّذ الأحكام الشرعيَّة المُطاعه ، صدرُ البلغاء ، وعَلَم العلماء ،  
ووحيد الكبراء ، وأصيل الحُسباء ، الوزير الرئيس المعظَّم أبي يحيى بن عاصم ،  
رحمة الله عليه ، ما نَصَّه :

[٢٧]

(١) كذا في إحدى روايتي نفتح الطيب . وفي الأصلين ورواية أخرى بنفتح الطيب  
« التهبه » . ولم يرد هذا الفعل متعديا في كتب اللغة . ولعله محرف عن « اتهمه » .

(٢) الشواظ : لهب النار .

(٣) يريد : « تولى » . ولم يرد في المعاجم « استولى » متعديا إلا بالحرف .

(٤) رواية الشطر الثاني من البيت في نفتح الطيب : « وتلك من جملة الصداق » .

(٥) زيادة عن الإحاطة .

(٦) في ط : « العالمة » .

« الحمد لله ، الاستدلالُ بالآثر على المؤثر مما سَمَّه الأعلام ، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام ؛ وهو الحجَّةُ المُعتمَدة حين تنفاضل الأبواب ، وتنقاصر الأفهام ، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك ، أو عرضت الأوهام . وحسبُك بما يُسَلَّم في هذا المقام المتعالى من الأدله ، وما يُعتمَد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلَّة ؛ فحقيق أن يُتَلَقَّى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفنِّ المشار إليه بالقبول ، ويُستَعْبَل المُهْتَدَى لاستنباطه لما فيه من التبادر إلى الأفهام والتسابق للعقول ؛ وإذا ثبت أن المستدلَّ بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل ، ومنتمٍ من صحة النظر إلى أكرم قبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين<sup>(١)</sup> أبو عبد الله بن الخطيب رحمه الله ، من أثر هذه الدولة النصرية — أدامها الله — بكل اعتبار ، وما أثرها التي هي عبرة لأولى الأبواب ، وذكرى لأولى الأبصار .

أما الأول فلأن الأنبياء التي أظهرت صحتها<sup>(٢)</sup> ، وأوضحت حجتها ، وشرَّفت مقصدها ، وكرَّمت مصعدها ، إنما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، وأخبار<sup>(٣)</sup> من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور سحمة السيوف والأقلام ؛ وأفذاذ حفظة الدين والدنيا ، والشرف والعليا ، والمُلك والإسلام ؛ أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة المُلك ، ويُنظَم<sup>(٤)</sup> نظم الجُمان<sup>(٥)</sup> في ذلك السلك ، من حصانة قلعتها ، وأصالة<sup>(٦)</sup> منعتها ؛

(١) في ط : « ذي الوزارة » . وهو تحريف .

(٢) في ت : « ظهرت بهجتها » .

(٣) في ت : « أو أخبار » .

(٤) في ت : « ينظم » .

(٥) في ت : « الجمان »

(٦) في ط : « وأصالة » . وهو تحريف .

وقديم اختطاطها ، وكريم جهادها ورباطها ؛ وحسن ترتيبها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربّعها ؛ وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ، ممن انتابها <sup>(١)</sup> من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل .

وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوه <sup>(٢)</sup> ، ومُبدع محاسنها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوة ، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمة ، ونشأة <sup>(٣)</sup> من نشآت جودها الشامل النعمه ، الهامل الديممه ؛ فما ظهر عليه من كالات الأوصاف ، على الإنصاف ، فأخلاف <sup>(٤)</sup> هذه المكارم النصيرية أَرْضَعته ، وعنايتها الجميلة أُسْمِته ، فوق الكواكب ورفعته ؛ وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشریفها اكتسب ، من الفضل الظاهر ما اكتسب . والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره ، بل أفضقه <sup>(٥)</sup> الذي أشرق فيه بدره ؛ والتشريفات السلطانية هي التي فَتَقَّتِ اللّهي باللّهي <sup>(٦)</sup> ، وأحلت من مراق العزّ فوق السُّهبا <sup>(٧)</sup> ؛ وأمكنت الأيدي <sup>(٨)</sup> من الذّخائر والأعلاق ، وطوقت المنن كالقلائد في الأعناق ؛ وقلدت الرياسة والأقلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ؛ فبهرت أنواع المحاسن ، وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الآسن ؛ وبرعت التواليف ، في الفنون المتعدده ، واشتهرت التصانيف ، ومنها هذا التصنيف المشار إليه ، لماله

[٢٨]

(١) كذا في ط . وانتابها : قصدها . وفي ت : « انتهى بها » .

(٢) في ط : « التامرة » . وهو تحريف .

(٣) النشأة : السحابة الناشئة .

(٤) الأخلاف : جمع خلف ، وهو من ذوات الحنف بمنزلة الندى للإنسان .

(٥) في ط : « بالفقه » وهو تحريف .

(٦) اللّهي (بالفتح) : جمع لهة ، وهي اللحمه المشرفة على الحلق ، واللّهي (بالضم) :

جمع لهية ، وهي العظية .

(٧) السُّهبا : كوكب خفي من بنات نعش ، ويضرب به المثل في العلو والارتفاع .

(٨) في ط : « الأيادي » .

من الأذمة المتأكده . وإذا <sup>(١)</sup> ظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتبه الإجمال ، فلنفسح <sup>(٢)</sup> الآن بما قصد ، ولنحقق من أنجُم السعادة ما رصد ، وذلك أن لمولاي <sup>(٣)</sup> أمير المؤمنين ، الجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله ، المؤيد بنصره أبي عبد الله ، محمد بن الخلفاء النَّصْرِيِّين — أيده الله ونصره ، وسقَى له الفتح المبين ويسره — ما أثر لم يسبق إليها ، ومكارم لم يجز أحد ممن وُسِمَ بالكرم عليها ، بلجلاة قدرها ، وضخامة أمرها ؛ من ذلك هذا القصد الذي آثر لها كالكتاب المذكور وسواه ، مما هو واحد وقد <sup>(٤)</sup> في معناه ؛ عقد في جميعها التحجيس على أهل العلم والطلبة بحضرة العلية <sup>(٥)</sup> هنالك ، ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ؛ والله ينفع بهذا القصد الكريم ، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم .

وهذه النسخة في اثني عشر سِفْرًا ، متفقة الخط والعمل ، اُكْتُبَ هذا على ظهر الأول منها بتاريخ <sup>(٦)</sup> رجب الفرد ، عام تسعة وعشرين وثمان مئة ، عرف الله بركته بمَنه ، آمين <sup>(٧)</sup> . انتهى .

وقال الوزير أبو يحيى بن عاصم المذكور ، قدس الله روحه الطيبة ، وسقَى <sup>(٨)</sup> مشواه غيث رحمة الصيِّبه ، في كتابه المسمى بـ « الروض الأريض <sup>(٩)</sup> » ، في ترجمة شمس العصر ، من ملوك بني نصر ، في اسم الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل ابن فرج بن نصر الخزرجي ، بعد كلام ما نصه :

نبذة من كتاب  
الروض لابن عاصم  
عن ابن يوسف

(١) في ط : « إذا » بدون واو .

(٢) في ت : « فالنصح » .

(٣) في ت : « لمولانا » .

(٤) في ت : « ... واحد في فنه وفي معناه » .

(٥) في ط : « العليا » .

(٦) في ط : « وبتاريخ » .

(٧) هذه الكلمة « آمين » ساقطة في ت .

(٨) في ط : « وسقاه غيث » .

(٩) بقية الاسم في نفتح الطيب : « في تراجم ذوى السيوف والأقلام والقريض » .

« كان قد جرى عليه التمهيص الذي أزعجه عن وطنه ، إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بنى مرين ، فأفادته الحُنْكَةُ والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخنا على حقيقتها ، واتتهجوا واضح طريقتها ، وبلغتْنا منقولة بالسنة صدقهم ، معبراً عنها في عرف التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيس ، والرئيس الجهميد يجريان من الاستقامة على قانون ، ولا يطردان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبتت<sup>(١)</sup> من العوائد ؛ وكان ذوو الثبل من هذه الطبقة ، وأولو الحدق من أرباب هذه المهنة السياسية ، يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تمييزه لما قعد ، ويرون المفسدة بالخروج<sup>(٢)</sup> عنها ضربة لازب<sup>(٣)</sup> ، وأن الاستمرار على مراسمها آكد<sup>(٤)</sup> واجب ؛ فيتحرّرونها بالالتزام كما تتحرّرى السنن ، ويتوخّونها بالإقامة كما تتوخّى<sup>(٥)</sup> الفرائض ، وسواء تبادر لهم معناها فقهوه ، أو خفي عليهم وجهه رَسَمها فجهاوه .

مثل من حرص  
ابن الخطيب على  
العوائد

حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسنى :  
أن الرئيس أبا عبد الله بن زمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبي  
عبد الله بن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل ، مما يتوقف<sup>(٦)</sup> عادة على إذن الوزير ،  
وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله . قال الشريف : فأمضاها  
كلها له<sup>(٧)</sup> ، ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ذو الوزارتين

- (١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « أثبت » .
- (٢) في ط : « في الخروج » .
- (٣) في ط : « لازم » .
- (٤) في ط : « واكد » .
- (٥) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين « تقام » .
- (٦) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « توقف » ،
- (٧) هذه الكلمة : « له » ساقطة في ت .

[ابن الخطيب] <sup>(١)</sup> : لا والله يا رئيس أبا عبد الله ، لا آذن لك في هذا ، لأننا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

[ثم] <sup>(٢)</sup> قال صاحب الروض :

فلما تأذن الله [تعالى] <sup>(٣)</sup> للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب ؛ عدل عن هذه القواعد <sup>(٤)</sup> الراسخة ، واستخف بتلك القوانين <sup>(٥)</sup> الثابتة ؛ فنشأ من الفساد ما أعوز رفعه ، وتعدّد وتره وشفعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه ، وتعذر فيه الدواء الذي يُرجى نفعه ؛ وكان قد صحبه من الجذ ما سنى آماله ، وأنجح — بإذن الله — أقواله وأعماله ؛ فكان يُجرى الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ؛ ثم يخفه <sup>(٦)</sup> من الجذ سياج لا يفارقه ، إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروع وأصوله .

انتهى كلام ابن عاصم ، وإنما أتيت به لغرابته .

وقال أبو عبيد البكري رحمه الله :

اضطراب  
أمر الأندلس  
بالخروج على  
القواعد

وصف البكري  
للأندلس

[٣٠] « الأندلس شامية في طبيها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة للميونانيين » <sup>(٧)</sup> .

(١) زيادة عن نفع الطيب .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) زيادة عن نفع الطيب .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : تلك « العوائد » .

(٥) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « القواعد » .

(٦) كذا في ت . وفي ط : « يحبه » .

(٧) لكلام أبي عبيد البكري بقية ذكرها المؤلف في نفع الطيب ( ج ١ ص ٦٤ طبعة المطبعة الأزهرية ) .

وصف  
ابن الخطيب  
للأندلس

وقال ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب :

خص الله بلاد الأندلس من الرِّيح ، وَعَدَق السُّقْمَا ، ولذاذة الأَقْوَات ، وفراهة  
الحيوان ، ودُرُور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتَبَحُّر العمران ، وجودة اللباس ،  
وشرف الآنية وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وايضاض ألوان الإنسان (١) ،  
ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطبايع ، وتفوذ الإدراك ، وإحكام  
التمدن والاعتار ، بما حرمه (٢) الكثير من الأقطار ، مما سواها .

ثم قال : وحديث الفتح ، وما فتح الله على الإسلام من المنح ، وأخبار  
ما أفاء الله من خير ، على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ،  
كتمول قصاص وأوراق ، وحديث أفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ؛ وعظم (٣)  
أمتشاش (٤) ، وآلة مُعَلَّقة في دُكَّان قَشَّاش (٥) . انتهى .

ولا خفاء بما كان لملوك المسلمين بالأندلس والعدوة على النصارى — دعهم  
الله — من الاستطالة والغلبة ، حتى وقع التخاذل والتدابر ، فانعكس الأمر . وقد  
حكى غير واحد أن دُنْ جانجه (٦) بن دُنْ الفُنْش ، استنصر على أبيه بالسلطان  
المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، ولاذ به ، ورهن عنده  
تاجه (٧) ذخيرة النصارى ، ولقيه بصخرة عباد ، من أخواز رُنْدَه ، فسلم عليه ،

(١) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الأسنان » .

(٢) في ت : « أحرمه » .

(٣) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « وأعظام » .

(٤) امتشاش العظم : مصه مضموعا لاستخراج ما فيه . يريد أن الحديث في هذا

مفروغ منه كالعظم الذي امتش ، فلم يبق فيه شيء .

(٥) القشاش : الذي يبيع القديم البالي من سقط المتاع . (عن دوزي)

(٦) كذا في ط . وفي الاستقصا للسلوى (ج ٢ ص ٢٧ طبع مصر) : « شانجة »

وفي ت : « تجانجة » . ثم إن السلوى ذكر أن المستنصر هو هرانده أبو شانجه .

على العكس مما ساق المؤلف هنا .

(٧) في ط : « تاج » .

ويقال إن أمير المسلمين<sup>(١)</sup> لما فرغ من ذلك ، طلب باسان زناة<sup>(٢)</sup> الماء ، ليغسل  
يده به من قُبلة الفُنش ، أو مصاحفته<sup>(٣)</sup> .

ابن الخطيب :

تعقيب لابن  
الخطيب على  
قصة أبي يوسف

« والشئ يذكرك بالشيء ، فأثبت حكاية اتفقت لي بسبب ذلك ، أستدعي  
بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها ، وهي أن اليهودي الحكيم ابن زرزار ،  
على عهد ملك النصارى ، حفيد هذا الفُنش المذكور ، وصل إلينا بقرناطة  
في بعض حوائجه ، ودخل إلى بدار سكنائى ، مجاوراً لقصر السلطان بجمراء  
غرناطة ، وعندى القاضى اليوم بقرناطة وغيره من أهل الدولة ، ويبيده كتاب  
من سلطان المغرب محمد بن أبى<sup>(٤)</sup> عبد الرحمن بن السلطان الكبير المولى  
أبى الحسن ، وكان محمد هذا قد فرّ إلى صاحب قشتالة ، واستدعى من قبليه  
إلى الملك ، فسَهّل له ذلك ، وشرط عليه ما شاء ؛ ووربما وصله خطابه بما لم  
يقنعه في إطرائه ، فقال [لى<sup>(٥)</sup>] : مولاى السلطان دُنْ بطره يسلم عليك ، ويقول  
لك : أنظر مخاطبة هذا الشخص ، وكان بالأمس كلباً من كلاب بابه ، حتى ترى  
خسارة الكرامة فيه . فأخذت الكتاب من يده ، وقرأته وقلت له : أبانغه عنى  
أن هذا الكلام ما جرّك إليه إلا خلؤ بابك من الشيوخ ، الذين يعرفونك  
بالكلاب وبالأسود ، وبمن تغسل الأيدي منهم إذا قَبَلوها ، فتعلم من الكلاب  
الذى تغسل اليد منه ، ومن لا ، وأن جدّ هذا الولد هو الذى قَبَل جدك يده ،

[٣١]

(١) فى ط : « المؤمنین » .

(٢) فى ط : « الزناتية » .

(٣) فى ت : « ومصاحفته » .

(٤) كذا فى ت والاستقصا . وفى ط : « محمد بن عبد الرحمن » وهو تحريف .

(٥) زيادة عن ت .

واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضرة النصارى والمسلمين ؛ ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد إلى الحفيد ؛ وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه ، وأنت مُعَرَّضٌ إِلَى اللِّجَا إِلَيْهِ ، فَيَكْفُتُكَ بِأَضْعَافِ مَا عَامَلْتَهُ <sup>(١)</sup> بِهِ . فقام ابن الحسن المستقصى يبكي ، وَيُقَبَّلُ يَدِي ، وَيَصِفُنِي بَوْلَى اللَّهِ ، وكذلك مَنْ حضرني . وتوجه إلى المغرب رسولا ، فقصَّ على بنى مرينَ خبر ما شاهدته منى وسمعه ؛ وبالخضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله ذلك خالصاً لوجهه . انتهى .

بعض ما كتب  
في استنهاض  
المهم ضد  
النصارى

ولما تقلص ظل <sup>(٢)</sup> الإسلام بالجزيرة ، أعادها الله للإسلام ، واسترد الكفار ، دمرهم الله ، أكثر أمصارها وقراها ، على وجه العنوة والصلاح والاستسلام ، لم ينزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميات <sup>(٣)</sup> ذوى البصائر والأبصار ، ويستنهضون عزَماتهم من كل الأمصار .

لابن زمرك

فمن ذلك ما كتب به الكاتب الرئيس أبو عبد الله بن زمرك رحمه الله لما نزل المسلمون بأخر مرّج غرناطة ، متوجهين لفتح خير :

« اعلموا أنا نذركم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم ؛ إن هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده إليها ، وحضهم عليها ؛ فالآيات في المصاحف مسطوره ، والأحاديث مشهوره ؛ لبيع النفوس فيها من الرحمن ، وبذل المهج رغبة في حصول ثواب الملك الديان ، ينزل الله فيها الملائكة المسومين . وتفرح الحور العين ، وتسبح الرحمة من رب العالمين ، ويباهى الله ملائكته <sup>(٤)</sup> بالمجاهدين ؛ وقد

(١) في ط : « ما عملته » .

(٢) في ط : « ذيل » .

(٣) في ط : « حماة » .

(٤) في ت : « الملائكة » .

تضافرت على ذلك النصوص ، وكفى شرفاً الفوز بمحبة الله في قوله ( إن الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ مُبْنِيَانُ مَرَّصُونَ ) ؛ فينبغي فيه الاستغفار من سالف الذنوب ، وتطهير السرائر والقلوب ، واجتماع الأيدي [٣٢] والكلمة في مَرْضَاتِ عِلَامِ الْغُيُوبِ .

وأبلغ منه ما كتب به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب في الحث على

لابن الخطيب

الجهاد ، والترغيب فيه ، وهو :

«أيها الناس ، رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون قد دهم العدو — قصمه الله — ساحتهم ، ورام الكفر — قبضه الله — استباحتهم ؛ وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم <sup>(١)</sup> ، ومد الصليب ذراعيه إليهم ؛ وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأتم المؤمنون أهل البر والتقوى ؛ وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تعين ؛ الجار الجار ، فقد قرر الشرع حقه وبيّن ؛ الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام ؛ الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله [الله في <sup>(٢)</sup>] وطن الجهاد في سبيل الله ؛ قد استغاث بكم الدين فأغيشوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ؛ أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير ، يصل الله لكم <sup>(٣)</sup> جميل العوائد ؛ صلوا رحمكم الكلمة ، وآسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ؛ كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تنادىكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله يقول فيه : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم) . ومما صح عنه قوله : « من اغبرت قدماه في سبيل

(١) في ط : « إليهم » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) في ط : « إليكم » .

الله حَرَمَهَا اللهُ عَلَى النَّارِ . « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودُخان جهنم » (١)  
« ومن جهَّز غازياً في سبيل الله فقد غنرنا » . أَدْرِكُوا رَمَقَ الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ ،  
بادرُوا عَليَ الإِسْلامِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ؛ احفظُوا ووجوهكم مع الله يوم يسألكم  
عن عبادته ، جاهدوا في الله بالألسُن والأموال حق جهاده :

ما ذا يكون جوابكم لنبيكم وطريقُ هذا العُذْرِ غيرُ مُمهَّدِ  
إِنْ قَالَ لِمَ فَرَطْتُمْ فِي أُمَّتِي وَتَرَكْتُمُوهمَ لِلْعَدُوِّ الْمُعْتَدِي  
تَاللهِ لو أَنَّ العَقوبَةَ لَمْ تُخَفَّ لَكَفَى الحَيَا (٢) مِنْ وَجْهِ ذَاكَ السَّيِّدِ

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بئس لنا الحَمِيَّةُ في البلاد ، اللهم دافع  
[٣٣] عن الحريم الضعيف والأولاد ؛ اللهم انصرنا على أعدائك بأجبابك وأولينائك  
يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صَبْرًا وثَبَّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم  
الكافرين . وصلى الله على سيدنا [ومولانا] (٣) محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم  
تسليماً . انتهى .

سقوط غرناطة  
في يد العدو  
والخلاف في  
تاريخ ذلك

واستمر الأمر بالجزيرة على هذه الحالة مدة ، والمسلمون لا يزدادون إلا ضعفاً  
والعدو تكالباً وشِدَّةً ؛ حتى استولى على الجزيرة بأسرها ، وشرح ذلك يطول .  
وكان استيلاؤه على حمراء غرناطة ، ودخول جيشه [لها] (٣) [ثاني ربيع النبوي] ،  
من عام سبعة وتسعين وثمان مئة . هكذا رأيت في تأليف لبعض المتأخرين ، ضمَّنه  
القضية ، وألفه بسببها ؛ على أني رأيت بخط الفقيه أبي عبد الله الوادي أشي  
ما يخالف ذلك ، وهو (٤) أنه أورد رسالة لابن الخطيب يخاطب بها السلطان أبا سالم

(١) تنمة الحديث كما في سنن النسائي : « في منخرى مسلم أبدا » .

(٢) الحيا : مقصور من الحياء .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) في ت : « وذلك » .

التريفي، نصُّ محل (١) الحاجة منها :

« ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت غروة تأميدكم ، أو أعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه » . انتهى .

فكتب بطرته أبو عبد الله الوادي آشي المذكور (٢) ما نصه :

« كذلك وقع آخر الأمر . وكان الاستيلاء على غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام ، في محرم [ عام ] (٣) سبعة وتسعين وثمان مئة ، فرحم الله ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ، وغفر له برحمته » . انتهى كلام الوادي آشي .  
على أنه قد يظهر من كلام بعضهم أن الصلح كان في محرم ، ودخول الجيش القصبية الحمراء كان في ربيع ، فلا منافاة ، والله أعلم .

ورأيت بخط الإمام الوانشريشي (٤) سيدي عبد الواحد رحمه الله ما نصه :  
« استولى العدو على جبل الفتح سنة ست وستين وثمان مئة ، وعلى الحمة (٥) .  
تاسع المحرم يوم الخميس عام سبعة وثمانين وثمان مئة ؛ وفي عام خمسة وتسعين وثمان مئة استولى العدو على جميع [ بلاد ] (٣) الأندلس ما عدا غرناطة وبشرتها (٦) ، وكان قبله في عام اثنين وتسعين استولى على مالقة في رمضان منه ، وفي عام سبعة وتسعين استولى على غرناطة » . انتهى .

(١) هذه الكلمة « محل » ساقطة في ت .

(٢) هذه الكلمة : « المذكور » ساقطة في ت .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) كذا في نفح الطيب طبعة أوربية . والوانشريشي : نسبة إلى وانشريش (بالنون .

وشينين معجمتين وراء ثم ياء) : جبل بين مليانة وتلمسان من نواحي المغرب .

وفي الأصلين وهامش نفح الطيب : « الوانشريشي » .

(٥) الحمة : من أعمال مرسية . (عن تكملة كتاب الصلة) .

(٦) كذا في نفح الطيب وفيما سيأتي في الأصلين . وظاهر من سياق نفح الطيب أنها

ضواح لغرناطة أو مواضع بها . وفي الأصلين هنا : « وبشاراتها » .

خروج أمير  
الحمراء ابن  
أبي الحسن  
إلى فاس

ولما دخل النصارى إلى الحمراء خرج أميرها أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن  
على النّصرى ، واشترط المسلمون على العدو الكافر شروطاً أظهر قبولها ، وبسط  
لهم جناح العدل ، حتى بلغت بزعمهم نفوسهم مأمولها ؛ وكان من جهاتها أن من  
شاء البقاء عنده أقام في ظل الأمان<sup>(١)</sup> مُكرّماً ، ومن أراد الخروج إلى برّ  
العدوة أنزل بأى بلاد شاء منها ، من غير أن يُعطى كِراء ولا مَغْرماً ؛ وأظهر  
للمسلمين العناية والاحترام ، حتى كان النصارى يَحْسُدُونهم في ذلك ، ويقولون  
لهم : أتم عند ملكنا أغر وأكرم منا ؛ ووضع عنهم المغارم ، حيلة منه وكيدا ،  
ليغفّرهم بذلك ، ويُثبّطهم عن الجواز . فوقع الطمع لكثير من الناس ، وظنوا أن  
ذلك البرق ليس بخُلْب ، فاشترى كثير من المقيمين الرباع العظيمة ، ممن أراد  
الذهاب للعدوة ، بأرخص الأثمان ، وأمر — لعنه الله — بانتقال سلطان غرناطة  
أبي عبد الله إلى قرية أندرش<sup>(٢)</sup> ، من قرى البشرة ، فارتحل أبو عبد الله بعياله  
وحشمه ، وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ثم ظهر للطاغية أن يجيزه إلى العدوة ،  
فأمره بالجواز ، وأعدّ له المراكب العظيمة ، وركب معه كثير من المسلمين ، ممن  
أراد الجواز ، حتى نزلوا بمليلة<sup>(٣)</sup> من ريف المغرب ، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله  
إلى مدينة فاس — حرسها الله — وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء  
السؤال ، بعد الملك الطويل العريض ، فسبحان المعزّ المذلّ ، المانح المانع ،  
لا إله إلا هو .

(١) هذه العبارة : « في ظل الأمان » ساقطة في ت .

(٢) كذا في ط ونجح الطيب وتقويم البلدان . وفي ت : « أندرس » بالسين المهملة ،  
وهو تصحيف .

(٣) مليلة (بوزن سفينة) : مدينة قديمة مسورة على بحر الزقاق (انظر المغرب في ذكر  
بلاد إفريقية والمغرب) .

وكان خلع أبيه أبي الحسن يوم الأحد ثالث جمادى الآخرة من عام تسعين  
وثمان مئة ، خلعه أخوه<sup>(١)</sup> ، ودخل أبو عبد الله المذكور ، ابن أبي الحسن<sup>(٢)</sup> ، ربص  
البيّازين سادس عشر شوال عام واحد وتسعين ، وافتتكت ملك أبيه من يد عمه ،  
وتوفّي رحمه الله بفاس عام أربعة وعشرين وتسع مئة ، ودفن بإزاء المصلى ،  
خارج باب الشريعة ، وخلف ولدين ، اسم أحدهما يوسف ، والآخر محمد<sup>(٣)</sup> ،  
وعقبه الآن بها كما ذكرناه ، والله وارث الأرض ومن عليها ، والله خير الوارثين .

وفاته وشيء عنه  
وعن عقبه

وكان من قدر الله تعالى أنهم لما وصلوا مدينة فاس أصاب الناس بها شدة  
عظيمة ، من الجوع والغلاء والطاعون ، حتى فرّ كثير منها بسبب ذلك ، ورجع  
بعض أهل الأندلس إلى بلادهم ، فأخبروا بتلك الشدة ، فتعاض من أراد الجواز ،  
وعزموا على الإقامة والدجن<sup>(٤)</sup> ، ولم يُجزّ النصارى أحدا بعد ذلك إلا بالكراء  
والمغرم وعُشر المال ، فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على  
الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون أول  
مرة ، ولم يزل ينتقضها فصلا فصلا ، إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة المسلمين ،  
وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم المغارم الثقيلة ،  
وقطع عنهم الأذان في الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض  
والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصّر ، وأكرههم  
عليه ، وذلك سنة أربع وتسع مئة ، فدخلوا فيه كرها ، وصارت الأندلس كلها

حال المسلمين  
بعده بالأندلس

(١) في ط : « وكان أبوه أبو الحسن خلع سنة تسعين وثمان مئة ، خلعه أخوه يوم  
الأحد ثالث جمادى الآخرة من العام » .

(٢) هذه العبارة : « ابن أبي الحسن » : ساقطة في ت .

(٣) كتبنا في ت ونسخ الصيب . وفي ط : « أحمد » .

(٤) الدجن : الإقامة .

دار كُفر ، ولم يبق من يَجْهر بكلمة التوحيد والأذان ، وجُعِلت في المساجد والمآذن النواقيسُ والصُّلْبَانُ ، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لا راد لما قضاه الله الملك الدَيَّان .

وقد رأيت لبعضهم رسالة ببعض شرح ذلك ، ونصها :  
رسالة في ذكر  
ما جرى للمسلمين  
في الأندلس

« وتعرّفنا من غير ما طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قُطِر الأندلس —  
نظر اللهُ إليه ، وعاد بنوره عليه — طَرَقَ أهله خَطْبٌ لم يَجْرُ في سالف الدهر ،  
وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى في الظاهر الكفر ،  
ولم يُقبَل منهم الأُسْر ؛ وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة — جدّد الله  
رسمها ، وأعاد إلى بلاد المسلمين <sup>(١)</sup> اسمها — وخصوصاً أهل واسطتها ، لقلّة الناس ،  
وكونهم من الرعيّة الدّهَاء ، مع عدم العصبية ، بسبب اختلاف الأجناس ؛ وعلم  
النصارى — دمرهم الله — بأن من بقي بها <sup>(٢)</sup> من المسلمين إنما هم أسارى في أيديهم ،  
وعيال عليهم ؛ وبعد أن انتزعوا منهم <sup>(٣)</sup> الأسلحة والمعاقل ، وعتّوا فيهم بالخروج  
والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائِل ؛ ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ،  
ونشر بحض الغدر بُنوده ؛ من غير معذرة لفقها ، ولا كذبة في معرّض العذر  
نمّقا ، إلا أعجازا من الكفر ، وصدورا من الغيظ والمكر ، وخالص الغدر ،  
جمّعها وفرّقها ؛ وكان الطاغية إذ ذاك بإشبيلية — جبرها الله ، وجعل بها قبره ، ووقى  
المسلمين والإسلام شرّه — وبعد أن كان [ قبل <sup>(٤)</sup> ] قد انسل إلى غرناطة انسلال

(١) في ت : « الإسلام » .

(٢) في ت « منها » .

(٣) في الأصلين : « لهم » .

(٤) زيادة عن ت .

القطا إلى الماء ، وطلع إليها طلوع الرقيب على خلوات الأحباء ؛ وأمر بإخلاء الأرباض ، وأذن في السفر في البحر للأبغاض ، ولم يحضر من الأجفان<sup>(١)</sup> إلا القليل ، وما كان قصده إلا التفريق والتهويل ؛ على ما عهد من غدر النصارى وطغيانهم ، وفعالهم الذميمة مع المسلمين وثورانهم ؛ والإعلان بمحنتهم ؛ والحرص على ارتدادهم [٣٦] وفتنتهم ؛ وأقام بعد انصرافه عنها ، وخروجه منها ، بإشبيلية مُدَيِّدَةً ، وعقاربه لأشباعه من النصارى بغير ناطة تدب وتسرى ، ونفسه الخبيثة بالعاب<sup>(٢)</sup> تفرى ؛ ثم انتقل عن الوسطة للبيازين ، حيث الحميّة ، والنصرة الإيمانية<sup>(٣)</sup> ، مع السراجة والنحيه<sup>(٤)</sup> ، والعقل الرّصين ، والدين المتين ؛ فجعل صعبها ذلولا ، وأعاد للكفر كرها من كان بحضرتها ، وتمتع أحزاب الشيطان — قصمهم الله — بنصرتها ، نسأل الله تعالى أن يجعل تمتعهم قليلا .

وزيادة<sup>(٥)</sup> الخبر :

تسكيل طاغية  
قشتالة وأرغون  
بالمسلمين

« أن طاغية قشتالة وأرغون — قصمه الله — ضدم غرناطة صدمه ، وأكره على الكفر من بقي بها من الامة ؛ بعد أن هيبض جناحهم<sup>(٦)</sup> ، وركدت رياحهم ؛ وجعل بعد جندة الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى في الكفر ويختال ؛ ودين الإسلام تُنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورُسومه ؛ فلورأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان

(١) الأجفان : كلمة أندلسية ، بمعنى السفن . ذكرها دوزي في معجمه .

(٢) كذا في ط . وفي ت : « بالعار » .

(٣) في ط : « الأمانية » .

(٤) كذا في ط . وفي ت : « مع السداجة والفحمة » ولا معنى للروايتين .

(٥) في ت : « وزيدة » .

(٦) في ت : « جناحهم » .

كل مسلم يندبه ويبكيه ؛ فقد عبث البلاء برؤسومه ، وعنفى على أقداره ونجومه ؛ ولو حضرتم من جُبرٍ بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالثكال والمهالك العظام ؛ ومن <sup>(١)</sup> كان يُعذَّب في الله بأنواع العذاب ، ويُدخَل به من الشدة في باب ويُخرج من باب ؛ لأنساكم مصرعه ، وساءكم مفضاه ؛ وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلوله ، وأفواه الأذاهلين محلوله ؛ وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر أن يُمطل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ؛ وهم يكابدون تلك الأهوال <sup>(٢)</sup> ، ويطلبون لطف الله في كل حال . انتهى .

بعض من خرج  
من علماء  
الأندلس

وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان ، منهم القاضى الشهير أبو عبد الله بن الأزرق ، صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل ، وكتاب السياسة الملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون ، وفيه زيادات بديعات <sup>(٣)</sup> ، وكتاب روضة الإعلام ، بمنزلة العربية من علوم الإسلام ، وغير ذلك ، وارتحل من تلمسان إلى المشرق ، وسُنِّمَ بذكره . ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازى ، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة <sup>(٤)</sup> ؛ ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها ، وأنه أخذها لا محالة ، قوضوا رحالهم عنها ، فنزلوا بتلمسان المحروسة ، وأخذت الحضرة الغرناطية <sup>(٥)</sup> بعد ارتحالهم بقريب ، رحمهم الله . ومنهم الفقيه الأديب ، حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة ، أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادى آشى ، وسنذكره إن شاء الله ، رحم

[٣٧]

(١) في الأصلين : « ولن » .

(٢) في ط : « الأحوال » .

(٣) في ت : « زيادة بديعة » .

(٤) في ت : « أخذها » .

(٥) في ت : « وأخذت غرناطة » .

الله الجميع<sup>(١)</sup> . ومن خرج بفاس من العلماء ، الفقيه أبو العباس البقّاني<sup>(٢)</sup> ، ثم رجع إلى غرناطة ، وقضيته معروفة .

ولا بأس أن نُورد كتاب السلطان أبي عبد الله بن الأحمر الخلويع المذكور ، الذي بعث به لصاحب فاس<sup>(٣)</sup> في ذلك العهد ، تمهيداً لمُذره ، وتوطئة لمقصده ؛ وتطأُرها على تلك الأبواب وتماثُقا ، وتمسُكا بذلك الجناب وتعلُّقا ؛ وهو في الغاية<sup>(٤)</sup> من الفصاحة والبلاغة ، من إنشاء الفقيه الأديب ، الشاعر الناظم ، النثر الكاتب ، المُجيد البارع البليغ ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي رحمه الله ، وسماه بالروض العاطر<sup>(٥)</sup> الأنفاس ، في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس ؛ ونصّه بعد الافتتاح<sup>(٦)</sup> :

كتاب ابن الأحمر  
لصاحب فاس

« مَوَالِي الْمُلُوكِ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ رَعِيًّا لِمَا<sup>(٨)</sup> مِثْلُهُ يُرْعَى مِنَ الذَّمِّ .  
بك استجرتنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور مُنتقم  
حتى غدا مُلكهُ بالرَّغْمِ مستلبا وَأَفْطَعُ الْخَطْبِ مَا يَأْتِي عَلَى الرَّغْمِ  
حُكْمٌ مِنْ اللَّهِ حَتْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ وهل مرَدُّ الحُكْمِ مِنْهُ مُنْحَمٌ<sup>(٩)</sup> »

(١) في ت : « جميعهم » .

(٢) في ط : « البقّاني » .

(٣) في ط : « أبا » وهو تحريف .

(٤) هو الشيخ الوطاسي سلطان فاس .

(٥) في ت : « وفي الغاية » .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب ، وفي ط : « العطر » .

(٧) كذا في ت ونفع الطيب ، وفي ط : « افتتاح » .

(٨) في نفع الطيب : « لمن » .

(٩) كذا في الأصلين وإحدى روايتي نفع الطيب ، ولم ترد صيغة « انحم » في المعاجم

التي بين أيدينا . وفي رواية أخرى لنفع الطيب : « منحسم » .

وَهِيَ اللَّيَالِي وَقَالَ اللَّهُ صَوَّلْتَهَا  
 كُنَّا مُلُوكًا لَنَا فِي أَرْضِنَا دُولًا  
 فَأَيَّقْتُنَا سِهَامَ الرَّدَى صَيْبًا  
 فَلَا تَنَمَّ تَحْتَ ظِلِّ الْمَلِكِ نَوْمَتَنَا  
 يَبْكِي عَلَيْهِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْرِفُهُ  
 كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَمْ يَبْرَحْ كَا زَعَمُوا  
 وَصِلْ أَوْاصِرٌ قَدْ كَانَتْ لَنَا اشْتَبَكْتُ  
 وَابْسُطْ لَنَا الْخُلُقَ الْمَرْجُوَّ بِاسْطُهُ  
 لَا تَأْخُذْنَا<sup>(٤)</sup> بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ  
 فَمَا أَطَقْنَا دِفَاعًا لِلْقَضَاءِ وَمَا<sup>(٥)</sup>  
 وَلَا رُكُوبًا بِإِزْعَاجِ لِسَابِحَةِ  
 وَالْمَرَّةِ مَا لَمْ يُعْنَهُ اللَّهُ أَضْيَعُ مِنْ  
 وَكُلُّ مَا<sup>(٦)</sup> كَانَ غَيْرَ اللَّهِ يَحْرُسُهُ<sup>(٧)</sup>  
 تَصُولُ حَتَّى عَلَى الْآسَادِ فِي الْأَجَمِ  
 نَمْنَا<sup>(١)</sup> بِهَا تَحْتَ أَفْنَانٍ مِنَ النَّعَمِ  
 يُرْمَى بِأَفْجَعِ حَتْفٍ مِنْ بَهَنٍ رُمِي  
 وَأَيُّ مَلِكٍ بَظَلِ الْمَلِكِ لَمْ يَنِمَّ  
 بِأَذْمَعِ مَرْجَتِ أُمُوهَا بِدَمِ  
 يُشِيمُ بَوَّ الصَّغَارِ<sup>(٢)</sup> الْأَنْفِ ذَا الشَّمَمِ<sup>(٣)</sup>  
 فَالْمَلِكُ بَيْنَ مَلُوكِ الْأَرْضِ كَالرَّحِمِ  
 وَاعْطِفْ وَلَا تَنْحَرِفْ وَاعْذِرْ وَلَا تَلِمْ  
 نَذُنِبُ وَلَوْ كَثُرَتْ أَقْوَالُ ذِي الْوَحْمِ  
 أَرَادَتْ أَنْفُسُنَا مَا حَلَّ مِنْ نِقَمِ  
 فِي زَاخِرٍ بِأَكْفِ الْمَوْجِ مُلْتَطِمِ  
 طِفْلٍ تَشَكَّى بِفَقْدِ الْأُمِّ فِي الْيَتِيمِ  
 فَإِنَّ مَحْرُوسَهُ لَحَمٌّ عَلَى وَضَمِّ<sup>(٨)</sup>

[ ٣٨ ]

(١) في ت « نما » ، وهو تحريف .

(٢) البو : جلد الحوار يحشى تبنا ونحوه لتعطف عليه أمه فتدر . والصغار : الذل .

(٣) في ط « ذو الشمم » .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب طبعة أوربة . وفي ت ونفح الطيب طبعة المطبعة الأزهرية « لا تأخذونا » .

(٥) في ت : « ولا » .

(٦) كذا في ط : ونفح الطيب . وفي ت : « من » .

(٧) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « ما كان غير الله يحرسه فإن محروسه » وهو تحريف .

(٨) الوضم : خوان القصاب ، وهو ما يقطع عليه اللحم ويهيئه .

كُنْ كَالسَّمُوعِ إِذْ سَارَ الْهَمَامُ لَهُ      فِي بَجْحَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ مُرْتَكِمٌ (١)  
 فَلَمْ يُبْدِحْ أَذْرُعَ الْكِنْدِيِّ وَهُوَ يَرَى      أَنْ ابْنَهُ الْبَرَّ قَدْ أَشْفَى عَلَى الرَّجَمِ (٢)  
 أَوْ كَالْمَعْلَى (٣) مَعَ الضَّلِيلِ الْأَرْوَعِ إِذْ      أُجَارَهُ مِنْ أَعْرَابٍ وَمِنْ عَجَمٍ  
 وَصَارَ يَشْكُرُهُ شُكْرًا يَكْفِي مَا      أُسْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْآلَاءِ وَالنِّعَمِ  
 وَلَا تَعَاتَبُ عَلَى أَشْيَاءٍ قَدْ قُدِّرَتْ      وَخُطَّ مَسْطُورُهَا فِي اللُّوحِ بِالْقَلَمِ  
 وَعَدَّ عَمَّا مَضَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ      وَعُدَّ أَحْرَارَنَا فِي جُمْلَةِ الْخَدَمِ  
 إِلَيْهِ حِنَانِيكَ يَا بَنَ الْأَكْرَمِينَ عَلَى      ضَيْفِ أَلْمِ بِفَاسٍ غَيْرِ مُحْتَشِمِ (٥)  
 فَأَنْتَ أَنْتَ وَلَوْلَا أَنْتَ مَا نَهَضَتْ      بِنَا (٦) إِلَيْهَا خُطَا الْوَخَادَةِ الرَّسْمِ (٧)  
 رُحْمَاكَ يَا رَا حَمَا يُنْمَى إِلَى رُحْمَا      فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْأَتْبَاعِ وَالْحَشَمِ  
 فَكَمْ مَوَاقِفٍ صِدْقٍ فِي الْجِهَادِ لَنَا      وَالْحَيْلُ عَالِكَةُ الْأَشْدَاقِ لِلْجُمِ  
 وَالسِّيفُ يَخْضِبُ بِالْحَمْرِ مَنْ عَلَقَى      مَا أَيْضُ مِنْ سَبَلٍ وَأَسْوَدٌ مِنْ لِمَمِ (٨)  
 وَلَا تَرَى صَدْرَ عَضْبٍ غَيْرَ مُنْقَصِفٍ      وَلَا تَرَى مَتْنًا (٩) لَدُنْ غَيْرِ مُنْحَطِمِ

(١) الجحفل : الجيش الجرار . ومرتكم : متراكم .

(٢) في ط : « فلا » .

(٣) الرجم : جمع رجمة ، وهي الحجارة توضع على القبر ، ويريد القبر نفسه .

(٤) المعلى : هو أحد بني تميم ، وكان قد أجاز أسراً القيس من المنذر بن ماء السماء .

(٥) إليه : أي حسبك .

(٦) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « منا » .

(٧) الوخادة : السريعة السير . والرسم : جمع رسوم ، وهي الناقة التي تؤثر في الأرض

من شدة الوطاء .

(٨) يريد بالسبل : شعر اللحية . واللمم : جمع لمة ، وهي شعر الرأس الذي يلم بالمنكبين

(٩) في ت « مثل » .

حتى دُهينا بدهيا لا اقتدار بها<sup>(١)</sup>      سِوَى عَلَى الصَّوْنِ لِلأَطْفَالِ وَالْحُرَمِ  
فَقَالَ مَنْ لَمْ يَشَاهِدْهَا فَرُبَّمَا      يُخَالِ جَانِحُهَا يُقْتَادُ بِالخُطْمِ  
هِيَهَاتَ لَوْ زَبَنْتَهُ الْحَرْبُ كَانَ بِهَا      أَعْيَا يَدَا مِنْ يَدِ جَالَتْ عَلَى زَلَمِ<sup>(٢)</sup>  
تَاللَّهِ مَا أَضْمَرْتُ غِشًّا ضَمَائِرُنَا      وَلَا طَوَّتْ صِحَّةٌ مِنْهَا عَلَى سَقَمِ  
لَكِنْ طَلَبْنَا مِنَ الأَمْرِ الَّذِي طَلَبْتَ      وَوَلَاتُنَا<sup>(٣)</sup> قَبْلُنَا فِي الأَعْصُرِ الدُّهُمِ  
نَحَانِنَا عِنْدَهُ الْجَدُّ الخَمُونُ وَمَنْ      تَقَعُدُّ بِهِ نَكَبَاتُ الدَّهْرِ لَمْ يَقُمْ  
فَاسْوَدَّ مَا أَخْضَرَ مِنْ عَيْشِ دَهْتِهِ عِدًّا      بِالأَسْمَرِ اللَّذْنِ أَوْ بِالأَبْيَضِ الخَذِمِ<sup>(٤)</sup>  
وَشَدَّتْ الأَبِينُ شَمْلًا كَانَ مِنْتَظَمَا      وَالبَيْنِ أَقْطَعُ لِلْمَوْصُولِ مِنْ جَلَمِ<sup>(٥)</sup>  
فَرُبُّ مَبْنَى شَدِيدٍ قَدْ أَنَاخَ بِهِ      رَكْبُ البَلَاءِ فَقَرَّتَهُ أَدْمَعُ الدِّيمِ<sup>(٦)</sup>  
قَمْنَا لِيَدِهِ أَصِيلَانًا نَسَائِلِهِ      أَعْيَا جَوَابًا وَمَا بِالرَّبِيعِ مِنْ أَرَمِ<sup>(٧)</sup>  
وَمَا ظَنْنَا بِأَنْ نَبْقَى إِلَى زَمَنِ      نَرَى بِهِ غُرْرَ الأَحْبَابِ كَالْحَمَمِ<sup>(٨)</sup>  
لَكِنْ رِضًا بِالقَضَا الجَارِي وَإِنْ طُوِّيتَ      مَنَا الضَّالُوعُ عَلَى بَرَحٍ مِنَ الأَلَمِ

[٣٩]

(١) في ت . « بدهى لا اقتدار بنا » .

(٢) كذا في ت . والزلم (بفتحين ، أو بضم ففتح) : سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية . وفي ط ونجح الطيب طبعة المطبعة الأزهرية : « رحم » . وفي نصح الطيب طبعة أوربة « رخم » . وما أثبتناه أوضح ، فهو يريد أن يد هذا اللأم أضعف من يد تحيل قداح الميسر .

(٣) كذا في نصح الطيب . وفي ت : « ولاته » . وفي ط : « ولاية » .

(٤) الأسمر اللذن : الزمخ . والأبيض الخدم : السيف المقاطع .

(٥) الجلم : المقراض .

(٦) الديم : جمع ديمة ، وهي السحابة يدوم مطرها أياما .

(٧) أصيلانا : قرب الأصيل . وما بالربيع من لرم : أى من أحد .

(٨) الغرر : جمع غرة ، وهي بياض الجبين . والحمم الفحم الأسود ، الواحدة حمة (بالضم) .

لَبِيكَ يَا مَنْ دَعَانَا نَحْوَ حَضْرَتِهِ دَعَاءَ إِبْرَاهِيمَ الشُّجَاعِ الْحَرَمِيِّ  
 وَأَعْطَى الْأَمْنَ<sup>(١)</sup> الَّذِي رُضَّتْ قَوَاعِدُهُ<sup>(٢)</sup> عَلَى أَسَاسِ وِفَاءٍ غَيْرِ مَنْهَدِمٍ  
 خَلِيفَةَ اللَّهِ وَافَاكَ الْعَبِيدُ فَكُنْ فِي كُلِّ فَضْلٍ وَطَوَّلٍ عِنْدَ ظَنِّهِمْ  
 وَبَيْنَ أَسْلَافِنَا مَا قَدْ عَامَتْ بِهِ مِنْ اِعْتِقَادٍ بِحُكْمِ الْإِرْثِ مُنْتَسِمٍ  
 وَأَنْتَ مِنْهُمْ كَأَصْلِ مُطْلَعِ غُصْنًا أَوْ كَأَشْرَاكَ الَّذِي قَدْ قُدَّ مِنْ أَدَمَ  
 وَقَدْ خَطَوْتَ خُطَاهُمْ فِي مَا تَرَاهُمْ فَلَمْ يُذْثَمُوا إِذَنْ فِيهَا وَلَمْ تُذَمَّ<sup>(٣)</sup>  
 وَصِيَّتْ مُؤَلَى الْوَرَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ خَدَا فِي النَّاسِ أَشْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلَى عَآلَمٍ  
 سُلَالَةِ الْأَمْرَاءِ ، الْجِلَّةِ الْكَبْرَى ، الْعَلِيَّةِ الظُّهْرَاءِ ، الْقَادَةِ الْبُهَمِ<sup>(٤)</sup>  
 بَنُو مَرَيْنَ لِيُوثُ فِي عَرَيْنَ أَبْوَا رُؤْيَا قَرِينٍ لَمْ فِي الْبَأْسِ وَالْكَرَمِ  
 النَّازِلِينَ مِنَ الْبِيضَاءِ<sup>(٥)</sup> وَسَطِحِي فِي أَجْمَى مِنَ الْأَبْلَقِ السَّامِي وَمِنْ إِرَامِ  
 وَالْجَائِسِينَ بِدُهُمِ الْخَيْلِ كُلِّ ذَرَى وَالِدَاعَسِينَ بِسَعْرِ الْخَطِّ كُلِّ كَمِي<sup>(٦)</sup>  
 يَرِيكَ فَارْسُهُمْ إِنْ هَزَّ عَامِلَهُ<sup>(٧)</sup> فِي مَازِقٍ<sup>(٨)</sup> بَلْظَى الْهَيْجَاءِ مُضْطَرَمِ

(١) فِي نَفْحِ الطَّيْبِ : « وَاعْطَى الْأَمَانَ » .

(٢) فِي ت : « رَسَتْ » .

(٣) لَمْ تُذَمَّ : لَمْ تَعْب . يُقَالُ : ذَامَهُ يَذِيعُهُ : إِذَا غَابَهُ .

(٤) الظُّهْرَاءُ : جَمْعُ ظَهِيرٍ ، وَهُوَ النَّصِيرُ . وَالْبُهَمُ : جَمْعُ بَهْمَةٍ (بِالضَّمِّ) وَهُوَ الْبَطْلُ الشُّجَاعُ

(٥) الْبِيضَاءُ : فَاسُ الْجَدِيدَةِ .

(٦) الْجَائِسِينَ : الَّذِينَ يَتَرَدَّدُونَ خِلَالَ الدُّورِ وَالْبِيوتِ فِي النَّارَةِ . وَكُلُّ ذَرَى : كُلُّ نَاحِيَةِ

وَالِدَاعَسِينَ : الطَّاعِنِينَ . وَسَعْرِ الْخَطِّ : الرَّمَاحُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الْخَطِّ ، وَهُوَ مَرْفَأٌ بِالْبَحْرَيْنِ

وَالْكَمَى : الْبَطْلُ الْمُنْسَتَرُ فِي سِلَاحِهِ .

(٧) عَامِلُ الرَّمْحِ : صَدْرُهُ .

(٨) فِي الْأَصْلَيْنِ وَنَفْحِ الطَّيْبِ : « مَارِقٌ » وَلَعَلَّهَا مَحْرَفَةٌ عَمَّا أُثْبِتَتْ .

- (١) لَيْثًا عَلَى أَجْدَلٍ عَارٍ مِنْ أجنحةٍ يَسْطُو بِأَرْقَمٍ لَدَاغٍ بغيرِ فمٍ  
 في اللام يُدْغِمُ مِنْ عَسَالِهِ أَلْفًا (٢) ولم نجد ألفًا أصلاً بِمدغمٍ  
 أهل الحفيظة يوم الرّوع يحفظهم من عصمة الله ما يُرَبِّي عَلَى العِصَمِ (٣)  
 بَأْسٌ (٤) تَطِيرُ شَرَارَةٌ مِنْهُ مَحْرَقَةٌ لكل مَدْرَعٍ بِالْحَزْمِ مُخْتَزِمٍ  
 هُمُ (٥) بِطَائِفَةِ التَّمَاثِيلِ قَدْ فَتَكُوا كَمَثَلِ مَا يَفْتِكُ السَّرْحَانَ بِالنَّعْمِ (٦)  
 وَإِنْ يَلْمُسُهُمْ يَوْمَ الوغَى رَهْجٌ أَنْسَوْكَ مَا ذَكَرُوهُ عَنْ ذَوَى اللُّثْمِ (٧)  
 تَضَى آرَأُوهُمْ فِي كُلِّ مُعْضَلَةٍ إِضَاءَةَ السَّرْجِ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلْمِ  
 هَذَا وَلَوْ مِنْ حَيَاءٍ ذَابَ مَحْتَشِمٌ لَدَابٍ مِنْهُمْ حَيَاءٌ كُلُّ مَحْتَشِمٍ  
 طَابَتْ مَدَائِحُهُمْ إِذْ طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ فَاشْتَقَّتْ النَّسَمَاتُ اسْمًا مِنَ النَّسَمِ  
 لِلَّهِ دَرُّهُمْ وَالسَّحْبُ بِاخْتِالَةٍ بَدَّرَهُنَّ عَلَى الْأَنْعَامِ وَالنَّعَمِ  
 بِحَيْثِ الْأَفْقِ يَرَى مِنْ لَوْنِ حُمْرَتِهِ كَالشَّيْبِ يُخْضَبُ بِالْحِنَاءِ وَالسَّكْتَمِ (٨)

(١) الأجدل : الصقر ، شبه به الحصان في سرعة انقضاضه . والأرقم : الثعبان ، شبه به الرمح .

(٢) اللام : مسهلة عن اللأم ، جمع لأمة ، وهي الدرع . والعسال : الرمح اللدن ، وقد شبهه في استقامته بالألف . وفي البيت توريه .

(٣) العصم : ما يعتصم به الناس في الحرب من معاقل وشبهها . يريد أنهم محوطون من عناية الله وحياطته بما لا تفي بمثله المعائل والحصون .

(٤) في ت ونفح الطيب : « يامن » .

(٥) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ت : « وهم » .

(٦) السرحان : الذئب .

(٧) كذا في ت ونفح الطيب . والرهج : الغبار تثيره الحرب . وفي ط : « وهيج » . وذوو اللثم : يريد اللثمين ، قبائل من البربر عرفوا بالشجاعة .

(٨) السكتم (كسب) : نبت يستعمل في خضاب الشعر . يصفهم في هذا البيت والذي قبله بالجود في أزمان القحط والشدة .

[١٠]	<p>(١) يُحْيِي بِالْأَجْدَاثِ مَا فِيهَا مِنَ الرِّثْمِ</p> <p>(٢) إِذَا أَلَمَّتْ أَحَادِيثَ بَذِكْرِهِمْ</p> <p>(٣) « مِنْ الْمَعْقَةِ وَالْآفَاتِ وَالْإِثْمِ »</p> <p>فَلَمْ يُضِرْ نَازِلٌ فِيهِمْ وَلَمْ يُضْمِ</p> <p>(٤) يُغْمُّ مِنْهَا بِمَا يَعْرِو مِنَ الْغَمِّ</p> <p>مَا قَدْ أَنْفَقَ عَلَى الْأَطْوَادِ (٦) مِنْ هَمِّ</p> <p>حَتَّى يَكُونَ إِلَيْهِمْ مُلْقِي السَّلَامِ</p> <p>(٧) يُقَرِّطِسُ الْغَرَضَ الْمَقْصُودَ بِالْفَهْمِ</p> <p>(٨) أَمْدَاحَهُ حُسْنَ مَا فِيهِ مِنَ الشِّيمِ</p> <p>(٩) فِي أَصْلِهِ الْمُنْتَقَى مِنْ مَجْدِهِ الْعَمِّ</p>	<p>هَنَّاكَ تَنْهَلُ أَيْدِيَهُمْ بِصُوبٍ حَيًّا</p> <p>وَإِنَّ بَيْتِي زِيَادٍ طَالَمَا ذُكِرَا</p> <p>« أَحْلَامَ عَادَ وَأَجْسَادَ مُطَهَّرَةً</p> <p>يَرَوْنَ حَقًّا عَلَيْهِمْ حَفْظَ جَارِهِمْ</p> <p>فَرُوعُهُ (٤) بِالِدَوَاهِي لَا يُرَاعَ وَلَا</p> <p>هَمَّ الْبِحَارِ سَمَّاحًا غَيْرَ أَنْ بَهَا</p> <p>وَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْ حَتْفِ مَحَارِبُهُمْ</p> <p>كَمْ فِيهِمْ مِنْ أَمِيرٍ أَوْحَدٍ نَدَسٍ</p> <p>وَلَا كَسِبْتَ أَبِي حَشُونٍ مَنْ حَسُنَتْ</p> <p>هَذَا كُمْ ابْنُ أَبِي زَكْرَى الْهَمَامُ فُقِلَ (٩)</p>
------	---	---

- (١) تنهل : تفيض ، وصوب الحيا : ماء المطر ، والأجدات : القبور .
- (٢) زياد : هو النابغة الذبياني .
- (٣) المعقة : العقوق ، والإثم : جمع لئمة ، وهي الإثم . وهذا البيت من مقطوعة للنابغة أبياتها أربعة في مدح الغساسنة ، وقبلة :
- هم الملوك وأبناء الملوك لهم فضل على الناس في اللاواء والنعم  
ولعل الناظم يعني هذين البيتين .
- (٤) كذا في الأصلين . وفي نفتح الطيب : « فروعهم » .
- (٥) الروع : موضع الفزع من القلب .
- (٦) كذا في ت وفتح الطيب . وفي ط : « الأطرء » .
- (٧) الندس ( كعضد وكتف وسهم ) : الفطن الفهم . ويقرطس الغرض : يصيبه .
- (٨) أبو حسون : هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى بن زيان الوطاسي ، يعرف بأبي حسون الباذسي ، بويج بغاس أول مرة سنة اثنتين وثلاثين وتمتع منه . ( انظر بقية أخباره في الاستقصا للسلاوي ) .
- (٩) زكري : يريد زكرياء وفيه لغات ، منها زكري ( كعربي ) بتشديد الياء وتخفيفها ، وبهذه الرواية الأخيرة جاء هنا مع إسكان الكاف ، ليستقيم الوزن .
- (١٠) العمم : التام .

خليفةُ الله حقا في خليفته  
 كُنائبُ نابٍ في حكمٍ عن الحكمِ  
 مهما تُنزلُ قِسِمَاتُ<sup>(١)</sup> منه نيرةً  
 تُنزلُ بنانٌ له ما جَلَّ من نعيمٍ<sup>(٢)</sup>  
 فَوَجْهُهُ بِدُجَى وَكَفَّهُ بِجَدَا  
 أبهى من الزهراءِ أو أندى من الدِّيمِ<sup>(٣)</sup>  
 وفضله وله الفضل المبينُ جرى  
 كجرى الأمثال في الأقطار والأُم  
 وجودُهُ المتوالى للبرية ما  
 وجوده بينها طرًا بمنهدم  
 إذا ابتغت نِعْمًا منه العفاة له  
 لم يسموا كلمة منه سوى نعمٍ  
 وإن يعبسُ زمانٌ في وجوههم  
 لم يبصروا غير وجهه منه مُبتسمٍ  
 وجهه تبيين سِمَاتِ المَكْرُمَاتِ به  
 وراحةٌ لم تزل في كل آونةٍ  
 كما تبين سِمَاتُ الصِّدْقِ في الكلامِ  
 في<sup>(٤)</sup> نيلها راحة الشاكي من العُدْمِ  
 لله ما التزمته من نوافله  
 أيامَ لا فَرَضَ مفروضٌ بملتزمٍ  
 أنسى الخلائفَ في حلم وفي شرفٍ  
 وفي سخاء وفي علم وفي فقهٍ  
 فجاز معتمداً منهم ومُعْتَضِداً  
 وناصرَ الدين في الإقبالِ فائقٍ وفي  
 أفعالِ أعدائه معتلةٌ أبداً  
 امتياز عن قائمٍ منهم ومعتصمٍ  
 محبَّةَ العلمِ أزرى بابنه الحكمِ  
 متى<sup>(٥)</sup> يَرُمُ جزمها بالحذف تنجزم

(١) رواية هذا البيت في ط .

مهما نسم قسِمَات منه نيرة تنزل بنازله ما جل من نعم

(٢) قسِمَات الوجه : ما أقبل منه ، أو محاسنه .

(٣) الجدا : العطاء . والدِّيم : جمع ديمة ، وهي عطر يدوم أياما .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « من » .

(٥) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « حتى » .

- [٤١] فويل أهل القلأمن حية ذكري (١) [الملتئب (٢) | اللهم المجرم المتقم (٣)]  
 رأوا عداوة من إن شاء غادرهم مثل الأحاديث عن عادٍ وعن إرم  
 فسوف يأكلهم من جيشه لجب (٤) بكل قرم إلى لجمانهم قرم (٤)  
 وإن الأعراب إذ ساروا لغابته اسأروا إلى أقم على أقم (٥)  
 وهم كما قاله ماض : أرى قدمي بسعيه نحو حثني قد أراق دمي (٦)  
 فقل إذن للمناوي النأوي الآن الأذي ياغر (٧) غرك ما أبصرت في الحلم  
 له صوارم لو ناجت ك السنها لبشرك بعمر منك منصرم  
 وإن روك عن قرب سيقبضه قبض المسلم ما قد حاز من سلم (٨)  
 فهو الذي ما له نذ يشابهه من كل منصف بالدهي (٩) منقسم  
 يدبر الأمر تدبيراً يخلصه مما عسى أن يرى فيه من الوهم  
 ويُبصر الغيب لحظ الذهن منه إذا تعمى عن أدراكه الحافظ كل عم

- (١) حية ذكر : شهم .  
 (٢) كذا في نفح الطيب ، ويريد بالملتئب : الجيش الممتد . وفي ت : « الملتئب ، وهو تحريف . وسقطت هذه الكلمة من ط .  
 (٣) اللهم والجر : هما بمعنى الجيش العظيم .  
 (٤) اللجب الجيش الكثير ، والقرم : السيد . واللحان . جمع لحم . وقرم (ككتف) : شديد الشهوة لأكل اللحم .  
 (٥) كذا في ت ونفح الطيب . واللقم : الأكل ، ويريد به الافتراس ، واللقم (بالتحريك) وسط الطريق . وفي ط : « ... نم على لغم » .  
 (٦) يشير إلى قول أبي الفتح البستي :  
 إلى حثني سعي قدمي أرى قدمي أراق دمي  
 (٧) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « يغر » .  
 (٨) المسلم : المسلف ، الذي يعطي ذهباً أو فضة على سلعة معلومة إلى أجل معلوم .  
 والسلم : البيع المبيع المؤجل قبضه .  
 (٩) الدهي والدهاء : الفكر وجودة الرأي .

وَيُنِيمُ <sup>(١)</sup> النظرَ المُفْضِي بناظره	اصوبِ وجهِ صوابٍ واضح اللقم <sup>(٢)</sup>
ذو مَنْطِقٍ لم تزل تجلو نتائجهُ	عن مُبْطِلٍ بِمُخْصَمٍ المِبْطِلِ الخَصْمِ <sup>(٣)</sup>
وَمِمْسَعٍ ليس يُصْغِي للوشاةِ فلم	يَنْفِقُ لديه الذي عنهم إليه نُعِي <sup>(٤)</sup>
فَعَقَلَهُ لا توازيه العقول وهَلْ	يوازِنُ الطودَ ما قد طال من أكم
إِيهِ جميعِ الوري من بدو أو حَضِرِ	نِداءً مُرْتَبِطٍ بالنصْحِ مُرْتَسِمِ <sup>(٥)</sup>
شُدُّوا وجِدُّوا ولا تَعْنُوا ولا تَهِنُوا	قد لَفَّها اللَّيْلُ بالسَّوْاقَةِ الحِطَمِ <sup>(٥)</sup>
هذا الأَمِيرُ <sup>(٦)</sup> العَرِيضِيُّ السَّمِيدُ لَهُ	سَعْدٌ يُؤَيِّدُهُ في كُلِّ مُصْطَدَمِ
قد أَقْسَمَتْ أَنَّهُ المَنْصُورُ السَّنَةُ	من نُخْبَةِ الأَوْلِياءِ مَبْرُورَةُ القَسَمِ
فَشِيئَمُوهُ ووالوه تَرَوُا عَجَبًا	وتظفَرُوا مَعَهُ بالأَجْرِ والغنمِ <sup>(٧)</sup>
والحمد لله إِذْ أَبَقِيَ خِلافَتَهُ	كَهِنًا لَنَا مَنْ يُخَيِّمُ فِيهِ لَمْ يَرَمِ <sup>(٨)</sup>
حِرْزُ حَرِيرِ وَعِزُّ قَائِمِ وَنَدَى	غَمْرُ دِرَاكٍ بلا مَنْ ولا سَأَمِ <sup>(٩)</sup>

(١) كذا في نفع الطيب . وإنعام النظر : تدقيقه . وفي الأصلين : يعم . وهو يتعدى بحرف الجر . يقال : أعمت في الأمر ، أى أبعده فيه .

(٢) اللقم (كسب) : وسط الطريق .

(٣) الخصم (ككتف) : الجدال الشديد الخصومة . يريد أنه يبطل حجج خصمه بقوة بيانه .

(٤) ينفق : يروج . ونعى لاله : وصل لاله .

(٥) لا تعنوا : لا تخضعوا وتدلوا . ولا تهنوا : لا تضعفوا . ولفها : جمعها ، والضمير

في الأصل للإبل ، والسواقة : السواق ، والتاء للبالغة . والحطم : الشديد السوق ؛ وهذا مثل . يريد أن متولى أمرهم ، وهو المدوح ، رجل قوى شديد .

(٦) في نفع الطيب : « الإمام » .

(٧) شيعوه : ناصره . والغنم (بالتحريك) : الغنم ، كالغنم (بالضم) .

(٨) لم يرم : أى يعز على من يطلبه .

(٩) غمر : كثير . ودراك : متتابع متلاحق .

دامت ودام لها سَعْدٌ يساعدها	في كل مُبتدأٍ منه <sup>(١)</sup> ومختتم <sup>(٢)</sup>
فالله — عز اسمه — قد زانها بحلى	من غُرِّ أمداحه كاللُّدر في النظم <sup>(٣)</sup>
الواهب الألف بعد الألف من ذهب	كالجَمْر يلع في مُستوقد الضرم <sup>(٤)</sup>
والفاعلُ الفعل لم يَهْمُ به أحد	والقائل القول فيه حكمة الحكم
ذا كم هو الشيخ فاعجب إنه هَرَم <sup>(٥)</sup>	جودا وحاشاه أن يُعزى إلى هَرَم <sup>(٥)</sup>
وحسبنا أن أيدينا به اعتصمت	من حَبْلِه بوثيق غير مُنفصم
فما مُحالِفُه يوماً بمُضطهد	ولا مؤالفُه يوماً بمهتضم
ولا موافيه في جهْدٍ بمطرح	ولا مُصافيه في ودِّ بمُتهم
ولا مُحَيَّا مُحَيِّيه بمُكسِف	ولا رجاء مُرَجِّيِه بمُنخرم <sup>(٦)</sup>
وما <sup>(٧)</sup> تَكَرُّه سِرًّا <sup>(٨)</sup> بمُنكسِف	ولا تَنكُّرُه جهراً بمُكتم
وليس لامِحُ مرآه بمُكتسب	وليس راضع جدواه بمُنقطم
ولا مُقبِلُ يَمناه الكريمة في	محلِّ مُمتنِّ بل دَسْتِ مُحترم <sup>(٩)</sup>
وما وسيلتنا العُظمى إليه سَوَى	ما ليس يُنكر ما فيها من العِظم
وإنما هي وَمَا أدراك ما هي مِنْ	وسيلةٍ رُدِّها أذهى مِنَ الرَضَمِ <sup>(١٠)</sup>

(١) في نفع الطيب طبعة أوربة : « منها » .

(٢) النظم : جمع نظام ، وهو الحيط ينظم فيه الحرز ونحوه .

(٣) في ط : « الظلم » .

(٤) يريد أن المدوح مثل هرم بن سنان ، ومدوح زهير بن أبي سلمى ، المزني .

(٥) في نفع الطيب طبعة أوربة : « الهرم » .

(٦) بمنخرم : أى بمنقطع .

(٧) في نفع الطيب (طبعتى أوربة ومصر) : « ولا » .

(٨) في ط : « يوماً » .

(٩) يريد بالذست : المكان الكريم ، مأخوذ من دست البيت ، وهو صدره .

(١٠) كذا في ط . والرضم : صخور عظام . وفي ت : « الوخم » .

نبينا المصطفى الهادي بخير هدى محمد خير خلق الله كلهم  
 داعي الوري من أولي خيم وأهل قرى إلى طريق رشاد لأحب أمم (١)  
 عليه منا صلاة الله ما ذكرت « أمن تذكر جيران بندي سلم » (٢)  
 وما تشفع فيها بالشفيع له دخيل حرمة العلياء في الحرم (٣)

« ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .  
 « أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » . « ربنا عليك توكلنا  
 وإليك أنبنا وإليك المصير » . « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين  
 لا مولى لهم » . « نعم المولى ونعم النصير » .

أما بعد حمد الله الذي لا يُحمدُ على السراء والضراء سواه ؛ والصلاة والسلام  
 على سيدنا ومولانا محمد ، الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح ، يدعو إلى سبيل  
 كل فلاح ، أولي قلوب غافلة ، ونفوس سواه ؛ والرضا عن آله وأصحابه ، وعترته  
 الأكرمين وأحزابه ، الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ،  
 وعنروه ونصروه في حال قربه ونواه . [ ٤٣ ]

فيا مولانا ، الذي أولانا من النعم ما أولانا ؛ لاحظ الله تعالى لكم من العزة  
 رواقا (٤) ، ولا أذوى لدوحة (٥) دولتكم أغصانا ولا أوراقا ؛ ولا زالت مخضرة  
 العود ، [ مبتسمة (٦) ] عن زهرات البشائر متحففة بثمرات السعود ، ممطورة

(١) . أهل خيم : أي ساكني الحيام . واللاحب : الواضح . والأمم : البين . وقد ورد

الشطر الأول من هذا البيت في طه كندا :

« داعي الوري من أولي من أهل خيم قرى »

(٢) هذا الشطر مطامق تصيدة البردة المشهورة للبوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) الدخيل : اللاجئ . والحرمة : النمة .

(٤) الرواق : الحنية . يدعوله بدوام ارتفاع المنزلة .

(٥) الدوحة : الشجرة الواسعة الظلال . وأذوى : أذبل وأضعف .

(٦) زيادة عن ت وقع الطيب .

بسحائب البركات المتداركات دون برُوق<sup>(١)</sup> ولا رعود :

هذا مقام العائد بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى اعواطف قلوبكم ،  
وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج<sup>(٢)</sup> اللسان عند  
محاولة<sup>(٣)</sup> مفاتحة كلامكم ؛ وماذا الذي يقول من وجهه خجل ، وفؤاده وجل ،  
وقضيته المفضية عن التنصل والاعتذار تحل ؛ بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي ،  
واجترأى عليه أكثر ، واجترأى<sup>(٤)</sup> إليه أكبر : اللهم لا برى : فأعذر ، ولا قوى  
فأنصر ، لكنني مُستقيل<sup>(٥)</sup> مُستنيل<sup>(٦)</sup> مستعتب<sup>(٧)</sup> مستغفر ؛ « وَمَا أُرِيئُ  
نفسى ، إن النفس لأَمَارَةٌ بالسوء » . هذا على طريق التنزل والاتصاف ، بما  
تقتضيه الحال من يتجهز إلى خير الإنصاف ؛ وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته  
الأمّ ابنة الصديق<sup>(٨)</sup> : « والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس ، والله يعلم  
أنى منه بريئة<sup>(٩)</sup> ، لأقولن<sup>(١٠)</sup> ما لم يكن ، وإن أنكرت ما تقولون لا تصدقوننى ،  
فأقول ما قاله أبو يوسف<sup>(١١)</sup> : صَبْرٌ جَمِيلٌ ، والله المُسْتَعَانُ على ماتصفون » .  
على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا مَعْدِنُ العيوب ، ولا أجد ذنوبى ، فأنا

- ( ١ ) فى ت ونفح الطيب : « برق » .  
( ٢ ) فى ط : « والمتلجلج » .  
( ٣ ) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « عند مفاتحة » .  
( ٤ ) اجترأى : ذنبى .  
( ٥ ) مستقيل : طالب الإقالة من العثرة .  
( ٦ ) مستنيل : طالب النوال .  
( ٧ ) مستعتب : طالب العتبى ، وهى الرضا .  
( ٨ ) يريد أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق .  
( ٩ ) كذا فى نفح الطيب وسيرة ابن هشام . وفى الأصلين : « برىء » .  
( ١٠ ) كذا فى سيرة ابن هشام . وفى نفح الطيب وط : « لأقول » . وفى ت : « لأقول » .  
( ١١ ) تريد سيدنا يعقوب عليه السلام .

جَبَلِ الذُّنُوبِ ؛ إِلَى اللَّهِ أَشْكُو عُجْرِي وَبُجْرِي <sup>(١)</sup> ، وَسَقَطَاتِي وَغَلَطَاتِي . نَعَمْ ،  
 كُلُّ شَيْءٍ وَلَا مَا يَقُولُهُ الْمُتَقَوِّلُ ، الْمَشْنَعُ الْمَهْوَلُ ، النَّاطِقُ بِفَمِ الشَّيْطَانِ الْمُسَوَّلِ .  
 وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : « سُبِّبْنِي وَاصْدُقْ » ، وَلَا تَفْتَرِ وَلَا تَخْلُقْ ؛ فَمِثْلِي كَانَ يَفْعَلُ أَمْثَالَهَا ،  
 وَيَحْمِلُ <sup>(٢)</sup> مِنَ الْأَوْزَارِ الْمَضَاعِفَةِ أَحْمَالَهَا ، وَيُهْلِكُ نَفْسَهُ وَيُحْبِطُ أَعْمَالَهَا ؛ عِيَاذًا  
 بِاللَّهِ مِنْ خُسْرَانِ الدِّينِ ، وَإِثَارِ الْجَاهِدِينَ وَالْمُعْتَدِينَ ، قَدْ ضَلَّاتِ إِذْنٌ وَمَا أَنَا مِنَ  
 الْمُهْتَدِينَ . وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ شَعْرَةً فِي فَوَادِي <sup>(٣)</sup> تَمِيلُ إِلَى تِلْكَ الْجِهَةِ لَقَلَعْتُهَا ، بَلْ  
 لَقَطَفْتُ <sup>(٤)</sup> مَا تَحْتَ عِمَامَتِي مِنْ هَامَتِي وَقَطَعْتُهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ الرَّعَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانَ ،  
 لِلْمَلِكِ أَعْدَاءٌ وَعَلَيْهِ أَحْزَابٌ وَأَعْوَانٌ ، كَانَ أَحَقُّ وَأَجْهَلُ مِنْ ابْنِ ثُرَوَانَ <sup>(٥)</sup> ،  
 أَوْ أَعْقَلَ وَأَعْلَمُ مِنْ أَشْجِ بْنِ مَرْوَانَ <sup>(٦)</sup> ؛ وَرُبَّ مُتَّهَمٍ بَرِيٍّ ، وَمُسْرِبَلٍ بِسْرِبَالٍ  
 وَهُوَ مِنْهُ عَرِيٌّ <sup>(٧)</sup> ؛ وَفِي الْأَحَادِيثِ صَحِيحٌ وَسَقِيمٌ ، وَمَنْ التَّرَاكِيِبِ الْمُنْطَقِيَّةِ مُنْتَجِعٌ  
 وَعَقِيمٌ ، وَلَسْكَنَ تَمَّ مِيزَانَ عَقْلٍ ، تُعْتَبَرُ بِهِ أَوْزَانُ النُّقْلِ ؛ وَعَلَى الرَّاجِحِ الْإِعْتِمَادُ <sup>(٨)</sup> ،  
 ثُمَّ إِشَاعَةُ الْإِحْمَادِ ، الْمُتَّصِلُ الْمُتَمَادُ ؛ وَلِلرَّجُوحِ الْأَطْرَاحُ ، ثُمَّ الذَّمُّ الصُّرَاحُ ،  
 بَعْدَ النُّفُضِ <sup>(٩)</sup> مِنَ الرَّاحِ ؛ وَأَكْثَرُ مَا تَسْمَعُهُ الْكُذْبُ ، وَطَبَعَ جُمْهُورُ الْخَلْقِ إِلَّا مِنَ

[٤٤]

(١) العجر والبجر (هنا) : العيوب والأحزان وما يبدي المرء وما يخفي . والعجر

(في الأصل) : العروق المتعمدة الناتئة . والبجر : ما تعقد منها على البطن خاصة .

(٢) في ط ونفح الطيب : « ويحتمل » .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : من « فوادي » .

(٤) كذا في ط . والقطف : القمع . وفي ت : « بل لقلعت » ، وهو تحريف .

(٥) كذا في أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ، والمضاف والمنسوب للثعالبي . وهو

هبنقة القيسية يزيد بن ثروان ، المعروف بندي الودعات ، وهو مثل في الحمق والجهل .

وفي ط : « من أبي ثوران » . وفي ت : « من أبي ثروان » . وكلاهما تحريف .

(٦) أشج بن مروان : هو عمر بن عبد العزيز ، لأنه كانت به شجة .

(٧) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « ومسربل بسربال عار وهو منه عري » .

(٨) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « وعلى الراجح على الاعتقاد » .

(٩) في ت : « النفاض » .

عصبةُ الله<sup>(١)</sup> إليه منجذب ؛ ولقد قَدِفْنَا من الأباطيل بأحجار ، ورُمِينَا بما لا يُرْمَى<sup>(٢)</sup> به الكُفَّار ، فضلا عن الفُجَّار ؛ وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمر ، ما لكم منه حفظ الجُبَّار<sup>(٣)</sup> ؛ وإذا عظم الإنكاء<sup>(٤)</sup> ، فعلى تُكَاة التجلُّد الأتكاء ؛ أكثر المكثرون ، وجهد<sup>(٥)</sup> في تعشيرنا المتعشرون ؛ ورَمَوْنَا عن قوس واحدة ، ونظمونا في سلك الملاحِده ؛ أ كُفِّرَا أيضاً كُفِّرَا ! غَفْرَا اللَّهُمَّ غَفْرَا ؛ أَعِدْ نظراً يا عبدَ قيس ، فليس الأمر على ما خُيِّل<sup>(٦)</sup> لك لَيْس ؛ وهل زِدْنَا على أن طَلَبْنَا حَقَّنَا ، ممن رام تحققه وتَحَقَّنَا ؟ فطارِدْنَا في سبيله عُدَاة كانوا لنا غَائِظِينَ ؛ فانفتق علينا فَنَق ، لم يمكننا له رَتَق ، وما كنا للغيب حافظين .

وبعد ، فاسأل أهل الحل والعقد ، والتمييز والنقد ؛ فعند جهيبتهم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضيينا بحكمهم يُؤْتِمِنَا فَيُؤَيِّقُنَا ، أو يُبْرِئُنَا فَيَقِينَا . إيه يامن اشْرَابَ إلى مَلَامِنَا ، وقدح حتى في إسلامنا ؛ رَوَيْدَا رويدا ، فقد وجدت قوة وأيدَا ؛ ويحك ، إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء إلينا ؛ لأن الزمان لنا مُصْغِرٌ ، ولك مُكْبِرٌ ، والأمر عليك مُقْبِلٌ ، وعنَّا<sup>(٧)</sup> مُذِيرٌ ، كما قاله كاتب الحجاج المدبِّر<sup>(٨)</sup> .

(١) في ط : « إلا من عظم الله » .

(٢) في ت : « بما لم يرم » .

(٣) كذا في ت . ورواية هذه العبارة في ط : « وجرى ... وعمر ما يريكم منه حفظ الجار » . وفي نفع الطيب : « وجرى ... وعمر ما لديكم منه حفظ الجار » ، وظاهر أنهما محرفتان عما أثبتناه .

(٤) كذا في ت ونفع الطيب . والإنكاء : شدة النيل من العدو . وفي ط : « وإذا علم الإنكار » .

(٥) في ط : « وجهر » .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « ما خيلت لك » .

(٧) في ت : « علينا » وهو تحريف .

(٨) كاتب الحجاج : هو يزيد بن أبي مسلم . يشير إلى رد يزيد على سليمان ابن =

وعلى الجملة ، فهبنا صبرنا إلى تسليم مقالك جدلاً ، وذهبنا فأقررتنا بالخطأ  
في كل وِرْدٍ وصدَرَ ، فله دَرُّ القائل :

إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأ القَدْرُ<sup>(١)</sup>

وكاننا<sup>(٢)</sup> بمتسِف<sup>(٣)</sup> إذا وصل إلى هنا ، وعدم إنصافه يعلمه الهنا<sup>(٤)</sup> ؛  
قد ازور متجانفا<sup>(٥)</sup> ، ثم افتتر متهانفا<sup>(٦)</sup> ، وجعل يمثّل بقولهم :  
« إذا عيروا قالوا مقاديرٌ قدّرتُ »

وبقولهم : « المرء يعجز لا محالة<sup>(٧)</sup> » ؛ فيعارض الحق بالباطل ، والحالي  
بالعاطل ، وينزع بقول القائل : « رُبُّ<sup>(٨)</sup> مُسمِع هائل ، وليس تحته من  
طائل<sup>(٩)</sup> » . وقد فرغنا أول أمس<sup>(١٠)</sup> من جوابه ، وتركنا الضغن يلبصق حرارة

== عبد الملك حين دخل عليه فتنقصه سليمان وسب الحجاج : « إنك رأيتني والأمر

عنى مدبر ، ولو رأيتني والأمر على مقبل استعظمت من أمرى ما استصغرت » .

(انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ طبعة الفتوح سنة ١٣٣٢ هـ) .

( ١ ) هذا معجز بيت لأبي العتاهية ، وصدوره :

هي المقادير فلمنى أو فندر

( ٢ ) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصليين : « وكان » .

( ٣ ) فى ت : « بمتسِف » .

( ٤ ) يريد بالهنا : جمع هنة ، وهى العيب . والذى فى كتب اللغة أنها تجمع على هنات

وهنوات .

( ٥ ) ازور متجانفا : مال متباعدا .

( ٦ ) كذا فى ط ونفح الطيب . وافتتر متهانفا : أى فتح فاه ضاحكا مستهزئا . وفى ت :

« متهانفا » وهو تصحيف .

( ٧ ) فى ط : « لا المحالة » .

( ٨ ) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصليين « ذى » . وهو تحريف .

( ٩ ) كذا فى ط . وفى ت : « وليس من تحته من طائل » . وفى نفح الطيب :

« وليس تحته طائل » .

( ١٠ ) أول أمس : أى بكرته ومبتدأه . والمسموع من العرب عند إرادة اليوم السابق

لأمسك « أول من أمس » .

الجَوَى به ؛ وَسُنِّمٌ<sup>(١)</sup> الآنَ بما يُوسِعُهُ تسكينًا ، وَيَتَقَطَّعُهُ تَبْكِيتًا . فنقول له :  
 ناشدناك الله تعالى ، هل اتفق لك قَطُّ وَعَرَضٌ ، خروج أمر ما على القصد منك  
 فيه والغرض ؛ مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك ، في وقوعه على وَفْقٍ  
 اقتراحك ومُرادك ؟ أو جميع ما تراوله بإدارتك ، لا يقع إلا مطابقًا لإرادتك ؟ [هـ ؛  
 أو كل ما تقصده وتنويه ، تُحَرِّزُهُ كما تشاء وتحويه ؟ فلا بُدَّ أن يُقَرَّرَ اضطرابًا ،  
 بأن مطلوبه يَشِدُّ عنه مِرارًا ؛ بل كثيرًا ما يُفَلِّتُ صيده من أشراكه ، ويطلبه  
 فيعجز عن إدراكه ؛ فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل : أيها النبيه النبيل ؛ ثم  
 نسرد له من الأحاديث النبوية ماشينًا ، مما يُسائرنا في غرضنا منه ويماشينا ،  
 كقوله صلى الله عليه وسلم : « كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس » .  
 وقوله أيضا : « لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض على أن ينفعوك بشيء ،  
 لم يقض الله لك ، لم يقدرُوا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقض  
 الله عليك ، لم يقدرُوا عليه<sup>(٢)</sup> » ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم . فأخلاقُ به أن  
 يلوذ بأكناف الإحجام ، ويزم على نَفْثَةٍ فيه كأنما ألجم بالجام ؛ حينئذ نقول  
 له ، والحق قد أبان وجهه وجلاله ، وقهره بحجته وعلاؤه : ليس لك من الأمر شيء  
 قل إن الأمر كله لله . وفي محاجة آدم موسى<sup>(٣)</sup> ما يقطع لسان الخصم ، ويرحض<sup>(٤)</sup>  
 عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَنِ الوَصْمِ ؛ وكيفما كانت الحال ،  
 وإن أساء الرأي والانتحال ، ووقعنا في أوجال وأوحال ؛ فثُلَّ عَرَشُنَا ، وطويت  
 فُرُشُنَا ، ونكس لوأوثنا ، ومُلِكْ مَسْوَانَا ، فنحن مثل من سوانا ؛ وفي الشر خيار ،

(١) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « ونسلم » ، وهو تحريف .

(٢) الذي في الأربعين النووية : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء  
 لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك  
 إلا بشيء قد كتبه الله عليك » .

(٣) راجع صحيح البخارى في تفسير قوله تعالى « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . ويرحض : يغسل . وفي ت : « يدحض » ، وهو تحريف .

ويد اللطائف تنكسر من صولة الأغيار<sup>(١)</sup> ؛ فحتى الآن لم نقتد من اللطيف تعالى  
لطفاً ، ولا عدمننا<sup>(٢)</sup> أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المتطوعة مجان  
النعم الموصولة عطفاً ؛ وإلا فتلك بغداد دار السلام ، ومثبواً الإسلام ، الحفوف  
بفرسان السيوف والأقلام ؛ مثابة الخلافة العباسية ، ومقر العلماء والفضلاء أولى  
السير الأويسية<sup>(٣)</sup> ، والعمول الإياسية<sup>(٤)</sup> ؛ وقد نُوزلت بالجيوش ونُزلت ،  
وزووت بالزحوف<sup>(٥)</sup> وزلزلت ؛ وتحييف<sup>(٦)</sup> جوانبها الحيف ، ودخلها كنفار التتار  
[عنوة]<sup>(٧)</sup> بالسيف ، ولا تسل إذ ذاك عن كيف ؛ أيام تجلت عروس المنية ،  
كاشفة عن ساقها مُبديّة ، وجرت الدماء في الشوارع والطرق [كالأنهار]<sup>(٧)</sup>  
والأودية ، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم في رقابهم  
والأردية ؛ وللنجيع<sup>(٨)</sup> سيول ، تخوضها الخيول ؛ فتخضبها إلى أرساغها ، وتهم  
ظاؤها بوردها ، فتنسكل عن تجرّعها ومساغها ؛ فطاح عاصمها ومستعصمها ،  
وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها ؛ وخربت مساجدها وديارها ، واضطلم<sup>(٩)</sup> بالحسام  
أشرارها وخيارها ؛ فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف ، حسبا عرفت أو حسبا  
تعرف ؛ فلا تكن متشككا متوقفا ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند

[٤٦]

(١) يريد بالأغيار : تقلبات الدهر وأحداثه .

(٢) في ت : « ولعدمننا » وهو تحريف .

(٣) الأويسية : نسبة إلى أويس بن عامر القرني ، وهو من سادات التابعين زهدا وعبادة ،  
وقد قتل بصفين .(٤) الإياسية : نسبة إلى إياس بن معاوية ، قاضي البصرة في عهد عمر بن العزيز ، وكان  
معروفا بشدة زكاته ، وحسن قضائه ، وقوة جناه ، وفصاحة لسانه .

(٥) كذا في ط ونجح الطيب . وفي ت : « بالزحاف » .

(٦) تحيفه : تنقصه .

(٧) زيادة عن ت ونجح الطيب .

(٨) النجيع : الدم الأحمر .

(٩) اضطلم : استؤصل .

المؤرّخين من قفّا<sup>(١)</sup>؛ فأين تلك الحجاقل ، والآراء المُدَارّة في الحافل ؛ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر ، لم تُجَد ولا قَلامة ظُفَر ؛ إذن فَمَنْ سَلِمَتْ له نفسه التي هي رأس ماله ، وعبأله وأطفأله ، اللذان هما من أعظم آماله ؛ وكلُّ أو جُلُّ أو أقلُّ ريشه ، وأسباب معاشه ، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ؛ ثم وَجَد مع ذلك سبيلا إلى الخلاص ، في حال مُياسرة ومساهلة ، دون تعصب واعتياص<sup>(٢)</sup> ، بعد ما ظن كل الظن أن لا تحميدَ ولا مناص ؛ فما أحقه حينئذ وأولاه ، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه ؛ على ما أسداه إليه من رِفده وخيره ، ومعافاته مما ابتُلِيَ به كثير من غيره ؛ ويرضى بكل إيراد وإصدار ، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار ، فالدهر غدار ، والدنيا دار مشحونة بالأكدار ؛ والقضاء لا يُردُّ ، ولا يُصدِّ ؛ ولا يغالب ، ولا يطالب ؛ والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكمال للبدور ؛ والعبد مطيع لا مُطاع ، وليس يُطاع إلا المُستطاع ، والمخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع ؛ ومالي والتكاف لما لا أحتاج إليه من هذا القول ، بين يدي ذى الجلالة والمجادة والفضل والطول ؛ فله من العقل الأرجح ، ومن الخلق الأسجح ، ما لا تلتأط<sup>(٣)</sup> معه تهمتي بصفره<sup>(٤)</sup> ، ولا تنفق عنده وشاية الواشي ، لا عدَّ من نفره ، ولا فاز قدحُه بظفره ؛ وللمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب ، وتجرُّ براحتها إلى المتعاب ؛ وقد يما للأكياس من الناس خدعت ، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت ،

(١) يشير إلى المثل المضروب : « أشهر من قفا نيك » . وهي مطولة امرئ القيس المشهورة .

(٢) اعتناص الأمر عليه : اشتد والتأت ، فلم يهتد للصواب .

(٣) تلتأط : تلصق .

(٤) الصفر (بالتحريك) : اللب والعقل .

وفعلت بهم ما فعلت ، بيسار الكواعب التي جبت وجدعت<sup>(١)</sup> ، ولئن  
 رَهَصَتْ وهَصَرَتْ<sup>(٢)</sup> ، فقد نبهت وبصرت ، ولئن قرعت ومعضت<sup>(٣)</sup> ،  
 لقد أرشدت ووعظت ؛ ويا ويلنا من تفكرها لنا بمره ، ورميها لنا في غمرة  
 أي غمره ؛ أيام<sup>(٤)</sup> قلبت لنا ظهر المجن ، وغيم أفتها المصحى وأدجن<sup>(٥)</sup> ؛  
 فسرعان ما عايننا حبالها مُنبته ، ورأينا منها ما لم نحسب كما تقوم الساعة بغته ؛  
 فمن استعاذ من شيء ، فليستعذ مما صرنا<sup>(٦)</sup> إليه ، من الحور بعد الكور<sup>(٧)</sup> ،  
 والأنحطاط من النجد إلى الغور :

فبيننا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة<sup>(٨)</sup> نتنصف<sup>(٨)</sup>  
 فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف<sup>(٩)</sup>  
 وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقا ، وجرعتنا من صاب<sup>(٩)</sup> الأوصاب كأسا دهاقا<sup>(١٠)</sup> ؛  
 ولم نفرع إلى غير بابكم المنيع الجناب ، المنفتح حين سدت الأبواب ، ولم نلبس  
 غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملوك من الأنواب ؛ وإلى أمه يلجأ الطفل  
 لجأ الهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان<sup>(١١)</sup> ، ووجه الله تعالى

( ١ ) الجب والجدع : القطع . يشير بهذه العبارة إلى حادثة عبد يدعى يسارا راود بنت مولاة

عن نفسها ، ثبت مذا كيره ( انظر كتاب المضاف والمنسوب للثعالبي ) .

( ٢ ) الرهص والمهصر : العصر والأخذ الشديد .

( ٣ ) معضت : أغضبت .

( ٤ ) في ط : « وإن قلبت » .

( ٥ ) أدجن : أظلم .

( ٦ ) في ت : « سرنا » .

( ٧ ) الحور : النقص . والكور : الزيادة .

( ٨ ) نتنصف : نطلب النصفة ، وهي الإنصاف .

( ٩ ) كنا في ط ونفع الطيب . والصاب : عصارة شجر مر . وفي ت : « كأس » .

( ١٠ ) دهاقا : مملوءة .

( ١١ ) في ط : « تمتاز السيوف في الأجوان من الأجفان » . ويريد بالأجوان : جمع جون ،

وهو الظلام .

يبقى ، وكلُّ من عليها فان ، وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول : حسبي هذا (١) وكفان ؛ ولا ريب من اشتغال العِلمِ الكريم ، على ما تعارفته الملوكة بينها في الحديث والقديم ؛ من الأخذ باليد عند زلّة القَدَم ، وقرع الأسنان وعض البنان من النَّدَم ؛ ديننا به تَدَيَّنَتْ حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة أطردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان .

ولقد عَرَضَ علينا صاحب قَشْتَالَةَ مواضع معتبرة ، خير فيها وأعطى من أمانه ، المؤكِّد فيه خطُّه بأيمانه ؛ ما يقنع النفوس ويكفيها . فلم نر ، ونحن من سلالة الأحرار ، مجاورة الصُّفَر ، ولا سَوَّغَ لنا الإيمان الإقامة بين ظَهْرَانِي الكُفْر ؛ ما وجدنا على ذلك مَندُوحَةٌ ولو شاسعه ، وأمنا من المَطَالِبِ المُشَاغِبِ حُجَّةً شَرِّ لنا لاسعه ؛ وأدَّكرنا أيَّ أدِّكار ، قولَ الله تعالى المنكِرِ لذلك غاية الإنكار : « ألم تكن أرض الله واسعة » ؛ وقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام : « أنا بريء من مؤمن مع كافر لا تترأى نارهما (٢) » ؛ وقول الشاعر الحاثِّ على حَثِّ المطيِّب ، المتثاقلة عن السير في طريق مَنجَاتِهَا البَطِيَّةِ :

[٤٨]

وَمَا أَنَا وَالتَّلْدَدُ نَحْوِ نَجْدٍ      وَقَدْ غُصَّتْ نِهَامَةٌ بِالرِّجَالِ (٣)

(١) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الله » .

(٢) نص هذا الحديث في النهاية لابن الأثير ولسان العربي (مادة رأى) : « أنا بريء من كل مسلم مع مشرك ؛ قيل : لم يارسول الله ؟ قال : لا تترأى نارهما » . أي لا يحل للمسلم أن يسكن بلاد المشركين ، فيسكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه .

(٣) التلدد : التلفت . وفي الأصلين ونفح الطيب : « التلدد » . وهو تصحيف .

ووصلت [ أيضاً<sup>(١)</sup> ] إلينا ، من الشرق<sup>(٢)</sup> كتب كريمة المقاصد لدينا ؛  
تستدعي الأنحياز إلى تلك الجنّيات<sup>(٣)</sup> ، وتتضمن ما لا مزيد عليه من  
الرغبات ؛ فلم نختَر إلا دارنا ، التي كانت دار آباءنا من قبلنا ، ولم نرض  
الانضواء إلا لمن بحبله وُصِّلَ حَبْلُنَا ، وبريش نبله ريش نبلنا ؛ إدلالا على تحلّ  
إخاء متوارث لا عن كلاله ، وامتنالا لوصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالةً  
وجلاله ؛ إذ قد رَوَيْنَا عن سلف من أسلافنا ، في الإيضاء لمن يخلف بعدهم  
من أخلافنا ؛ ألا يَبْتَغُوا إذا دَهَمَ دَاهِمٌ بالحضرة المرينية بدلا ، ولا يجدوا  
عن طريقها في التوجّه إلى فريقها معدلا . فاخترقنا إلى الرياض الأريضة  
الفجاج ، وركبنا إلى البحر الفرات ظهر البحر الأجاج ؛ فلا غرؤ أن نرد منه  
على ما يُقِرّ العين ، ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ؛ ومن توَصَّلَ هذا  
التوصل ، وتوسل بمثل ذلك التوسل ؛ تطارحا على سُدّة أمير المؤمنين ، المحارب  
للمحاربين ، والمؤمن المستأمنين ؛ فهو الخليق الحقيقي ، بأن يُسَوِّغَ أصفى  
مشاربه ، ويُبلِّغَ أوفى مآربه ؛ على توالى الأيام والشهور والسنين ، ويخلص  
من الثُّبور إلى الحُبور ، ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ؛ ولعلّ  
شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة قبول إقباله تسرى إلينا ؛ فتخامرنا أريحية  
تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضى في الخليفة القادر :

عَطْفًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّا فِي دَوْحَةِ الْعِلْيَاءِ لَا نَتَفَرَّقُ  
مَا بَيْنَنَا يَوْمَ الْفَخَارِ تَفَاوَتْ أَبَدًا كَلَانَا فِي الْمَعَالَى مُعْرِقُ

(١) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٢) في ط : « المشرق » .

(٣) في ط : « الجهات » .

إلا الخلافة مَيَّرْتِكَ فإني أنا عاقل منها وأنت مَطْوَق  
 لا ، بل الأحرى بنا والأحجى ، والأصح لسعيها والأرجى ؛ أن نعدِل [٤٩]  
 عن هذا النهج ، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف  
 المحتاج ، ويفسد ما قال في الشيرازي ابن حجاج<sup>(١)</sup> :

الناس يَفْدُونكَ اضْطِرَّارًا      منهم وأفديك باختيارِ  
 وَبَعْضُهُمْ فِي جِوَارِ بَعْضٍ      وَأَنْتَ حَتَّى أَمْوَتَ جَارِي  
 فِعْشٌ لِحُبْرِي وَعِشْ لِمَائِي      وَعِشْ لِدَارِي وَأَهْلِ دَارِي

ونستوهب من المَنان الوهب تعالَى وجلت أسماؤه ، وتعاضمت نَمَاؤه ؛ رحمة تجمل  
 في يد الهداية أَعْتَنَّا ، وَعِصْمَةٌ تَكُونُ فِي مَوَاقِفِ الْخَوَافِ جُنْتَنَا ؛ وَقَبُولًا يُعْطَفُ  
 عَلَيْنَا نَوَافِرِ الْقُلُوبِ ، وَصُنْعًا يُسْتَنَى لَنَا كُلِّ مَرْغُوبٍ وَمَطْلُوبٍ ؛ وَنَسْأَلُهُ ، وَطَالَمَا  
 بَلَغَ السَّائِلُ سُؤْلًا وَمَأْمُولًا ، مَتَابَا صَادِقًا عَلَى مَوْضِعِ النَّدَمِ مَحْمُولًا ، ثُمَّ عَزَاءَ حَسَنًا  
 وَصَبْرًا جَمِيلًا ، عَنْ أَرْضِ أَوْرَثَهَا مِنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ مُعَقِّبًا لِهَمِّ مُدْبِلًا ، وَسَادِلًا  
 عَلَيْهِمْ مِنْ سُنُورِ الْإِمْلَاءِ<sup>(٢)</sup> الطويلة سُدُولًا ، « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ  
 وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » . فليَطِرْ طَائِرُ الْوَسْوَاسِ الْمُرْفِرِ مُطِيرًا ،  
 كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ، وَلَمْ نَسْتَطِعْ عَنْ مَوْرَدِهِ صُدُورًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ  
 قَدْرًا مَقْدُورًا .

(١) ابن حجاج : هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد الكاتب الشاعر . وهذه الأبيات

من أبيات حمزة قلما في أبي القضي الشيرازي . (انظر ينيرة الدهر للنعالي ، ووفيات

الأعيان لابن خلكان)

(٢) الإملاء : الإمهال .

ألا ، وإن لله سبحانه في مقامكم العلي الذي أيده وأعانه ، سرًّا من النصر ، يترجم عنه لسان من النُّصْل ، وترجع فروع البشائر الصادقة ، بالفتوحات المتلاحقة ، من قاعدته المتأصلة إلى أصل ؛ فبمثله يجب اللياذ والعياذ ؛ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ، ولأمر ما آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا الله تعالى واستخرناه ؛ ومنه جلَّ جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين ، ويؤويننا<sup>(١)</sup> من حمايته ووقايته إلى معقل منيع ، وجناب<sup>(٢)</sup> [رفيع]<sup>(٣)</sup> ، آمين ، آمين ، آمين .

نرجو أن يكون ربُّنا ، الذي هو في جميع الأمور حسُّبنا ؛ قد خار لنا حيثُ أرشدنا وهُدانا ، وساقنا توفيقه وحدانا ؛ إلى الاستجارة بملكٍ حفيٍّ ، كريمٍ وفيٍّ ؛ أعزَّ جاراً من أبي دُواد<sup>(٤)</sup> ، وأحمى أنفنا من الحارث بن عباد<sup>(٥)</sup> ، يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد ؛ إن أغاث مَلهُوفاً فما الأسود ابن قذآن<sup>(٦)</sup> يذكر ، وإن أنعش حُشاشة هالك فما كعب بن مامة على فِعله وحده<sup>(٧)</sup> يُشكر ؛

[٥٠]

(١) في ط : « ويوردنا » . وفي نفتح الطيب : « ويؤوب بنا » .

(٢) هذه الكلمة « وجناب » : ساقطة في ت .

(٣) زيادة عن نفتح الطيب .

(٤) أبو دواد : هو جارية بن الحجاج ، وقيل حنظلة بن المرقى الإيادي . كان بعض الملوك أخافه ، فصار إلى بعض ملوك اليمن فاجاره وأحسن إليه ، فضرب المثل بحسن هذا الجوار . وقيل غير ذلك . (انظر تفصيل ذلك في الشعر والشعراء لابن قتيبة عند الكلام على ترجمة أبي دواد) .

(٥) يشير إلى حمية الحارث بن عباد البكري في الحرب بين بكر وتغلب حين بلغه قتل مهلهل بجيرا ابنه وقوله له : يؤ بشمع نعل كليب ، فنادى بالرحيل وقال قصيدته المعروفة :

« قريبا مرهبط النعامه نسي لفتح حرب وائل عن حياي »

(٦) لم نجد شيئاً عن الأسود بن قنآن هذا في المظان التي رجعنا إليها .

(٧) يشير إلى ما أثر عن كعب بن مامة الإيادي من أنه أثر بنصيبه من الماء رفيقه الثمري ، فأت عطشا ، وضرب به المثل في الإيثار . (انظر الشعر والشعراء ص ١٢٠ طبعة أوربة ، والمضام والمنسوب للثعالبي) .

جلّسه كجليس القعقاع بن شور<sup>(١)</sup> ، ومذاكره كمذاكر سُفَيان<sup>(٢)</sup> المنتسب من الرباب<sup>(٣)</sup> إلى ثور ؛ إلى التحلى بأهيات الفضائل ، التي أضدادها أمهات الرذائل ؛ وهي الثلاث : الحكمة ، والعدل ، والعفة ، التي تشملها الثلاث : الأقوال ، والأفعال ، والشائئ ؛ وينشأ منها ما شئت<sup>(٤)</sup> من عزم وحزم ، وعلم وحلم ، وتيقظ وتحفظ ، واتقاء وارتقاء ، وصول وطول ، وسماح ونائل ؛ فبنور حلاه المشرق ، يفتخر المغرب على المشرق ؛ وبمجدده<sup>(٥)</sup> السامى خطره فى الأخطار ، ويبتته الذى ذكره فى النباهة والنجابة قد طار ، يُباهى جميع ملوك الجهات والأقطار ، وكيف لا وهو الرفيع المُنتمى والنَّجار ، الراضع من الطهارة صفو ألبان<sup>(٦)</sup> ، الناشئ من السراوة وسطح أحجار ؛ فى ضئضى<sup>(٧)</sup> المجد ، ومُجْبوح الكرم ، وسراوة أسرة المملكة التى أكنافها حرّم ، وذوابة الشرف التى مجاذبتها لم تُرم ؛ من معشر أئى معشر ، بجلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم ، وجبئوا إن لم يحهوا سوى ذمارهم ، بنو<sup>(٨)</sup> مرين ، وما أدراك ما بنو مرين :

(١) القعقاع بن شور : تابعى يضرب به المثل فى حسن المجاورة ؛ كان إذا جالسه واحد بالفصد إليه جعل له نصيبا من ماله ، وأعانه على عدوه ، وشفع له فى حوائجه . (انظر المضاف والمنسوب ، وشرح القاموس مادة قعقع) .

(٢) هو سفیان بن سعيد بن مسروق الثورى ، تابعى من كبار رجال الحديث .

(٣) الرباب (بالراء المشددة المسكورة) : الجماعات ، وتطلق على قبائل عوف وثور وأشيب وضبة عمهم ، سموا بذلك لتفرقهم .

(٤) كذا فى ت ونفع الطيب والاستقصا للسلاوى . وفى ط : « ناشئة » .

(٥) فى نفع الطيب : « ومجدده » .

(٦) فى ت : « الألبان » .

(٧) الضئضى : الأصل .

(٨) فى ط : « فبنو » .

سَمُّ الْعُمْدَةِ وَآفَةِ الْجُزْرِ<sup>(١)</sup>

النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ

لَهُمْ مِنَ الْهَفَوَاتِ انْتِفَاءً ، وَعِنْدَهُمْ مِنَ السَّيْرِ النَّبْوِيَةِ اكْتِفَاءً ؛ انْتَسَبُوا إِلَى  
بَرِّ بْنِ قَيْسٍ<sup>(٢)</sup> ، نَخْرَجُوا فِي الْبَرِّ عَنِ الْقَيْسِ<sup>(٣)</sup> ؛ مَا لَهُمُ الْقَدِيمُ الْمَعْرُوفُ ، قَدْ نَفِدَ  
فِي سَبِيلِ الْمَعْرُوفِ ، وَحَدِيثُهُمُ الَّذِي نَقَلَتْهُ رِجَالُ الزُّحُوفِ<sup>(٤)</sup> ، مِنْ طُرُقِ الْقَنَا  
وَالسِّيُوفِ ؛ عَلَى الْحَسَنِ مِنَ الْمَقَاصِدِ مَوْقُوفٌ<sup>(٥)</sup> ؛ تَحَمَّدَ مِنْ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ ،  
ذَابِلَهُمْ وَلَدَنَهُمْ ، فَلِلَّهِ آبَاءُ الْمُحِبُّوهُمْ ، وَأُمَّهَاتٌ وَلَدَنَهُمْ :

سُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ<sup>(٦)</sup>

إِلَيْهِمْ فِي الشَّدَائِدِ الْاسْتِنَادُ ، وَعَلَيْهِمْ فِي الْأَزْمَاتِ الْمُعْوَالُ ، وَلَهُمْ فِي الْوَفَاءِ  
وَالصَّفَاءِ وَالِاحْتِفَاءِ ، وَالْعِنَايَةِ<sup>(٧)</sup> وَالْحِمَايَةِ وَالرَّعَايَةَ ، الْخَطُّوَالوَاسِعُ ، وَالْبَاعُ الْأَطُولُ ،  
كَأَنَّمَا عَنَاهُمْ بِقَوْلِهِ جَرُولٌ<sup>(٨)</sup> :

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبَيْتَ وَإِنْ عَاهَدُوا وَفَّوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

(١) هذا مجز بيت ، و صدره : « لا يبعدن قومي الذين هم » . وهذا البيت والذي يليه من

قصيدة لخرنق بنت هفان ترضى زوجها وابنها علقمة وأخويه . (راجع الأمل ج ٢  
ص ١٥٨ طبعة دار الكتب) .

(٢) هو بر بن قيس عيلان ، وإليه ينتسب البربر . (انظر شرح القاموس مادة بر) .

(٣) القيس : القياس والتقدير .

(٤) الزحوف : جمع زحف ، وهم الجماعة يزحفون إلى العدو بجمرة .

(٥) في ط : « موصوف » .

(٦) هذا مجز بيت لحسان بن ثابت من قصيدة يمدح بها الفساسنة ، و صدره :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

(٧) هذه الكلمة : « العناية » ساقطة في ت .

(٨) جرول : اسم الخطيئة الشاعر المخضرم المعروف .

وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا<sup>(١)</sup> وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها<sup>(٢)</sup>  
وتعدلني أبناء<sup>(٣)</sup> سعد عليهم<sup>(٤)</sup> وما قلت إلا بالتي علمت سعد  
وبقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه :

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا<sup>(٥)</sup>  
يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهم<sup>(٦)</sup>  
أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم<sup>(٧)</sup> :

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن<sup>(٨)</sup>  
حلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل ، أمير المؤمنين ، دام  
نصره ، قسيمهم فيها حدو<sup>(٩)</sup> النعل بالنعل ، ثم هو عليهم وعلى من سواهم  
بالأوصاف الملوكية مستغل ؛ ارفض مزئهم منه عن غيث ملث يمحو آثار  
اللزبه<sup>(١٠)</sup> ، وانشق غيلهم منه عن ليث ضار منقبض على برائته للوثبه<sup>(١١)</sup> ، فقل

- (١) رواية هذا الشطر في مختارات ابن السجري : « وإن كانت النعمى عليهم جزوا بها » .  
(٢) في مختارات ابن السجري : « أفناء » . والأفناء : الأخلاط .  
(٣) يروى : « وقد لامني أفناء سعد عليهم » .  
(٤) العناج : عروة في أسفل الغرب من باطن ، تشد بوثاق إلى أعلى الكرب ، وهو  
الحبل الذي تعلق فيه الدلو من عرقوتها ، فإذا انقطع الكرب أمسك العناج الدلو  
أن تقع في البئر . يريد أنهم إذا عقدوا عقدا لجارهم أحكموه .  
(٥) كذا في ط . وفي ت ونفتح الطيب والاستقصا لاسلاوى : « فهو » .  
(٦) بنو منقر : من تميم ، منهم قيس بن عاصم هذا .  
(٧) هذا البيت من أبيات لقيس مطلعها :

لأني امرؤ لا يعترى حسبي دنس يفسده ولا أفن

(٨) كذا في ت ونفتح الطيب : وفي ط : « حدوك » .

(٩) اللزبة : الضيق والشدة .

(١٠) يشير إلى قول النابغة :

وقلت يا قوم إن الليث منقبض على برائته للوثبة الضارية

لسكان الفلا : لا تعرّننكم أعدادكم وأمدادكم ، فلا يُبالي السرحان المواشى ،  
سواء مشى إليها النقرى أو الجفلى<sup>(١)</sup> ؛ بل يصدّمهم صدمةً تحطم منهم كل  
عرنين ، ثم يتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التنين<sup>(٢)</sup> ؛ فهو هو كما عرفوه ،  
وعهدوه وأفوه ؛ أخو<sup>(٣)</sup> المنايا ، وابن جلا<sup>(٤)</sup> وطلاع الثنايا<sup>(٥)</sup> ، مجتمع أشده ،  
قد احتنكت سنه<sup>(٦)</sup> وبان رُشده ؛ جاد مجد ؛ محتزم بحزام من الحزم ، مُشمر  
عن ساعد الجد :

لا يشرب الماء إلا من قلب دمٍ ولا يبيت له جارٌ على وجل<sup>(٧)</sup>  
أسدى القلب آدمي الرواء ، لابس جلد النمر لذوى العناد والنواء<sup>(٨)</sup> :

وليس بشاوي عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم<sup>(٩)</sup>  
ولكنه يسعى عليه مفاضة<sup>(١٠)</sup> دِلاص كأعيان الجراد المنظم<sup>(١١)</sup>

- ( ١ ) مشى إليها النقرى أو الجفلى ، أى دهميا وحده أو مع غيره .  
( ٢ ) التنين ( بكسر أوله ) : الحية العظيمة .  
( ٣ ) فى ط : « وأخو » .  
( ٤ ) يقال : هو ابن جلا : للسيد الشريف الذى لا يخفى مكانه .  
( ٥ ) الثنايا : جمع ثنية ، وهى العقبة ؛ وطلاع الثنايا : من يسمو لمعالى الأمور .  
( ٦ ) احتنكت سنه : قويت تجاربه .  
( ٧ ) القلب : البئر . وهذا البيت من قصيدة لأبى سعيد الخزومى . (انظر الأمالى ج ١ ص ٢٥٩ طبعة دار السكتب المصرية) .  
( ٨ ) النواء : المناوأة ، وهى المعادة .  
( ٩ ) شاوى : صاحب شاء ، وهى الغنم . ورواية هذا البيت فى اللسان مادة (شوه) :  
ولست بشاوى عليه دمامة إذا ما غدا يغدو بقوس وأسهم  
وهو الذى بعده ليزيد بن عبد المدان .  
( ١٠ ) رواية هذا الشطر فى اللسان مادة (عين) : « ولكنى أغدو على مفاضة » .  
( ١١ ) المفاضة : الدرع . والدلاص : اللينة البراقة الملساء .

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين ، والوحاء الوحاء<sup>(١)</sup> لاحقين به خاضعين ؛  
 قبل أن تساقوا إليه مُقَرَّنِينَ في الأصفاد ، ويعيا الفداء بنفائس النفوس والأموال  
 على الفاد<sup>(٢)</sup> ؛ حينئذ يعرض ذو الجهل والفداه<sup>(٣)</sup> ، على يديه حسرة وندامة ؛ إذا  
 رأى أبطال الجنود ، تحت خوافق الرايات والبُنود ، قد انفجرت نار ليست بذات  
 مُخود ، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم : عادٍ ومُودٍ ؛ زَعَقَاتِ  
 سَبَطَانَاتٍ<sup>(٤)</sup> تُؤز<sup>(٥)</sup> الكتائب أزا ، وهمزاً محققاً للخيل بعد المد المشبع للأعنة  
 همزاً ، وسلاً للهندية سلاً وهزاً للخطية هزاً ، حتى يقول النسر للذئب : هل  
 تُحسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا<sup>(٦)</sup> . رثق خليفة الله بذلك ، في كل  
 من رام أذى رعيتك أو أذاك<sup>(٧)</sup> ، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى في ذوى الشقاق  
 والنفاق ، الذين يشقون عصا المسامين ، ويقطعون طريق الوفاق<sup>(٨)</sup> ؛ وينصبون  
 حَبَائِلَ البَغْيِ والفساد في جميع النواحي والآفاق ؛ فأن يجعلهم الله عزَّ وجلَّ من  
 الآمنين ، أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا ؟ وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ،  
 ولا يهدى كيد الخائنين .

وهانحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلواتِ التقديس والتعظيم ،  
 بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدُرِّ ثناء أبهى من دُرِّ العقد النظيم ؛ منتظمين

(١) كذا في الأصلين . والوحاء : السرعة . وفي نفح الطيب : « والوجل الوجل » .

(٢) الفاد : انفادى ، وهو من يفديهم بالمال .

(٣) الفداه : التي عن الحجة مع ثقل ورخاوة وقلة فهم .

(٤) سبطانات : جمع سبطانة ، وهي آلة يرمى بها في الحرب ، (مولدة) .

(٥) تؤز : تحركهم بشدة .

(٦) ركزا : صوتاً خفياً .

(٧) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « وأذاك » .

(٨) في ت ونفح الطيب : « الرفاق » .

في سلك أوليائكم<sup>(١)</sup> ، متشرفين بخدمة عليائكم ؛ ولا فقدَ عزة ولا عدما ،  
 من قصد مثابَّتكم العزيزة وخدمها ؛ وإن الترامي على سنائكم ، لجدير بحرمتكم  
 واعتنائكم ؛ وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصنا حصينا ، عاش بقية عمره محروسا  
 من الضيم مصونا ؛ وقد قيل في بعض الكلام : من قعدت به نكايه الأيام ،  
 أقامتة إغاثة الكرام ؛ ومولانا أيده الله تعالى ولي ما يزفه إلينا من مكرمة بكر ،  
 ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف<sup>(٢)</sup> حسن الذكر ، ويروي مُعنعن  
 حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر ؛ وغيره  
 من ينام عن ذلك فيوقظ ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ ؛ وما عهد منذ  
 وجد إلا سريعا إلى داعي الندى والتكريم ، بريئا من الضجر بالمطالبة والتبرم ؛  
 حافظا للجار الذي أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بحفظه ، مستفرغا وسعه في  
 رعيه المستمر ولحظه ، آخذا من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه :

فهو من دوحة السنن فرع عز  
 ليس يحتاج مجتنيه لهز  
 كفه في الإحمال أغزر وب  
 وذراه في الخوف أمنع حرز<sup>(٣)</sup>  
 حمله يسفر اسمه لك عنه  
 فتنههم يا مدعى الفهم لغزى<sup>(٤)</sup>  
 لا تسله شيئا ولا تستنله  
 نظرة منه فيك تُغني وتجزى  
 فنداه هو الفرات الذي قد  
 عام فيه الأنام عوم الإوز  
 وحماه هو المنيع الذي تر  
 جمع عنه الخطوب مرجع عجز

(١) في ط : « ومنتظمين في سلك أولائكم » .

(٢) في ت : « الصحائف » .

(٣) ذراه : كنفه .

(٤) لعله يريد أن الحلم يلحظ في اسمه (الشيخ) ، لأن مع الشيخوخة الرزاة والهدوء .

فَدَعُوا ذَهَنَهُ يَزُولُ قُوِّيَ فَهُوَ أَدْرَى بِمَا تَضْمَنُ رَمْزِي  
دَامَ يُحْيِي بِكُلِّ صُنْعٍ وَمَنْ وَيَعَانِي مِنْ كُلِّ بُوْسٍ وَرِجْزٍ

وكأننا به قد عمل على شاكلة جلاله ، من مد ظلاله ، وتمهيد خلاله ، وتلقى ورودنا بحسن تهلله واستهلاله ، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله ، وإيرادنا على حوض كوثره المترع بزلاله . والله [سبحانه] <sup>(١)</sup> يُسْعِدُ مَقَامَهُ الْعَلِيِّ ، وَيُسْعِدُنَا بِهِ فِي حَلِّهِ وَارْتِحَالِهِ ، وَمَا لَهُ وَحَالِهِ ؛ وَيُؤَيِّدُ جَنْدَهُ الْمُظْفَرُ ، وَيُؤَيِّدُنَا بِتَأْيِيدِهِ عَلَى نِزَالِ عَدُوِّهِ وَاسْتِنْزَالِهِ ، وَهَزِّ النَّوَابِلِ <sup>(٢)</sup> لِإِطْفَاءِ ذُبَابِهِ ؛ وَهُوَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يُرِيَهُ قُرَّةَ الْعَيْنِ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخُدَّامِهِ وَأَمْوَالِهِ ، وَأَنْظَارِهِ <sup>(٣)</sup> وَأَعْمَالِهِ ، وَكَافَّةً [٥٤] شَتُونِهِ وَأَحْوَالِهِ . وَأَحَقُّ مَا نَصَلَ بِالسَّلَامِ وَأَوْلَى ، عَلَى الْمَقَامِ الْجَلِيلِ مَقَامِ الْخَلِيفَةِ الْمَوْلَى : أَزَكَى الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى خَاتِمَةِ <sup>(٤)</sup> أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَأَرْسَالِهِ <sup>(٥)</sup> ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى جَمِيعِ أَصْحَابِهِ وَآلِهِ ، صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمِينَ أَبَدًا ، مَوْصُولِينَ بِدَوَامِ الْأَبَدِ وَاتِّصَالِهِ ، ضَامِنِينَ لِمُجَدِّدِيهَا وَمُرَدِّدِيهَا صَلَاحَ فَاسِدِ أَعْمَالِهِ ، وَبُلُوغَ غَايَةِ آمَالِهِ ، وَذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِذْنِهِ وَفَضْلِهِ وَإِفْضَالِهِ .

انتهى الكتاب ؛ وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار ، بما فعلته الدنيا مع الملوك الأعظم الكبار ، ولأن الكلام جر إليه ، والله تعالى الكفيل بخلاص من توكل عليه .

(١) زيادة عن نفح الطيب .

(٢) النوايل : الرماح ، جمع ذابل .

(٣) كذا في ط ونفح الطيب . والأنظار : جمع نظر ، وهو مصدر ، يراد به ما يتولى النظر عليه من الأعمال . وفي ت : « أقطاره » .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « خاتم » .

(٥) يريد رساله ، والأرسال : غير مسموع في هذا المعنى .

أبو عبد الله  
العربي وشيء  
من نظمه

وصاحب هذا الإنشاء وصفه الإمام ابن داود بقوله : « الفقيه الخطيب  
الفاضل ، خاتمة الأدباء بالأندلس <sup>(١)</sup> ، أبو عبد الله محمد بن الفقيه الصالح أبي محمد  
عبد الله العقيلي المعروف بالعربي .

ومن بديع نظمه هذه الأبيات <sup>(٢)</sup> :

جُزُّ بالبساتين والرياض فما أبهج مرثيَّها <sup>(٣)</sup> وأجلاه <sup>(٤)</sup>  
وأعجب بها للنبات ولتلك في أسفله ناظرا وأعلاه  
وقدس الله عند ذاك وقلُّ سبحانه لا إله إلا هو

ورأيت بخط ابن داود المذكور أنه وقع بينه ، أعني ابن داود ، وبين الفقيه  
المدرس أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل بن إبراهيم البسطي ، نزاع في مسألة نحوية ،  
قال : وطال فيها الكلام <sup>(٥)</sup> بما تقيّد عنى في غير هذا ، فقال الفقيه الخطيب  
الأديب العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي يورى بالقضية ، ويشير إلى  
قصة نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام :

ندد البسطي في مسألة لابن داود وقد أحكمها  
وقديما وقعت معضلة وابن داود الذي فهمها <sup>(٦)</sup>

[٥] انتهى .

قصيدة الدقون  
في نذب الجزيرة

ومن نظم الشيخ الفقيه ، الأستاذ المقرئ الخطيب ، الفذ الأوحى ، سيدي

(١) في ت : « أدباء الأندلس » .

(٢) في ت : « ومن بديع نظمه قوله » .

(٣) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « مرآها » .

(٤) في نفح الطيب : « وأحلاه » .

(٥) في ت : « القيام » .

(٦) يشير إلى قوله تعالى في قصة الغنم والحراث : « ففهمناها سليمان وكلا آتينا

حكما وعلمان » .

أبي العباس أحمد الدقون<sup>(١)</sup> رحمه الله ، قصيدة في نَدْب<sup>(٢)</sup> الجزيرة ، تذكر النفوس  
بشجوها ، فترسل العيون دموعها الغزيرة ، افتتحها بنثر نصه :

الحمد لله على كل حال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله خير آل .  
أما بعد فيقول خديم<sup>(٣)</sup> أهل الله تعالى ، عُبَيْدُ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْأَنْدَلَسِيِّ ، الشهير  
بالدقون ، لطف الله به بمنه وكرمه :

إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء ، بأخذ الحمراء ؛ قرَّعتُ بابَ النَّدْبِ ، لما  
تقدم من الصحبه ؛ فقلت أبياتا صدَّرتُ من قلب كئيب ، مُبَكِّية كل<sup>(٤)</sup> لبيب  
أريب ؛ وسميتها بالموعظة الغراء ، بأخذ الحمراء ، مبيحا لمن رغب فيها ، ولم يرغب  
عنها ، أو استحسن شيئا منها ، أن يحدث بها عنى ؛ وذلك بعد إتقان لفظها  
وحفظها ، وفهم وعظها ولحظها ؛ وإن كنت لأحسن أن أقول ، وربما أعزى بها  
إلى الفضول ؛ لكني لا أعدم المشيل ، وفي مثل هذا قيل :

ومَنْ ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعدَّ معايبه

والله حسبي وعُدَّتِي ، وهو مُقِيلُ عَثْرَتِي . وهذا مطلع صباحها ، ومنبع افتتاحها :

أمنت من عكس آمال وأحوال وعشت ما بين أعمام وأحوال  
ولا ابتليت بما في القلب من نكد فالجسمُ مشغول من غير أشغال  
وكيف لا ويقاع الدين خالية من أرض أندلس من أجل أهوال

(١) هو أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي المشهور بالدقون ، توفي مستهل شعبان  
سنة إحدى وعشرين وتسع مئة . ( انظر كتاب نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج ،  
لأحمد بابا التنبكتي ) .

(٢) في ت : « ندبة » .

(٣) انظر حاشية رقم ٣ صفحة ٣٩ من هذا الجزء .

(٤) في ت : « لكل » .

عَمَّتْ فَغَمَّتْ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا  
 جَاشَتْ بِهَا مِنْ جِيوشِ الْكُفْرِ مَا دَرَسَتْ  
 أَهْلَ الشَّجَاعَةِ أَهْلَ الْعِلْمِ أَهْلَ تَقَى  
 عَنْهُمْ وَفِيهِمْ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ بَدَتْ  
 زُهْبَانِ لَيْلٍ وَفُرْسَانِ النَّهَارِ فَمَنْ  
 لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنْ الْمُضَافَ لَهُمْ  
 فَهَلْ تَرَى بَعْدَ هَذَا النَّفْسَ سَائِلَةً  
 تَاللَّهِ لَا زَالَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ أَسْفٍ  
 أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ فِي نَصْرِ يَمَنْ بِهِ  
 قَدْ رَامَ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مَجْتَهِدًا  
 سَطَا بِجَيْشِ كَمُوجِ الْبَحْرِ فِي عُدَدِ  
 مُؤَيَّدًا بِاجْتِمَاعِ الْمِصْرِ يَتَّبِعُهُ  
 يَسْبِي الْمَسَامِعَ بِالْأَنْفَاضِ (٢) مُشْبِهَةً  
 يَبْنِي لِيَهْدِمَ مَا الْإِسْلَامَ شَيْئِدَهُ  
 فَهُوَ الْمُقَاتِلُ فِي الْأَبْرَاجِ مُنْتَقِلٌ  
 فَاسْتَوْظَنَ الرِّجْحَ لَا يَنْوِي الرِّحِيلَ وَلَا  
 وَالْمُسْلِمُونَ مِنَ الْأَضْغَانِ قَدْ مُلِئَتْ

لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ وَأَنْكَالٍ  
 بِهِمْ مَعْلَمُ أَخْيَارِ وَأَقْيَالِ (١)  
 أَهْلَ النَّفَاسَةِ فِي قَوْلِ وَأَفْعَالِ  
 وَهُمْ مَعَاقِلُ قَوْلِ اللَّهِ لِلتَّالِي  
 يُبَايِعُهُمْ بِسَاحَتِهِمْ يَظْفَرُهُ بِأَمَالِ  
 يَسْلُو عَنْ أَهْلِ وَأَوْطَانِ وَأَمْوَالِ  
 وَكَيْفَ تَسْأَلُ عَنْ وَصْفِ وَعَنْ حَالِ  
 وَلَوْ أَكُونُ حَلِيفَ الْمَنْزِلِ الْخَالِي  
 فَاللَّهُ بَاقٍ يَبْقَى مِنْ كُلِّ مُحْتَمَلِ  
 وَبِأَذْلَا كُلِّ مَا قَدْ حَازَ مِنْ مَالِ  
 نَعَمْ ، وَفِي عَدَدٍ مِنْ رَهْطِ أَبْطَالِ  
 شَرِّ الْخَلَائِقِ مَسْرُورًا بِإِقْبَالِ  
 وَقَعَ الصَّوَاعِقُ فِي هَدْيٍ وَزَلَالِ  
 وَالْوَصْفُ يُعْجِزُ مَنْ يُدْعَى بِقَلْقَالِ (٣)  
 أَلْفَ النُّجُوسِ وَتَغْيِيرِ (٤) وَتَرْحَالِ  
 يَخْشَى الْمَغِيثَ بِسَهْلٍ أَوْ بِأَجْبَالِ  
 قُلُوبُهُمْ وَأَبْوًا تَسْدِيدَ أَخْلَالِ (٥)

[٥٦]

(١) الأقيال : جمع قبيل ، وهو الملك دون الملك الأعظم .  
 (٢) كذا في الأصلين : ولعلها محرفة عن الأنفاط (بالطاء) ، يريد بها الآلات التي ترمى بها الحصون والأسوار كالمدافع . ( انظر تكملة المعاجم العربية لدوزي ) .  
 (٣) يريد بالقلقال (هنا) : الفصبح السن ، كما هو شائع على السنة المغاربة حتى اليوم  
 (٤) في ط : « النجوس » .  
 (٥) الأخلال : جمع خلال ، وهي الثغرة في الصفوف ونحوها .

والحقُّ مختلفٌ والحقُّ مؤتلفٌ  
 وهم لديه كطير وهو ينتفحُه  
 إذا تجرَّدَ<sup>(١)</sup> من ريش يطير به  
 سَدُّوا مسالكَ أرزاقٍ ومنفعة  
 ثم استغاثوا : أَلَا فُرُسانَ عاديةً  
 والصيفَ ضيعتَ ما أمّلتَ من ابنٍ  
 وارحَلْ بنحلك<sup>(٢)</sup> نحو الغرب في كرم  
 فاستمكن الرُّعبُ في الأَكبادِ وانفقت<sup>(٣)</sup>  
 واحتلَّ غرناطةَ الغرَّاءَ قد<sup>(٤)</sup> عَدِمَتِ  
 كأنها الشمس في أفق العُلى كُسِفَتِ  
 وهل تعود ليمالٍ قد سَلَفَنَ بها  
 وهل يعود لها الدين الذي أنسَتِ  
 فأصبحوا لا ترمى إلا مساكنهم  
 قد فرَّقوا كسبًا في كل منزلة

والكل منصرف عن نصر أبطالِ  
 والطيور يرجو البقا مع كَيْدِ قتالِ  
 أضحى يدافع عن رُوحِ بأوصالِ<sup>(٥)</sup>  
 كدودة القز في نسجٍ لسربالِ  
 قال الصدى : لست ذا رمح ونبالِ  
 ففارقِ الجبَّحَ من تدخينِ نحالِ<sup>(٦)</sup>  
 من قبل وضعك في قيْدِ وأغلالِ  
 بعد اختلافٍ على تأمينِ أرذالِ  
 حَبَّ الحصيدِ ونصرَ الله والآلِ  
 فهل على طَلَلٍ ترمى بأبطالِ؟<sup>(٧)</sup>  
 ونحن لا نشكِّي تنكيدَ ضلالِ؟  
 به وقد أيسَتُ من ففتحِ أبدالِ؟<sup>(٨)</sup>  
 كمثل عادٍ وما عادٌ بأشكالِ  
 وقد سبا عدّه من أيدٍ أو عالِ<sup>(٩)</sup>

(١) كذا في ط . وفي ت : « تجدد » وهو تحريف .

(٢) الأوصال : مجتمع العظام . يريد الأطراف .

(٣) الجبَّح : خلية النحل . والنحال : القائم على خلايا النحل .

(٤) في ت : « بنجلك » .

(٥) في ت : « واستمكن » .

(٦) في ط : « مذ » .

(٧) كذا في ط . وفي ت : « تومي بأطلال » ولا معنى له .

(٨) يشير إلى ما هو معروف في الغرب من الاستنصار بالأولياء ، وهم الأبدال ، عند

اشتداد الأزمات والخطوب .

(٩) كذا ورد هذا الشطر في الأصلين .

فلا المساجد بالتوحيد عاصمة  
ولا المنابر للوعاظ بارزة  
ولا المكاتب بالصبيان آمنة  
آه على الدين والدنيا وما نفعت  
إننا إلى الله والرجعى له وبه  
وكان ما كان والألطف شاملة  
فلنكرم<sup>(٢)</sup> الآن من ينزل بمنزلنا  
وإذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم  
نلقاهم ولنا بشر ومعدرة  
ولا نذذ عن ورود الحوض وارده  
إخوانكم رفعوا أيدي الضراعة مع  
وقل لوال تلتطف في مغارمهم  
هذا النذير جهارا جاء يندبرنا  
ونحن في غفلة عما يراد بنا  
يأهل فاس أما في الغير موعظة  
فقل تعالوا إلى نصح وتذكرة  
كيف الحياة إذ الحيات قد نفحت  
ولا سبيل إلى الترياق غير نقي  
والأخذ بالجد في جمع القلوب على

[٥٧

(١) في ط : « آها على الدين ... \* إلا إذا صدرت ... الخ » .

(٢) في ت : « فنكرم »

(٣) في ت : « فلا يوصف » .

والزُّهد في هذه الدنيا وزُخرفها  
ولا نَرُمُ في أمان الروم منزلةً  
فمن يَبْتَ في أمان الكلب منتصباً  
وارباً بنفسك عن أرض تهان بها  
فالموت عندى خير من حياة فتى  
والهجرة الآن قد عادت كما سبقتُ  
واحتملُ بذهنك وتسمع نصائح مَنْ  
في صدر سبع على التسعين زائدة  
وَبُلِّغَ الكلبُ ما قد شاء من أربٍ  
ليقتضى الله أمراً كان قدره  
وقد وعظتُ ولو أسمعُ لا تنتشرتُ  
فليشتغل كل مسكين بمهجته  
ثم الصلاة على المختار سيدنا

والأمر، بالعرف مع تحسين مقوال  
خوفاً على الدين أو بعداً من أنذال  
لسخط موئى ولا عذرٌ بأنقال  
فخيماً كنت لا تخشى من أقلال  
قد اكتسى بعد عن ثوبٍ إذلال  
فافهم تفاصيل أقوال وإجمال  
قد طبَّ من حَبِّ<sup>(١)</sup> لم يُوصَفْ بمُحتال  
شمسُ الجزيرة غابت بعد إكمال  
إذ لم يجبد ذائداً عن ديننا العالى  
والأمرُ لله في قول وأفعال  
سحائب الدمع لم تقلع عن انزال  
والله يحفظنا من كل مهوال  
محمد والرضا عن آلٍ أو تآلى

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان  
أبى يزيد<sup>(٢)</sup> خان العثماني، رحمه الله، مانصه بعد سطر الافتتاح:

مما كتبه بعض  
أهل الجزيرة  
إلى بايزيد

الحضرة العلية، وصال الله سعادتها، وأعلى كلمتها؛ وهدد أقطارها، وأغز  
أنصارها، وأذل عُداتها، حضرة مولانا، وعمدة ديننا ودينانا، السلطان الملك  
الناصر؛ ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعداء الله

(١) من أمثال العرب في التنوق في الحاجة وتحسينها: اصنعه صنعة من طب لمن

حب . . . أى صنعة حاذق لمن يحبه .

(٢) في ط: «بايزيد» .

الكافرين ؛ كهف الإسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ؛ محيي العدل ،  
ومنصف المظلوم ممن ظلم<sup>(١)</sup> ، ملك العرب والعجم ، والترك والديلم ؛ ظل الله في  
أرضه ، القائم بسنته وفرضه ؛ ملك البرين ، وسُلطان البحرين ؛ حامي الدمار ،  
وقامع الكفار ؛ مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغيائنا<sup>(٢)</sup> ، مولانا أبو يزيد ، لا زال  
ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مُخَلِّد المآثر والآثار ، مشهور المعالي  
والفخار ؛ مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل ، في الدار الآخرة  
والثناء الجميل ، والنصر في هذه الدار . ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل  
الجهاد ، مُجَرِّدَةً على أعداء الدين من بأسها ، ما يُرَوِّى صدور الشمر والصفاح<sup>(٣)</sup> ،  
وَأَسِنَّة السِّلَاح ، باذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخير مفارقة  
الأرواح للأجساد<sup>(٤)</sup> ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم  
يقوم الأشهاد :

سَلام كَرِيم دَائِمٌ مُتَجَدِّدٌ	أَخْصَ بِهِ مَوْلَايَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ
سَلامَ عَلِيٍّ مَوْلَايَ ذِي الْمَجْدِ وَالْعِلا	وَمَنْ أَلْبَسَ الْكُفْرَ ثَوْبَ الْمَدَاةِ
سَلامَ عَلِيٍّ مِنْ وَسَّعَ اللهُ مَلِكُهُ	وَأَيَّدَهُ بِالنَّصْرِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
سَلامَ عَلِيٍّ مَوْلَايَ مِنْ دَارِ مَلِكِهِ	قُسْنُطِينِيَّةٍ أَكْرَمَ بِهَا مِنْ مَدِينَةٍ
سَلامَ عَلِيٍّ مِنْ زَيْنِ اللهِ مَلِكِهِ	بِجَنْدٍ وَأَتْرَاكٍ مِنْ أَهْلِ الرَّعَايَةِ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ شَرَّفَ اللهُ قَدْرَكُمْ	وَزَادَكُمْ مَلِكًا عَلَى كُلِّ مِلَّةٍ <sup>(٥)</sup>

(١) في ط : « من الظالم » .

(٢) في ط : « غوثنا » .

(٣) الصفاح : جوانب السيوف ، الواحد : صفح .

(٤) هذه العبارة ، من قوله : « باذلة نفائس » إلى قوله : « للأجساد » : ساقطة في ت .

(٥) رواية هذا الشطر في ط : « وزادكم ملكاً في كل ملّة » وهو محرف .

سلام على القاضى وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُ  
 سلام على أهل الديانة والنقى  
 سلام عليكم من عبید تخلفوا  
 أحاط بهم بحر من الرُّومِ زاخرٌ  
 سلام عليكم من عبید أصابهم  
 سلام عليكم من شيوخ تمزقت  
 سلام عليكم من وجوه تكشفت  
 سلام عليكم من بنات عواتقٍ  
 سلام عليكم من عجائز أكرهت  
 تقبل نحن الكلُّ أرض بساطكم  
 أدام الإله (٣) ملككم وحياتكم  
 وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا  
 شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا  
 غديرنا ونصرتنا وبدل ديننا  
 وكنا على دين النبي محمدٍ  
 ونلقى أموراً في الجهاد عظيمةً  
 فجاءت علينا الروم من كل جانب  
 من العلماء الأكرمين الأجلّة  
 ومن كان ذارأى من أهل المشورة  
 بأندلس بالغرب (١) في أرض غربة  
 وبحر عميق ذو ظلام ولجة  
 مُصاب عظيم يالها من مُصيبة  
 شُيُوبهم بالنتف من بعد عزة  
 على جملة الأعلاج من بعد سترة  
 يسوقهم اللبساط قهراً لخواوة (٢)  
 على أكل خنزير ولحمٍ لحييفة  
 وندعو لكم بالخير في كل ساعة  
 وعافاكم من كل سوء ومحنة  
 وأسكنكم دار الرضا والكرامة  
 من الضر والبأوى وعظم الرزية  
 ضلنا وعملنا بكل قبيحة  
 نقاتل عمال (٤) الصليب بنيسة  
 بقتل وأسرى ثم جوع وقلة  
 بسيل عظيم جملة بعد جملة

(١) في ط : « في الغرب » .

(٢) اللبساط : من رجال الدين بالكنيسة ، كما في معجم دوزى . يشير إلى ما فعله نصارى الأسبان من إكراه المسلمين على ترك دينهم .

(٣) في ط : « إلهى » .

(٤) كذا في ت . وفي ط : « أعمال » . وفي رواية : « عباد » .

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم  
فكنا بطول الدهر نلتقى جموعهم  
وفُرسانهم تزداد في كل ساعة  
فلمَّا ضَعَفْنَا خَيْمُوا فِي بِلَادِنَا  
وجاءوا بأنفاط<sup>(٢)</sup> عظام كثيرة  
وشدوا عليها في الحِصَار بقوة  
فلمَّا تَفَانَتْ خَيْلُنَا وَرَجَالُنَا  
وَقَلَّتْ لَنَا الْأَقْوَات واشتدَّ حالنا  
وخوفًا على أبنائنا وبناتنا  
على أن نكون مثل من كان قبلنا  
وَنُبْقِيَ على آذَانِنَا وَصَلَاتِنَا  
ومن شاء منا البحرَ جاز مُؤَمَّنًا  
إلى غير ذلك من شروط كثيرة  
فقال لنا سُلْطَانُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ  
وَأَبْدَى لَنَا كُتُبًا بِعَهْدٍ وَمَوْثِقٍ  
فكُونُوا على أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ  
فلما دخلنا تحت عَقْدِ ذِمَامِهِمْ  
وخان عهودًا كان قد غَرَّنا بها

بجد وعزم من خيول وُعْدَةٍ  
فَنَقَاتُ فِيهَا فِرْقَةٌ بَعْدَ فِرْقَةٍ  
وَفُرْسَانِنَا فِي حَالٍ<sup>(١)</sup> تَقْصِرُ وَقَلَّةٌ  
ومالوا علينا بِلَدَةٍ بَعْدَ بِلَدَةٍ  
تَهْدِمُ أَسْوَارَ الْبِلَادِ الْمُنِيعةِ  
شهورًا وأيامًا بِجِدٍّ وَعَزْمَةٍ  
ولم نر من إِخْوَانِنَا مِنْ إِغَاثَةٍ  
أَطْعَمْنَاهُمْ بِالْكَرْهِ خَوْفَ الْفَضِيحةِ  
مِنْ أَنْ يُوَسَّرُوا أَوْ يَمْتَلُوا شَرِيقَتَنَا  
من الدَّجْنِ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ الْقَدِيمَةِ  
ولا نَتْرَكُنْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الشَّرِيعَةِ  
بِمَا شَاءَ مِنْ مَالٍ إِلَى أَرْضِ عُدُوِّهِ  
تَزِيدُ عَلَى الْخَمْسِينَ شَرْطًا بِخَمْسَةِ  
لَكُمْ مَا شَرَطْتُمْ كَامِلًا بِالزِّيَادَةِ  
وقال لنا هذا أَمَانِي وَذِمَّتِي  
كَمَا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ دُونِ أَذِيَّةٍ  
بدا غَدْرُهُمْ فِينَا بِنَقْضِ الْعَزِيمَةِ  
وَنَصَرْنَا كَرَّهَا<sup>(٣)</sup> بَعْنَفٍ وَسَطْوَةٍ

(١) في ط : « في كل » .

(٢) كذا في ط . ويريد بالأنفاط : الآلات التي ترمى بها الحصون والأسوار كالمداغم . وفي ت : « بأنفاض » وهو تحريف . (انظر الحاشية رقم ٢ صفحة ١٠٥ من هذا الجزء) .

(٣) في ط : « قهرا » .

وأحرق ما كانت لنا من مصاحفٍ  
 وكل كتاب كان في أمر ديننا  
 ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم  
 ومن صام أو صلى ويُعلم حاله  
 ومن لم يجيء منا لموضع كفرهم  
 ويلطم خديه ويأخذ ماله  
 وفي رمضان يفسدون صيامنا  
 وقد أمرونا أن نسب نبينا  
 وقد سمعوا قوماً يفتنون باسمه  
 وعاقبهم حكامهم وولاتهم  
 ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي  
 ويترك في زبلٍ طريحاً مجذلاً  
 إلى غير هذا من أمور كثيرة  
 وقد بدلت أسماءنا وتحولت  
 فأها على تبديل دين محمد  
 وآها على أسماءنا حين بدلت  
 وآها على أبنائنا وبناتنا  
 يعلمهم كفراً وزوراً وفرية  
 وآها على تلك المساجد سُورَت  
 وآها على تلك الصوامع عُذِّقَت  
 وآها على تلك البلاد وحُسنها  
 وخاطبها بالزبل أو بالنجاسة  
 ففي النار ألقوه بهزءٍ وحقرة  
 ولا مصحفاً يخلى به للقراءة  
 ففي النار يلقوه على كل حالة  
 يعاقبه اللباط شر العقوبة  
 ويجعله في السجن في سوء حالة  
 بأكل وشرب مرة بعد مرة  
 ولا نذكره في رخاء وشدة  
 فأدركم منهم أليم المضرّة  
 بضرب وتغريم وسجن وذلة  
 يدكركم لم يدفنوه بحيلة  
 كمثل حمار ميت أو بهيمة  
 قباح وأفعال غزار رديّة  
 بغير رضا منا وغـير إرادة  
 بدين كلاب الروم شر البرية  
 بأسماء أعلاج من أهل الغباوة  
 يروحون للباط في كل غدوة  
 ولا يقدرُوا أن يمنعهم بحيلة  
 مزابل للكفار بعد الطهارة  
 نواقيسهم فيها نظير الشهادة  
 لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

وصارت لعباد الصليب معاقلاً  
 وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى  
 فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا  
 فيا ويلنا ، يا بؤس ما قد أصابنا  
 سألناك يا مولاي بالله ربنا  
 وبالسادة الأخيار آل محمد  
 وبالسيد العباس عم نبينا  
 وبالصالحين العارفين بربهم  
 عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا  
 فقولك مسموع وأمرك نافذ  
 ودين النصارى أصله تحت حكمكم  
 فبالله يا مولاي منوا بفضلكم  
 فأتم أولو الإفضال والمجد والاعلا  
 فسل بابهم<sup>(١)</sup> أعنى المقيم برومة  
 وما لهم مالوا علينا بغدرهم  
 وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا  
 ولم يخرجوا من دينهم وديارهم  
 ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهد<sup>(٢)</sup>  
 ولا سيما عند الملوك فإنه

وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة  
 ولا مسلمين نطقهم بالشهادة  
 إليه لجادت بالدموع الغزيرة  
 من الضر والبؤى وثوب المذلة  
 وبالمصطفى المختار خير البرية  
 وأصحابه أكرم بهم من صحابة  
 وشيخته البيضاء أفضل شية  
 وكل ولى فاضل ذى كرامة  
 لعل إله العرش يأتى برحمة  
 وما قلت من شيء يكون بسرعة  
 ومن ثم يأتهم إلى كل كورة  
 علينا برأى أو كلام بحجة  
 وغوث عباد الله فى كل آفة  
 بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة ؟  
 بغير أذى منا وغير جريمة  
 وأمن ملك ذى وفاء أجلة  
 ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة  
 فذاك حرام الفعل فى كل ملة  
 قبيح شنيع لا يجوز بوجهة

(١) يريد البابا رئيس الدين المسيحى .

(٢) فى ط : « ثم يغدر بعده » .

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم وما زادهم إلا اعتداءً وجُرأةً وقد بلغتْ أرسالُ<sup>(١)</sup> مصرَ إليهم وقالوا لتلك الرُّسلِ عنا بأننا وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم لقد كذبوا في قولهم وكلامهم ولكنَّ خوفَ القتلِ والحرقِ ردَّنا ودينُ رسولِ الله ما زال عندنا ووالله ما نرضى بتبديل ديننا وإن زعموا أنا رضينا بدينهم فسئل وحرأ عن أهلها كيف أصبحوا وسئل بلقيعا عن قضية أمرها ومنيافة<sup>(٢)</sup> بالسيف مرق أهلها وأندرش<sup>(٤)</sup> بالنار أحرق أهلها فها نحن يا مولاي نشكو إليكم عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا وإلا فيجلُّونا جميعاً من أرضهم فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا فهذا الذي نرجوه من عزِّ جاهكم

فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة علينا وإقداماً بكل مساءة وما نألمهم غدر ولا هتك حرمة رضينا بدين الكفر من غير قهورة ووالله ما نرضى بتلك الشهادة علينا بهذا القول أكبر فريية تقول كما قالوه من غير نيية وتوحيدنا لله في كل لحظة ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة بغير أذى منهم لنا ومساءة أسارى وقتلى تحت ذل ومهينة لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشرة<sup>(٣)</sup> بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة فهذا الذي نلناه من شرِّ فرقة كما عاهدونا قبل نقض العزيمة بأموالنا للغرب دار الأحيبة على الكفر في عنز على غير ملة ومن عندكم تُقضى لنا كل حاجة

[٦٢]

(١) يريد بالأرسال (هنا) : جمع الرسول .

(٢) وحرأ ، ومنيافة : اسما بلدين ، ولم نعتز عليهما في المعاجم .

(٣) البشرة : جهة تنتظم قرى كثيرة نزهاة قرب فمرناطة .

(٤) أندرش ( أندراش ) : بلدة بالأندلس من كورة البيرة .

ومِنَ عِنْدِكُمْ نَرْجُو زَوَالَ كُرُوبِنَا      وَمَا نَالْنَا مِنْ سَوْءِ حَالٍ وَذِلَّةٍ  
فَأَتَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ خَيْرَ مُلُوكِنَا      وَعِزَّتُكُمْ تَعَلَوُ عَلَى كُلِّ عِزَّةٍ  
فَنَسَّأَلُ مَوْلَانَا دَوَامَ حَيَاتِكُمْ      بِمُلْكٍ وَعِزٍّ فِي سُرُورٍ وَنَعْمَةٍ  
وَتَهْدِينِ<sup>(١)</sup> أَوْطَانٍ وَنَصْرٍ عَلَى الْعِدَا      وَكَثْرَةِ أَجْنَادٍ وَمَالٍ وَثَرْوَةٍ  
وَتُمِّمَ سَلَامَ اللَّهِ تَتْلُوهُ رَحْمَةٌ      عَلَيْكُمْ مَدَى الْأَيَّامِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ

انتهت الرسالة بحمد الله ، وكتبتها وإن كانت ألفاظها غير بليغة ، تكميلاً  
للفائدة ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

وكان أهل الأندلس في عُنْفُوَانِ أَمْرِهِمْ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ ، حَتَّى قَالَ الرَّئِيسُ  
ابْنُ الْجَبَّابِ يَفْتَخِرُ<sup>(٢)</sup> بِذَلِكَ :

أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْيَدُ الْعُلْيَا      لِأَنْدَلُسٍ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا ثُنْيَا<sup>(٣)</sup>  
وَإِنْ هِيَ عَضَّتْهَا نِيَابُ نَوَائِبِ      فَصَيَّرَتِ الشَّهْدَ الْمَشُورَ بِهَا شَرِيًّا<sup>(٤)</sup>  
فَمَا عَدِمَتْ أَهْلَ الْبَلَاغَةِ وَالْحِجَا      يَقِيمُونَ فِيهَا الرَّسْمَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا  
إِذَا خَطَّبُوا قَامُوا بِكُلِّ بَلِيغَةٍ      تُجَلِّي الْقُلُوبَ الْغُلْفَ<sup>(٥)</sup> وَالْأَعْيُنَ الْعُمْيَا  
وَإِنْ شَعَرُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ      تَخَالُ النَّجُومَ النَّيِّرَاتِ لَهَا حَلْيَا  
فَنَسَّأَلُ فِي الدُّنْيَا مِنْ اللَّهِ سِتْرَةً      عَلَيْنَا ، وَفِي الْآخِرَى إِذَا حَانَتْ اللَّقْيَا

ولعمري ، لقد صدق قائل هذه الأبيات ، فإن البلاغة لم تزل شمسها  
بالأندلس باهرة الإيالة<sup>(٦)</sup> ، ظاهرة الآيات ، إلى أن استولى عليها العدو ، وعطلَّ

(١) كذا في ت . والتهدين : التسكين وفي ط : « وتهذيب » .

(٢) في ط : « مفتخرا » .

(٣) ولا ثنيا : ولا استثناء .

(٤) الصرى : الحنظل .

(٥) في ت : « تحلى قلوب القلب » وهو تحريف .

(٦) إيالة الشمس : ضوءها .

من أهل الإسلام الرِّواح إليها والتُّدوُّ ، وفي أهلها بقية لسان وبراءة<sup>(١)</sup> ،  
وتصرف في فنون الإجابة وبراءة ، وقد قصصنا عليك آنفاً الرسالة التي كتبها  
الملك<sup>(٢)</sup> الخاوع لصاحب المغرب فيما سردناه ، واطلمت منها على ما يؤيد  
ما [قلناه<sup>(٣)</sup>] ، من الغرض الذي انتحينا وأوردناه : وقد كان ذلك الكاتب  
وطبقته تلقفوا كُرة البلاغة من يد طبقة أخرى حازت<sup>(٤)</sup> معلى القِداح ، وتبرجت  
لها من الفصاحة كل خَوْدِ رَداح<sup>(٥)</sup> ، كالفقيه الكاتب أبي عبد الله الشران ، المبرز  
في أدواته على الأنداد والأقران ، وكالأديب الشهير [الفقيه عمر ، الذي لم تزل  
أخباره إلى الآن سَمَر ، وكفارس تلك الحلبة ، الكاتب القاضي الرئيس ،  
الوزير<sup>(٦)</sup> | الفقيه ، أبي يحيى بن عاصم ، الذي حَلَيْتْ بعابيه اللَّبَّات والمعاصم ،  
وغيرهم من الجهابذة النُّقَّاد ، والأعلام الذين تخضع لهم المحاسن وتنقاد ، إن جَدُّوا  
وصلوا مقطوع الأسباب ، وإن هَزَلُوا ، على عادة الأفاضل في مثل هذا الباب ،  
ملكوا النفوس ، وسحروا الألباب ؛ وقد سبق من كلام ابن عاصم ما يصحح  
ما ادعينا ، ولنورد زيادةً إذا أبصرها النصف المستفيد تقر عيناه ، فنقول :

أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم ، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند  
العامّة محفوظة ، وعند الخاصّة مرفوضة ، إلا القليل الذي يُسمح في مثله لصاحب  
القلم ، كقمامته<sup>(٧)</sup> التي سماها بتسريح النّصال ، إلى مقاتل الفصّال ، ونصها :

مقامة الفقيه  
عمر : تسريح  
النصال إلى مقاتل  
الفصّال

- (١) البراعة : قصبة القلم . والمراد أنهم أهل فصاحة إذا تكلموا أو كتبوا .
- (٢) في ط : « كتب ملكها » .
- (٣) زيادة عن ت .
- (٤) في ط : « جازت » .
- (٥) الخود : الحسنه الخلق الثيابة أو الناعمة ؛ والرِّداح : الثقبلة الأوراك والمآكم .
- (٦) زيادة عن ت .
- (٧) في ط : « مقاماته » .

ياعماد السالكين ، ومحط رحال<sup>(١)</sup> المستفيدين والمتبركين ، وئمال الضعفاء  
 والمساكين والمتروكين ، في طريقتك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك تزهي  
 العباءات وتروق الدلافس<sup>(٢)</sup> ؛ وبكتابتك تحيا جوامد الأفهام ، وبمذبتك تُشرد  
 ذباب الأوهام ؛ وفي زنبيلك<sup>(٣)</sup> يدمن التالد والطارف ، وبمصاك يهش على  
 بدائع المعارف ، الله الله في سالك ، ضاقت عليه المسالك ؛ وشاد ، رُمي بالبعاد<sup>(٤)</sup> ،  
 أدركته متاعب الحرفة<sup>(٥)</sup> ، وأقيم من صف أهل الصفة<sup>(٦)</sup> ؛ فلا يجد نشاطاً  
 على ما يتعاطى ، ولا يلقى اغتباطاً ، وإن حل زاوية أو نزل رباطاً ؛ أقصى  
 عن أهل القرب والتخصيص ، وابتلي بمثل حالة برصيص<sup>(٧)</sup> ؛ فأحيل عليك ،  
 وتوقفت إقالته على توبة بين يديك ؛ فكاتبتك استدعاء ، واستوهب منك  
 هداية ودعاء ؛ ليسير على ما سويت ، ويتحمل عنك أشبات مارويت ؛ فيلقى  
 الأكفاء الظرفاء عزيزاً ، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيزاً ، فاصرف إلى  
 محيا الرضا ، وأعد من إيناسك العهد الذي مضي ، ولا تلقني معرضاً ولا معرضاً ،  
 وأصغ إلى سمعك كما قدر الله وقضى :

تعال نجددُها طريقة ساسان<sup>(٨)</sup> وعصَّ عليها ما توالى الجديدان

- (١) هذه الكلمة « رحال » : ساقطة في ت .
- (٢) الدلافس : جمع دلفاس ( ويقال فيه دلفاس أيضا ) : نوع من اللباس خشن كالعباءة إلا أنه قصير ، يلبسه الصوفية والفقراء ( انظر تكملة المعاجم العربية لدوزي ) .
- (٣) في ط : « زيبيلك » وهي لغة في الزنبيل .
- (٤) في ت : « بإبعاد » .
- (٥) الحرفة ( بالضم والكسر ) : الحرمان .
- (٦) أهل الصفة : فقراء صحابة رسول الله كانوا يبيتون في صفة مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهي موضع مظلل منه .
- (٧) برصيص ، ويقال فيه برصيصا : كان من عباد بني إسرائيل ، ثم فتنه الشيطان ، وقصته مشهورة تذكر عند تفسير قوله تعالى : ( كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ) .
- (٨) يريد بطريقة ساسان علم الحيل الساسانية . قال حاجي خليفة في كشف الظنون : =

ونصرف إليها من مُثَارِ عَزَائِمٍ  
 ونعقدُ على حكم الوفاء هواءنا  
 ونقسمُ على ألا نصدقَ وأشيأ  
 يطوف حوالينا ليفسد بيننا  
 على أننا من عالم كَلِمَا بَدَا  
 وحاشاك أن تُتَلَفَى عن الصلح مُعْرِضًا<sup>(١)</sup>  
 وإني أَهَمَّتَنِي شُؤْنٌ كَثِيرَةٌ  
 فأنت إمامي إن كَلِفْتُ بِمَذْهَبٍ  
 سأرعاك في أهل العباءات كُلِّهَا<sup>(٢)</sup>  
 ويا لابسِي تلك العباءات إنها  
 تفرقتِ الألوانُ منها إشارة  
 ويا بأبي الفصائلُ شيخ طريفة  
 إذا جاء في الثوب المحبَّرِ خِلْتَهُ  
 فما تأمنُ الأبدانُ آفةَ لَسْعِهَا  
 ونحلف عليها من مُؤَكِّدِ أَيْمَانٍ  
 لناَمَنَ مِنْ أَقْوَالِ زُورٍ وَبُهْتَانٍ  
 يروح ويغدو بين إِيْتِمٍ وَدُؤَانٍ  
 بمنطق إنسان وخُدعة شيطان  
 تعود منه عالم الإنس والجان  
 إلى الصلح آلت حرب عبس وذبيان  
 وصلحك أَوْلَى ما أُقَدِّمُ مِنْ شَانِي  
 وأنت دليلي إن صدعتُ ببرهان  
 رأيتك في أهل الطيَّالسِ ترعاني  
 لباس إمام في الطريقة دِهْمَانٍ  
 بأنك<sup>(٣)</sup> تأتي من حِلاكِ بألوانٍ  
 خَلُوبٌ لِأَلْبَابٍ لِعُوبٍ بِأَذْهَانٍ  
 زُنَيْبِرَةٌ<sup>(٤)</sup> قد مُدَّ منها جَنَاحَانِ  
 وإن أقبلت في سابغاتٍ وأبدان<sup>(٥)</sup>

[٦٥]

« ذكره أبو الخير من فروع علم السحر وقال : علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال ، والذي باشرها يتزيا في كل بلدة بزى يناسب تلك البلدة ، بأن يعتقد أهلها في أصحاب ذلك الزى ، فتارة يختارون زى الفقهاء ، وتارة يختارون زى الوعاظ ، وتارة يختارون زى الأشراف ، إلى غير ذلك . ثم إنهم يحتالون في خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها . »

- (١) كذا في ط . وفي ت : « على النصيح » .
- (٢) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « كلها » .
- (٣) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « فانك » .
- (٤) زنبيرة : تصغير زنبورة ، وأصله زنبيرة ، وهي من الذباب اللسع .
- (٥) السابغات والأبدان : الدروع .

(١) سأدعوك في حالات كيدى وكديتى  
 وإن كان في الأنساب منا تباينٌ  
 ألا فادع لى في جنح ليلك دعوة  
 لك الطائر اليمون في كل وجهة  
 فكم من فقير بأس قد (٣) عرفته  
 وكم من رفيع الجاه واليت أنسه  
 فلو كنت للفتح بن خاقان صاحباً  
 ولو كنت للصابي صديقاً ملاطفاً  
 ولو كنت من عبد الحميد مُقرباً  
 ولو كنت قد أرسلتها دعوة على  
 ولو كنت في يوم الغبيط مراسلاً  
 بشيخى ساسانٍ وعمى هامان  
 فما تنكر الآداب أنا نسيبان  
 لتنجح آمالى ويرجح ميزانى  
 سریت إليها غير نكسٍ ولا وانى (٢)  
 فرفت عليه نعمة ذات أفنان  
 فعاش قرير العين مرتفع الشأن  
 لما خانه المقدار في ليلة الخان (٤)  
 لما قُبلت فيه مقالة بهتان (٥)  
 لما هزم السفاحُ أشياخَ مروان (٦)  
 أبى مسلم ما حاز أرض خراسان  
 لبسطام لم تهزم به آل شيبان (٧)

(١) كذا في نصح الطيب . والكديّة : شدة الدهر . وفي ت : « كيد وكيدة » .

وفي ط : « كيدى وكيدتى » .

(٢) النكس : الضعيف الجبان . والوانى : المقصر .

(٣) في ت : « مذ » .

(٤) يشير إلى مقتل الفتح بن خاقان القيسى الأندلسى صاحب قلائد العقيان ومطمح الألفس في الفندق الذى نزل به بمدينة صراکش سنة تسع وثلاثين وخمس مئة (انظر وفيات الأعيان) .

(٥) الصابى : هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء في دولة بنى بويه . ويشير الشاعر إلى مانال الصابى من اضطهاد وإبعاد من عضد الدولة بن بويه ، لمقالة نقلت إليه عنه فأغضبته . (انظر وفيات الأعيان) .

(٦) يشير إلى مانال مروان بن محمد وعبد الحميد بن يحيى كاتبه من الهزيمة على يد السفاح

(٧) الغبيط : مكان بين الكوفة وفيد ، وبه كان يوم بنى تميم وشيبان ، غلبت فيه تميم شيبان ، وفيه أسر عتبية بن الحارث بن شهاب بسطام بن قيس ، ففدى نفسه بأربع مئة ناقة . (انظر العقد الفريد وشرح القاموس) . ومراسلاً (هنا) : معاونا ، من المراسلة بمعنى المتابعة .

- ولو كنتَ في حرب الأمين لطاهر  
ولو كنتَ في مغزى أبي يوسفٍ لما  
ولو أن كسرى يزُد جردَ عمرته  
ولو أن لُدريقًا وطئتَ بساطه  
وفيما مضى في فاسٍ أوضحُ شاهد  
ولمَّا اغتني منك السعيدُ بكاتب  
فلا تنسى من أهل وُدك إنني  
ولا خير أن تجعل كفاء قصيدتي  
فجُد بدنانيرٍ ولا تكن التي
- لما هان في يوم اللقاء ابن ماهان<sup>(١)</sup>  
رماه بغدر عبده في تلمسان<sup>(٢)</sup>  
لما طاح مَقْتولا على يد طحان<sup>(٣)</sup>  
لما أثرت فيه مَكيدة أليان<sup>(٤)</sup>  
غنيّ لدينا عن بيانٍ وتديان  
رأى ما ابتغى من عزِّ ملكٍ وسلطان  
أخاف الليالي أن تطول فتنسائي  
كفاء ابن درّاج على مدح خيران<sup>(٥)</sup>  
ألمَّ بها الكنديُّ في شعب بوان<sup>(٦)</sup>

- (١) يشير إلى الواقعة التي كانت بين طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون ، وعلى بن عيسى ابن ماهان قائد جيش الأمين ، وقد انتهت بانتصار طاهر وقتل ابن ماهان .
- (٢) لعنه يريد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبدالحق المريني في غزوه تلمسان ، وإقامته على حصارها مئة شهر . وقد قتله عبده « سعادة » في أثناء ذلك الحصار المشهور ، في حديث فصله السلوي في كتاب « الاستقصا ج ٢ ص ٤١ » .
- (٣) يشير إلى هرب يزدجرد آخر ملوك الفرس من أعدائه ، والتجائه إلى طاحونة لم يحسن الطحان ستره فيها ، حتى أدركه طالبوه وقتلوه ( انظر غرر أخبار ملوك الفرس للتعالي صفحتي ٧٤٦ — ٧٤٧ ) .
- (٤) يشير إلى تمكين أليان : ( بليان ، جليان ، أمير المغرب من قبل لدريق ملك القوط بالأندلس ) العرب من دخول الأندلس انتقاما لشرفه من لدريق ، في حديث مفصل في كتب التاريخ ( انظر نفع الطيب وغيره ) .
- (٥) هو خيران الصقلي أمير المرية ، وهو من موالى المنصور بن أبي عامر ، وقد مدحه ابن دراج القسطلي بقصيدة نونية مطلعها :
- « لك الخير قد أوفى بعهديك خيران » ولعل خيران لم يحسن جائزة الشاعر كما يفهم من السياق هنا .
- (٦) الكندي : هو أحمد بن الحسين المتنبي الشاعر المعروف ، ونسب إلى محلة كنده بالكوفة . وشعب بوان : متزه بفارس . يشير الشاعر إلى قول المتنبي في القصيدة التي مدح فيها عضد الدولة ووصف شعب بوان :
- وألقى المرقق منها في ثيابي دنانيرا تفر من البنان =

- فجودك فينا الغيث في رَمَلِ عالج<sup>(١)</sup>      وفصلك فينا الخبزُ في دار عُثمان<sup>(١)</sup>  
وما زلتَ من قبل السؤالِ مقابِلا<sup>(٢)</sup>      مُرادى بإحساب وقصدى بإحسان<sup>(٢)</sup>  
ولا تنس أياماً تقصتَ كريمة<sup>(٣)</sup>      بزاوية المحروق أو دار همدان<sup>(٣)</sup>  
وتأليفنا فيها لقبض إتاوة<sup>(٤)</sup>      وإغرام مسنون وقسمة حُلوان<sup>(٤)</sup>  
وقد جلس الطَّرْقون بالبعد مُطرِّقا<sup>(٥)</sup>      يقول نصيبي أو أبو حُب بكتمان<sup>(٥)</sup>  
عَرِيفِي يَلْحَانِي إِذَا مَا أَتَيْتُهُ      ولم أنصرف عنكم بواجب الحان<sup>(٥)</sup>  
وقد جمعت تلك الطريقة عندنا<sup>(٦)</sup>      أئمة حُسَّاب<sup>(٥)</sup> وأعلام كُهَّان<sup>(٥)</sup>  
إِذَا اسْتَنْزَلُوا الأرواحَ باسم تبادرت<sup>(٦)</sup>      ظوائف ميمون وأشيع بركان<sup>(٦)</sup>  
وإن بخرُوا عند الحُلول تآرجت<sup>(٧)</sup>      مجامرهم عن زعفران ولُوبان<sup>(٧)</sup>  
وإن فتحو الدارات في رد آبق<sup>(٨)</sup>      ثنت عنزمه أوهام خوف وخِذلان<sup>(٨)</sup>

[ ٦٦ ]

يصف ضوء الشمس النافذ إليه من بين أوراق الأشجار ، فيرسم على ثيابه أشباه  
الدنانير صفرة واستدارة ، إلا أن اليد لا تقدر عليها .

(١) عالج : موضع بالبادية يصل إلى الدهناء ، والدهناء فيما بين اليمامة والبصرة . يقول :  
نحن متعطشون إلى جودك كمتعطش رمال عالج إلى الغيث ، محتاجون إلى فضلك احتياج  
المحصورين في دار عثمان بن عفان إلى الطعام والشراب وقد حرموها .

(٢) بإحساب : أى بما يكفى ويرضى .

(٣) زاوية المحروق : متعبد بفاس . ودار همدان بفاس أيضاً .

(٤) الطَّرْقون (كلمة مغربية مولدة) : من يئده قبالة اللهو وقبض ضرائب الأعراس  
ونحوها ، مما تستعمل فيه الدفوف وآلات الملاهي (انظر تكملة المعجمات لدوزى) .

(٥) كذا فى ت ونفح الطيب . ويريد بالحساب : المشتغلين بحساب الطوالع للناس .  
وفى ط : « أحساب » .

(٦) ميمون وبرقان : من أسماء ملوك الجن التى تدور على ألسنة المشعبدين . (انظر  
كتاب الجواهر اللماعة ، فى استحضار ملوك الجن فى الوقت والساعة) .

(٧) لوبان : لفظة مغربية محرفة عن « اللبان » وهو الكندر المعروف . (عن دوزى)

(٨) الدارات : حلقات يعقدها شيوخ المشعبدين ومريدوهم عند استطلاع أمر خفى  
كإظهار مسروق ، وإرجاع آبق ، ونحو ذلك ، يقولون إذا سرق شيء : هلم  
نفتح الدارة .

فيحسب أن الأرض حيث أتمت به  
وقد عاشرتنا أسرة كيموية<sup>(١)</sup>  
فله من أعيان قوم تألفوا  
ونحن على ما يغفر الله إنما  
مع الصبح نضيفها عباءة صفة  
أتذكر في سفح العقاب مبيتكم  
لديكم من الألوان ما لم يحجى به  
ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها ، فلذا تركتها<sup>(٦)</sup> ، ثم قال :

فأقسم بالأيمان لولا تعفني  
عن سوء لآنحلت عقيدة إيماني  
فعد للذي كنا عليه فإن لي  
على الغير إن صاحبته حقد غيران  
فمن يوم إذ صيرت ودي جانباً  
وأعرضت عنى ما تناطح عنزان  
ولا روت الكتاب بعد نفاارنا  
محاوره من ثعلبان لسرحان

(١) كذا في نفح الطيب : وفي ط : « كيموية » وكلاهما يراد به النسب إلى الكيمياء ،

وفي ت : « كهوية » ، وهو تحريف .

(٢) كذا في ت . وفي ط ونفح الطيب : « خان » .

(٣) كذا في ت عباءة صفة : يريد بها زى الفقراء النساك . انظر الحاشية رقم ٦ صفحة

١١٧ من هذا الجزء . والزنانير جمع زنار ، وهو ما يشد به اراهب وسطه ؛ يريد

أنه يعمل في الليل ما لا يعمل في النهار . وفي ط : « نلويها زنانير ... الخ »

(٤) العقاب : موضع بالأندلس ، كانت به وقعة مشهورة محص الله فيها المسلمين .

(٥) ابن ذنون (ابن دنون) : هو المأمون أحد ملوك الطوائف في طليطلة ، من بني

ذى النون ، وقد بلغوا في البذخ والترف إلى الغاية ، ولهم الإعتذار المشهور الذي

يقال له : « الإعتذار الذنونى » ، وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم

بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق ، والمأمون هو صاحب ذلك . وبوران هي

بنت الحسن بن سهل ، وقد زفت إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد في إعراس

مشهور في كتب التاريخ .

(٦) ذكر المؤلف القصيدة كاملة من غير حذف في نفح الطيب ( ج ٣ ص ٢٣ طبعة

الأزهرية بمصر ) .

وما هو قصدي منك إلا إجازة  
 وإنك إن سخرت لي وأجزتني  
 ولم لا ترويني وأنت أجل من  
 ألا فأجزني يا إمامي بكل ما  
 ولا تنس للدبّاع نظماً عرفته  
 ومزدوجات ينسبون نظامها  
 وألم بشيء من خرافات عنتر  
 وإن كنت طالعت اليتيمة واسني  
 أجزني بكشف الدك<sup>(٣)</sup> أرضي وسيلة  
 وناولني المصباح<sup>(٤)</sup> فهو أغربتي  
 وألحق به شمس المعارف<sup>(٥)</sup> إنني  
 وقد كنت قبل اليوم عرفتني به

تخولني التفضيل ما بين خلاني  
 لنعم ولياً صان ودي وجازاني  
 سقاني من قبل الرحيق فرواني  
 رويت لمدغليس أو لابن قزمان<sup>(١)</sup>  
 فإنكما في ذلك النظم سيان  
 إلى ابن شجاع في مديح ابن بطان  
 وألم ببعض من حكايات سوسان  
 بلامية في الفحش من نظم واساني<sup>(٢)</sup>  
 وخير جليس في بساط ودكان  
 ميسر أغراضى ورائد ساواني  
 أسائل عن إسناده كل إنسان  
 ولكنني أنسيته بعد عرفان

- (١) أبو بكر بن قزمان ومدغليس من أوائل الزجالين بالأندلس .  
 (٢) هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانه بن محمد المعروف بالواساني . ويشير  
 الشاعر إلى تصيدته اللامية التي هجا بها أبا الفضل يوسف بن علي ، وعرض فيه  
 بابن الفزاز ، ومطلعها :  
 يأهل جيرون هل لسامركم إذا استقلت كواكب الحمل  
 (انظر يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٦١ — ٢٧٤ طبعة دمشق) .  
 (٣) كذا في نفح الطيب . يريد كتاب : « كشف الدك ، وإيضاح الشك » لأبي عامر  
 أحمد بن عبد الملك الأندلسي ، وهو كتاب مشهور في الحيل والشعبذة . وفي  
 الأصلين : « بكشف الديك » وهو تحريف .  
 (٤) في الفهارس كتب كثيرة في علوم مختلفة كل منها اسمه « المصباح » ، ولا ندري  
 أيها يريد . ولعله في الروحانيات ، كما يفهم من السياق .  
 (٥) يريد كتاب : « شمس المعارف ، ولطائف العوارف » للشيخ أحمد بن علي البوني ،  
 المتوفى سنة ٦٢٢ ، وهو كتاب مشهور في التعاويد ونحوها من الروحانيات .

ولا بُدَّ يا أستاذُ من أن تُجيزَني  
 وكتبَ ابنُ أخلي كيف كانت فإنها  
 ولا تنسَ ديوانَ الصَّبابَةِ<sup>(٣)</sup> والصفا  
 وزهرَ رياض<sup>(٤)</sup> في صنوفِ أضاحك  
 كذلك فناولني كتابَ حُبَّاحب  
 ولى أمل في أن أروِّي رسالة  
 وحبَّسَ على الكاسِ والكوزِ والعصا  
 وصيَّرَ لي الدُّلفاسَ<sup>(٦)</sup> أرفعَ لبِسةٍ  
 وقد رُقَّ طبعي واعترتني خشية  
 وخلَّ مفاتيحَ الطريقة في يدي  
 فإنني لم أخدمك إلا بنية  
 فكن لي بالأسرارِ أفصحَ مُعلن  
 انتهت المقامة . وأثبتها لأنها أخف ما رأيت من هزليات الفقيه عمر المألقي ،  
 رحمه الله وسامحه ، ومثل هذا الهزل قد وقع لكثير من الأئمة على سبيل

(١) يريد ببدء ابن سبعين كتاب « بدء العارف » لأبي محمد عبد الحق بن إبراهيم الشهير بابن سبعين المرسي الأندلسي . وابن رضوان : هو عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري من أهل ماهة .

(٢) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « دقيق القوم » .

(٣) يريد ديوان الصَّبابَةِ لابن أبي حجلة أحمد بن يحيى التلمساني الحنفي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

(٤) في الفهارس كتب كثيرة بهذا الاسم .

(٥) يريد كتاب : « أسرار الحكمة المشرقية » لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل ، وهو قصة خيالية فلسفية ، جمع فيها بين الفلسفة والشريعة .

(٦) الدلفاس ( انظر الحاشية رقم ٢ ص ١١٧ من هذا الجزء ) .

(٧) في نفع الطيب : « حكيم » .

الإحاض<sup>(١)</sup> ، ولم يَعْنُوا بها غالباً إلا إظهارَ البلاغة والاعتدال ، كما فعل الحريري وغير واحد ، والأعمال بالنيات .

ومن نظم الفقيه عمرَ المذكور قوله عفا الله عنه :

إلى الله ربي أشتكى سوء حالتي عسى فرجٌ يأتي بأفضل حالي  
وما أسنى إلا للمالي أبيعُه وخائنٌ مالي يشتريه بمالي

ومن أبدع ما صدر عنه رحمه الله مقامة في أمر الوباء ، رأيت أن أثبتها لغرابة منزِعها ، وإن كان بعض فصولها لا يجري على المشهور من مذاهب العلماء ، ونصها :

إلى حمراء الملك وقلعته ، ومقر العز ومنعته ، ومطلع كل قر نصرٍ يُنجل الأقر بطلعته ، أبقاها الله على تعاقب الزمان ، منزل أمان ودار إيمان ، وأمتعها بحياة الملك الخنزرجي اليمان ، من مُوجبة إجلالها كما يجب ، المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشمس لا تحتجب ، والواقفة عند إشارتها وطاعتها ، فإن تأمرُ أمثالُ وإن تدعُ أستجبُ ، مألقة ، المستمسكة بذمتها الوثيقة ، المتشوفة إلى أخبارها تشوف المحببة الشفيقة ، إلى ريحانة قلبها في الحقيقة ، وإلى هذا ياسيدي ويا عدتي ، ويا ذخيرتي ويا عمدي ، أمتعنا الله وإياك بحياة من استنقذنا من الورطات ، وردنا إلى الصواب مما كان منا من الغلطات ، مولانا الغالب بالله<sup>(٢)</sup> وحده ، الموعود بعزير النصر وقريب الفتح والله ميسر وعده .

سلام عليك يتعطر بذكر مولانا أمير المسلمين قُوْحُه<sup>(٣)</sup> ، وينشق

(١) الإحاض : الانتقال من حال إلى حال ؛ مأخوذ من إحاض الإبل ، وهو نقلها

من رمي الحلة إذا سئمتها إلى رمي الحوض والحض : ما ملح وأمر من النبات ، وهي

كفأكة الإبل ، والحلة : ما حلا ، وهي تكبؤها . (عن القاموس) .

(٢) في ت : « الغالب بأمر الله » .

(٣) في ط : « بوجه » .

كالمسك<sup>(١)</sup> الفتيت روحه ، ورحمة الله تعالى وبركاته .  
 أما بعد ، فإني أحمد إليك الله الذي إذا استكفني بعزته كفي ، وإذا  
 استشفي بكلمته شفي ، وإذا سئل بواسع رحمته عفا ؛ وأصلى على رسوله محمد  
 الكريم المصطفى ، وعلى آله وأصحابه ، أكرم من نصح له وأخلص ووفى .  
 كتبته إليك يا سيدتي عن نفس قلقمة ، ساهرة أرقمة ، حاذرة مشفقة ،  
 مُلهبة بل محترقة ؛ وإني أقسم عليك بالرب الذي كرمك بالعز وشرفك ، وعرفك  
 من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرفك ، أن تسعديني على تسكين لوعتي ،  
 وتأمين روعتي ، وتراجع رقادي [ بعد سُهادي ، وقضاء حاجة جلت في فؤادي ،  
 وتفهمي مراد إشارتي وإشارة سرادي ]<sup>(٢)</sup> ، وتتركي هوى النفس الذي هو  
 للحق معاند وللرشد معادي .

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم : « الشفيق مولع بسوء الظن » ، ومن  
 مَنَنَ اللهُ على عبده الوقاية من المتناف جل الله العظيم المن ؛ وعلى قول المتنبي :  
 ربما ضر عاشق معشوقا      ومن البر ما يكون عموقا<sup>(٣)</sup>

والمثل الأول لي ، والآخر لك . والله يُيسِّر في حفظ مولانا أُملي وأملك . [ ٦٩ ]  
 وإني أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل ، هذا المرض به فاش ،  
 وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش ، وسمعتُ أن حديث السفر لما لَمَّ أُنقل  
 عليك من حديث رقيب وعاذل وواش ؛ وأنَّ الآراء في ذلك اختلفت ، ولم  
 يُرْجع فيها إلى سُنن تقدمت وعوائد سلفت ؛ والأوائل من المؤمنين رحمهم الله  
 ماتوا كواشيئاً سُدى ، بل نصبوا على كل طريق إلى النجاة علم هُدى ؛ وسمعت

(١) في ت : « وينشق المسك » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) لم نجد هذا البيت في نسخ ديوان المتنبي .

يا سيدتى أن القضية عُوِّلَ فيها على المُقام والاستسلام ، وخولف فيها رأى الخليفة الرشيد لما تحول في مثلها عن سكنى دار السلام ، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام ؛ وقد سمعتُ في الأجوبة الظريفة ، ما صدر من قوله : أخشى أن أكون أول خليفة ؛ وقد كنتُ يا سيدتى أرتجى أن يكون لهذا المرض ارتفاع ، أو يحصل بدخول فصل<sup>(١)</sup> البرد انتفاع ؛ فتركت الكُتُب منتظرة لذلك ، إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك ، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك ؛ وأنا أقول : أما واجب التسليم ، لتقدير العزيز العليم ؛ فمتأكد شرعاً ، لا يضيق به المؤمن ذرعاً ؛ لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد ، إذا قيل له اهرب من الأسد ؛ وقد أبصره مقبلاً إليه ، أو مُنقِضاً عليه ؛ أياخذ في تحفظه واحتراسه ، أم يصبر لافتراسه ؟ ومن قيل له في ظلم الليل : ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل ؛ أينام في مكانه ، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه ؟ ومن نودى : هذه الخيل قد طلعت مغيرة ، والرعاة بالجبال مستجيرة ؛ فارفع غنمك قبل الاكتساح ، فالوقت في انفساح ؛ أيتركها تسرح ، ولا يبرح ؛ أم يرفعها لتسلم ، مما تدرى وتعلم<sup>(٢)</sup> ؟ وكذلك إذا قامت الرماة صفوفًا ، وأصابت سهامهم<sup>(٣)</sup> من الخلق ألوفًا ؛ أيرجح الحقُّ تباعدًا أم وقوفًا ؟ وكذلك أيضاً المنازل ، التي تدوم بها الزلازل ؛ فأرضها في كل يوم تميد ، ودهش القلوب بها حاضر عتيد ، والحسف بها في يوم ينقص وفي يوم يزيد ؛ لا تسمع فيها إلا سقوط جدار ، على ركن دار ؛ وانفكك الأركان ، على السكان ؛ وإخراج ميت ، من تحت بيت ؛ وسقوط سارية ، على جارية ؛ أيُعزم على السكنى والاستيطان ، تحت هذه الحيطان ؛ أم يؤخذ في الاحتيال ،

[٧٠]

(١) في ت : « وقت » .

(٢) في ت : « مما تدرى وتعلم » .

(٣) في ت : « بسهامهم » .

بالخروج بالأطفال والعيال؟ يا سيدتي الحراء، سألتك فأخبريني، وإن تحير فهمي  
 فاعذريني، ووصل إلى الكتاب الشريف، من جنان<sup>(١)</sup> العريف؛ يذكر أن  
 السلامة كانت [به]<sup>(٢)</sup> مستصحبة لمولانا ولناسه، وأن العافية كانت بهم  
 منتشقة مع أنفاس رنده وآسه، ما عرضت به إلى طبيب حاجه، ولا استدعى  
 فيه المأور<sup>(٣)</sup> للنظر في زجاجه؛ ولا تقول ولا عمل، ولا بلغ من الجسوة  
 والقساوة أقل أمل؛ ولم ينتقص من الساكنين بهذا البستان، من عبيد مولانا  
 السلطان، غير فتى من الخصيان، لا يساوي عشرة دراهم في سوق الفتيان،  
 والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامه، بطول أيام الإقامة؛ وعرفني  
 أيضاً جنان العريف في وافد كتابه، ووارد خطابه، أن رغبته كانت في انتقال  
 مولانا نصره الله من صحیح هوائه، وسلسبيل مأه؛ ونفحة جنابه، وتلاعب  
 النسيم العاطر بين قبابه. إلى مالقة حيث الجو الصقيل، والروض الذي يطيب به  
 المقييل، والراحة التي تمتزج بالأرواح كما قيل؛ حيث العرف الأرج، والوادي  
 المنعرج، والساحل الذي ينشرح به الصدر الحرج، حيث البنفسج يدير كئوس  
 البهار، والياسمين نجوم طالعة بالنهار؛ حيث يتمازج طيب الزهر، بعرف الأترج  
 ونفحات السحر، حيث يشبه أنين السواني، حنين المتعشقات من الغواني، إذا  
 حُمد الصباح، وانفلق الإصباح؛ وعمرت صغار القوارب، ونادت بحرية الشباك:

(١) جنان العريف، أو جنة العريف: بستان في خارج غرناطة، ذكره لسان الدين  
 في الإحاطة، صفحة ٢٥ ج ١.

(٢) زيادة عن ت.

(٣) كذا في ط. ولعله يريد بالمأور، كما يظهر من السياق الذي يفحص عن قوارير  
 بول المرضى ليقدر وزنه ونوعه، وهو من عاور الشيء إذا قدره، كما يؤخذ من  
 اللسان مادة «عير». وفي ت «المأور».

إلى المضارب<sup>(١)</sup> ، وسالت أنوارالمشارك على جوانب المغرب ، ونادى محرك الجيش :  
 ظهور الخليل ، وصباح الخير ، واستقبلوا الوادى الكبير لمصيد الأرنب والحوت  
 والطير ؛ شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى ، وعلى ما أظهر من اتباع حق  
 ومخالفة هوى ، اعتماداً من أخبار الدول القديمة على ما حفظ ورّوى . وقال لى  
 يا سيدتى إنك وقفت مع الحديث المنصوص<sup>(٢)</sup> ، الوارد فى مثل هذا المرض على  
 الخصوص ؛ وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه ، وعن  
 القدوم على معتركاته ومصارعه ؛ والحديث صحيح ، والرشد فيه قول صريح ؛  
 ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل ، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد  
 فى كتابه الجامع من البيان والتحصيل<sup>(٣)</sup> ؛ والاتفاق من الجميع أن النهى فى هذا  
 الحديث ليس بنهى تحريم ، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم ؛ فلا إثم  
 ولا حرّج ، على من أقام ولا على من خرج . وقال عمرو بن العاص : الأفضل  
 الخروج لأهل الفطنة ، اتقاء من اعتقاد يؤدى إلى فتنه ؛ وكفى بعمرو بن العاص  
 حجة لمن أراد انتصارا ، والكلام كثير ، ولكنى اختصرته اختصارا ؛ وإن  
 نظراً قدمه كثير من الصحابة ورجّحه ، للخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنججه !  
 ياليت تفقهى كله يكون من هذا القبيل ، وجاريا على هذا السبيل ، مستنداً إلى قول  
 صحابي جليل ، ومستنداً بأرشد علم ودليل ، ولو كان على خلاف المشهور من قول

(١) المضارب (هنا) : الحيام تضرب على ساحل البحار ، يباع فيها ما يصاد من السمك .

(٢) ورد الحديث المشار إليه فى صحيح مسلم ، ونصه فى رواية أسامة : « للطاعون

رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به

بأرض ، فلا تدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .

وفيه روايات أخر تختلف ألفاظها ، وتنق معانيها ؛ وقد علق عليه النووى ،

ونقل كلام الفاضى عياض وغيره ، فليُنظر عمّة (ج ١٤ ص ٢٠٤) .

(٣) اسم الكتاب : جامع البيان والتحصيل ، لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل .

خليل<sup>(١)</sup> . وهنا يقال : ما في هذه القلّة غير هذا الإغريل<sup>(٢)</sup> . يا سيدتي الحمراء ؛ أراك في هذه القضية تفقّهت وتوقفت فيما بينه عالم وذو علم ، ومنعت مما ليس فيه حرج ولا إثم ؛ ولو كنت حاضرة لكان لي معك حديث طويل ، واحتجاج ينصره نص وتأويل . وسمعت أنك أشفقت من عظيم النّفقه ، وليس هذا موضع الشفقه ؛ فالأمن ليس بغال ، ولو يشتري بكل ذخيرة وكل مال ؛ والأولى بالملاّمة ، من<sup>(٣)</sup> يفضّل شيئاً على السلامه . القمح يأكله الشّوس ، والذهب تغني عنه الفلوس<sup>(٤)</sup> ، فكيف يستعظمان فيما تؤمّن به النفوس . وبلغني أنك [٧٢] قلت : ما لقة ليس بها زرع ، وبقليل المقام يضيق لها صدر وذرع<sup>(٥)</sup> ، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا فرع ؛ وعنّي على هذا الكلام ، ولكنني سلّمت والسلام<sup>(٦)</sup> ؛ فإن سعري عن سعر<sup>(٧)</sup> غرناطة منحط ، وفي لحظة بصر يضيق مني بالطعام في كثير من الأيام ساحل وشطّ ، ولا يُعلم أنه دامت لي شدة قطّ . لي في الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على سبع مئة العام<sup>(٨)</sup> ، ما أشغلت فيها فكراً ولا قلباً بادخار قوت ولا باحتكار طعام ؛ أثق في اليوم والغد ، بالرزق الرّغد ؛ تأتي به الرياح على الأعناق ، ويفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق ، وتجلبه الأحاب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهاب الرزاق .

(١) هو خليل بن إسحاق المالكي ، صاحب المختصر في فقه المالكية .

(٢) كذا وردت هذه العبارة في ط . وفي ت : « ما في هذه الغلة . . الخ » .

والعبارة على الروایتين ظاهرة التحريف .

(٣) في ت : « نص » . وهو تحريف .

(٤) في ط : « النفوس » .

(٥) في ت : « وضرع » .

(٦) في ت : « والإسلام » .

(٧) في ت : « أسعار » .

(٨) في الأصلين : « السبع مئة عام » .

قالت النملة : افتخارى ، بادخارى ؛ قالت العصفورة : توسلى ، بتوكلى ؛  
 قالت النملة : أعتمد على الحب ؛ قالت العصفورة : أتوكل على الرب . فلما جنَّ  
 الليل ، أقبل السيل ؛ فخرجت النملة بالقوم ، وبقيت الحبوب بين الدوم ؛ فنزلت  
 العصفورة وسجدت ، [ والتقطت ] <sup>(١)</sup> من مدّخر النملة كل ما وجدت ؛ وقالت :  
 خسر المحتكر ، ورج طالب الرزق المبتكر ، الكريم لا يفتخر بما يدّخر .  
 وصح عندى أن الوزير أعزه الله ليس عنده فى هذا كله كلام ولا قول ، وأن  
 الأمر عنده مفوض إلى الرب الذى له القوة والحول . وسمعتُ يا سيدتى أن هذا  
 السقم ، أعظمُ تأثيره إنما هو فى قطع الأكباد ، من صغار الأولاد ؛ الذين من فوق  
 السبع ودون العشر ، وهم فى هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النَّشر ؛ وهذا  
 إلى كَتبى لك أعظم داء ، فإن الأولاد سوائم والوالد راع ؛ والراعى لا يترك  
 غنمه فى طريق سُبُع ضار ، ولا قريباً من حريق نار ؛ ونحن نشاهد الطير ينقل  
 أفراخه من وكر إلى وكر ، ويسترها بملثف الشجر إذا خاف عليها عادية جارح <sup>(٢)</sup>  
 أو صاحب مكر ؛ فكيف لا نتقدى فى تأمين روعتنا بمن تقدّم من الأكابر ،  
 ونقف فى حامل السيل <sup>(٣)</sup> بأولادنا الأصغر ؛ فما عندك فى هذا كله من القول ومن  
 الجواب ؟ وما يظهر لك من وجه الرأى والصواب ؟ اكتبى بذلك كتاباً أعتد  
 عليه ، وأستند إليه ؛ وقبلى عني يد مولانا تقبيلاً ، ويا ليتنى وجدت إلى ذلك  
 سبيلاً ؛ وأخبريه أنى [ فى ] <sup>(١)</sup> خدمته على نيتى الأولى ، عاكفةً على شكر  
 منته الطولى ؛ أدام الله حياة البلاد والنفوس بحفظه وحياطته ، وأسعنى البشارة

[٧٣]

(١) زيادة عن ت .

(٢) فى ت : « جائح » .

(٣) حامل السيل : السيل الجارف .

بقدمه على مُحَدَّث مائة من حمراء غرناطته ؛ ويحفظه في النفس والأولاد ،  
والملك والبلاد ، بمنه وفضله .

وكتب بتاريخ ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وثمان مئة . انتهت المقامة .  
وكلام المذكور كثير ، ومحلّه من عذوبة المنطق أثير ؛ ونظمه أعلى طبقة  
من نثره طريقة مَعْرِيَّة ، حسبها يظهر ذلك بالتأمل لنفوس بالإنصاف حريه ؛  
وله [عدة] <sup>(١)</sup> تآليف أكثرها هزليّه ، ولذلك لم أجلب شيئاً منها سوى  
ما تقدم ، مما يقتضى ما أصلناه من المزيه ، والفضيلة للبلاد الأندلسية <sup>(٢)</sup> .

ومن أحسن مقطوعاته <sup>(٣)</sup> التي تطارح بها على باب السكريم ، وتطفل بها  
تطفل من لا يبرح عن باب سيده ولا يريم ؛ ويرجى له بها كل جميل ، والله  
لا يخيب ما أمّله من تأميل ؛ قوله رحمه الله :

بعض مقطوعاته

عقيدة دين الحق أن محمداً له الفضل إطلاقاً <sup>(٤)</sup> على كل مخلوق  
وإن سبقت رُسُلٌ بكتبٍ وبعثة  
فهذا إذا ما عشتُ أولى عقيدتي  
فما هو في مجد وفضل بمسبوق  
[وقوله :

جئتك يا رب ولا عذر لي وهل لعبد السوء من معذرة ؟  
أرجوك فيما أنت أهل له فأنت أهل العفو والمغفرة  
وقوله في مرضه :

يا سامعين الكلام مُختلطا نظماً ونثراً قلانداً ودُرُزاً  
صلّوا على المصطفى وسيلتنا محمدٍ وارحموا الفقيه عمر <sup>(٥)</sup>

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ط : « من المزيه للبلاد الأندلسية والفضلية » .

(٣) في ط : « منظوماته » .

(٤) في ط : « إجماعاً » .

(٥) ما بين الفوسين المربعين زيادة عن ت .

وأما الكاتب الرئيس أبو عبد الله الشران<sup>(١)</sup>، فهو الشيخ الفقيه الرئيس الصدر، العلامة العماد، الذخر الأرفع، العلم الأوحد، الأجد الأسرى، الذي لا يجارى في الإنشاء والاختراع كلاماً جزلاً، وقولاً فصلاً، رئيس الكتبة بالحضرة العلمية، أبو عبد الله، ابن الشيخ الفاضل المسجد الأعز الأرفع الأوجه أبي إسحاق، كان حياً سنة سبع وثلاثين وثمان مئة. هذا كلام بعض الأندلسيين فيه. [٧٤]

وقال القلصادي في حقه: هو الفقيه الوجيه اللبيب اليقظ الأدرى، الأديب الأخطى، الرئيس النبيل الأرقى؛ وحيد عصره وأوانه، وفريد دهره وأقرانه، أبو عبد الله محمد الشران الغرناطي، تعمده الله برحمته.

وذكر هذا الشيخ القلصادي في طالعة شرحه لأرجوزة أبي عبد الله الشران المذكور، التي أولها:

بمحمد خير الوارثين أبتدى وبالسراج النبويّ أهدى  
وهي أرجوزة عذبة النظم، سهلة المأخذ مختصرة في علم الفرائض.  
ومن بديع نظم الكاتب أبي عبد الله الشران رحمه الله تعالى قوله:  
[فلا تمنع العين انهماً لأنه غرام شج إسناده غير مهمل  
أحاديث ترؤيها الجفون عن الحشا ويثبت منها مرسله بمسلسل  
وقوله يخاطب الفقيه الصالح سيدي أحمد بن حرشون، وقد أهدى له  
قُرص زعفران:

أهلاً بقُرصة زعفران أطلعت من حسنها للقلب باعث أنسه  
حياً الخلوص به وغير عجيبة للبدر أن حياً بقُرصة شمسه  
يا نيراً للمجد أهدى نيرا كل امرئ إهداؤه من جنسه  
وقوله [٢]:

(١) هو محمد بن إبراهيم، (انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج).  
(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت.

لما اختفت شمسك عن ناظري أرسلتُ منه مطر الدمع  
وأقبلت ظُلمة ليل النوى فما ترى في رُخصة الجمع

وحكى الحافظ أبو عبد الله التَّنَسِّي رحمه الله، أنه لما صُرفَ الفقيه أبو الفضل  
ابن جماعة عن رئاسة الكتابة بخرناطة، إلى قضاء الجماعة، وولى مكانه صاحب  
الترجمة أبو عبد الله الشَّران، لقي بعض رؤساء الدولة ابن جماعة يوماً، فقال له:  
يا سيدي، إن السر الذي عهدناه في الحضرة غاب عنها بغيبتك. فقال له:  
وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع<sup>(١)</sup> وأخذتم الشر المكرر<sup>(٢)</sup>!

ثم إن ابن جماعة كان عنده إعذار<sup>(٣)</sup>، فدعا أعيان البلد إليه ولم يدع  
الشَّران، فكتب إليه الشران:

ماذا أعد المجد من أعذاره في ترك دعوتنا إلى إعذاره<sup>(٣)</sup>  
إن كان رسم دون محضرنا اكتفى لا بد أن يبقى على إعذاره<sup>(٤)</sup>

ثم قال الشيخ التَّنَسِّي: والشران هذا ممن له باع مديد في الشعر، وتصرف  
حسن. انتهى.

ومن بديع نظم الشَّران المذكور قوله رحمه الله:

دوام حال من قضايا الحال واللفظ موجود على كل حال  
والنصر بالصبر مُحَلِّي الظبي والجَدِّ بالجدِّ مَرِيشِ التَّبال  
وعادة الأيام معهودة حرب وسلم والليالي سِجال  
وما على الدهر انتقاد على حال فإب لحال ذات انتقال

[٧٥]

(١) يشير إلى اسمه: «أبي الفضل بن جماعة».

(٢) يشير إلى لقب أبي عبد الله: «الشران». فكانه تثنية: «شر».

(٣) الإعذار: طعام الختان.

(٤) الإعذار (هنا): التقصير.

طريقة لابن  
جماعة وقد تولى  
الشران مكانه

شعر للشران  
يعاتب ابن جماعة  
على إهمال دعوته  
إلى إعذار

فصيدته اللامية

مَنْ لِيَالِي بَائِتْلَافٍ وَكَمْ      مِنْ لِيَالِي بَائِتْلَافٍ (١)      الِليَالِ  
أَخَذَ عَطَاءً ، مِحْنَةً مِمنَحَةً      تَفَرَّقُ جَمْعٌ ، جَلَالٌ جَمَالٌ  
حَالٌ (٢)      انتِظَامٌ وَاتِّشَارٌ مَعًا      كَأَنَّمَا هَذِي اللَّيَالِي لآلِ  
وَهَلْ سَنَى الصَّبِيحِ وَجُنْحُ الدُّخَى      نَخْلَقَةُ الْأَضْدَادِ إِلَّا مِثَالِ  
وَالظُّلْمُ الحَالِكُ عَلَى نِوَرِهَا      تَدَلُّ وَالْعُسْرُ ييسِرُ يُدَالِ  
وَالسَّيْفُ قَدْ يَصْدَأُ فِي غِمْدِهِ      ثُمَّ يُجَلِّي صَفْحَتَيْهِ الصِّقَالِ  
وَالشَّمْسُ بَعْدَ الغَيْمِ تُجَلِّي كَمَا      لِلغَيْثِ مِنْ بَعْدِ القَنُوطِ انْهَمَالِ  
وَالفَرَجُ المَوْهوبُ تَجْرِي (٣) بِهِ      لَطَائِفٌ لَمْ تَجْرُ يَوْمًا بِبِئَالِ  
فُصَابِرِ الذَّهْرِ بِحَالِيهِ مِنْ      حَلْوٍ وَمُرٍّ وَاعْتِدَادِ وَاعْتِدَالِ  
فَمَا لَهُ صَبْرٌ عَلَى حَالِهِ      وَإِنَّمَا الصَّبْرُ حُلِي الرِّجَالِ  
وَلَا يَضِقُ صَدْرُكَ مِنْ أَرْزَمَةٍ      ضَاقَتْ فَصَنَعَ اللهُ رَحْبُ المَجَالِ

إلى هنا توجد هذه القصيدة بأيدي الناس ؛ ورأيت بخط بعض الأخيار بعد هذا البيت زيادة كثيرة على ذلك ، منسوبة لصاحب القصيدة ، وهي لا تبعد من نفسه ، على أن فيها إبطاء (٤) . وها أنا أيضاً أثبتتها بجملتها لغرابتها وجزالتها ، ولاشتمالها على مديح المصطفى المجتبي ، صلى الله عليه وسلم ، ونصها بعد قوله : « ربح المجال » :

وَانظُرْ بِلُطْفِ العِقلِ كَمْ كُرْبَةٍ      فَرَجَهَا لُطْفٌ كَحَلِّ (٥) العِقالِ  
وَكِلْ إِلَيْهِ كُلَّ حَاجٍ فَمَا      [ لَدَى ] (٦) حِجًّا إِلَّا عَلَيْهِ اتِّكَالِ

(١) في نيل الابتهاج : « في اختلاف » .

(٢) في ت : « حلي » .

(٣) زيد في ط فوق هذه الكلمة : « تأتي به » .

(٤) كذا في ط . والإبطاء : تكرير القافية لفظاً ومعنى . وفي ت : « على أنه فيها وها أنا » .

(٥) في ط : « حل » .

(٦) زيادة عن ت .

وكل بدء فـله غاية      وكـل عـود فـله آية  
 وفي مآل الصبر عُقبى الرضا      عـجبت للعبـد الضعيف القـوى  
 يهوى مع الآمال مسترسلاً      تخـدعه النفس بتخييلها  
 يخال أن الأمر جارٍ على      الخلق والأمر لمن لم يزل  
 والفعل والتترك دليل على      يعطى فلا منع ويقضى فلا  
 يُدبّر الأمر فعن أمره      يُضل يهـدى حـكمة أنفذت  
 وحكمة البارئ في حكمه      والرب لا يسأل عن فعله  
 فيا أبا الفكر اشتغلاً بما      سلّم في التسليم من كل ما  
 وارض بما فاتك أو نلته      وفوض الأمر إلى الحق لا  
 فذو الحجا فيما اتقى وارتجى      يرضى بقسم الرب كل الرضا

وغاية الخطب الشديد انحلال      وآية العقول اعتبار المآل  
 من فرج يُدني وأجر يُنال      يُغفر<sup>(١)</sup> بالرب الشديد المحال  
 طوع الهوى حيث أمالته مال      وهل خيال النفس إلا خبال  
 تديره هيات مما يخال      في ملكه الملك وما إن يزال  
 مراده والكل طوع انفعال      دفع ويمضي حكمه لا يسأل  
 تقدير ما في الكون سُفل وعال      فضلاً وعدلاً في هدى أو ضلال  
 ما لمجال العقل فيها مجال      قد قضي الأمر فقيم السؤال  
 في غيره للفكر حق اشتغال      ينفذ تسليم وتنعيم بال  
 فمكسه ما لك فيه مجال      تركن من الدنيا لحال محال  
 بالعدل حال ومن العدل خال      في كل حال ما عن العهد حال

[٧٦]

(١) ذكرت هذه العبارة أمام هذا البيت في هامش ط: « يعترض الرب بدل يغفر » .

يرى خلال الشكر والصبر في  
فهو على الحائنين قد نال من  
ما أقصر الدنيا على مرّها  
فأفطن لها حزما ففي ظلها  
ما يقظات العيش إلا كرمي  
يا ليت شعري وألني عبرة<sup>(٢)</sup>  
هل يستحيل العهد من صبوتى  
والشيب هل يوقظنى صبحه  
وكسرتى من عسرتى هل تقى  
هذا زمانى فى تولّى وفى  
حال من احتل بدار البلا  
يا ربّ ما المخلص من زلّتى  
يا ربّ ما يلقاك مثلى به  
يا ربّ لا أحمل حرّ الصبا  
أم كيف عذرى وقد أعذرتلى<sup>(٥)</sup>  
رحمتك اللهم فهى التى  
ولا تعاملنا بأعمالنا

ما سر أو ساء أبرّ الخلال  
مناه فى الدارين أقصى منال  
كالظل ما أقصر مدّ الظلال!  
ما قال يوما حازم حيث قال  
ولا مرأتى العين إلا خيال<sup>(١)</sup>  
والشعر قول قد ينافى الفِعال  
فقد مضى عهد الصبا واستحال  
فالنوم فى ليل من<sup>(٣)</sup> اللهو طال  
وعسرتى من<sup>(٤)</sup> عبرتى هل تُقال  
عزى توانٍ والهوى فى توال  
ولم يحدث نفسه بارتحال  
لا عمل لا حجة لا احتيال  
عن طاعة لم ألقها بامتثال  
فكيف بالنار لضعفى احتمال  
بأخذ حذرى من دواعى النكال  
لها على العاصين مثلى انثيال  
لكن رجا آمالنا صلّ ووال

[٧٧]

(١) يشير إلى قول أبي الحسن التهامى فى مرثيته ابنه :

والمرء بينهما خيال سارى فالعيش نوم والنية يقظة

(٢) فى ت : « عدة » .

(٣) فى ط : « وفى » .

(٤) فى ت : « فى » .

(٥) فى ت : « لى » .

وبامتداح المصطفى هَبْ لَنَا  
 فما سوى حَبِي المصطفى  
 ذلك تَجْرِي (٢) وعلى فضله  
 فإن يُفْزِ قِدْحِي بِمَدْحِي لَهُ  
 ورائدُ الغُرِّ الغوالي (٣) على  
 أعْظَمِ بِأمداحِ نبي الهدى  
 خير الورى من بادٍ أو حاضرٍ  
 فادِيهمُ من فَتَكَاتِ الردى  
 حامِيهمُ بِالْعَضْبِ إِذِ لا حَمِي  
 مُنِيلهمُ إِذِ لا جَدِي يُرْتَجِي  
 قَرِيهمُ فى طبقاتِ العِلا  
 مُؤَوِيهمُ من حوضه من صَدِي  
 أطول من سأل بِسَيْبِ الندى  
 من خَصَّه اللهُ بِخَصْلِ المَدِي  
 من باهرِ الحسنِ وفضلِ التقى  
 حالٍ من العلمِ بأَسْنَى حَلِي  
 نورِ مَبِينِ صادقِ فارقِ  
 أبيضُ يُسْتَسْقَى الحيا باسمه  
 ما أتمَّ الفِعلِ لَبْرٌ المَقال (١)  
 وسيلةٌ لى بُعْراها اتصال  
 طمعت فى الفضلِ بلا رأسِ مال  
 فَمَقَدٌ يُجِلُّ النُّورُ قَدَّرَ الذُّبال  
 موثقةٌ مما نوى من نَوَال  
 حبلَ اعتلاقٍ أو شفاءِ اعتلال  
 أكرمهمُ من حافٍ أو ذى انتعال  
 هادِيهمُ فى هَاكَاتِ الضلال  
 كالِيهمُ (٤) فى الخطبِ إِذِ ليسَ كالِ  
 مُقِيلهمُ إِذِ لا عِثَارٌ يُقال  
 شفيعهمُ فى عِرْصَاتِ السَّوَال  
 مُؤَوِيهمُ من جاهه فى ظِلَال  
 أصولٍ من فى الحقِّ بالسيفِ صال  
 فى كلِّ ما عمَّ الهدى من خِصال (٥)  
 وحكمةِ النطقِ ومجدِ الفِعال  
 وافٍ من الحلمِ بأزكى خِلال  
 مبشِّرٍ هادٍ ختامِ كمال  
 كَهْفِ الأيَّامِ ، لليتامى ثَمال

(١) فى ط : « الفِعال » .

(٢) تجرى : تجارنى .

(٣) فى ت : « الفوادى » .

(٤) كالِيهم : كالئهم ، أى حافظهم .

(٥) خصل المدى : إصابة الغاية .

الرحمة المُهداة ضِمنِ احتِفًا  
 كم آية جَلِيٍّ لِنَا أو تِلا  
 ذو العرشِ أُسْمِي قَدْرَهُ فَاسْمُهُ  
 وذكره رَفَعٌ فِي ذِكْرِهِ  
 أعطاه دون الرُّشُلِ خَمْسًا كَفْتُ  
 لم يبعث الرُّشُلَ اشْتِلا فِي  
 وقسمة الأنفالِ حِلًّا وما  
 والأرضَ طُهرًا ومصلًى لِأَن  
 والنصرَ بالرعبِ لشهرٍ مَدَى  
 والنعمةُ السكبرى التي نالها  
 وليلةَ المعراجِ أُسرى فِما  
 جالَ وجِبْرِيلَ أنيسٌ له  
 حتى انتهى من سِدْرَةِ المنتهى  
 قال له الرُّوحُ مَقامِي هُنا  
 فقال : يا أنسِي أَفردتني  
 فقال : كَلَّا إِنما الأُنسُ ما  
 طأ حُضْرَةَ القُدسِ اتِّصالًا فِما  
 فزَجَّه في النُّورِ زَجًّا رَأى  
 شاهدَ ما شاهدَ مما ارتقى  
 فقال قومٌ بِفؤادٍ رَأى

والنعمة المُسداة خَلْفَ احتِفالٍ  
 وغاية جَلِيٍّ بِها دون تال<sup>(١)</sup>  
 في العرشِ مقرون مع اسمِ الجلالِ  
 حمدًا لِيَتلو مدحَهُ كُلُّ تال  
 يدَ امتنانٍ في العطايا الجِزالِ  
 بَعَثَهُ لِلثَّقَلينِ اشْتِمالِ  
 مِن قَبْلُ كانت لِنَبِيِّ حَلالِ  
 كان له كَوْنٌ بِها واحتِفالِ  
 يُنازلُ الأعداءَ قَبْلَ النزالِ  
 شِفاعَةَ الأخرى ونعمِ المنالِ  
 أُسْرِي وَأُسْنِي شِرفًا في اللَّيالِ  
 من السَّمواتِ العُلَى حيث جالِ  
 إلى مَقامٍ لم يَنلَهُ مقالِ  
 وأنتَ فاصعدِ لِمَقامِ الوِصالِ  
 حيث دَهَنَتِي<sup>(٢)</sup> مُدْهَشاتِ الجلالِ  
 أنتَ مُوالٍ ولكِ اللهُ والِ  
 أُبيحُ منها لِسِواكَ اتِّصالِ  
 وراءَهُ لِلحَقِّ نورَ الجِمالِ  
 عن مَبْلَغِ العِقلِ وَوَهْمِ الخِمالِ  
 وعالِمٌ بِالعينِ وَالقلبِ قالِ

[٧٨]

(١) جلي بها : أي فيها سابقا .

(٢) في ط : « وهنتي » .

وليس ذا وهو مُحال على      حيث تدلّى قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ  
 حَالٍ مَقَامِ الْحَبِّ مِمَّا يُحَالُ      وبعد ما في النجم يُتَبَلَى عَلَاً  
 أَدْنَى نَجِيًّا فِي ظِلَالِ الدَّلَالِ      وباحتمال الجسم والروح في  
 ثُمَّ أَتَى وَالنَّجْمُ فِي الْأَفْقِ عَالٍ      وبانشقاق الصدر ظِفْلاً فَفَسَّ  
 مَسْرَاهُ صَحَّ الْقَوْلُ دُونَ احْتِمَالِ      لنسبة بينهما في الهدى  
 لَهُ انْشِقَاقَ الْبَدْرِ عِنْدَ اكْتِمَالِ      فنور هذا كَمِّ جَلَا مِنْ دُجَى  
 وَالْحَسَنِ وَالْقَرْبِ وَبَعْدَ الْمَنَالِ      كَلَّا بَلِ الْأَنْوَارِ حَيْثُ انْجَلَتْ  
 وَنُورُ هَذَا كَمِّ هَدَى مِنْ ضَلَالِ      ولانشقاق البدر من نوره  
 حَسَبًا وَمَعْنَى مِنْهُ كَلًّا تُنَالِ      شُقَّ هَلَالَيْنِ عَلَى صَفْحَتِي  
 أَبَدَى انْشِقَاقًا وَهُوَ تَغْيِيرُ حَالِ      وَالشَّطْرُ مِنْهُ لِاسْتِطْلَامِ الثَّرَى  
 ظَلَمَاتِهِ فِي كُلِّ شِقِّ هَلَالِ      بَلِ أَخْجَلَ الْبَدْرَ لِنَقْصَانِهِ  
 بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسَّلَامِ اسْتِمَالِ      هُمْ سَأَلُوهَا آيَةَ أُعْرَضُوا  
 فَانْحَطَّ مُنْشَقًا لِبَدْرِ الْكَمَالِ      قَالُوا وَقَدْ جَالُوا<sup>(١)</sup> بِسِحْرِ أَتَى  
 عَنْهَا وَقَدْ جَاءَتْ وِفَاقِ السُّؤَالِ      بَلِ عَجِبُوا مِنْ نُكْتَةِ الْكَوْنِ أَنْ  
 قَلْتُ هَذَا السِّحْرُ سِحْرٌ حَلَالِ      وَهَجْرَةَ بِلِ وَصَّنْـلَةَ لِلرِّضَا  
 أَعْطَاهُ رَبُّ الْكَوْنِ مَا مِنْهُ سَأَلِ      ضَفَا لِحِجْبِ السِّتْرِ دُونَ الْعِدَا  
 وَرَبَّمَا نَيْلِ<sup>(٢)</sup> بِهِجْرٍ وَصَالِ      إِذْ غَارَ بِالْحِكْمَةِ نُورُ الْهَدَى  
 فِي الدَّارِ وَالْغَارِ عَلَيْهِ انْسِدَالِ      وَمَا اخْتَفَى مِنْ خَيْفَةِ بِلِ لِأَنَّ  
 فِي الْغَارِ مِنْ غَارَةِ حَزْبِ الضَّلَالِ      تَظْهَرُ أُسْرَارُ مَعَانِي الْمَعَالِ<sup>(٣)</sup>

[٧٩]

(١) كذا في ت وفي ط « حالوا ». ولعل كليهما مصحف عن : « خالوا » .

(٢) في ت : « بيلي » .

(٣) المعال : أي المعالي .

حيث تُنَى بعدُ عِنَانِ الرَّدَى  
هَيْلَ كَثِيبِ الطَّرْفِ خَسْفًا بِهِ  
أَهْوَى كَمَا أَهْوَتْ بِمِيلَادِهِ  
نِسْبَةَ حَالٍ كَانَ مِنْ سِرِّهَا  
هِنَاكَ هَامَتْ بِالْحِمَامِ الْعِدَا  
فَاطْرَدَ الْكَسْرَ عَلَى جَمْعِهِمْ  
وَالْعَنْكَبُوتَ اعْتَمَدُوا حُجَّةً  
فَاعْجَبْ لَهُمْ بِالْوَاهِنِ اسْتَوْثِقُوا  
مَا أَصْدَقَ الصَّدِيقَ فِي قَوْلِهِ  
أَشْفَقَ لَا حِرْصًا عَلَى نَفْسِهِ  
يَأْيِهَا الصَّدِيقَ بِشْرَاكَ لَا  
فِكْرَةَ الْعِصْمَةِ إِحْرَازُهَا  
لِلَّهِ مَا أَشْرَفَهَا عِزَّةً  
نُبُوَّةً لَاحَتْ بِرَاهِنِهَا

سُرَاقَةٌ عَمَّا سَرَى وَاسْتَقَالَ<sup>(١)</sup>  
عَنْ كَتَبِ وَالصَّنْعَ لِلطَّرْفِ هَالِ<sup>(٢)</sup>  
مِنْ قَصْرِ كَسْرَى الشُّرَفَاتِ الْعَوَالِ<sup>(٣)</sup>  
أَنْ بِسِوَارِيهِ غَدَا وَهُوَ حَالِ<sup>(٤)</sup>  
فَحَامَ حَوْلِيهِ سَمَامَ فَحَالِ<sup>(٥)</sup>  
وَاطْرَدَ الْفَتْحُ لَهُ صَدَقَ فَالِ  
خَالُوا بِهَا الْغَيْلَ مِنَ اللَّيْثِ خَالِ  
ظَنَّا وَلَا بَرَهَانَ هُمْ فِي جِدَالِ  
عَدْلًا لَنَا فِي حُجْبِ الصَّدَقِ قَالِ  
بَلِ غَارَ مِنْ عَلَقِ نَفِيسٍ يُذَالِ  
تَحْزِنُ<sup>(٦)</sup> وَشِمِّ لِلنَّصْرِ أَمْضَى النَّصَالِ  
مَا بَيْنَ أَظْفَارِ الظُّبَى وَالْعَوَالِ  
لَيْسَ لَغَيْرِ اللَّهِ مِنْهَا ابْتِهَالِ  
قَطْعِيَّةً تُرْغَمُ أَنْفَ الْجِدَالِ

- (١) سراقه : هو سراقه بن مالك الكنانى الذى تبع النبي صلى الله عليه وسلم عند الهجرة ، ليرده إلى قريش . (انظر خبره فى كتب السيرة) .
- (٢) يشير بهذا البيت والذى قبله إلى ما روى فى كتب السير من أن سراقه لما أراد اللحاق بالرسول ، وكاد يدركه ، غاصت قوائم فرسه فى الرمال ، وأفزعه ما رأى من عجزه عن إدراك النبي أو إصابته بسوء ، حتى اضطر أن يعود من حيث أتى .
- (٣) يريد أن فرس سراقه خر على الأرض كما سقطت شرفات قصر كسرى عند مولد النبي لإرهاصا لنبوته .
- (٤) يشير إلى لبس سراقه لسوارى كسرى أيام عمر تصديقاً لقول النبي لسراقه لما خرج فى طلبه فى الهجرة : « كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ! » . (انظر شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٤٨) .
- (٥) يريد : أن أعداء النبي يوم الفار أرادوا قتله ، فحال الحمام دون غرضهم بتعشيشه فوقه .
- (٦) فى ت : « تحزج » .

وهل جدال في عُلَى أَوْجَبَتْ  
 وإذ بدت في وجهه غُرَّة  
 ونوحٌ أذْ نُجِّيَ في فُلُكِهِ  
 كذا خليل الله في ناره  
 إذ قال جبريل له سَلْ تَفَلُّ  
 ونال إسماعيلُ منه الفِدا  
 وهودٌ أَسْتَجَلَى لَدَيْهِ الْهُدَى  
 وَخِلْعَةً الْإِشْرَاقِ مِنْهَا اكْتَسَى  
 وَالرُّوحُ رُوحُ اللَّهِ لَاقَى بِهَا  
 فِإِلَّاهِ نَوْرَ انْتِقَاءِ بَدَا  
 وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مَعًا وَالضُّحَى  
 وَنُورُهُ أَجْمَلَى ، وَبِرْهَانِهِ  
 تَفَجَّرَتْ أَنْمُلُهُ بِالنَّوْدَى  
 وَأَنْطَقَ الطَّيْرُ بِتَصَدِيقِهِ  
 وَسَبَّحَتْ فِي رَاحَتِهِ الْحَصَى  
 وَالجِنْدُ إِذْ عُوِّضَ مِنْ وَصَلِهِ  
 وَهَلْ إِلَى آيَاتِهِ مُنْتَهَى  
 فَمَا بَلِيغٌ بِالغَا وَصَفِّهِ  
 وَبَعْدَ مَبْدَأِ (نُونٍ) أَوْ مُنْتَهَى

وآدم في طِينِهِ ذُو انْجِدَالِ  
 خَرَتْ لَهُ الْأَمْلاكُ طَوْعَ امْتِثَالِ  
 كَانَتْ عَلَى أَنْوَارِ هَذَا اشْتِمَالِ  
 مِنْ نُورِهِ أُهْدِيَ هَدَى الْخِلَالِ  
 فَتَنَالَ عِلْمَ الْحَالِ حَسْبَ السُّؤَالِ  
 بِالذَّبْحِ أَوْ إِسْحَاقُ إِنْ صَحَّ نَالَ  
 وَيُوسُفُ مِنْهَا تَحَلَّى الْجَمَالِ  
 بِالطُّورِ مُوسَى عِنْدَ خَلْعِ النِّعَالِ  
 بُشْرَى تَلَقَّتْهَا صُدُورُ الرِّجَالِ  
 فِي غُرْرِ الْأَبَاءِ مِنْهُ انْتِقَالِ  
 وَالشُّهُبُ مِنْهُ أَشْرَقَتْ وَالْهِلَالِ  
 أَعْلَى ، وَكَمْ مِنْ دُونِهَا مِنْ مَعَالِ  
 مَعْنَى وَبِالْحَسِّ جَرَتْ بِالزَّلَالِ (١)  
 وَأَفْصَحَ - النَّوْبُ بِهِ وَالغَزَالِ  
 وَانْهَزِمَ الْجَمْعُ لِحُثِّهِ وَالرَّمَالِ  
 بِقِصَلِهِ حَنَّ حَنِينَ الْفِصَالِ  
 وَعَنْ عُلَى غَايَاتِهِ النُّجْمُ آلِ (٢)  
 يَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْمَقَالِ  
 (بِرَاءةٍ) مَاذَا عَسَى أَنْ يُقَالَ (٣)

(١) في ط: « لا محال » . بدل: « بالزلال » .

(٢) آل: رجع عاجزا .

(٣) يشير إلى ثناء الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم في مفتح سورة (نون)

وختتم سورة (براءة) .

يا سيد الكونين فضلا به  
 يا سابق الرسل اصطفاء ويا  
 يا ملجأ الخلق ومنجاهم  
 يا من به نال الحبُّ الرضا  
 رُحماك فينا يا نبي الهدى  
 رُحماك في أوطاننا راعها  
 رُحماك في سلطاننا والله  
 رُحماك في غربتنا كن لها  
 رُحماك في كُربتنا حلها  
 رُحماك في عيبتنا أغنها  
 رُحماك في قلوبنا زكها  
 صالت علينا بالوفور العدا  
 صالت بعدد واعتداد معاً  
 خالتُ بأنا لا غياثُ لنا  
 وبالغنى اختالتُ وما إن لنا  
 فأنت للخلق ملاذ الوَرى  
 صلى عليك الله نور الهدى

[٨١]

انتهت القصيدة . ومن ذلك قوله رحمه الله :

لك يا فقيهه وضعتُ خدي في الثرى  
 فأجاب ذلك لا يجوز لأنه  
 طمعاً بوصلي منك غير مؤجل  
 عندي رباً من باب ضَعُ وتعجل

بعض شعر له

وقوله :

لى سـيِّد زار وما زرتهُ  
 إن يَحْتَمِلُ سَهْوَى فِقْهه مُضَى  
 [ وطالما زار الغامُ الثرى  
 ولم يزر قطُّ الثرى للغام ]<sup>(١)</sup>

وقوله رحمه الله ، وهو غاية في بابه :

بعثتُ بها ذِكْرِي على ثقة إلى  
 فما زلتَ فذًّا في رموس ذوى العلى  
 مؤمِّلٍ وعد من لقائك<sup>(٢)</sup> مرقوبٍ  
 وما وعد رأس مثل مَوْعد عُرْقوبٍ

وقوله :

عاب منى العُداة شـعراً وثغراً  
 قلت : لا عيب في ما دام فضل  
 رُميا في الصِّبا بشيَّب وشينٍ  
 في النهى واللسانِ والشفَتين ]<sup>(١)</sup>

وقوله :

قلت لما جَبَرْتُ بالعاج ثغراً<sup>(٣)</sup>  
 صاح لا بأس أن يعُوج شَبابي  
 ولقد رُمْتُ بالمحال احتجاجاً  
 بالتلاق<sup>(٤)</sup> أما ترى الثغر عاباً

وقوله :

رأتني أخوطُ الثغر رَبطاً فأضحكت  
 فقلت لخوف الحَل منه<sup>(٥)</sup> ربطته  
 وتاهت بشعر بالجفون يُحاطُ  
 أينسكِر في الثغر المَخوف رباطُ

وقوله :

إلهي لك الشكوى وحسبي رحمةٌ  
 نداؤك في شكوى الخطوب إلهي

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ط : « وفائك » .

(٣) في ط : « ثغرى » .

(٤) في ط : « بالتلاقي » .

(٥) في ت : « منك » .

وَحَقَّقَ مَا لِلَّهِو أَبَدَعْتَ خَلَقْتِي      وَهَا أَنَا فِي غَيِّ الْبَطَالَةِ<sup>(١)</sup> لَاهِي  
 بِنَفْسِي وَشَيْطَانِي وَدُنْيَايَ وَالْهَوَى      فُتِنْتُ وَلَكِنْ أَنْتَ حَسْبِي لَاهِي<sup>(٢)</sup>  
 وَلنَخْتَمُ مَا أَرَدْنَا جَلْبِهِ مِنْ نَظْمِهِ الَّذِي هُوَ بِمَجْرَ لَا سَاحِلَ لَهُ بِقَوْلِهِ :  
 يَا رَبِّ قَدْتِ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ الَّذِي      أَحْكَمْتَ : إِنَّكَ تَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَا  
 فَخْتَمِ لِعَبْدِكَ بِالرِّضَا وَاحْكَمْ لَهُ      بِالسُّتْرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَى مَعَا

\* \* \*

تعريف بالرئيس  
ابن عاصم

[٨٢] وأما الرئيس أبو يحيى بن عاصم فهو الإمام العلامة ، الوزير الرئيس ، الكاتب  
 البليغ الجليل الخطيب الجامع الكامل ، الشاعر الملقب النائر ، الحججة ، خاتمة  
 رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، القاضي محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن  
 عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي ، قاضي الجماعة بها ، كان رحمه الله تعالى من  
 أكابر<sup>(٣)</sup> فقهاءها وعلمائها ، أخذ عن الإمام الحقيق أبي الحسن بن سمعة<sup>(٤)</sup> ،  
 والإمام القاضي أبي القاسم بن سراج ، والشيخ الراوية أبي عبد الله المنتوري ،  
 والإمام أبي عبد الله البياني وغيرهم ، وذكر في شرحه تحفة والده أنه وُلِّيَ القضاء  
 عام ثمان وثمانين وثمان مئة ، وله عدة تأليف منها شرحه العجيب على تحفة والده  
 في الأحكام ، وهو كتاب نافع ، فيه فقه متين ، ونقل صحيح ، وكانت بيده  
 وبين عصرية الإمام مفتي غرناطة أبي عبد الله السرقسطي ، مراجعات  
 ومنازعات في مسائل فقهية . ومن تأليفه رحمه الله : كتاب جنة الرضى ، في التسليم  
 لما قدر الله وقضى ؛ وكتاب الروض الأريض ، كأنه ذيل به إحاطة ابن الخطيب ،

(١) في ت : « البلاغة » .

(٢) لاهي : أي يا إلهي .

(٣) في ط : « أكارم » .

(٤) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « سمعت » وهو تحريف .

وله غير ذلك ، وسند كرشياً من كلامه بعد هذا إن شاء الله تعالى .

ومن أغرب ما صدر عنه ، رضى الله عنه ، قصيدة ، تنفك منها قصيدتان  
أخريان بديعتان ، إحداهما من المکتوب بالأحمر ، والأخرى من المکتوب  
بالأخضر ، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة ، كما ستره ، وقد ألفيتها  
بخط بعض أعلام سبته ، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن فرج ،  
وجده محمد بن فرج هو الذى نأتى بجملة من نظمه فى النعل النبوية ، عند  
ما نتعرض لذلك إن شاء الله تعالى ، فى محل هو أنسب من هذا الموضع ، وقد  
سقط من هذه القصيدة نحو ثلاثة أبيات ، فعوضتها بغيرها على ذلك السنن<sup>(١)</sup> ،  
على أن بعض كلماتها لم تسقط إلى طرف<sup>(٢)</sup> .

قصيدة له تلد  
بنتين فوشحتين  
فى مدح السلطان  
أبى الحجاج

ونص ما كتبه السبتي المذكور من نظم السيد الأستاذ العلم الصدر المفتي  
القاضي رئيس الكتاب ، ومعدن الساحة ، ومنبع الآداب ، سيدى أبى يحيى  
ابن عاصم رحمه الله ، ورضى عنه ، يمدح السلطان العادل المقدس المنعم المرحوم  
المجاهد ، أبى الحجاج يوسف بن نصر ، قدس الله روحه ، ونضر ضريحه ، قال :  
ونقلتها من خط ناظمها رحمه الله . انتهى . وهذه هى القصيدة<sup>(٣)</sup> :

أما والهوى « ما كنتُ » مذ بان عهدُهُ<sup>(٤)</sup>      أهِيمُ بَلْقِيَا من (تَنَأثر<sup>(٥)</sup>) وُدَّهُ  
رعى الله من « لو أنصف » الصب فى الهوى      لما فاض منه (الدمعُ) مُذ<sup>(٦)</sup> بان صدّه

(١) فى ط : « النسق » .

(٢) يريد أن الأبيات الثلاثة الساقطة قد ظهر منها بعض كلمات .

(٣) وضعنا ما كتب بالمداد الأحمر فى الأصل بين هذين القوسين « » ، وما كتب  
بالأخضر بين هذين الهلالين ( ) اقتداء بما فى نسخة ت .

(٤) فى ت : « إمام الهدى » .

(٥) فى ط : « تأثر » .

(٦) فى ط : « إذ » .

ولو جاد من « بعد المطال » بزورة  
 كما خان صبرى يوم أصبح و « اصلى  
 لذلك أسأل الذمعة ( كالدرة ) مدمعى  
 حكى لؤلؤاً ( من سلكه ) متنائرا  
 ذخرت ( الثمين ) القدر منه بمقلتي  
 ولا عجب ( مُذْ أعوز ) القرب أن غدا  
 أي لحق باللقيا أو ( الوصل ) من يغو  
 وصير جسمى للصبابة ( والتلا  
 أقطع أنفاسى « عليه ك » آبة  
 فمن شعره « الليل البهيم » ومن سنى  
 (ب) حكيم « الدلال » الجور حكم جوره  
 له معطف « مستحسن القد » ناعم  
 رعى فى فؤادى جمرأأ « ذكى » هيبه  
 فيعقب من نار الحيا عاطر « الشذا  
 ويبسودو بأفاق ال ( جمال ه ) لاله  
 كأن الظبي فى ( مرتع ) الطرف لحظه  
 يروق ( العيون ) العطف منه فشبته  
 ويانعه « م وَرْدُ الخد » لوجاز (٣) قطفه

لما شبَّ أشواقى وقلبي زنده  
 لظى « زاد ماء ( من جفونى ) وقده  
 من « الوجد » فاستولى على الجفن سنده  
 و « إلا ليم » قد تتابع مذه  
 ومازلت من خوف « النكال » أعدده  
 و « كالعمر الزاهى » سنه وبعده  
 ر « فى نوره » بدر السماء وجنده  
 فى ( يتم قاي إذ تمكن وجده (١)  
 والله ( من بدر ) لغيرى (٢) سعده  
 مقبله له ( حسن ) نور يمه  
 ومن شأنه أ ( لا قرين ) يرده  
 به ( علق فى الحب ) بالرحم أسده  
 به ( ظي أنس ) قد تلهب خده  
 ك « أنى بذاك الخال قد نم نده  
 له « الليل فرعاو » الكواكب عقده  
 كأن « القنا فى » الين والفعل قده  
 به قضب البان « اعتدال » أو لده  
 وطيب رحيق الثغر ل ( وحل ) ورد

(١) كذا فى ط . والشطر الثانى من هذا البيت غير مستقيم وزناً . وروايته فى ت :

وصير جسمى للصبابة وابلى  
 يتم قلبي إذ تمكن وجده  
 ولا تتفق ألفاظ هذه الرواية مع ألفاظ الموشحة التى تخرج من هذه القصيدة .

(٢) فى ت : « لعمري » .

(٣) فى ت : « حان » .

يجول به ريق « شهبي » يحياني  
ويحمي المحييا و « اللمي » بلوا حظ  
فله من ريم ضلوعى ( كناسه )  
ويمنع منه المستهام ( فما له )  
وبالحسن منه ( يستبيح ) حمى النهى  
ويلوى ( يديني ) فى الهوى وهو موسر  
أفى العدل أن ( يحكم ) بتحريم ريقه  
تخيلته لو نيل ( بالنهب فى ) الكرى  
فأجنى كما شاء الوصال « رضاءه »  
ويشفي بذاك اللبسم « العذب » ريقه  
وخلو « الجنى » مر الجفا باهر الس  
يدا « فى المثال » كالغزال محاسنا  
وللحب يدع « ولحظه الأوظف » الورى  
تملك رقى طرفه « مع سقمه »  
وأظهر مكنون الهوى منذ جار ( فى أ  
وقد كان تحت الكتم ( عذرى ) وجده  
ويحسبه فى ( الحكم ) بالجوز « ك » الورى  
إذا ( بالظنون ) الكاذبات يناله

إليه لظى ( فى القاب ) قد شب وقده  
( عن ) الدنف المغرى به (١) فتصدده  
وروض يسقيه من الدمع عهدده  
و « فى لثمه » لو جاد بالاثم قصده  
و « كل المنى » واليمن يحويه برده  
له در ثغر « لو ينال » وعقدده  
لأن « كان للشهد » المثلل وزده  
« وما ذقتة » يشفى من السقم شهده  
ويجنى على قلبى هواه وصده  
( فوادى إذ ) يشفى بلثمى خده  
( نى له نهب ه ) ذا القلب قسرا (٢) ورده  
وتخشاه أبطال ( العرين ) وأسده (٣)  
( أ ) لا ( هكذا ) قلب المشوق أقده  
و ( الشرع ) فى حكم الغرام يرده  
معنى ( ا ) ذى قد طال فى الحب جهده (٤)  
ف « أسهر منه » ما اختفى قبل صده  
وهل با « لسليم » القلب يحسب ضده  
ينام فكم عم « الليا » س شهده

[٨٤]

(١) فى ط : « بها » .

(٢) فى ت : « سرا » .

(٣) هذا البيت ساقط فى ت .

(٤) فى ط : « ججده » .

يد «وح سن» ا «ه» للمشوق وقربه  
 وفي مجتلاه «الباهر» الحُسن والرؤا  
 وأنعش بالإنصاف «مهما بدا» وإن  
 ويبيديه نور الحسن وهنًا «لمتلى»  
 يميل على المشتاق (بالهجر) حكمة  
 فياهاجرى (والصد) للصب قاتل  
 أما (والفتون) البابلي وسنجره  
 ويا متولى (مالي سوا) ك مؤازر  
 فصغ لؤلؤا من (مدحى ابن) ملوكننا  
 من أورته الملك المؤصل (نصر) ه  
 لباب العلى «قطب المعالى و» تاجها  
 به قد غدا نعر «الهدى» وهو باسم  
 «و» أضحى «الكامل طود» ه فإن اعتدى  
 ومهما عما عاد «الحجا» وهو قائل  
 وبالشم يترى عقله «الأرجح» الذى  
 فعنى الحلى تهديه للقلب ذاته  
 ومن كفه (غيث الندى) وغمامه  
 إذا انهبل منه (الواكف ال) أثر للورى

عليه حرام إذ (يحلل) بعده  
 حياتى ، وشبه (القتل) للنفس فقدمه  
 أرى (منه ظلمًا) عاود القلب وجده  
 ويخفيه فرغ فاحم الوصف جعده  
 ف «منه» استعار الميل عنى قدّه  
 وروض «نعيم» فى رضاك وخلده  
 كيقنعنى هزل «الواصل» وجده  
 ف «خل الهوى وامدح» لمن حق حمده  
 «إمام الورى» الباهى على الخلق رفته (١)  
 وأكسبه الجسد المؤئل سعده  
 و(بدر الهدى) وضاح فى الدهر (٢) سعده  
 منير سنه (مشرق) الأفق سعده  
 على البدر نقص ف (الجبين) يمدّه  
 ك(ذا الحلم والصفح) الذى أستعمده  
 لنح (و) (٣) المعالى والمجادة قصده  
 و «سر العلى» يبيديه للعين مجده  
 و «معنى السماح» المستراح ورغده  
 فصن «و الندى و» الجود قد لذورده (٤)

[٨٥]

- (١) فى ط : « الباهى على الخلق قدمه » .  
 (٢) فى ت : « فى البحر » .  
 (٣) فى ت : « له والمعالى » .  
 (٤) هذا البيت ساقط فى ط .

تحال (هتون) البذل منهن زائلا  
 وكل « نوال ه » امل من بنانه  
 وفيض نداء « يشرح » الحال إنه  
 (و) في غيظه الشجاج « المعنفي » الغنى  
 وللفضل والإحسان والبأس (سبة) ه  
 وأفعاله عند استباق (المداء) شأت  
 له مشرفي (دائم ال) قطع للطلا  
 وبين (سكون) في الندى من الحجا  
 وزينه من (قصده الجمع) للعلا  
 وحزم وعزم (بين بكر) وثيب  
 فيوم الندى الإسلام يسعد دهره  
 ومن بأسه « أضحى الحما » تمتعاً  
 وتمشى عداه « كالحميم » شرابهم  
 ويغدو « الموالي » في « سرور وغبطة  
 قد اعتاد « ترك الكافر » ين وشأنهم  
 فأبطالهم « رهن الفنا » ه « و » ما لهم  
 ولم يبق إلا من حمى الحسن (للعطا)  
 وأصبح في العلياء (كالبحر) كفه  
 فصوب الحيا (في جوده) برقه الطبي

يُكَيِّفُهُ بَرَقَ « الجلال » ورعده<sup>(١)</sup>  
 فأقصى صفات الجود (قد جاز) جوده  
 يمد الحيا (في السمع) إذ يستمده  
 إذا ب (الأيادي) منه يبدأ رفته  
 والملك والإسلام والعلم عضده  
 و « فعل ظباه با » لكأمة وجرده  
 فكل كمي ل « لعدا في » ه فقده  
 (و) بين مضاء ب « القتال » يعده  
 كما زين ا « لسيف » الصقيل فرنده  
 ب « ه الرهف » الماضي يفلال خده  
 و « يوم الوغى » الإشرار يتعس جده  
 و (للفخر) منه صارم يستعده  
 وما شيدوا (في دهره) فيهده<sup>(٢)</sup>  
 من البشر أبقار (وعون) توده  
 لهيب (وشأن ه) امل الدمع وزده  
 إلى (البذل) عقباه وبالسيف رده  
 وشفع في أح (يا) نه<sup>(٣)</sup> منه خده  
 كما « قد غدا مثل ال » جواهر رفته  
 يريك « هشيم » الكفر مما يقده

(١) هذا البيت ساقط في ط .

(٢) في ت : « لم يهده » .

(٣) في ط : « أحبابه » .

نداه ( المعين ) الثَّرَقْدُ نعم الهدى  
وأحك « هم رفع » الملك إذ نصب العدا  
أيا سامي « القدر » الذي جل ذكره  
صفاتك في العليا « عزيز » منالها  
فما شئت من عزة الجار و « الحمى »  
وأبعدت في ( وصف العلي ) عن مسابق  
وجودك ( فيه ذو ) الرجا مغرم فإن  
وكم من ( فنون ) يستمد بها الضحى  
وكم بات يتنا ( وسور ) ة الفتح عزمه  
وأصبح باستحقاقه ( الحمد من ) أولى ال  
بعدل وإحسان قد اخت كليهما  
وبأس و بطش يحميان « حمى الهدى »  
وحلم « وجودها » ت « ن » ومكارم  
وكيف « ينال » المدح أوصاف ماجد  
يعم بعنه « و خص بال » ذنب نطقه  
وللسيف نصر يا بن « نصر على » العدا  
ولملك عز أ كسب الذل « من بغى »  
ففي ذمة العليا ( تلك الحلا ) العلى  
أنرت بها من ( فاحم ال ) ظلم ما دجا  
فزالت ( دجون ) الجور عن مطلع الهدى  
هو « الملك » لم تغبطه إلا نزاره

[ ٨٦ ]

ويشقى به حزب « الضلال » وجنده  
على حال ذل ( نال من ) ضل (١) جهده  
ويا محرز ( الجمد ) الذي عز نده  
لها ( كل طبع ) أحرز الفضل فرده  
« وقد » رسما فوق السما كين مجده  
لها و « تدانى » من نوالك رغده  
حمى « جوده » ذم المهلب أزده  
إذا ما تناءى « للمنال » ممدّه  
ويحك « م مثل الأمر و » النهى وجده  
عدالة في « الأحكام قد » بان رشده  
( حلاه ) كما آخى المهلب غمده  
فحتى ( لقد ت ) لني مع السرح أسده  
ء ( لاهن كل ) الوصف عنها وجهده  
يود العلاء ( حينذ ) ا وحيننا توده  
و ( تهدي إلى الرشد ) المبين ألدّه  
فساعة ( إذ يجلى ) جلى الكفر حده  
فخاقت به من مؤلم القهر نكده  
و « لما بدت » للدين أنجز وعده  
نجلت « سعوده » ن للملك عضده  
فنور سنه « في اقتبال » وسعده  
بما ليس في إم ( كانها ) ومعدّه

(١) في ط : « كل » .

وفي منتهاك «الأشرف» الأصل للورى  
 ويُمنالك يوم الجود «ترب الحيا» اغتدت  
 لك المرفه السفاح بالفتح (مثنى)  
 وجمعت شتى الجود (في وتر) راحة  
 فكم كامل (الأوصاف والذات ماجد  
 على (يمين قل) تها غير حانث  
 فقد عز في الدنيا (له المثل) في العلى  
 وأين المسامى (والمضاهى) سجادة  
 كريم المسامى حافظ الدين و«الهدى  
 ففي الفخر أضحى «الفضل والمجد» طبعه  
 ومحتده السامى «الكريم» نجاره  
 فشتى «الخلال» الغر جمع عنده  
 ودونك يا مولاي حسناء غادة  
 مرنجة الأعطاف تلعب بالنهى  
 هدية عبد مخلص لك قلبه  
 فألفاظها تحكى جمان دموعه

قال جامع هذا التصنيف : أشار الرئيس أبو يحيى بهذا الشطر الأخير إلى  
 الكاغد الأصفر الذى كانت فيه هذه القصيدة مكتوبة ، ثم قال :

وأنقاسها من كل لون غريبها وترتيبها من ذاته يســــتعدده  
 فأكلها من مقلتي أستميحها وأحمرها من أدمعى أستتمده

وأخضرها من طيب عيشى الذى مَضَى      لديك وأرجو بالرضا تستردُّه<sup>(١)</sup>  
وأعجب شىء أنها بكر فكرتى      وما بلغت معشار شهر نعدُّه  
وقد ولدت بنتينِ ثنتينِ مثلها      يروقك من معناها ما تودُّه  
وكتابها قد جُرِّدت من نظامها      موشحة كالسيف راق فرندُه  
نغذها ففيها للتواظر مسرح      ومن مدحك<sup>(٢)</sup> الحسن الذى تستمده  
بقيت كما تهواه ما هبَّت الصبا      فمالت بها بان العذيب ورندُه  
انتهت القصيدة الفريدة ، وهأنا أذكر البنيتين اللتين ولدت ، ثم أذكر  
ما ولدت كل واحدة منهما بحول الله وقوته .

فأما القصيدة الخارجة من المکتوب بالأخضر [فهذا نصها ، وتوشيحها  
ينتظم من المکتوب فيها بالأخضر]<sup>(٣)</sup> وهى هذه :

(تنائر الدمع) من جفونى (كالدر) من سلكه الثمين  
(مذ أعوز الوصل) والتلاقي (من بدر) حسن بلا قرين  
(علقت في الحب) ظبي أنس (جماله) سمرتع العيون  
(وحل في القلب) عن كناس (فماله) يسس تبيح ديني  
(يحكم بالنهب) في فؤادى (إذ ناله) نهبه العرين  
(أهكذا الشرع) فى المعنى (العدوى) والحكم بالظنون  
(يحلل القتل) منه ظلما (بالمجر) والصدد والفتون  
(مالى سوى مدحى) ابن نصر (بذر الهدى) المشرق الجبين  
(ذا الحلم والصفح) والمعالي (غيث الندى) الواكف الهتون

(١) فى ت : « استرده » .

(٢) فى ط : « مدحها » .

(٣) زيادة عن ت .

[٨٨]

(قد جاز في السمح) وَالْأَيْدَى  
 (وقصده الجمع) بَيْنَ بِيكْرٍ  
 (وشأنه البذل) لِلْعَطَايَا  
 (نال من المجد) كُلِّ طَبْعٍ  
 (وسور الحمد) مِنْ حِلَاةِ  
 (تهدى إلى الرشد) إِذْ تُجَلَّى  
 (كأنها الشفع) فَهِيَ مَشْنَى  
 (قل لها المثل) وَالْمُضَاهَى  
 (سبق المدى) دَائِمَ السُّكُونِ  
 (للفخر) فِي دَهْرِهِ وَعُونِ  
 (كالبحر) فِي جُودِهِ الْمَعِينِ  
 (وصف العلا) فِيهِ ذُو فَنُونِ  
 (لقد تلا) هُنَّ كُلَّ حِينِ  
 (تلك الحلى) فَاحْمَ الدُّجُونِ  
 (في وتر) الْأَوْصَافِ وَالْيَمِينِ  
 (في الدهر) فِي رِفْعَةِ وَدِينِ

انتهت البنت الخضراء ، وهذا نص بنتها الموشحة ، المستخرجة من الأخضر :

الموشحة الأولى

تَنَاطَرَ الدَّمْعُ ، كَالدَّرِّ  
 عَمِلْتُ فِي الْحُبِّ  
 وَحَلَّ فِي الْقَلْبِ  
 يَحْكُمُ بِالنَّهْبِ  
 أَهَكَذَا الشَّرْعُ ، الْعُذْرِي  
 مَا لِي سِوَى مَدْحِي  
 ذَا الْحِلْمِ وَالنَّصْفِ  
 قَدْ جَازَ فِي السَّمْحِ  
 وَقَصْدِهِ الْجَمْعُ ، لِلْفَخْرِ  
 نَالَ مِنَ الْمَجْدِ  
 وَسُورَ الْحَمْدِ  
 تَهْدَى إِلَى الرُّشْدِ  
 كَأَنَّهَا الشَّفَعُ ، فِي وَتْرِ  
 مُذْ أَعْوَزَ الْوَصْلُ ، مِنْ بَدْرِ  
 جَمَّالَهُ  
 فَمَالَهُ  
 إِذْ نَالَهُ  
 يُحَلِّلُ الْقَتْلَ ، بِالْهَجْرِ  
 بَدْرَ الْهُدَى  
 غَيْثَ النَّدَى  
 سَبَقَ الْمَدَى  
 وَشَأْنَهُ الْبَذْلُ ، كَالْبَحْرِ  
 وَصَفَ الْعَلَا  
 لَقَدْ تَلَا  
 تَلَا الْحِلَى  
 قَلَّ لَهَا الْمِثْلُ ، فِي الدَّهْرِ

[ انتهت .

ويمكن أن تستخرج باختصار هكذا <sup>(١)</sup> :

تدثر الدمعُ ، مُذَّ أعوزَ الوصلُ  
 عَلِمْتُ في الحبِّ ، وَحَلَّ بالقلبِ ، يحكم بالنهبِ  
 أهكذا الشرعُ ، يُحَلِّلُ القتلَ ؟  
 مالى سوى مدحى ، ذا الحلم والصفحِ ، قد حاز فى السَّمحِ  
 وقصده الجمعُ ، وشأنه البذلُ  
 له من الجِدِّ ، وسُورِ الحمدِ ، تهدي إلى الرشِدِ  
 كأنها الشفعُ ، قَلَّ لها المثلُ

[ ١٨٩ ]

انتهت .

البيت الثانية

وأما البيت الحمراء فهي الخارجة من المكتوب بالأحمر ، وتوشيحها ينتظم من

المكتوب فيها بالأحمر ، وهذا نصها :

« ما كنتُ لو أنصف » بعد المطال  
 « كالتقمر الزاهى » فى نُوره  
 « مستحسن القد » ذكى الشذا  
 « مؤرذُ الحد » شهى اللهى  
 « كأن للشهد » وما ذقتَه  
 « ولحظه الأوظفُ » مع سقمه  
 « وحسنه الباهرُ » مهما بدا  
 « خَلَّ الهوى وامدح » إمام الورى  
 « أصلى لظى الوجد الأليم » النكالُ  
 « عليه كالليل البهيم » الدلال  
 « كالليل فرعا والقنا » فى اعتدال  
 « فى لثمه كلُّ المنى » لو ينال  
 « رضابه العذب الجنى » فى المثال  
 « أشهرُ منه كالسليم » الليال  
 « لمقتى منه نعيمُ » الوصال  
 « قطب المعالى والهدى » والكمال

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت .

« طوَدَ الحِجَابَ الأَرَجَحَ » سرَّ العلي  
« نَوَّالُهُ يَشْرَحُ » للمعتز في  
« لَسِيْفُهُ المَرْهَفِ » يوم الوغى  
« فَيَتْرِكُ الكَافِرَ » رَهْنُ الفَنَاءِ  
« مُرْفَعُ القَدْرِ » عزيز الحمى  
« مُمَثَّلُ الأَمْرِ » والاحكام قد  
« وَخُصَّ بالنَصْرِ » على من بَغَى  
« المَلِكُ الأَشْرَفُ » تَرِبُ الحَيَا  
« يوسُفُ النَاصِرُ » دينَ الهُدَى  
« مَعْنَى السَّمَاحِ والنَّدَى » والجَلَالُ  
« فَعَلَ ظُبَاهُ بِالْعِدَا » فى القِتَالِ  
« أَضْحَى الحِمَامِ كالحَمِيمِ » النُّوَالِ  
« وَقَد غَدَا مِثْلَ الهَشِيمِ » الضَّلَالِ  
« وَقَد تَدَانَى جُودُهُ » المَنَالِ  
« حَمَى الهُدَى وَجُودُهُ » أَنْ يُنَالِ  
« لَمَّا بَدَتْ سَعُودُهُ » فى اقْتِبَالِ  
« غَيِثُ النَّدَى الهَامِى العَمِيمِ » النُّوَالِ  
« ذُو الفِضْلِ والمَجْدِ الكَرِيمِ » الحِلَالِ  
انتهت البنت الحمراء .

الموشحة الثانية

وهذا نص موشحتها ، وهى بنتها ، الخارجة منها من المكتوب بالأحمر :

مَا كُنْتُ لَوْ أَنْصَفُ أَصْلَى لَطَى الوَجْدِ الأَلِيمِ  
كَالقَمَرِ الزَاهِي عَلَيْهِ كَاللَّيْلِ البَهِيمِ

\*\*\*

مُسْتَحْسِنُ القَدِّ كَاللَّيْلِ فَرَعًا وَالقَنَا  
مُورِدُ الخَدِّ فى لَمَّةِ كُلِّ العَمَى  
كَأَنَّ للشَّهِيدِ رِضَابَهُ العَذْبَ الجَنَى

\*\*\*

وَلحَظُّهُ الأَوْطَفُ أَشْهَرُ مِنْهُ كَالسَّلِيمِ  
وَحَسْبُهُ البَاهِرُ لِقَلْتَى مِنْهُ نَعِيمِ

\*\*\*

خَلَّ الهوى وَاَمَدَحُ      قَطْبُ العَالِي وَالمَهْدَى  
 طَوَدَ الحِجَا الأَرْجِحُ      مَعْنَى السَّمَاحِ وَالنَّدَى  
 نَوَالَهُ يَشْرَحُ      فَعَلَ ظُبَاهُ بِالعَدَا

\*\*\*

لَسِيْفُهُ المَرْهَفُ      أَضْحَى الحِمَامِ كَالْحَمِيمِ  
 فَيَتْرَكَ الكَافِرُ      وَقَدْ غَدَا مِثْلَ المَهْشِيمِ

\*\*\*

مُرْفَعُ القَدْرِ      وَقَدْ تَدَانَى جُودُهُ  
 مُمَثِّلُ الأَمْرِ      حَمَى الهُدَى وَجُودُهُ  
 وَخُصَّ بِالنَّصْرِ      لَمَّا بَدَتْ سَعُودُهُ

\*\*\*

المَلِكُ الأَشْرَفُ      غَيْثُ النَّدَى الهَامِي العَمِيمِ  
 يُوسُفُ النَّاصِرُ      ذُو الفَضْلِ وَالمَجْدِ الكَرِيمِ

ويمكن اختصارها أيضاً هكذا :

مَا كُنْتُ لَوْ أَنصَفُ ، كَالقَمَرِ الزَّاهِرِ  
 مُسْتَحْسِنُ القَدِّ ، مَوْرِدُ الخَدِّ ، كَأَنَّ الشَّهيدَ  
 وَلِحَظَّةِ الأَوْطَفِ ، وَحَسَنَةِ البَاهِرِ  
 خَلَّ الهَوَى وَامدَحُ ، طَوَدَ الحِجَا الأَرْجِحُ ، نَوَالَهُ يَشْرَحُ  
 لَسِيْفُهُ المَرْهَفُ ، فَيَتْرَكَ الكَافِرُ  
 مُرْفَعُ القَدْرِ ، مُمَثِّلُ الأَمْرِ ، وَخُصَّ بِالنَّصْرِ  
 المَلِكُ الأَشْرَفُ ، يُوسُفُ النَّاصِرُ

قلت : وإنما لم أجزم بهذه المختصرة لأجل أن الناظم صرح بأن كل واحدة من البنيتين الحمراء والخضراء لم تلد إلا موشحة واحدة من البنيتين ، ولو ولدت موشحتين لصرح بذلك ، ولا شك أن الموشحة غير المختصرة أتم معنى ، وأكمل مساقاً ، فالأصوب الاقتصار عليها ، وإن كان يمكن استخراج أكثر منها لمن تأمل حق التأمل ، والله تعالى أعلم .

وعلى كل حال فقد أبدع هذا الرئيس في هذه القصيدة ، وإن كان فيها بعض تكلف ، وقصده أبدع من قصد صاحب عنوان الشرف الشامي<sup>(١)</sup> ، لأن هذا أخرج من الخارج شيئين<sup>(٢)</sup> على ما لا يخفى ، غير أن صاحب عنوان الشرف أطال ، واستخرج أربعة علوم متباينة ، من أول وهلة ، وكلاهما قد أبدع رهما الله ؛ ولم أتحقق : هل وقف ابن عاصم على كتاب عنوان الشرف ، فاهتدى بأضوائه أم لا ؟ والله تعالى أعلم .

موازنة بين ابن عاصم وصاحب عنوان الشرف الشامي

ومن كتاب جنة الرضى له رحمه الله ما نصه<sup>(٣)</sup> :

مختار من كتابه جنة الرضى

« الحمد لله الذى عَوَّضَ من الخلافِ وفاقاً ، وأعقب من الافتراق اجتماعاً واتفاقاً ، وهيباً لأسواق الائتلاف برفع الخلاف<sup>(٤)</sup> نفاقاً ، ويسر لوطن الجهاد<sup>(٥)</sup> من توثير المهاد أرفاقاً ، وزين بأنجم المسعود من النصر الموعود آفاقاً ، وعقد على جمع الكلمة من الأمة المساحة إجماعاً وإصفاقاً . نجمده سبحانه وهو الحمود بجميع اللغات ،

(١) كذا في الأصلين . وسم الكتاب : « عنوان الشرف الوافي » في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي » ، وهو لشرف الدين بن المقرئ إسماعيل بن أبي بكر البني ، التنوين سنة ٨٣٧ هـ . (انظر كشف الظنون) .

(٢) في ط : « أشياء آخر » .

(٣) العبارة « له رحمه الله ما نصه » : ساقطة في ت .

(٤) في ت : « الاختلاف » .

(٥) في ت : « الاجتهاد » .

ونشكره على ما سَنَى من آمال على وَفْقِ الأُمْنِيَةِ مُبَلَّغَاتٍ ، وَنُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا أَسَدَى مِنْ عَوَارِفِ مَخُوعَاتٍ ، وَمَوَاهِبِ مُسَوَّغَاتٍ ؛ حَمْدًا نَسْتَكْثِرُ مِنْ دُرَرِهِ النَّفِيسَةِ إِنْفَاقًا ، وَأَمَانَتِهِ الْعَظِيمَةِ فَلَا نَأْبِي مِنْ حَمْلِهَا إِشْفَاقًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ <sup>(١)</sup> لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ؛ شَهَادَةٌ تَرْفَعُ لَوَاهِهَا الْمَرْتَجِحَ <sup>(٢)</sup> الْعَذَابَاتِ خَفَاقًا ، فَلَا لَاقِي بَعْدَ هَذِهِ الشَّهَادَةِ لِمَقَاصِدِ السَّعَادَةِ إِخْفَاقًا <sup>(٣)</sup> ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَنَبِيُّهُ الْمُصْطَفَى وَخَلِيلُهُ ؛ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ ، وَنُورِ الظُّلْمَةِ ، وَشَفِيعِ الْأُمَّةِ ، وَالْمَبْعُوثِ بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْجَمُوعِ لَهُ بَيِّنٌ مَزِيَّةِ السَّبْقِ وَمَزِيَّةِ التَّمَتُّهِ ؛ شَهَادَةٌ تَسْتَحْفَظُ بَقَاعَ الْأَرْضِ أَرْفَاقًا ، فَلَا تَخْشَى مَعَهَا الْقُلُوبَ ، وَقَدْ حَصَلَ مِنْهَا الْغَرَضُ الْمَطْلُوبُ ، [٩١] شُكَاً وَلَا نِفَاقًا ؛ وَنُصَلِّيْ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ، الْمَبْعُوثِ بِالْخَلْقِ الْعَظِيمِ ؛ صَلَاةً نَحْمَلُ بِهَا مِنْ عُقْلَةِ الذِّكْرِ وَثَاقًا ، وَنُؤَكِّدُ بِهَا الْقَبُولَ إِذَا عَارَضَ الْعَمَلُ الْمَقْبُولَ مِيثَاقًا ؛ وَنَرَضَى عَنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ ، وَعَشِيرَتِهِ وَحِزْبِهِ ، الْمُخْتَصِمِينَ بِقَرْبِهِ ، الْفَائِزِينَ بِالرِّضَا مِنْ رَبِّهِ ؛ أَكْرَمِ النَّاسِ أَعْرَاقًا ، وَأَعْظَمِهِمْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ إِطْرَاقًا ، وَأَبْهَرِهِمْ فِي مَقَامَاتِ الْهَدَايَةِ إِشْرَاقًا ؛ وَنَسْتَوْهَبُ مِنْهُ التَّأْيِيدَ وَالنَّصْرَ ، وَالْفَتْحَ الَّذِي تَفُوتُ عَجَائِبُهُ الْحَضْرَ ، وَالْمَنْحَ الَّذِي لَا تَعْرِفُ صَلَاةُ صَلَاتِهِ الْقَصْرَ ؛ لِهَذِهِ الْخِلَافَةِ الْغَالِبِيَّةِ ، الَّتِي أَطْبَقَتْ عَلَى الْإِغْضَاءِ أَحْدَاقًا ، وَأَظْهَرَتْ مِنَ الْحِلْمِ لِمَا كَانَ مِنْ مَكْنُونِ الْعِلْمِ صُدَاقًا ؛ وَنَبْتَهِّلُ إِلَى اللَّهِ فِي دَوَامِ أَيَّامِهَا ، وَإِعْلَاءِ أَعْلَامِهَا ، وَإِمْضَاءِ ذَابِلِهَا الْمَرْهُوبِ وَحُسَامِهَا ؛ حَتَّى يَنْتَفِسَ الْإِسْلَامُ خِنَاقًا ، وَتَسِيرَ بِهَا الرَّفَاقُ ، وَقَدْ تَهَادَتْهَا الْإِفَاقُ ، وَخَدَّاءُ وَإِعْنَاقًا ، وَتَخَضَّعَ لَهَا الْجَبَابِرَةُ ، وَالْمُلُوكُ الْقِيَاصِرَةُ ، رِقَابًا وَأَعْنَاقًا ؛ وَنَمْدُ إِلَيْهِ

(١) فِي ط : « الَّذِي » .

(٢) فِي ط : « الْمَرْتَجِحُ » .

(٣) هَذِهِ الْعِبَارَةُ ، مِنْ قَوْلِهِ : « فَلَا لَاقِي » إِلَى قَوْلِهِ : « إِخْفَاقًا » سَاقِطَةٌ فِي ت .

يَدَ الافتقار ، ونبسَط كَف الضراعة والاضطرار ؛ في كَف الفتن ، عن هذا الوطن ؛  
وكَف الكفار ، عن هذه الديار ؛ وتيسير الفرج القريب ، لهذا القطر الغريب ؛  
وتسهيل الصعب العسير ، لهذا الصقع النائي عن الولي والنصير ؛ فيجمع بين (١)  
القلوب النافره ، والنفوس المتنافره ، افتراقا ؛ ويجعل دم العُداة بسيوف الحُمّة  
السكّاة مُراقا ؛ ويُتخف بأنبائه المعجبه ، وأخباره المغرّبة المطرّبة ، شاما وعراقا .  
أما بعد ، فإن الله على كل شيء قدير ، وإنه بعباده خبير بصير ، وهو لمن  
أهلّ نيته ، وأخلص طويّته ، نعم المولى ونعم النصير ؛ بيده الرفع والخفض ،  
والبسط والقبض ؛ والرشد والغى ، والنشر والطمى ؛ والمنح والمنع ، والضر والنفع ؛  
والبطء والعجل ، والرزق والأجل ؛ والمسرّة والمساءه ، والإحسان والإساءه ؛ [٩٣]  
والإدراك والفوت ، والحياة والموت ؛ فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ،  
فهو الفاعل في (٢) الحقيقة ، وتعالى الله عما يقول الآفكون ، وهو الكفيل بأن  
يُظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ؛ وإن في أحوال الوقت الداهية ،  
لذِكْرَى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعِبْرَةٌ لمن تفهم قوله تعالى :  
إن الله يفعل ما يشاء ، وإن الله يحكم ما يريد ؛ فبينما الدُسُوت عامره ، والوَلَاة  
أمره ؛ والفئة مجموعته ، والدعوة مسموعه ؛ والإمرة مُطاعه ، والأجوبة سمعا  
وطاعة ؛ إذا بالنعمة قد كُفرت ، والذمة قد خُفرت .

ثم قال رحمه الله :

« والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً ، جعلنا الله ممن  
قضى بغيره ؛ وبينما الفرقة حاصله ، والقطيعة فاصله ، والمضرة واصله ؛ والحبل

(١) في ت : « به من » .

(٢) في ط : « على »

في انبتات ، والوطن في شتات ، والخلاف يمنع رَعَى مَتَات (١) ، والقلوب شَتَى من قوم أشتات ؛ والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقصمه ، ويلحظه لحظ الخائف على هضمه والأخذ بكظمه ، ويتوقع الحسرة (٢) إن يأذن الله بجمع شمله ونظمه ، على رَغَم الشيطان ورغمه ؛ إذا بالقلوب قد ائتملت ، والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله قد ابتهلت ، في إصلاح الحالة التي سلفت ؛ فألقت الحرب أوزارها ، وأذنت الفرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشئة أظفارها أضرارها ، وأرضت الخلافة الفلانية (٣) أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة (٤) أبصارها ، وأصلح الله أسرارها ؛ فتجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة (٥) الفلانية يد التسليم والضراعة ؛ فتقبلت فيئاتهم ، وأحمدت جيئاتهم ؛ وأسعدت آمالهم ، وارتضيت أعمالهم ؛ وكملت (٦) مطالبهم ، وتممت ما ربههم ؛ وقضيت حاجاتهم ، واستمعت مناجاتهم ؛ وألستهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم في الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد انفقت ، وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة في الوقت على عدو الدين قد ظهرت وبرقت .

[٩٤]

(١) المتات (بفتح الميم) : ما يتوسل به من حرمة أو قرابة أو نحو ذلك .

(٢) في ت : « المسرة » .

(٣) يريد خلافة الغالب بالله صاحب غرناطة ، وقد سبق التصريح بذلك .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « المتعرضة » .

(٥) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الأمانة » .

(٦) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « وقلت » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى :

[ وكفّت<sup>(١)</sup> ، بقدره ربه ، القدرة القاهرة<sup>(٢)</sup> ، والعزة الباهرة ، من عدوان الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فوآتح وأوائل . ومعلوم بالضرورة أن الله لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها دليل على ما سَوَّغَ الكرم والجود ؛ وإن من أعظم نعمه التي يُعْجِزُ عن أداء شكرها ، وإن طالّت آماد الأعمار ، ويُتَنَاقَى في الثناء عليه في أمرها ، فلا يبلغون من ذلك معشار العشار ، وتتجارى الألسنة والأقلام في تقرير وصفها ، فلا تصل من ذلك إلى حد يُقْنَع ولا إلى مقدار ؛ وفي مثلها قال الله تعالى ]<sup>(٣)</sup> : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار » . وما ذلك إلا مِنَّةٌ قدرها عظيم ، وخطرُها جسيم ، وصراطُ العدل بها مستقيم ، وبها أمتنَّ الله في قوله : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » إلى : « حكيم » . فهل يُستطاع شكرُ النعمة التي لا يكون إتفاق الأرض جميعا لها قيمه ، أو يختلف اثنان بوجه أو حال في كون هذه النعمة عظيمة ، أو يتماهى أحدٌ في كون جمع الكلمة في هذا الوطن الغريب مِنَّةً كبيرة ومنحةً كريمه !

ومن استقرأ التواريخ المنصوصه ، وأخبار الملوك المنصوصه ؛ علم أن النصرارى دسروهم الله لم يدركوا في المسلمين ثارا ، ولم يرفعوا<sup>(٤)</sup> عن أنفسهم عارا .

(١) كفت : صرفت ومنعت .

(٢) في نفتح الطيب : « وكفت القدرة القاهرة » .

(٣) ما بين القوسين زيادة عن ت .

(٤) قيام من هذا الجزء (ص ٥٠) : « ولم يرحضوا » .

قال جامع الموضوع وفقه الله :

قد قدّمتُ هذا من كلام الرئيس ابن عاصم ، وهو قوله : « ومن استقرأ التواريخ المنصوصة » فراجعها فيما سبق ، إلى قوله هناك : « وروية وارتجال » .

ثم قال هنا بإثره ما نصه :

« إلى أن استقلتُ هذه الدولة الفلانية على قواعدها ، واستقرت بأحلامها الراجحة ، وأعلامها الشاخحة ؛ واستمرت على قوانين من السياسة كانت ضابطةً نشر المملكة عن الافتراق ، واستظهرت أبنائها الغرّ من الوفاء بشيمٍ اعتلت بها أتم الاعتلاق ؛ فحفظ الله الدولة الفلانية إلا في الثدره ، ووقاها من ذلك الأمر الصعب بوقاية من الإكتساب ووقاية من القدره ؛ وتناولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة » . [٩٥]

وقال جامع الموضوع وفقه الله : راجع تمام هذا الكلام فيما قدمناه إلى قوله هنالك : « اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتمدين » .

وقال هنا بإثره ما نصه :

« وإنما النعمة التي لا يُقدر قدرُها ، ولا يُوفى شكرها ؛ هي التي تكفّلت بتبئينها تكبيفات [ الأقدار ، وانجلت عن بيانها تدبيرات الفاعل المختار ؛ فجمع الله بها القلوب ، وهيئاً ]<sup>(١)</sup> الغرض المطلوب ؛ وتتابعت بيعات البلاد ، وتوافقت أهواء العباد ؛ وانتظم الملك جسماً واحداً له روح طاهر ، واستقل الإسلام رسماً ثابتاً حكمه نصّ وعدله ظاهر ؛ وهدى الله المسلمين مع جمع الكلمة إلى القصد الشرعي ، ووقفهم إلى القيام بحكمه المحتوم وحقه المرعي ؛ فاتخاذُ السلطان في [ مثل ]<sup>(١)</sup>

(١) زيادة عن ت .

هذه الأوطان واجب قياسا وسماعا ، وتعذرُ الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز إجماعا .  
 أيها الملأ المشتمل على الشرفاء الذين بتقديمهم [ يُسْتَنْجَز من البركة  
 موعودُها ، والعلماء الذين هم حَفَظَةُ الشريعة الحنيفة<sup>(١)</sup> أن تُتَعَدَّى حدودُها ؛  
 والأشياخ الذين بجهادهم استقرَّ واجبها<sup>(٢)</sup> ، واستقام واجبها ، واستند عمودها ،  
 والقواد الذين بحمايتهم<sup>(٣)</sup> تقام أحكامها ، وتُحاط أعلامها ، وتُوَفَّى عهودُها ؛  
 والفرسان الذين هم مُحامِئُها وأنجادُها ، وأنصارُها وجنودها ؛ والخاصة الذين بهم  
 يرجح عملها ، وينجح أملها ، ويتم مقصودُها :

تعلمون حقا أن هذا الوطن الفلاني كان قد تَعَيَّنَ للهلاك ، بسبب هذا الخلاف ،  
 وتوقعت القلوب المُشْفِقة حدوثَ الفارقة بسبب هذا الاختلاف ؛ وأن الشارع  
 صلواتُ الله وسلامه عليه يَمْنَع من كل ما يؤدي إلى الفرقة بأتم الوجوه ، ويؤكد  
 الترغيب والترهيب بكل ما يخافه المؤمن ويرجوه ؛ وأن الفقه<sup>(٥)</sup> المذهبي ، إذا [١٦٦]  
 حصلت البيعة في الأعناق ، وتحلت بها تحلَّى الحمام بالأطواق ، معروف ومعلوم ؛  
 وأن اشتداده في سدِّ باب الافتراق ، على العموم والإطلاق ، لازم محتوم ؛  
 والأقدار الإلهية قد هيأت قصد الألفه ، بلا كلفه ؛ ويسرت سبب الاتفاق ،  
 بحكم الوفاق ؛ فأقبلوها نعمة مُسداه ، وتُخَفِّة مُهداه ؛ وشدُّوا عليها أيدي الضننه ،  
 واعلموا ما فيها لله عليكم من المنه ؛ وتعاقدوا على ألا تُبقوا من الخلاف أثرا ،  
 واتفقوا على القصد الذي يخلصكم عند الله سمعا ونظرا ؛ وفي هذا التيسير الذي  
 ساعدت به الألفان الحفية ، وساعفت به من قبل الربِّ الصنائع الحفية ؛ ما يتأكد

(١) في ت : « حفظ الشريعة الحنيفة » . وظاهر أنه محرف عما أئتمناه .

(٢) استقر واجبها : سكن روعها بعد اضطراب .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) تعين ، أي تهلّل وتمزق ؛ مأخوذ من تعين السقاء ، وذلك إذا بلى ورق من مواضع .

(٥) في ط : « العقد » .

به الاعتبار ، ويرشد إلى أنه أراد الله نفوذه<sup>(١)</sup> ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .  
ومما يستكمل هذا القصد الذي أشرنا إليه ويستوفيه ، قول تاج الدين رحمة الله  
عليه : ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يُظهِر في الوجود غير ما أراد الله أن  
يُظهِر فيه .

وَفَرَضَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي نَفْسِهِ مَا طَلَبَهُ [ به ]<sup>(٢)</sup> الشارح ، وَعَدَّتْ فِيهِ  
بِالتَّفْوِضِ لِحُكْمِ اللَّهِ<sup>(٣)</sup> المَشارِعَ . فالواجب علينا أن نجتمع ونألف ، ونتنق ولا  
نختلف ؛ ونعتمد صريح الفقه أخذاً وتركاً ، ونتمتع صحيح النقل الذي لا يدع ريباً  
ولا شكاً ؛ ونسأل من الله الهداية إلى سبيل السلف الذين سَبَقُوا ، ونعزم العزم على  
أمر الله في قوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وإن أولى الناس في ذلك بإرهاق العزيمة ، وتوخى السبيل المستقيمة ؛  
والقيام بمضمون هذا الرسم المستقل ، والوفاء بتكميل قصد الكتاب فيه والمثل ؛  
لخواص الدولة الفلانية الذين لحقهم التمهيص والاختبار ، وتخوللتهم بأبلغ الموعظة  
الأقضية والأقدار ؛ وهم الذين ربحت منهم في هذه السوق التجاره ، والمقصودون  
بالخطاب من باب إياك أعنى واسمعى يا جاره ؛ وهم الممنون عليهم باسترجاع  
المعصوب المُستحق ، والواقفون من انكسار القلوب ، والتنصل من الذنوب ،  
موقف الأولى به والأحق ؛ والمعنيون بقوله : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع  
قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » . ويختص منهم عماد الدولة ، وعميد الجملة ،  
بالحظ الأوفر ، مما يتضمنه هذا التأنيب ؛ ويستمنح من الله عقب التذكرة ، بهذه  
الموعظة : « وما يتذكر إلا من ينيب » .

(١) في ت : « إنفاذ نفوذه » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) في ت : « لحكمه » .

فإنا إذا نظرنا إلى ما كان قد طرّق من الابتلاء ، وشاهدنا ما كان مُعَرَّضاً للوقوع من البلاء ؛ وراجعنا البصيرة في النعم التي كُنا عنها مَسْئولين<sup>(١)</sup> ، والثَّربَة<sup>(٢)</sup> التي كُنا عليها مغلوبين ، والأبواب التي كُنا عنها مَحْجوبين ، والشَّرْذِمَة التي كُنا بها مَرَبوبين ، [ والأَنْفَال ]<sup>(٣)</sup> التي كُنا في عَدَد مَنْ يُحْيِي رَسْمَهَا مَحْسوبين ؛ وقد سلَّط الله علينا كثيرا من الظَّلمة الذين أعنَّاهم ، فعند ذلك لعنَّاهم ، وأهاننا الذين كُنا أكرمناهم ، جزاء لما احترمناهم ؛ فنسُونَا ، أحوج ما كُنا إلى أن يذكرونا ، وخذلونا ، أفقر ما كُنا إلى أن ينصرونا ، وأسلمونا ، أشد ما كُنا فاقَة إلى أن يُنجدونا ، وتركونا ، أعظم ما كُنا حاجةً إلى أن يُسعدونا ؛ وخانونا ، أظهر ما كُنا اضطرارا إلى وفائهم ، وظاهروا علينا ، أتم ما كُنا افتقارا إلى غنائهم ؛ فلا شك أن المؤاخذه كانت بسبب تلك الذنوب ، وأن الجناية هي التي أوجبت ما طرَّقنا من الخطوب ؛ فأزف العذاب ، وعاد من أعدى الأعدى الأحاب ، وتبرأ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا وتقطعت بهم الأسباب ؛ وكادت العقوبة العظيمة أن تَلْحَق ، والأخذة الربانية أن تَمَحَق ؛ لولا أن الله تداركنا بالعفو ، وتجاوز عن الهَمِّ ؛ وأنالكم من الإدالة ما كنتم تؤمِّلون ، واستخلفكم في الأرض لينظر كيف تعملون . فلنجعل ما وعظنا الله به من تلك الأزمات نُصَب الأعين ، ولننخذ حمده على ما منحنا من الإِنالة<sup>(٤)</sup> هَجِير الألسُن<sup>(٥)</sup> ؛ ولنعلم أن ذلك التمحيص إنما كان تنبيهاً من الله على ما عَطَّلنا من حُدوده ، وإيقاظاً من الغفلة عن القيام بحقوقه ، والوفاء بعهوده ؛ ولننتهق أن ما مَنَّ الله به من جَبْر الأحوال ، وخَلْف

(١) في ط : « مسؤلين » .

(٢) في ط : « الرتبة » .

(٣) زيادة عن ت :

(٤) في ط : « الإقالة » .

(٥) هجير الألسن ، أي دأبها وشأنها .

الأموال ؛ واستقبال العز غصاً جديداً ، وصرف الهون وقد كان عذاباً شديداً ؛ إنما هو إبلاغ في الحجة علينا ، وإعذار بالموعظة إلينا ؛ وربما عاهدنا الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين ، ولننزعن عما ارتكبهنا من جرائم العاصين وجرائم الطالحين ؛ فالوفاء الوفاء حتماً [إن أردنا] <sup>(١)</sup> أن نكون من المفلحين . وقلما <sup>(٢)</sup> أُرِف العذاب فرُفِع إلا عمن كان من المصلحين ، « فلو لا كانت قرية آمنت » إلى قوله : « إلى حين » ؛ فلنقدّر [قدر] <sup>(٣)</sup> هذا التدارك ، الذي أخذ بأيدينا من مهاوي الانتقام ، ولنتأمل موقع هذا البلاء الذي أحلنا من تجديد النعمة بأسنى مقام ؛ ولنحذر نسيان ما ذكرنا به ، فلم نذكر تلك الشدائد بل نسيناها ، ولا نفرح بما أوتينا [فرح] <sup>(٤)</sup> المغرور الذي لا يتراجع ولا يتناهى ؛ فإن في ذلك أمل الشيطان وسؤله ، ولعن الله ومقتته ، قال الله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » إلى قوله : « بغته » .

اللهم هل بلغت ، وبالغت في النصح وأبلغت ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد . [٩٩] و « يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت » ، وإليه أبرأ من حولى وتقصيرى عما فيه قصرت ، وعما عنه نكلت » .

ثم قال رحمه الله :

« وإن مولانا السلطان الملك الفاضل التالى الذاك ، العفيف الطاهر ، المسترجع الصابر ، المجاهد المصابر ، المرابط المشاعر <sup>(٣)</sup> ؛ أمير المسلمين ابن نصر الخزرجى نسبا ، السعدى <sup>(٤)</sup> منشأ ، النصرى جدا وأبا ؛ أيده الله على أعداء الدين ، رجعله

(١) زيادة عن ت .

(٢) فى ط : « وربما » .

(٣) المشاعر ، من الشغار ، وهو (هنا) : المعاونة فى الحرب .

(٤) السعدى : نسبة إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وإليه ينتهى نسب بنى الأجر ملوك غرناطة .

من الأئمة المهتدين ؛ ممن إذا جُنِّي عليه غفر ، لعلمنا به أنه حلیم والله آخذ بيده كلما عثر ؛ فأرشدنا بذلك إلى أنه كريم ؛ وممن تطرّقه الخطوب ، وهو بالألطف مصحوب ، وتُحدّق إليه النوائب وهو من نظرها الشّرر محبوب ؛ وممن جمع له الناس على أن يخشاهم فزاده إيماناً ، وقال : حسبي الله ونعم الوكيل ، فانقلب بفضل من الله ونعمه ، وممن صبر واسترجع في نقص الأموال والأنفس والثمرات ، [فبشّر] <sup>(١)</sup> بصلوات من ربه ورحمه ؛ قتالاً على أذيتة أصناف من الناس في صرّات متعدده ، وآناء من الدهر متجدده ؛ فاتعس الله جدودهم ، وأضرع إليه خدودهم ، وأرغم بحوله وقوته أنوفهم ، وردّ عنه بسيف <sup>(٢)</sup> من الأقدار رماحهم وسيوفهم ، وأدنى لهم بأسباب مختلفة الأنواع ختوفهم : فمن آمن أخذ من مآمنه الذي كان يستند إليه ، ومن خائف قد أدهشه الرّوع فهو يحسب كل صيحة عليه ؛ فكان السنة الأقدار تنهّاهم عن منازعة الإرادة ، وكان واعظ الاعتبار يحذّره من شقائهم الكفيل له بالسعادة ؛ وكان شاهد الحال يقول هذه إرادة الله قضاها ، وسنته السابقة أنفذها وأمضاها ؛ فمن المنازع فيما حكم الله به وقضى ، [١٠٠] ومن الساخط في المحل الذي يطلب فيه من الله الرضا ؟ ولو كان استيلاؤه على الملّك بقوة عصبيّه ، وإهلاك مناوئته عن طبيعة غضبيّه ؛ لارتاب في ذلك الناظر ، ووجد السبيل إلى الاحتجاج المناظر ؛ ولكنه طالما عُرض في الملّك فكبّا معارضه لفيه ، وأتيحت له النّصرة من محلّ لم يحسبها فيه ؛ وشدّ ما احتال على نصرته غير واحد ، فانعكست عليه حيلته ؛ وتوسّل إلى مكروهه ، فطاحت في قلبه الانقلاب عليه وسيلته ؛ وبغى عليه غير ما مرّة فنصره الله على من بغى عليه ،

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ط : « بدفاع » .

(١) وابتغى بالسوء فردّه الله على من سعى به إليه ؛ ولعل ذلك لغيب عن العيان مكتوم ، وحكم من الحكيم العليم محتوم ؛ أو لأثر من الاختصاص قد علمه الله وليس لنا بمعلوم ، أو لأمر قد تقاصرت عنه مدارك العقول ، وكَلَّتْ دونه رواجح الخُلوْم ؛ ولهذا المعاني المقرّرة ، والمقاصد الحرّرة ، والمذاهب المفسّرة ، والفوائد المسطرّة ، وغرائب أحاديثها المشتهرة ، خصّ الملاء المقصود فيه بالتذكّره ، المعتمد منه بالإيقاظ والتبصره ؛ من أعضاء الدولة ، وسيوف الصّولة ؛ وأولياء الخلوص الزكي الشيمه ، وموالى النعمة الفلانية ، وهم الذين خولتهم موعظته الحسنه ، وأعجبهم أغراضه المتعدده ، ومقاصده المستحسنه ؛ وعلموا أنه الحق ، فسألوا من الله التوفيق إليه ، والإرشاد إلى الاتصاف به والعمل عليه ، والهداية إلى التماس رضا الله لديه ؛ ووقفوا على ما هو لهم في هذا الكتاب منصوص ، وأن سلطانهم بمزية الدفاع عنه مخصوص ، وأنه قد تطابقت على إثاره نصوص ، واستوى<sup>(٢)</sup> في تسليم الطاعة له عموم وخصوص ؛ فجَدّدوا له البيعة الوثيقة ، على ما أوجب في ذلك الحكم المشروع ، وأعطوه على ذلك العهد الأكيد حسَبًا اتفقت عليه أصول وفروع ؛ وعقدوا له مضمونها عقدا صحيحا ، وعهدوا<sup>(٣)</sup> على ما تقتضيه السنّة صريحا ؛ وشهدوا له فيه على أنفسهم أنهم بالوفاء بها قأمون ، ولشروطها المرعية حافظون ، وعلى أحكامها الشرعية محافظون ؛ وعلى ما يُوبع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة ، ولزوم السنّة والجماعه ، وإتحاض النصيحة جُهد الاستطاعة ؛ فأيديهم في السّلم والحرب مصروفة<sup>(٤)</sup> في مرضاته ، ونيّتهم صادقة في مسنونات الوفاء ومفترضاته ؛ ولقد شاهدوا الفرقة وما جَنَّتْه ، والفتنة وما فتنته ، والألعة وما سنّته ، والهدنة

(١) في ت : « وسمى » .

(٢) في ت : « واستولى في تسليم » . وفي ط : « واستوى في تسليم » . وظاهر أن

كليهما محرف عما أثبتناه .

(٣) في ط : « وعهدا » .

(٤) في ت : « معروفة » .

وما قربت من إصلاح وأدنته ؛ فليغتبطوا بها عهدا كريما ، وعقدا قد تضمن  
فضلا [عظيما بل] <sup>(١)</sup> عميا ، واستلزم إنعاما جسيما ، وليوفوا بها الوفاء الذي يؤليهم  
بها نعيما مقيا ، ويدفع عنهم عذابا ألما ، فإنه عز وجل يقول : « فمن نكث »  
إلى قوله : « عظيما » . وقد بسطوا أكتفهم إلى الله ضارعين ، وفي رحمته طامعين ،  
ولعظمته خاضعين ، ومن هيئته خاشعين ، ولخليفته طائمين ، وفي الخيرات  
مسارعين ؛ يدعونه رغباً ورهباً مستنزلين لرحمته بالإخلاص والإجابة ، واقفين  
على قدم الرجاء بيباب الذي أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ؛ ويسألونه خير ما قدره  
وقضاه ، والسلوك على ما فيه رضاه .

اللهم بابك قصدنا ، وقبولك أردنا ، وعلى فضلك اعتمدنا ، وإلى عزتك  
استندنا ، وفي مرضااتك اجتهدنا ، وبهدايتك استرشدنا ؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا  
طرفة عين ، وأصلح لنا شأننا كله ؛ اللهم إنا بك مستنصرون ، وبعزتك مستظهرون ،  
ولغناك مفتقرون ، ومن تقصيرنا مستعيذون ، ومن ذنوبنا مستغفرون ، ولشامل <sup>(٢)</sup> [١٠٢]  
عقوك منتظرون ، وفي خفي أطافك مستبصرون ، ولعظيم انتقامك مستحضرون ،  
ولعظيم صفحك مستشعرون ؛ فآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .  
اللهم انصر من بايعناه سلطانا ، ومهد به بلاداً وأوطانا ، وأرغم بتوخييه للحق  
طاغية وشيطانا ، وآتنا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً . اللهم اعمر بالمسرة  
ناديه ، وكاف <sup>(٣)</sup> عنا أياديه ، واكبت اللهم أعاديه ؛ وكن لنا ولياً ونصيراً ، فأنت  
نعم المولى ونعم النصير . وصل اللهم على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي ، القرشي  
الهاشمي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، فأنت اللطيف وأنت الخبير .

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ت : « لشمول » .

(٣) الأصل : كافي . سهل الهمزة ، ثم عامل الفعل معاملة الناقص .

انتهى ما أردت نقله من جنة الرضا للرئيس أبي يحيى بن عاصم رحمة الله عليه .  
ورأيت بخط الوادى آشى ناقلا من كتابه المسمى « بالروض الأريض » مانصه :  
ابن فتوح إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقيلي ، يكنى أبا إسحاق ، العالم  
المتفّن ، صاحبنا ، محقّق نظار ، وأستاذ فوائد تدريسه لجين ونزار ؛ كلاب  
جواهر ويواقيت ، ومناسك هدى لها من السعادة موافيت ؛ فحسب الطالب  
الموثوق بفهمه ، المصروف للتحصيل مطالع مواقع سهمه <sup>(١)</sup> ، أن يلازم حلقة تعليمه ،  
وأن يشد يد الضنة بما يلقي من محصول تفهيمه ؛ فأكسير الإفادة ، إنما حصله  
الوافدون ، من جابر <sup>(٢)</sup> صنعته ؛ وكيمياء السعادة ، إنما يلقاها <sup>(٣)</sup> الظافرون في نضرة  
روضه المخضّل ونبعته ؛ وقرض الشعر مما يمكن دخوله تحت فرعه ، ويندرج  
تحت قدرة تصرفه بجنسه ونوعه ؛ إلا أنه لما يصدُر منه عن قريحته كاتم ، وسالك  
من البخل به على طرف النقيض مما سلكه حاتم .

فما علق بحفظى منه خطبة أرجوزة صنّفها في النجوم :

سبحان رافع السماء سقفا ناصبها دلالة لا تخفى

مبدعها فلا ترى فروجا مودعها الأفلاك والبروجا

انتهى . وإنما ذكرته لتعلم اصطلاحه في كتاب الروض الأريض . وقد  
نقلت كلاماً آخر منه فيما سبق فراجعه ؛ ولو تتبعته ما حصل لدى من نظمه  
ونثره لطلال الكتاب جدا .

(١) كذا وردت هذه العبارة في ط . وفي ت : « المصروف للتحصيل مطامع... الخ »  
وكتابتها غامضة .

(٢) يورى باسم جابر بن حيان الصوفى من كبار الكيمياءيين وتلميذ خالد بن يزيد بن  
معاوية بن أبي سفيان .

(٣) في ط : « يتلقفها » .

منشور سلطان  
بشولي ابن عاصم  
القضاء

وقد وقفت بتلمسان المحروسة<sup>(١)</sup> على ظهير منشور سلطاني أصدر للرئيس  
أبي يحيى بن عاصم المذكور ، بتقديمه للنظر في أمور القضاء وغيره ، ونصه :  
هذا ظهير كريم إليه أنهيت<sup>(٢)</sup> الظواهر ، شرفاً علياً ؛ وبه تقررت المآثر ،  
برهاناً جلياً ؛ وراقت المفاخر ، قلانداً وحلياً ؛ وتميزت الأكابر ، الذين افتخرت  
بهم الأقلام والمحابر ، اختصاصاً مؤلولياً<sup>(٣)</sup> . فهو وإن تكاثرت المرسومات  
وتعددت ، وتوالت المنشورات وتجددت ، أكبر مرسوم تتم في الاعتقاد نظراً  
خطيراً ، وأحكم في التفويض أمراً كبيراً ، وأبرم في الاستخلاص<sup>(٤)</sup> عزماً  
أبياً ؛ اعتمد بمسطوره العزيز ، واختص بمنشوره الذي تلقاه اليمين بالتعزير ، من  
لم يزل بالتعظيم حقيقاً ، وبالإكبار خليقاً ، وبالإجلال حريماً ؛ فهو شهير لم يزل  
في الشهرة سابقاً ، هادي لم يزل بالهدى ناطقاً ، بليغ لم يزل بالبلاغة دريماً ؛ عظيم  
لم يزل في النفوس معظماً ، علم<sup>(٥)</sup> لم يزل في الأعلام مقدماً ، كريم لم يزل في  
الكرام سنياً ؛ اشتملت منه محافل الملك على [العقد]<sup>(٦)</sup> الثمين ، وحأت به  
المشورة في الكنف المحوط والحرم الأمين ، فكان في مشكاة الأمور هادياً ،  
وفي ميدان المآثر<sup>(٧)</sup> جريماً ؛ فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته  
تنتهي مراتب الاختصاص ؛ فيمن حاز فضلاً ، وزين فعلاً<sup>(٨)</sup> ، وشرف ندياً ؛  
واستكملهما ، واستعمل قلماً ، واستخدم مشرفياً ؛ فله ! ما أعلي قدر هذا  
الشرف ، الجامع بين المتلد والمطرف ، السابق في الفضل أمداً قصياً ؛ الحال من [١٠٤]

(١) الكلام من ابتداء هذه الكلمة إلى آخر نص الظهير ساقط من ت .

(٢) في نفع الطيب ( ج ٣ ص ٤٨٩ طبعة الأزهرية ) : « انتهت » .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « قولياً » .

(٤) في نفع الطيب : « الاختصاص » .

(٥) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « عالم » .

(٦) زيادة عن نفع الطيب .

(٧) في نفع الطيب : « المرشد » .

(٨) في نفع الطيب : « حاز خصلاً ، وزين حفلاً » .

الاصطفاء مظهرا ، الفارع من العلاء منبرا ، الصاعد من العز كرسيا ؛ حاز  
الفضل إرثا وتعصيبا ، واستوفى الكمال حفا ونصيبا ؛ ثناء أرحه كالروض لو لم  
يكن الروض ذابلا ، وهديا نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلا ، ومجدا علوه  
كالشها لو لم يكن الشها خفيا ؛ فما أشرف الملك الذي اصطفاه ، وكمل له حق  
التقريب ووفاه ، وأحلّه قرارة التمكين ، ومنّ باختصاصه بالمكان المكين ،  
فسبق في ميدان التفويض وسما ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعا  
بالحق إماما علما ، موضحا من الدين نهجا أمما ، هاديا من الواجب صراطا سويا ؛  
بانيا للمجد صرحا مشيدا ، مشهرا للعدل قولا مؤيدا ، مبرما للخير سببا قويا ؛  
فالله تعالى يصل لمقام هذا<sup>(١)</sup> الملك الذي أطلع في سمائه بدرأ دونه البدر ، وصدرا  
تلوذ به الصدور ، سعدا لا تماطله<sup>(٢)</sup> الأيام في تقاضيه ، ونصرا يمضي به نصل  
الجهاد فلا يزال ماضيه ، على الفتح مبئيا ؛ ويؤلى له عزّا يزود عن حرم الدين ،  
ويمنحه تأييدا يصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطعيا ؛ أمر به مرسوما  
عزيزا لا تبلغ الرسومات إلى مداه ، ولا تبدى آثار الاختصاص مثل ما أبداه ،  
عبد الله أمير المسامين محمد الغالب بالله ، ابن الأمير المقدس فلان أيد الله تعالى  
مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، ويسر مرامه ؛ لإمام الأئمة ، وعلم  
الأعلام ، وعماد ذوى العقول والأحلام ، وبركة حملة السيوف والأقلام ، وقُدوة  
رجال الدين وعلماء الإسلام ؛ الشيخ الفقيه أبي يحيى ابن كبير العلماء ، شهير  
العطاء ؛ حجة الأكارب والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ؛ قاضى القضاة  
وإمامهم ، أوحد الجلة وطود شامهم ، الشيخ الفقيه أبي بكر بن عاصم ، أبقاه الله  
تعالى ؛ ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ،

(١) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « يصل لهذا » .

(٢) في نفع الطيب : « لا تماطله » .

وقلائد الأيادي منه مُقلِّدة<sup>(١)</sup> بجيد كل إنسان ؛ قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلا  
لبنيها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيّد أركانها ويبنيها ؛ والكمال لا يصفى [١٠٥]  
شربه ، إلا لمن يؤمّن سرّبه ؛ وإن هذا العلم الكبير ، الذي لا يفي بوصفه  
التعبير ؛ علم بآثاره يقنّدى ، وبأنظاره يهتدى ؛ وبإشارته يُستشهد ، وبإرادته  
يسترشد ؛ إذ لا أمد علو إلا وقد تحطاه ، ولا مرّ كب فضل إلا وقد تمطّاه ؛  
ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ، ولا لبّة نخر إلا وقد حلاها ؛ ولا نعمة إلا  
وقد أسداها ، ولا سُومة<sup>(٢)</sup> إلا وقد أبداها ؛ لما له في دار الملك من الخصوصية  
العظمى ، والمسكّنة التي تسوغ النعمى ؛ والرتب التي تسمو العيون إلى مرتقاها ،  
وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتتلقاها ؛ حيث سر الملك مكتوم ، وقِرطاسه محتوم ،  
وأمره محتوم ؛ والأقلام قد رَوّضت الطروس وهى ذاويه ، وقسّمت الأرزاق  
وهى طاويه ؛ شقت ألسنتها فنطقت ، وقطت أرجلها فسبقت ؛ ويديست فأثمرت  
إنعاما ، ونكّست فأظهرت قواما ؛ وخطت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومُشّقت  
فدَفّقت<sup>(٣)</sup> ، وأبْرمت فأنعمت ؛ فكم يسّرت الجبر ، وعقرت الهزبر ؛ وشقّقت  
المسامع ، وكيفت المطامع ؛ وأقلّت فيما ارتفع من المواضع ، وأحلت لما امتنع  
من المراضع ؛ فهى تنجز النعم ، وتمجّز النقم ؛ وتبث المذاهب ، وتحت المواهب ؛  
وتروض المرّاد ، وتُنهّض المواد<sup>(٤)</sup> ؛ وتحرس الأكناف ، وتغرس الأشراف ؛  
مُصَيِّخة لنداء هذا العباد الأعلى ، طامحة لمكانه الذى سما واستعلى ؛ فيما يملى عليها  
من البيان ، الذى يقر له بالتفضيل ، الملك الضليل<sup>(٥)</sup> ؛ ويشهد له بالإحسان ،

(١) فى نفع الطيب : « متقلّدة » .

(٢) كذا فى نفع الطيب . والسومة (فى الأصل) : العلامة . وفى الأصلين : « حرفه » .

(٣) فى نفع الطيب : « فرقت » .

(٤) فى ط ونفع الطيب : « المراد » . ولعلها محرفة عما أئتمناه .

(٥) الملك الضليل : لقب امرئ القيس بن حجر السكندى الشاعر المعروف

لسان حستان ؛ ويحكم له بترى القوس ، حبيب بن أوس ؛ ويهيم بما من الأساليب  
عنده ، شاعر كنده<sup>(١)</sup> ؛ ويستمطر سحبه الثرّه ، فصيح المعرة<sup>(٢)</sup> ؛ إلى منشور  
تزيل الفقر فقره ، وتدّر الرزق درره ؛ لو انهي إلى قس إيراد لشكر في الصنعة  
أياديّه ، واستمطر سحبه وغواديه ؛ أو بلغ إلى سحبان لسحره ، وما فارقه عشيتّه  
ولا سحره ؛ ولو رآه الصابي لأبدى إليه من صبوته ما أبدى ؛ أو سمعه ابن عبّاد ،  
لكان له عبدا ؛ أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائعّه ، واستنزر بضائعّه ؛ أو أتحف  
به البستي لاتخذّه بستاناً ، أو عرض على عبد الحميد لأحمد من صوبه هتانا ؛ فأعظم  
به من عال لا ترقى ثنيتّه ، ولا تحاز مزيتّه ؛ ولا يرجم أفته ، ولا يكتم حقه ؛  
ولا ينام له عن<sup>(٣)</sup> اكتساب الحمد ناظر ، ولا ينقاس به في الفضل مناظر ؛ وهل  
تقاس الأجادل بالبغاث ، أو الحقائق بالأضغاث ؛ إلا وإن بيتّه هو البيت الذي  
طلع في أفته كل كوكب وقاد ، ممن رسخ<sup>(٤)</sup> به للعلوم اتقاء وانتقاد ، وتراعى<sup>(٥)</sup>  
به للمدارك ذكاء وانتقاد ؛ فأعظم بهم أعلاما وصدورا ، وأهله وبدورا ؛ خلدت  
ذكرهم الدواوين المسطرّه ، وسرت في محامد الأنفاس المعطره ، إلى أن نشأ  
في سمانهم هذا الأوحد ، الذي شهرة فضله لا تجحد ؛ فكان قمرهم الأزهر ، ونيرهم  
الأظهر ؛ ووسيلة عقدهم الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأتقس ؛ فأبعد في المناقب  
أماده ، ورفع الفخر وأقام عماده ؛ وبني<sup>(٦)</sup> على تلك الأساس المشيده ، وجرى  
لإدراك تلك الغايات البعيدة ؛ فسبق وجلي ، وشنف بذكره المسامع وحلي ؛ ورفع

(١) شاعر كنده : أبو الطيب أحمد بن الحسين الثبي لأنه ولد بمحلة كنده بالسكوفه

(٢) فصيح المعرة : أبو العلاء المعري .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « على » .

(٤) في نفع الطيب : « وشيح » .

(٥) في نفع الطيب : « وتراعى » .

(٦) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « وبناء » .

المشكل ببيانه ، وحرّر الملتبس ببرهانه ؛ إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفعه الأصعد ، وبوأه عزيز ذلك المقعد ؛ فشرّف الخطّه ، وأخذ على الأيدي المشتطه ؛ لا يراقب إلا ربه ، ولا يضمّر إلا العدل وحبّه ؛ والمجلس السلطاني أعلاه<sup>(١)</sup> الله تعالى يختصّه بنفسه ، ويفرغ عليه من حُمل الاصطفاء ولبّسه ؛ ويستمطر فوائده ، ويجرى<sup>(٢)</sup> بأنظاره حقوق الملك وعوائده ؛ فكان بين يديه حكماً مُقسّطاً ، ومقسّماً لحظوظ الإنعام مقسّطاً ، إلى أن خصّه بالكتابة المولويّه ، ورأى له في ذلك حق الألوويّه ؛ إذ كان والده المقدّس نعم الله ثراه ، ومنحه السعادة في أخراه ؛ مُشرّف ذلك الديوان ، ومُعلي ذلك الإيوان ؛ يُجبر رفاع<sup>(٣)</sup> الملك فتروق ، وتلوح كالشمس عند الشروق ؛ فحلّ ابنه هذا الكبيرُ شرفاً ، الشهرير سلفاً ؛ سرّبتّه التي سمّت ، وافترّت به عن السعد وابتسمت ؛ فسحبت به للشرف مطارف ، وأحرزت به من الفخر التالد والطارف ؛ فهو اليوم في وجهها غرّه ، وفي عينها قرّه ؛ والله هو في ملاحظة الحقائق ورعيها ، وسمع الحجج ووعياها ؛ فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص ، وسبقهم في تبين ما يُشكل منه وما يعتاص ؛ إذ المشكلة معه جليّة الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مآخذ الاعتراض ؛ فكم رتبة عمرها بذويها ، فأكسبها تشريفاً وتنويهاً<sup>(٤)</sup> ؛ وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عبّر منهم وقطن ؛ مع أقدارهم الساميه ، ومعاليهم التي هي للزهر مُساميه ؛ إنما رقتهم<sup>(٥)</sup> وساطته التي أحسنت ، وزيّنت بهم المجالس وحسّنت ؛ فبسه أمضوا

(١) في نفع الطيب : « أسماء » .

(٢) في نفع الطيب : « يجرب » .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « وقائع » .

(٤) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « تنزيها » .

(٥) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « راقهم » .

أحكامهم ، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم ؛ وكتبوا الرسوم ، وكتبوا الخصوم ؛ وحلوا دسّت القضاء ، وسلّوا سيف المضاء ؛ وفي زمانه تخرّجوا ، وفي بستانه تأرّجوا ؛ ومن خلّقه اكتسبوا ، وإلى طرّقه انتسبوا ؛ وعلى موارده حاموا ، وحول فرائده<sup>(١)</sup> قاموا ؛ وبتعريفه عرّفوا ، وبتشريفه شرفوا<sup>(٢)</sup> ؛ وبصيفاته كلفوا ، وبعرفانه وقفوا ؛ فأمنوا مع انسكاب سُحْبِ إفادته من الجذب ، وقاموا بذلك الغرض بسبب ذلك الندب ؛ وهل العلماء وإن عمّت فوائدهم ، وانتظمت بجياد الأذهان فرائدهم ؛ إلا من أنواره مُستمدّون ، وإلى الاستفادة من أنظاره ممتدّون ، وببركاته معتدّون ، وبأسبابه مشتدّون ؛ فيه اجتنبت من أفنان المنابر ثمراتهم ، وتأزّجت في روضات المعارف زهراتهم ؛ وبه عمروا الحلق ، واثتلق من أنوارهم ما اثتلق ؛ إذ كلّ من اصطناعه محسوب ، وإلى بركته منسوب ؛ فهو بذرهم الأهدى ، وغيبهم الأجدى ؛ وعقدهم المقتنى ، وروضهم المُجتنى ؛ وبدر منازلهم ، وصدر محافلهم ؛ وعلى ما أعلى المقام المولوي من مكانه ، وقضى به من استمكانه ؛ واعتمد من إبرامه ، وأبزم من اعتماده ، ومهد من إكرامه ، وأكرم من مهاده ؛ واختصّ من علاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من خُلاه ، وحلّى من استخلاصه ؛ ووفى من تكرّمه ، وكرم من وفائه ، واصطفى من مجّده ، ومجّد من اصطفائه ؛ وقدم من براعته ، وحكم من براعته<sup>(٣)</sup> ؛ وشقق<sup>(٤)</sup> من كتابته ، وأنطق من خطابته ؛ وسجّل من أنظاره ، وعدّل<sup>(٥)</sup> من اختياره ؛ فذكاذكره ،

[١٠٨

(١) في نفتح الطيب : « فوائده » .

(٢) في ط : « ألفوا » .

(٣) في ط : « بداعته » .

(٤) شقق ، يريد : افتن . مأخوذ من شقق الرجل الكلام ، وذلك إذا أخرجه أحسن مخرج .

(٥) في ط : « مجّل » .

وسطاً سَطَّرُهُ ؛ وأَمِنَ مَعْنَاهُ ، وَأَغْنَى مَعْنَاهُ . أشارَ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِاسْتِئْذَانِهِ  
 خُصُوصِيَّتِهِ وَتَجْدِيدِهَا ، وَإِثْبَاتِ مَقَامَاتِهِ وَتَحْدِيدِهَا ؛ لِنُتْعَرَفِ تِلْكَ الْحُدُودَ فَلَا  
 تُتَخَطَّى ، وَتُكَبَّرُ تِلْكَ الْمَرَاتِبُ فَلَا تُسْتَعطَى ؛ فَأُصْدِرُ لَهُ — شَكَرَ اللهُ تَعَالَى إِصْدَارَهُ ،  
 وَعَمَّرَ بِالنَّصْرِ دَارَهُ — هَذَا الْمَنْشُورَ الَّذِي تَأْرَجُ بِمَحَامِدِهِ نَشْرُهُ ، وَتَضْمَنُ مِنْ مَنَاقِبِهِ  
 الْبَدِيعَ فِرَاقِ طَيْهِ وَنَشْرِهِ ؛ وَغَدَاً وَفِرَائِدُ الْمَأْتِرِ لَدَيْهِ مُوجِدَةٌ مَكُونُهُ ، وَأَصْبَحَ  
 لِلْمَفَاخِرِ مَا كَالْمَا أَتَى بِهِ مُدَوَّنُهُ ؛ وَخَصَّهُ فِيهِ بِالنَّظَرِ الْمُطْلَقِ الشَّرْطِ ، الْمَلْزَمِ  
 لِلتَّفْوِيضِ مِلَازِمَةَ الشَّرْطِ لِلْمَشْرُوطِ ؛ الْمُسْتَكْمَلِ الْفُرُوعِ وَالْأَصُولِ ، الْمُسْتَوْفَى  
 الْأَجْنَاسِ وَالْفُصُولِ ؛ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِأَعْلَامِ الْقَضَاةِ الْأَكْبَرِ ، وَكُتَابِ  
 الْقَضَاةِ ذَوِي الْأَقْلَامِ وَالْمَحَابِرِ ، وَشِيُوخِ الْعِلْمِ وَخُطْبَاءِ الْمَنَابِرِ ، وَسَائِرِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ  
 الْقَاطِنِ مِنْهُمْ وَالغَابِرِ ؛ بِالْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ ، وَجَمِيعِ الْبِلَادِ النَّصْرِيَّةِ ؛ تَوَلَّى اللهُ جَمِيعَ  
 ذَلِكَ بِمَعْهُودِ سِتْرِهِ ، وَوَصَلَ لَهُ <sup>(١)</sup> مَا تَعَوَّدُ مِنْ شَفْعِ اللَّطْفِ وَوَتْرِهِ ؛ يَحُوطُ مَرَاتِبَهُمْ  
 الَّتِي قَطَفَتْ مِنْ رَوْضَاتِهَا ثَمَرَاتُ الْحُكْمِ وَجُنَيْتِ ، وَيُرَاعِي أُمُورَهُمُ الَّتِي أُقِيمَتْ  
 عَلَى الْقَوَاعِدِ <sup>(٢)</sup> وَبُنِيَتْ ، وَحَقَّقَهُمُ الَّتِي حُفِظَتْ لَهُمْ فِي الْمَجَالِسِ السَّلْطَانِيَّةِ  
 وَرُعِيَتْ ؛ وَيُحَلِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَنَزَلَتِهِ الَّتِي تَلِيقُ ، وَمَسْرَبَتِهِ الَّتِي هُوَ بِهَا خَلِيقُ ؛  
 عَلَى مُقْتَضَى مَا يَعْلَمُ مِنْ أَدْوَاتِهِمْ ، وَيَخْبُرُ مِنْ تَبَايُنِ ذَوَاتِهِمْ ؛ وَيُرْشِحُ كُلَّ وَاحِدٍ  
 إِلَى مَا اسْتَحَقَّهُ ، وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ ، اعْتِمَادًا عَلَى أَعْرَاضِهِ الَّتِي عَدَلَتْ ،  
 وَصَدَحَتْ عَلَى أَفْنَانِهَا مِنَ الْأَفْوَاهِ طَيُورُ الشُّكْرِ وَهَدَلَتْ ؛ وَاسْتِنَادًا فِي ذَلِكَ إِلَى  
 آرَائِهِ ، وَتَقْوِيضًا لَهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ بَيْنَ خُلُصَاءِ الْمَلِكِ وَظُهُرَائِهِ ؛ وَذَلِكَ لِمُقْتَضَى  
 مَا كَانَ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الرِّيَاسَةِ الَّذِينَ سَبَقُوا ، وَانْتَهَضُوا بِهِمَهُمْ وَاسْتَبَقُوا ؛ كَالشَّيْخِ

(١) فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ : « لَدَيْهِ » .

(٢) فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ : « الْعَوَائِدُ » .

الرئيس الصالح أبي الحسن بن الجيّاب ، والشيخ ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب ، رحمهما الله تعالى .

[١٠٩] فليقم — أبقاه الله تعالى — بهذه الأعمال التي سمّت واعتزّت ، ومالت

بها أعطاف العدل واهتزت ؛ وسار بها الخبر حيث سرى<sup>(١)</sup> ، وصار بها الحقّ مشدود العرى ؛ وعلى جميع القضاة الأصفياء ، والعلماء الأرضيلاء ، والخطباء الأولياء ، والمقرئين الأذكياء ، وحملة الأقلام الأخطيلاء ؛ أن يعتمدوا على هذا الولي العماد في كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختصّ في دار الملك من مرتباتهم وفوائدهم ؛ وما يتعلق بولايتهم [وأمنياتهم]<sup>(٢)</sup> ، ويليق بمقاصدهم ونيتاتهم<sup>(٣)</sup> ؛ فهو الذي يسوّغهم المشارب ، ويبلغهم المآرب ؛ ويستقبل العليّ بالعليّ ، والعاطل بالجليّ ، والمشكّل بالجليّ ؛ والفريق بالتاج ، والمقدّمة بالإنتاج ؛ وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولايتهم<sup>(٤)</sup> وأبقاهم ، ولقّاهم من حفظ المراتب ما رقّاهم ؛ فليجرّوا على ما هم بسبيله ، وليهتدوا برُشد<sup>(٥)</sup> هذا الاعتناء ودليله .

وكتب في صفر عام سبعة وخمسين وثمان مئة . انتهى .

وإنما كتبه برُمته لتعلم به مصداق ما قدمناه من تمكّن ابن عاصم المذكور من مراتب الاصطفاء والاحتفاء<sup>(٦)</sup> .

ولنختم ترجمته ، رحمه الله ، بتخميس عجيب من نظمه :

سُبْحَانَ مَنْ أظْهَرَ الْأَنْوَارَ وَاحْتَجَبَا وَكُلَّ حَمْدٍ وَتَمَجِيدٍ لَهُ وَجَبَا

(١) في نفع الطيب : « ... الخبر حيث سرى » .

(٢) زيادة عن نفع الطيب .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « وأفضياتهم » .

(٤) في نفع الطيب : « ولاياتهم » .

(٥) في نفع الطيب : « برشد » .

(٦) إلى هنا ينتهي الساقط من نسخة ت .

إذا ابتغى العقلُ في إدراكه سببًا جاء الحجابُ فألقى دونه الحُجُبًا  
حتى إذا ما تَلَّاشَى عندها ظَهَرَا

سُبْحان مَنْ كان والأَكوانُ لم تُكُنْ في غير أين ولا وَقت ولا زَمَنٍ (٢)  
حتى أتى الجودُ بالإيجادِ والمِنَنِ وكان ما (١) قد رَسَمْنَاهُ بِمَا وَمَنِ (٣)

وأظهر الشمسَ ذاتَ النورِ والقمرًا

سُبْحانَ مَنْ حَجَبَ الأبصارَ فاحتجبتْ وكَم أراد مُريدٌ نيلها فأبَتْ  
مَنْ حَدَّثَتْهُ أمانيه فقد كَذَبَتْ حَقِيقَةَ ذاتها عن ذاتها وَجَبَتْ

لا يُدركُ العقلُ من أخبارها خَبْرًا

سُبْحانَ مَنْ شأنه في شأنه عَجْبٌ يَخْفَى فيظهُرُ أو يبدو فيحتجبُ [١١٠]  
يأيها العاكفون السادةُ النجيبُ هل فيكم مَنْ سعى سَعْيًا كما يجبُ

ففاز بالفرصِ المَطْلُوبِ أو ظفِرًا

سُبْحانَ مَنْ لم يزل بالعلمِ مُنفردًا ومن تعالَى عن الأشباهِ فاتَّحدًا  
سبحانه وتعالى واحداً صَمَدًا تَبَارَكَ اللهُ لم يولد ولم يلدًا (٤)

تَنَزَّهَ اللهُ عَمَّا يَلْحَقُ البَشَرًا

سبحان من أخرج الوجودَ من عَدَمٍ رَسْمًا بَرَى كَوْنَهُ في غير مُرْتَسِمٍ  
فلا مَحَلَّ سِوَى كُنْهِهِ مِنَ السَّكَمِ ولم يَزَلْ هو في دَيْمُومَةِ القِـسَمِ

مُؤَثَّرًا يَخْلُقُ التَّأثيرَ والأَثَرًا

سبحانَ مَنْ خلقَ الأشياءَ أَجمَعًا فَمَنْ رآها رأى أفعالها معها

(١) الأبن : الإعياء .

(٢) في ط : « من » .

(٣) بما ومن : يريد ماخلق الله مما لا يعقل ومن يعقل .

(٤) في ط : « وما ولدا » .

وكان أتقنها صنعا وأبدعها نفس إلى العالم العاوي رَفَعَهَا

وخصها من معاليه بما بهرًا

سُبْحان من عمَّ بالإِنعام ما خَلَقًا وشَفَّع العَدلَ بالإِحسان فَاتَّفَقًا

وزاد بالذِّكر في قلب التَّقِي تَقِي فَاسْتَكَمَل الدينَ والإيمانَ والخُلُقًا

وكان مدرُّهُ الصديقَ أو عُمَرًا

سُبْحان من سَبَّحْتَهُ كلُّ ساجِدٍ وكلُّ عائمةٍ في الماءِ سائِجةٍ

وكلُّ غاديةٍ تَغْدُو ورأحمةٍ وسَبَّحْتَهُ خَفايا كلِّ جانحةٍ

لم تعرف السرَّ حتى جاورت صُورًا

سُبْحان من حمدته ألسُن البَشْرِ في السرِّ والجَهْر والأصال والبُكرِ

وفي دُجى تَشْدُو نصفَ الليلِ والسَّحْرِ بالشُّكرِ والذِّكرِ والآياتِ والشُّورِ

تُولِيهِ حَمْدًا وتتلو بعده سُورًا

سُبْحان من نَزَّهَتَهُ ألسُن عَزَفَتْ عَنْ كُلِّ ما يُؤمُّهُ التَّشْبِيهِ إِذْ وَصَفَتْ

صَفًا لها مَوْرِدَ التَّحْقِيقِ حينَ صَفَتْ فلم تُفَارِقْهُ حتى أُثْبِتَتْ وَنَفَتْ

ولم تَدَعِ شُبُهَةً تُؤْذِي ولا ضَرَرًا

سُبْحان مَنْ شُكِرَهِ في الدينِ مُفْتَرَضٌ وليس يُشْبِهُهُ جِسْمٌ ولا عَرَضٌ

يَنْهَى وَيَأْمُرُ ما في ذا وَذا غَرَضٌ فاذا كُرِّ لِنِعْمائِهِ ذِكْرًا لَيْسَ يَنْقَرَضُ

فمن تحدَّث بالنعْمى فقد شكرا

سُبْحان من خضع السَّبْعُ الطَّباقُ لَهُ وَأَعْظَمَتَهُ قلوبٌ حَشَوُها وَهَلَّ

تريد أن تعلمَ الأَبْقَى وتَعْقِلَهُ طوبى لمن أَمَلَ الأَبْقَى وأَمَّ لَهُ (١)

واستكثر الزاد لما آنسَ السِّفْرًا

[١٨١]

(١) ورد هذا البيت محرفا هكذا في ت :

تريد تعلم ما تقي وتعمله طوبى لمن أمل الأتقا وأم له

سُبْحَانَ مَنْ زَيْنَ الْأَفْلَاقَ بِالشُّهُبِ وَبَيَّنَ الدِّينَ بِالآيَاتِ (١) وَالْكَتُبِ  
وَلَمْ يَدْعُنَا لَدَى لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ (٢) لَكِن نَهَانَا وَآتَانَا عَلَى الرَّتَبِ  
حَتَّى اتَّهَمِينَا وَأَذَعْنَا لِمَا أَمَرَا

سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْأَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ فَتَارَةً تَتَنَسَّأَى ثُمَّ تَأْتِلُفُ  
هَذَا الظَّالِمُ بِنُورِ (٣) الصُّبْحِ يَنْصَرِفُ كَمَا الضَّلَالُ لِنُورِ الْعِلْمِ لَا يَقِفُ  
فَسَلَّهُ نُورًا يُنِيرُ السَّمْعَ وَالْبَصْرَا

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْأَخْلَاقَ وَالْخَلِيقَا وَالشَّمْسَ وَالْبَدْرَ وَالظُّلُمَاءَ وَالنَّسْتَمَا  
يَرُوقُ الْكُلُّ مَجْمُوعًا وَمُفْتَرَقًا وَانظُرْ لِنَفْسِكَ وَأَسْلُكِ نَحْوَهُ طُرُقًا  
فَأَسْعُدُ النَّاسَ مَنْ فِي نَفْسِهِ نَظْرًا

سُبْحَانَ مَنْزِلِ مَاءِ الْمُرْنِ فِي الْمَطَرِ يُرْوِي النَّبَاتَ وَيَسْقِي يَارِعَ الشَّمْرِ  
كَأَنَّمَا الزُّهْرُ تُهْدِيهِ إِلَى الزُّهْرِ إِذَا رَأَيْتَ تَلَاقِيهَا عَلَى قَدَرِ  
رَأَيْتَ صُنْعَ قَدِيرِ أَحْكَمِ الْقَدَرَا

سُبْحَانَ مَنْ قَدَّرَ الْأَقْوَاتَ وَالْأَجَلَا وَتَابَعَ الْوَحْيَ وَاسْتَتَلَى بِهِ الرُّسُلَا  
فَمَنْ تَعَدَّى حُدُودَ الْفَوْقِ قِيلَ غَلَا وَمَنْ تَجَوَّزَ مُنْحَطًا فَقَدْ سَفَلَا  
وَمَنْ تَخَطَّى خُطُوطَ الْمُنتَهَى كَفَرَا

سُبْحَانَ مَنْ فَجَّرَ الْأَنْهَارَ فَانْفَجَرَتْ وَقَدَّرَ الْخَيْرَ فِي إِجْرَائِهَا فَجَبَرَتْ  
فَزِينَةُ الْأَرْضِ بِالْأَزْهَارِ قَدْ ظَهَرَتْ وَالْبَصِيرَةَ عَيْنُ كَلَّمَا نَظَرَتْ (٤)  
رَأَتْ جَمَالًا وَإِجْمَالًا وَمُعْتَبَرًا

(١) في ط : « في الآيات » .

(٢) في ت : « ولا لعب » .

(٣) في ت : « بضوء » .

(٤) في ت : « بصرت » .

سبحان من خلق الإنسان من علقٍ      وأعقب الليلة الليلاء بالفسقِ  
 يابهاجة الشمس دوني عُدت<sup>(١)</sup> من فلقٍ      ويا سنا البدر عارض حُمرة الشفقِ  
 حتى تُعيد لنا من لئيلنا سحرًا

سبحان من علم الإنسان بالقلمِ      وسلط الهمم والبؤى على الهممِ  
 فقاومتها جنود الصبر والكرمِ      ثم ابتلى قلب غير العارف الفهمِ  
 فما أطاق ولا أوفى ولا صبرًا

[١١٢] سبحان من خلق الإنسان من عجلٍ      فليس يمشى إلى شيء على مهلٍ  
 ولا يقول سوى هذا وذلك لي      مقسم الحال بين الحرص والحيلِ  
 فليس تلقاه إلا ضارعًا حذرًا

سبحان من زانه بالعلم والأدبِ      وبالفضائل والإيمان والطلبِ  
 فلا يزال حليف الفكر والتعبِ      رام الكمال فلم يبلغ ولم يخبِ  
 ولم يرد بعد في رى ولا صدرًا

سبحان من شأنه بالكبر والأشرِ      يُمسى ويصبح في غيٍّ وفي بطرِ  
 مُردد العزم بين الجبن والخورِ      لا يستفيق من الشكوى إلى البشرِ  
 ولا يُزحزح عن ظلم إذا قدرًا

سبحان مُحرقه في وقدة الحسدِ      فلا يزال أبا غيظ وفي نكدِ  
 كالبحر يرمى إلى العينين بالزبدِ      إذا رأى أثر النعمى على أحدِ  
 يود لو كان أعمى لا يرى ضجرًا

(١) في ت : « النفس » .

(٢) في ت : « عدت » بالذال المهملة .

سُبْحَانَ مَنْ أَمَرَ الْأَرْوَاحَ فَأَتَمَّرَتْ      ثُمَّ اسْتُدِيمَتْ فَلَمْ تَنْهَضْ بِمَا أُمِرَتْ  
وَكُلُّ نَفْسٍ إِذَا سَامَحَتْهَا فَجَرَتْ      فَلَا تَصِلُهَا إِذَا خَانَتْكَ أَوْ غَدَرَتْ  
وَاقْطَعْ عِلَاقَ مَنْ قَدْ خَانَ أَوْ غَدَرَ

سُبْحَانَ مَنْ بَسَطَ التَّعْلِيمَ ثُمَّ طَوَى      فَأَعْقَبَ الْقَلْبَ وَجَدًّا دَائِمًا وَهَوَى  
وَذَابَ<sup>(١)</sup> فِي مُلْتَطَى أَشْوَاقِهِ وَذَوَى      وَكَانَ أَرْزَمَ وَاسْتَوْفَى الْمُنَى وَنَوَى  
حَجًّا فَلَمَّا أَتَى      مِيقَاتَهُ حُصِرَا

سُبْحَانَ مَنْ فِي بَسَاطَةِ الْعَدْلِ أَجْلَسَنَا      وَبِاغْتِفَارِ عَظِيمِ الذَّنْبِ آنَسَنَا  
وَزَانَ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ أَنْفُسَنَا      فَكَانَ أَعْظَمَنَا قَدْرًا وَأَنْفَسَنَا  
مَنْ انْتَهَى أَوْ نَهَى أَوْ خَافَ فَازْدَجَرَ

سُبْحَانَ مَنْ خَصَّ بِالْإِيمَانِ أَنْفُسَنَا      وَخَافَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ أَنْفُسَنَا  
لَوْلَاهُ لَمْ نَعْرِفِ الْمَعْرُوفَ<sup>(٢)</sup> وَالْحَسَنَا      وَلَا اسْتَفَدْنَا لِسَانًا نَاطِقًا لِسِنَا  
وَلَا دَرَيْنَا : أَبَاحَ الشَّرْعُ أَوْ حَظَرَ

سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ      وَالْحَشَرَ وَالنَّشَرَ مَنَجَاتًا مِنَ الضَّرْرِ  
فَلَا خُلُودَ مَعَ الْإِيمَانِ فِي سَقَرٍ      وَلَا وُصُولَ إِلَى أَمْنٍ بِلَا حَذَرٍ  
حَتَّى تَكُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ مُؤْتَمِرًا

سُبْحَانَ مَنْ إِنْ يَشَاءُ أَعْطَاكَ أَوْ مَنَعَا      وَمَنْ إِذَا شَاءَ أَمْرًا حَادِثًا وَقَعَا [١١٣]  
وَتَارَةً يَخْفِضُ الْأَمْرَ الَّذِي رَفَعَا      يَوْمًا يَفْرَقُ لِلْإِنْسَانِ مَا جَمَعَا  
وَلَا يُبَالِي بِمَنْ أَثَرَى وَمَنْ خَسِرَا

سُبْحَانَ مَنْ هُوَ يَوْمَ الْفِصْلِ يَجْمَعُنَا      وَالنَّعِيمَ بِفَضْلٍ مِنْهُ يَرْفَعُنَا

(١) في ط : « وزاد » .

(٢) في ت : « المسنون » .

مِنْ بَعْدِ رُؤْيَا أَهْوَالٍ تُرَوِّعُنَا يُرَى لَهَا وَالْمَاءَ هَيَّانَ أَوْرَعُنَا  
 حَيْرَانَ عُرْيَانَ يُبْدِي كُلَّ مَا سَتَرَا  
 سُبْحَانَ مَنْ شَاءَ فِي الدُّنْيَا سَعَادَتَنَا بِطَاعَةٍ أَحْسَنَتْ مِنَّا إِرَادَتَنَا  
 وَيَبْتَلِينَا وَيَسْتَحْلِي عِبَادَتَنَا حَتَّى إِذَا شَاءَ فِي الْآخِرَى إِعَادَتَنَا  
 أَعَادَنَا مِثْلَ مَا كُنَّا كَمَا ذَكَرَا  
 سُبْحَانَ مَنْ يَحْشُرُ الْإِنْسَانَ مُكْتَتِبًا خَوْفَ الْجَزَاءِ وَيَجْزِيهِ بِمَا كَسَبَا  
 وَيَحْكُمُ الْحُكْمَ يُمِضِيهِ كَمَا وَجَبَا فَالْقَاسِطُونَ إِلَى زَيْرَانِهِ عَصَبَا (١)  
 وَالْمُقْسِطُونَ إِلَى جَنَاتِهِ زُمَرَا  
 سُبْحَانَ مَنْ فَضَّلَ الْإِسْلَامَ فِي الْأُمَّمِ بِالطَّيِّبِ الطَّاهِرِ الْمَبْعُوثِ فِي الْحَرَمِ  
 مُحَمَّدٍ خَيْرٍ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِهِ إِذَا عَدَدْتَ بِيوتَ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ  
 فَمَنْهُ حَتَّى إِلَى عَدْنَانَ أَوْ مُضَرَ  
 سُبْحَانَ مَنْ خَتَمَ الْأَدْيَانَ فِي الْأَزَلِ بِالْمِلَّةِ السَّمْحَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الْمِلَلِ  
 أَتَى بِهَا خَيْرُ مَأْمُورٍ وَمُمْتَثِلِ مُحَمَّدٌ خَاتَمُ السَّادَاتِ وَالرُّسُلِ  
 وَخَيْرٌ مِنْ حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ وَاعْتِمَارَا  
 إِذَا وَصَفْنَا فَبِالْتَقْصِيرِ نَعْتَرَفُ فَكُلُّ لَفْظٍ بَلِيغٍ دُونَهُ يَقِفُ  
 هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي فِي ذِكْرِهِ شَرَفُ فَإِنْ طَلَبْتَ رِضَاهُ بِالَّذِي تَصِفُ  
 فَكُنْ عَلَى وَصْفِهِ فِي الذِّكْرِ مُقْتَصِرَا  
 صَلَّى الْإِلَهُ عَلَيْهِ مَا بَدَأَ قَرُّ وَمَا سَرَّتْ فِي الدِّيَاجِي أَنْجَمُ زَهْرُ  
 وَمَا تَبَايَنَتِ الْأَشْكَالُ وَالصُّورُ وَمَا تَدُورِسَتْ الْآيَاتُ وَالشُّورُ  
 وَمَا قَضَى مُؤْمِنٌ مِنْ حَاجَةٍ وَطَرَا

وبالجملة فابنُ عاصمٍ أبو يحيى كان يسميه أهلُ زمانه ابنَ الخطيب الثاني ،  
حَسْبًا قاله الوادى آشى وغيره .

[١١٤] ولا بد أن نلّم بنبذة من أخبار ابن الخطيب [السلماني الوزير] <sup>(١)</sup> : إذ هو  
لسان الدين ، ونجر الإسلام بالأندلس في عصره ، فنقول : هو محمد بن عبد الله  
ابن سعيد [بن عبد الله بن سعيد] <sup>(١)</sup> بن علي بن أحمد السلماني ، قرطبي الأصل ،  
ثم لَوْشِيَّة <sup>(٢)</sup> ، يُكنى أبا عبد الله ، ويلقب من الألقاب المشرفة بلسان الدين ،  
الوزير الشهير ، الطائر الصيت ، المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة  
بالعلوم على اختلاف أنواعها ، رحمه الله .

تعريف  
بابن الخطيب

أوليته :

أوليته ونسبه

قال ابن الأحمر <sup>(٣)</sup> في نثر فرائد الجبان في حقه ما نصه : « ذو الوزارتين الفقيه  
الكاتب ، أبو عبد الله محمد ، ابن الرئيس الفقيه الكاتب المفتي <sup>(٤)</sup> ببلدة لَوْشَة ،  
عبد الله ، ابن الفقيه القائد الكاتب سعيد بن عبد الله ، ابن الفقيه الصالح  
ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللّوشِيّ ، المعروف بابن الخطيب » . انتهى .  
وقال غيره : إن بيتهم يُعرّف في القديم ببني الوزير <sup>(٥)</sup> ، ثم في الحديث

(١) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٢) لَوْشِيَّة : نسبة إلى لَوْشَة (بفتح فسكون) : مدينة بالأندلس غربي البيرة قبل قرطبة ،  
منحرفة يسيرا ، بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا ، وبينها وبين غرناطة عشرة  
فراسخ . (عن معجم البلدان) .

(٣) ابن الأحمر : هو أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن السلطان القائم بأمر الله محمد  
ابن الأحمر .

(٤) كذا في ط . وفي ت : « المعتزى » . يريد المنتسب إلى بلدة لَوْشَة . إلا أن هذا  
الفعل يتعدى بإلى . وفي نفح الطيب المطبوع والمخطوط : « المنتزى »

(٥) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « وزير » . وفي ت : « وزيد » .

ببني الخطيب . وسعيدُ جدُّه الأعلى أول من تلقَّب بالخطيب ، وكان من أهل العلم والدين والخير ، وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة ، من خَطِّ ، وتلاوة ، وفقه ، وحساب ، وأدب ، خيراً ، صَدْرًا ، تُوِّفِّي عام ثلاثة وثمانين وست مِئَةَ ؛ وأبوه عبدُ الله كان من أهل العلم بالأدب والطب ، وقرأ على أبي الحسن البَلُّوطي ، وأبي جعفر بن الوزير <sup>(١)</sup> ، وغيرها <sup>(٢)</sup> ، وأجازه طائفة من أهل المشرق ، وتُوِّفِّي بطريف عام واحد وأربعين وسبع مئة شهيداً يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام مفقوداً <sup>(٣)</sup> ثابت الجأش ، شكر الله فعله .

قال ابنه لسان الدين صاحب الترجمة : أنشدتُ والدي أبياتاً من شعري ، فسُرَّ وتهلَّل ، وارتجِل رحمه الله تعالى :

الطبُّ والشُّعرُ والكِتابُ سِمَاتُنَا فِي بَنِي النَّجَابَةِ  
هي <sup>(٤)</sup> ثلاثٌ مُبَلِّغَاتٌ مراتباً بَعْضُهَا الْحِجَابَةِ

[١١٥]

اتهى .

نُشَأُهُ :

نشأته وشيوخه

ونشأ لسان الدين على حالة حسنة سالكا سنن أسلافه ، فقرأ القرآن على المكتِّب ، الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن عبد الولي العَوَّاد ، تَكْتِيبًا ، ثم حفظًا ، ثم تجويدًا ؛ ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القبيجاطي ، وقرأ عليه العربية ، وهو أول من انتفع به ؛ وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جَزَى ؛

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « زبير » .

(٢) كذا في ت ونفع الطيب . والذي في ط : « وقرأ على أبي الحسن البلوطي ، وأبي

إسحاق بن زروال ، « وغيرها » .

(٣) كذا في الأصلين ونفع الطيب .

(٤) في نفع الطيب : « هن »

ولازم قراءة العربية والفقهاء والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار البيري ، شيخ النحويين لعهدده ؛ وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر ؛ وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجيّاب ؛ وروى عن كثير من الأعيان ، كالحديث شمس الدين بن جابر ، وأخيه أبي جعفر ، والقاضي أبي البركات بن الحاج ، والشيخ أبي محمد بن سأمون ، وأخيه أبي القاسم بن سأمون ، وأبي عمرو بن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وله رواية عالية ، والأستاذ اللغوي أبي عبد الله بن بيش<sup>(١)</sup> ؛ والحديث الكاتب أبي الحسن التَّمَسَانِي المَسِين ، والقائد الكاتب أبي بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم ، والقاضي الحديث أبي بكر ابن شيرين<sup>(٢)</sup> ، والشيخ أبي عبد الله ابن الفقيه القاضي أبي عبد الله بن عبد الملك ، والخطيب أبي جعفر الطنجالي ، والقاضي أبي بكر بن منظور ، والراوية أبي عبد الله بن حزب الله ، وعن أشهر أسلافنا المتأخرين القاضي أبي عبد الله محمد المقرئ القرشي ، التَّمَسَانِي المولد والمنشأ والمقبر قاضي الجماعة بفاس وعن [١١٦] الشريف بي علي حسن بن يوسف ، وعن الخطيب الرئيس الراوية أبي عبد الله ابن مرزوق ، وعن الحديث الفاضل الحسين أبي العباس بن يربوع السبتي ، والرئيس الكاتب أبي محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي ، والشيخ المقرئ أبي محمد بن أيوب المالقي ، آخر الرواة عن<sup>(٣)</sup> ابن أبي الأحوص ، وعن أبي عثمان ابن ليون من أهل المريّة ، وعن القاضي أبي الحجاج المُنْتَشَافِرِي<sup>(٤)</sup> ، من أهل رُنْدَة ، إلى غيرهم ممن يطول ذكره من أهل الأندلس ، والعدوة الغربية ،

(١) كذا في ط ونجح الطيب . وفي ت : « بيش » .

(٢) كذا في ط ونجح الطيب . وفي ت : « بشرين » .

(٣) في ت : « علي » .

(٤) كذا في فتح الطيب (ج ٣ ص ٣٢٣ ، ٣٩٥ طعة بلاق) . وفي ط : « المنتشافري » .

وفي ت : « المنتشافري » .

والمشرق وإفريقية بالإجازة ؛ وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هذيل ، ولازمه .

تأليفه :

مؤلفاته

قال ابن الأحرر رحمه الله : « [ لابن الخطيب <sup>(١)</sup> ] الأوضاع المصنفات ، التي أذان إحسانها هي المقرّطات المشنّفات ، منها في التصوف الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوّف : روضة التعريف بالحب الشريف » . انتهى .

ثم سرد غيرها من كتبه ، ومنها : الإحاطة ، في تاريخ غرناطة ، في خمسة عشر سفراً ؛ واللّمحة البدرية في الدولة النّصيرية ؛ والحلّل المرقومة ؛ ومثلي الطريقة ، في ذم الوثيقة ؛ والسحر والشعر <sup>(٢)</sup> ؛ وريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب ، في أسفار ؛ والصيّب والجهام ، والماضي والكهام ، في مجموع شعره ؛ ومعيار الاختيار <sup>(٣)</sup> ؛ ومفاضلة مالقة وسلا ؛ ورسالة الطاعون ؛ والمسائل الطبية ، في سفر ؛ والرّجز في عمل التّرياق ؛ واليوسفي في الطب ، في سفرين ؛ والتاج الحلي في مساجلة القُدح المَعلى ؛ والكتيبة الكامنة ، في أدباء <sup>(٤)</sup> المئة الثامنة ؛ ونفاضة الجراب ، في أربعة أسفار ، وهي من أحسن تأليفه ، ولم أزل أكثر البحث في هذا التاريخ عنها ، فلم أقف منها على عين ولا أثر ، إلا عدة أوراق متفرقة ، وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها . والبيزرة ، في سفر ؛ والبيطرة ، في سفر جامع ، لما يرجع إليه من محاسن الخليل وغيره ؛ ورسالة تكوّن الجنين ؛ والوصول لحفظ الصحة في الفصول ؛ ورجز الطب ؛ ورجز الأغذية ؛ ورجز السياسة ؛

(١) زيادة عن نفع الطيب (ج ٤ ص ٦٥٢) .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب (ج ٤ ص ٦٥٤) . وفي ت : « والشعر » .

(٣) في نفع الطيب : « الأخبار » .

(٤) كذا في نفع الطيب ، وفي ت : « في شعراء » . وفي ط : « في آداب » .

[١١٧] وكتاب الوزارة ؛ ومقامة السياسة ؛ والغيرة على أهل الحيرة ؛ وحمل الجمهور على السنن المشهور ؛ والزبدة المنخوذة ؛ والرد على أهل الإباحة ؛ وسد الذريعة ؛ في تفضيل الشريعة ؛ وخطرة الطيف ؛ ورحلة الشتاء والصيف ؛ وطرفة العصر في دولة بني نصر ، في ثلاثة أسفار ؛ وتقرير الشبه ؛ وتحرير الشبه ؛ واستنزال اللطف الموجود في سر الوجود ؛ وبستان الدول ، وهو غريب في معناه ، في فنون السياسة ، في ثلاثين جزءاً ، ولم يكمل ؛ وأبيات الأبيات ، فيما اختاره رحمه الله من مطالع ماله من الشعر ؛ ورّقم الحلال في نظم الدول ، في غاية من الحلاوة والعدوبة والجزالة ؛ وفتات الخوان ، ولقط الصوان ، في سفر يتضمن المقطوعات ؛ وعائد<sup>(١)</sup> الصلة ، في سفرين ، وصل به صلة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ؛ وتخليص<sup>(٢)</sup> الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات ؛ وجيش التوشيح ؛ ورجز في أصول الفقه ، شرحه ولي الدين بن خلدون ، صاحب التاريخ المشهور ؛ والإكليل الزاهر<sup>(٣)</sup> ؛ وكُناسة الدُّكان بعد انتقال السُّكان ؛ وعمل مَنْ طَب لمن حَب ؛ والدرر<sup>(٤)</sup> الفاخره ، واللَّجَج الزاخره ، جمع فيه نظم بن صفوان ؛ والمباخر الطَّيبية في المفاخر الخطيبية ؛ وخلع الرِّسَن في أمر القاضي ابن الحسن ؛ وأعمال الأعلام ، فيمن<sup>(٥)</sup> بويغ من ملوك الإسلام ، قبل الاحتلام<sup>(٦)</sup> . وألف أيضاً في الموسيقى ، ومصنفاته زادت على الخمسين ، وقد ذكرنا نحو الخمسين<sup>(٧)</sup>

(١) في ط : « غاية » .

(٢) كذا في نفتح الطيب . وفي الأصلين : « تلخيص الذهب ... الخ » .

(٣) اسم الكتاب كاملاً في نفتح الطيب : « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر » .

(٤) كذا في نفتح الطيب (ج ٤ ص ٦٥٥) . وفي الأصلين : « والدررة » .

(٥) كذا في ط ونفتح الطيب . وفي ت : « بمن » .

(٦) اسم الكتاب كما في نفتح الطيب : « لإعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، وما يجر ذلك من شجون الكلام » .

(٧) تختلف مؤلفات ابن الخطيب المذكورة في نفتح الطيب (ج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٥) عنها ما هنا زيادة ونقصاناً .

مراد :

قال ابن الأحرر :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنيا ؛ وكاتب الأرض ، إلى يوم  
العرض ؛ لا يدافع مدحه في الكتب ، ولا يُجَنِّحُ فيه إلى العتب ؛ آخر من  
تقدم في الماضي ، وسيف مقولة ليس بالكهام إذ هو الماضي ؛ وإلا فانظر [١١٨]  
كلام الكتاب الأول من العُصْبَة ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبه ؛  
للبراعة ، بالبراعة ؛ وبه أسكت صائلهم ، وما نُحَدت بُكرهم وأصائلهم ؛  
المشوبة <sup>(١)</sup> بالحلاوه ، المُمكنة من مفاصل الطالاه ؛ وهو نفيس العُدوتين ،  
ورئيس الدولتين ؛ بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية ؛ لَكِنَّ  
صِلَّ لِسَانِهِ فِي الْمَجَاء لَسَع ، ونجاد نِظَاقِهِ فِي ذَلِكَ اتسَع ؛ حتى صَدَمَنِي ، وعلى  
القول فيه أقدمني ؛ بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصّقع الأندلسي ، سلطان  
ذلك الوطن في نفر الجنسي ، المعظم في الملوك بالقول الجنّي والإنسي ؛ ثم صفحت  
عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير الصادر ؛ لأن مثلي لا يليق به إظهار  
العورات ، ولا يجمل به تتبع العثرات ؛ اتباعاً للشرع في تحريم الغيبه ، وضرباً  
عن الكريهة ، وإثباتاً لحظوظ النقيبة الرغيبه ؛ فما ضرّه لو اشتغل بذنوبه ،  
وتأسف على ما شرب من ماء الهجو بذنوبه . وقد قال بعض الناس : من تعرض  
للأعراض ، أرسى عِرْضَهُ هَدْفًا لِسَهَامِ الْأَعْرَاضِ » . انتهى كلام ابن الأحرر .

وقال غيره :

تقلد <sup>(٢)</sup> الكتابة أيام السلطان أبي الحجاج ، في أخريات دولته ، بعد

(١) في ت : « المشربة » .

(٢) أبو الحجاج : هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الأنصاري

الجزري ، من أمراء المسلمين بالأندلس .

رأى ابن الأحرر  
فيه

توليه الكتابة

شيخه ابن الجيّاب .

قال ابن الصباغ العقيلي : « كان أبو الحسن بن الجياب رئيسَ كتاب الأندلس ، وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب اختصاصاً تاماً ، وأورثه رتبته من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجاج عند حضور<sup>(١)</sup> عمره . وتدرّب بذكائه ، حتى استحق أزمته ، فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التي لا فوقها من الحظوة ، وبعد الصيت ، وسعادة البخت

كلام لابن الصباغ  
عنه وعن قوة  
بديته

اتفق له يوماً بعد ما عزم النصراني على ورود البلاد<sup>(٢)</sup> ، وضاق به الصدور ، [١١٩] فأنشد ابن الجياب بديها بمحضر الكتاب :

هذا العدو قد طغى وقد تعدّى وبغى

[وقال لابن الخطيب : أجزأ عبد الله ، فأنشده بديها] <sup>(٣)</sup> :

وأظهر السلم وقد أسرّ حسواً في أرتغاً

فبلغ الرحمن سيف النصر فيه ما ابتغى<sup>(٤)</sup>

ورده ردّ ثمود والفصيل قد رغا

حتى يرى وليمة لكل مرهوب الثغأ<sup>(٥)</sup>

(١) في ت : « ظهور » .

(٢) في ت : « البلد » .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) رواية هذا البيت في ت :

فأبلغ الرمح بسيف النصر فيه ما ابتغى

(٥) الثغاء (ممدودا وقصر للشعر) : صوت الشاء والمزم وما شاكلها ، ويريد به صوت

المفترس من الحيوان ، أو صوت الرماح والسيوف .

فقال ابن الجتياب : هكذا وإلا فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة .  
انتهى كلام ابن الصباغ .

أيام ابن الخطيب  
مع السلطان  
أبي عبد الله

ولما توفي أبو الحجاج ازدادت<sup>(١)</sup> منزلة ابن الخطيب عند ابنه أبي عبد الله ،  
إلى أن كانت عليه الدائرة ، فقبض على ابن الخطيب وعلى أملاكه ، ثم تخلص  
منها نكبة مصحفية<sup>(٢)</sup> بشفاعة السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان  
الشهير الكبير أبي الحسن المريني ، صاحب المغرب ، وكان<sup>(٣)</sup> تحريك عنائهم  
السلطان أبي سالم للشفاعة فيه بسعاية الغالب على دولته الحاجب الرئيس الخطيب  
الرحال أبي عبد الله بن مرزوق . ولما تخلص ابن الخطيب من هذه الأنشطة  
لحق بسلطانه أبي عبد الله ، كما ذكره قريبا ، وورد صُحْبَتَهُ الْمَغْرِبَ ، واستقر  
أبو عبد الله بن الخطيب بسلا تحت الجِزَاية التامة ، متكلفا خدمة ضريح الملوك  
من بني مرين ، لِيَمُتَ بِذَلِكَ إِلَى صَاحِبِ الْمُلْكِ مِنْ بَيْنِهِمْ ، كما يقضى له ما بقي  
من مآربه<sup>(٤)</sup> بالأندلس ، بشفاعة غير مردودة ؛ وفي أثناء هذه المدة كان  
يتطوف ببلاد المغرب مثل مراکش وأنظارها<sup>(٥)</sup> . ثم لما رجع مخدومه لغرناطة  
عاد هو في محبة أولاده ، فألقى إليه مقاليد رياسته ، وأزمة سياسته ، ورفاه إلى الذروة

(١) في ت : « زادت » .

(٢) مصحفية : نسبة إلى المصحف جعفر بن عثمان الحاجب . ويشير إلى نكبته على يد ابن  
أبي عامر التي انتهت بسجنه في المطبق ثم موته . وإلى هذه النكبة يشير ابن  
الخطيب بيته :

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقداني المنصور من آل عامر

(انظر نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩ — ٦٤ طبعة أوربا ، ج ٣ ص ٤٢ طبعة بلاق)

(٣) نص هذه العبارة في ت : « وكان من تحريك السلطان أبي سالم للشفاعة فيه بسعاية  
الغالب على دولة أبي سالم الحاجب .. الخ » .

(٤) في ط : « أغراضه » .

(٥) هذه العبارة من قوله « وفي أثناء » إلى قوله « وأنظارها » ساقطة في ت .

التي لا فوقها؛ ثم سَمَّ الخدمة ، وتسَخَّط النعمة ، وأضرَّ الفرار عند ما سمع بأن [١٢٠] الملك استوثق للسلطان أبي فارس بن أبي الحسن المريني ، وأنه ملك تلمسان ، فأظهر الذهاب إلى تفقد أحوال بعض الثغور ، فكان آخر عهد الأندلس به ، وخرج بتلمسان ، واهتزت دولة السلطان أبي فارس لقدمه ، ثم كان من أمره ما سذكروه .

ولنورد بعض تفصيل لما سبق الإمام به ، وما لم يسبق ، فنقول : قال في كتابه المسمى باللمحة البدرية ، في الدولة النصرية ، عند ذكره خلع السلطان أبي عبد الله ، وقيام الأمير إسماعيل عليه ، وذلك في شهر رمضان المعظم من عام ستين وسبع مئة ، ما نصه :

« وكان السلطان أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه قد أزم أخاه إسماعيل قصرًا من قصور أبيه بجوار داره ، مرفها<sup>(١)</sup> عليه ، متممة وظائفه له ، وأسكن معه أمه وأخواته منها ، وقد أستاثرت يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه الكائنة في بيتها ، فوجدت السبيل إلى السعي لولدها ، فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي<sup>(٢)</sup> الوليد ، ابن الرئيس أبي عبد الله المبايع له بأندرش ، ابن الرئيس أبي السعيد جدّه الذي تجمعهم جُرثومتة ، وشمر الصهر المذكور عن ساعد عزمه وجيده ، وهو [على] <sup>(٣)</sup> ما هو من الإقدام ومداخلة ذؤبان الرجال ، وأستعان بمن آسفته<sup>(٤)</sup> الدولة ، وهفت به الأطماع ، فتألف منهم زهاء مئة قصدوا جهة

تفصيل لنكبة  
السلطان أبي عبد  
الله وذهابه إلى  
فاس

(١) كذا في ط ونفح الطيب (ج ٣ ص ٤٥) . وفي ت : « صرفها »

(٢) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « ابن » .

(٣) زيادة عن نفح الطيب .

(٤) آسفته : أغضبته .

من جهات القلعة مُتَسَنِّمِينَ شَفَا صَعَبَ المُرْتَقَى ، واتخذوا آلة تُدْرِك ذروته  
 لصعود<sup>(١)</sup> [بِنِيَّة] <sup>(٢)</sup> كانت به عن التمام ، وكبسوا حَرَسِيًّا بأعلاه بما اقتضى  
 صُمَاتِهِ <sup>(٣)</sup> ، فاستَوَوْا به ، ونزلوا إلى القلعة سَحَرَ <sup>(٤)</sup> الليلة الثامنة والعشرين من شهر  
 رمضان عام ستين وسبع مئة ، فاستظهروا بالمشاعل والصُّرَاخ ، وعالجوا دار  
 الحاجب رضوان ، ففَضُّوا أغلاقها ودخلوها ، فقتلوه بين أهله وولده ، واتهبوا [١٢١]  
 ما اشتملت عليه داره ، وأسرعت طائفة مع الرئيس ، فاستخرجت الأمير المعتقل  
 إسماعيل وأركبته ، وقُرِعَت الطبول ، ونُودَى بدعوته ، وقد كان أخوه السلطان  
 مُتَحَوِّلاً بولده إلى سُكْنَى الجَنَّة المنسوبة للعريف ، لَصِقَ داره ، وهى المثل  
 المضروب فى الظلِّ الممدود ، والماء المسكوب ، والنسيم البليل ، يفصل بينها وبين  
 مَعْقَل الملك السُّور المنيع ، والخندق المصنوع ؛ فما راعه إلا النداء والعجيج ،  
 وأصوات الطبول ، وهَبَ <sup>(٥)</sup> إلى الدخول إلى القلعة ، فألفاها قد أخذت دونه  
 شِعَابُهَا كُلَّهَا وتقابها ، وقذفته الحِراب ، ورشقتة السَّهَام ، فرجَع أدراجَه ،  
 وسدَّه الله فى محل الحَيْرَة ، ودسَّ له عِرْق الفحول من قومه ، فامتطى صَهْوَة  
 فرس كان مرتبطاً عنده ، وصار لوجهه فأعيا المتبَع ، وصَبَّح مدينة وادى آش ،  
 ولم يشعر حافظ قصبته إلا به ، وقد تَوَلَّجَ عليها ، فالتفت به أهلها ، وأعطوه  
 صَفَقَتَهُم بالنِّبِّ عنه ، فكان أملكَ بها ؛ وتجهَّزت الحشود إلى منازلته ، وقد جدَّد

(١) كذا فى النسخة الخطية من نفع الطيب (المحفوذة بدار الكتب المصرية برقم ٣٦٠

تاريخ). وفى ط والنسخة المطبوعة فى بلاق من نفع الطيب : « لعقود ». وفى

ت : « لعقود » .

(٢) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٣) الصمات (بالضم) : الصمت والسكوت . ولعله يريد : موته .

(٤) فى الأصلين ونفع الطيب : « سحور » .

(٥) كذا فى ط ونفع الطيب . وفى ت : « وذهب » .

أخوه المتغلب على ملكه عقد السلم مع طاغية قشتالة ، باحتياجه إلى سلم المسلمين ،  
لجراً فتنه بينه وبين البرجلونيين من أمته ؛ واغتبط به أهل المدينة ، فذبوا  
عنه ، ورضوا بهلاك نعمتهم دونه ، واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام  
التاريخ ، ووصله رسول صاحب المغرب <sup>(١)</sup> [ مستنزلاً منها <sup>(٢)</sup> ] ، ومستدعياً إلى حضرته  
لما عجز عن إمساكها . وراسل <sup>(٣)</sup> ملك الروم <sup>(٤)</sup> فلم يجد عنده من معول ،  
فانصرف ثانياً يوم عيد النحر المذكور ، وتبعه الجمع الوافر من أهل المدينة خيلاً  
ورجالاً إلى مرّبة من ساحل إجازته . وكان وصوله إلى مدينة فاس ، مُصحباً من  
البرّ والكرامة بما لا مزيد عليه ، في السادس من شهر محرم ، فاح عام واحد  
وستين وسبع مئة ، وركب السلطان للقاءه ، ونزل إليه عند ما سلم عليه ، وبالغ [١٢٢]  
في الحفاية به .

وكنت قد لحقت به مُفليتاً من شرك النكبة التي استأصلت المال ، وأوهمت  
سوء الحال ، بشفاعة السلطان أبي سالم قدّس الله روحه ، فقامت بين يديه  
في المحفل المشهود حينئذ ، وأنشدته :

قصيدة  
ابن الخطيب بين  
يدى السلطان أبي  
سالم يستصرخه  
لمولاه

سَلَا هَل لَدَيْهَا مِنْ مُخْبَرَةٍ ذِكْرُ  
وَهَل بَاكَرَ الوَسْمَى دَاراً عَلَى اللّوَى  
بِلَادِي الَّتِي عَاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الهَوَى  
وَجَوَى الذِي رَبِّي جَنَاحِي وَكَرُهُ  
وَهَل أَعْشَبَ الوَادِي وَتَمَّ بِهِ الزَّهْرُ  
عَفَّتْ آيُهَا إِلَّا التَّوَهُمُ وَالذِّكْرُ  
بِأَكْنَافِهَا وَالعَيْشُ فَيَنَانُ مُخْضَرُّ  
فَهَا أَنَا ذَا مَالِي جَنَاحٌ وَلَا وَكْرُ

- (١) هو السلطان المولى أبو سالم ، كما سيأتى قريباً .  
(٢) كذا في النسخة الخطية من نفع الطيب . وفي ت والنسخة المطبوعة : « عنها » .  
يريد : من وادي آش ، أو عن وادي آش .  
(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ت : « وأرسل » .  
(٤) ما بين القوسين زيادة عن ت ونفع الطيب .

نبتُ بيَ لا عن جفوة وملاة  
 ولكنها الدنيا قليلٌ متاعها  
 فمن لي بقرب العهد منها ودوننا  
 والله عينا من رأنا وللأسي  
 وقد بددتُ دُرَّ الدموع يدُ النوى<sup>(١)</sup>  
 بكينا على النهر الشروب عشيةً  
 أقول لأظعاني وقد غالها الشرى  
 رويدك بعد العسرٍ يسر أن أبشري  
 والله فينا سرٌ غيبٌ وربما  
 وإن تخن الأيام لم تخن النهى  
 وإن عرَّكت منى الحظوب مجربا  
 فقد عجمت عوداً صليبا على الردى<sup>(٢)</sup>  
 إذا أنت بالبيضاء قررت<sup>(٣)</sup> منزلى  
 زجرنا بإبراهيم برء<sup>(٤)</sup> همومنا  
 بمنتخب من آل يعقوب كلما  
 تناقلت الركباني طيب حديثه  
 ندى لو حواه البحر لند مذاقه

ولا نسخ الوصل الهني بها هجر  
 ولذاتها دأبا تزور وتزور  
 مدى طال حتى يومه عندنا شهر  
 ضرام له في كل جارحة حجر  
 وللشوق أشجان يضيق لها الصدر  
 فعاد أجابا بعدنا ذلك النهر  
 وأنسها الحادي وأوحشها الزجر  
 بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر  
 أتى النفع من حال أريد بها الضر  
 وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر  
 نقابا تساوى عنده الخلو والمر<sup>(٥)</sup>  
 وعزما<sup>(٦)</sup> كما تمضى المهتدة البتر  
 فلا اللحم حل ما حبيت ولا الظهر  
 فلما رأينا وجهه صدق الزجر  
 دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر  
 فلما رآته صدق الخبر الخبر  
 ولم يتعقب مده أبدا جزر

(١) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الهوى » .

(٢) النقاب : الفطن العالم بالأشياء .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « النوى » . وفي ت : « الندى » .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « وعرقا » .

(٥) كذا في النسخة الخطية والمطبوعة من نفح الطيب . وفي الأصاين : « قدرت » .

(٦) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « جل » .

[١٢٣]

بأس غدًا يرتاع من خوفه الردي  
 أطاعته حتى العضم في قنن الربا  
 قصدناك يا خير الملوكة على النوى  
 كففنا بك الأيام عن غلوائها  
 وعذنا بذاك المجد فانصرم الردي  
 ولما أتينا البحر يرهب موجه  
 خلافتك العظمى ومن لم يدن بها  
 ووصفك يهدي المدح قصد صوابه  
 دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت  
 ومدت إلى الله الأكف ضراعة  
 وألبسها النعمى ببئمتك التي  
 فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا  
 وأمنت بالسلم البلاد وأهلها  
 وقد كان مولانا أبوك مصرحا (٢)  
 وكنت خليقا بالإمارة بعده  
 وأوحشت من دار الخلافة هالة  
 فرد عليك الله حقه إذ قضى  
 وقاد إليك الملك رفقا بخلقه

وترفل في أثوابه الفتحة البكر  
 وهشت إلى تأمليه الأنجم الزهر  
 لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر  
 وقد رابنا منها التعسف والكبر  
 ولذنا بذاك العز فانهمز الدهر  
 ذكرنا نذاك العمر (١) فاحتقر البحر  
 فإيمانه لغو وعرفانه نكر  
 إذا ضل في أوصاف من دونك الشعر  
 وقد طاب منها السر لله والجهر  
 فقال لهن الله قد قضى الأمر  
 لها الطائر الميمون والمحتد الحر  
 [وقد كان مما نابه ليس يفترو  
 فلا ظبة تعرى ولا روعة تعرو  
 بأنك في أبنائه الولد البر  
 على الفور لكن كل شيء له قدر  
 أقامت زمانا لا يلوح بها (٣) البدر  
 بأن تشمل النعمى وينسدل الستر  
 وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا

(١) ما بين القوسين ساقط في ط .

(٢) ما بين القوسين ساقط في ط .

(٣) كذا في ط ونفح الطيب (ج ٣ ص ٤٧ طبعة بلاق) . وفي ت : « لها » .

وزادك بالتمحيص عزاً ورفعةً  
 وأنت الذي تُدعى إذا دهم الردى  
 وأنت إذا جار الزمان مُحكِّمٌ  
 وهذا ابن نصرٍ قد أتى وجناحه  
 غريب يُرجى منك ما أنت أهله  
 ففزُ يا أمير المسلمين <sup>(٢)</sup> ببيعة <sup>(٣)</sup>  
 ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا  
 وخُذ يا إمام الحق <sup>(٤)</sup> بالحق ثأره  
 وأنت لها يناصر الحق فلتقم  
 فإن قيل مالٌ مالك الدهر وافرٌ  
 يكف بك العادي ويحمي بك الهدى  
 أعده إلى أوطانه عنك راضياً  
 وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها  
 وهم يرقبون الفعل منك وشفقةً  
 سرامك سهل لا تؤودك كلفةً  
 وما العمر إلا زينة مستعارة  
 ومن باع ما يفنى بباقي مخلد

وأجرأ ولولا السبك ما عرف <sup>(١)</sup> التبر  
 وأنت الذي تُرجى إذا أخلف القطر  
 لك النقض والإبرام والنهى والأمر  
 مهيبٌ ومن عليك يلتمس الجبر  
 فإن كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر  
 مؤثقة قد حلَّ عروتها الغدر  
 بيا لمرين جاءه العز والنصر  
 ففي ضمن ما تأتي به العز والأجر  
 بحق فما زيد يُرجى ولا عمرو  
 وإن قيل جيشٌ عندك العسكر المجر  
 ويأبى بك الإسلام ما هدم الكفر  
 وطوقه نعامك التي مالها حصر  
 فقد صدم عنه التغلب والقهر  
 تحاولها يملك ما بعدها خسر  
 سوى عرض ما إن له في الألا خطر  
 ترد ولكن الثناء هو العمر  
 فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر

[١٢٤]

(١) كذا في ط ونجح الطيب . وفي ت : « لم يعرف » .

(٢) في ط : « المؤمنين » .

(٣) كذا في نفتح الطيب . وفي الأصلين : « لبيعه » .

(٤) كذا في ت ونفتح الطيب . وفي ط : « الخلق » .

وَمِنْ دُونَ مَا تَبَغَّيْهِ يَا مَلِكَ الْهُدَى  
 وَرَادُّ وَشُقْرُ وَاصْحَاتِ شِيَاتِهَا  
 وَشُهْبٌ إِذَا مَا ضُمَّتْ يَوْمَ غَارَةٍ  
 وَأَسْدٌ رَجَالٍ مِنْ مَرَيْنٍ مُخِيفَةٌ  
 عَلَيْهَا مِنَ الْمَادِي كُلِّ مُفَاضَةٍ  
 هُمُ الْقَوْمُ إِنْ هَبُّوا لَكَشَفَ مُلَمَّةٌ  
 إِذَا سَأَلُوا أَعْطَوْا وَإِنْ نَوَزُوا سَطَّوْا  
 وَإِنْ مُدِحُوا اهْتَزَّوْا ارْتِيَا حَا كَانَهُمْ  
 وَإِنْ سَمِعُوا الْعَوْرَاءَ فَرُّوْا بَأَنْفُسِ  
 وَتَبَسُّمٌ مَا بَيْنَ الْوَشِيحِ ثَعْوَرُهُمْ  
 أَمْوَالِي غَاضَتْ فِكْرَتِي وَتَبَلَّدَتْ  
 وَلَوْلَا حَنَانٌ مِنْكَ دَارَكْتَنِي بِهِ  
 فَأَوْجَدْتَنِي مَنِي فَائِتَا أَيَّ فَائِتِ  
 بَدَأَتْ بِفَضْلِ لَمْ أَكُنْ لِعَظِيمِهِ  
 وَطَوَّقْتَنِي النُّعْمَى الْمُضَاعَفَةَ الَّتِي  
 وَأَنْتَ بِنْتَمِيمِ الصَّنَائِعِ كَافِلٌ  
 جَزَاكَ الَّذِي أَسْنَى مَقَامِكَ عِصْمَةٌ  
 إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِمِدْحَةٍ  
 وَلَكِنَّا نَأْتِي بِمَا نَسْتَطِيعُهُ

جِيَادُ الْمَذَاكِي وَالْمُحَجَّلَةُ الْغُرُ  
 فَأَجْسَامُهَا تَبْرُ وَأَرْجُلُهَا دُرُ  
 مَطَهَّمَةٌ غَارَتْ بِهَا الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ  
 عَمَائِمُهَا بَيْضٌ وَأَسْمَالُهَا سُورُ  
 تَدَافِعُ فِي أَعْطَافِهَا اللَّجْجُ الْخَضِرُ  
 فَلَا الْمُلتَقَى صَعْبٌ وَلَا الْمُرْتَقَى وَعَرُ  
 وَإِنْ وَاغِدُوا وَقَوُّوا وَإِنْ عَاهَدُوا بَرُّوا  
 نَشَاوَى تَمَشَّتْ فِي مَعَاطِفِهِمْ خُرُ  
 حَرَامٌ عَلَى هِمَمَاتِهَا فِي الْوَعَى الْقَرُ (١)  
 وَمَا بَيْنَ قُضْبِ الدَّوْحِ يَبْتَسِمُ الزُّهْرُ (٢)  
 طِيَاعِي فَلَا طَبَعٌ يُعِينُ وَلَا فِكْرُ  
 وَأَحْيَيْتَنِي لَمْ تَبْقَ عَيْنٌ وَلَا أَثْرُ  
 وَأَنْشَرْتَ مَيْتًا ضَمَّ أَشْلَاءَهُ قَبْرُ  
 بِأَهْلِ فَجَلِّ اللَّطْفِ وَانْفِرَجِ الصَّدْرُ  
 يَقِلُّ عَلَيْهَا مَنِي الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ  
 إِلَى أَنْ يَعُودَ الْجَاهُ وَالْعِزُّ وَالْوَفْرُ  
 يُفَكُّ بِهَا عَانٌ وَيُنْعَشُ مُضْطَرُّ  
 فَهَيْهَاتَ يُحْصَى الرَّمْلُ أَوْ يُحْصَرُ الْقَطْرُ  
 وَمَنْ بَدَلَ الْمَجْهُودِ حَقَّ لَهُ الْعُدْرُ

(١) العوراء : الكلمة الفيحة .

(٢) الوشيح : الرماح .

فلا تسأل عن امتعاض وانتفاض<sup>(١)</sup>، وسداد أنحاء في التأثر لنا وأغراض،  
والله غالب على أمره .

انصراف  
السلطان  
أبي عبد الله  
إلى الأندلس

[١٢٥] وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين  
وسبع مئة كان انصرافه إلى الأندلس ، وقد ألح صاحب قشتالة في طلبه ،  
وترجّح الرأي على قصده ، فقعد السلطان بقبة العرّض من جنة المصارة ، وبرز  
الناس وقد أسمعهم البُريح<sup>(٢)</sup> ، واستحضرت البُنود ، والطبول والآلة ، وألبس خلعة  
الملك ، وقيدت له مراكبه فاستقل ، وقد التف عليه كل من جلا عن الأندلس  
من لدن الكائنة في جملة كثيفة ، ورئى من رقة الناس وإجهاشهم وعلو  
أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكوناً وعطافاً<sup>(٣)</sup> وقرباً ،  
قد ظلله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشأج المحبة ، إلى كونه مظلوم العقْد ،  
منتزع الحق ، فتبعته الخواطر ، وحميت عليه الأنفس ، وانصرف لوجهته ؛ وهو  
الآن برُندة مستقل بها وبجهاتها ، ومقتنع برسم [سلطنتها<sup>(٤)</sup>] وقد قام له برسم  
الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن علي بن يوسف بن كماشة الحضرمي ، وبكتابته  
الفقيه أبو عبد الله بن زمرّك ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتميقظ  
للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا يُنكر ، كان الله له ولنا بفضل .

انتهى كلام ابن الخطيب في اللوحة البدرية .

(١) كذا في نفع الطيب المطبوع والمخطوط . وفي الأصلين : « وانتفاض » .

(٢) البريع (كلمة دخيلة وهي كما في دوزي) : بمعنى الصريح ، أو إعلان الحرب ، أو  
التهاتف بالتعبئة .

(٣) كذا في النسخة الخطية من نفع الطيب . وفي المطبوعة والأصلين : « وعطافا » .

(٤) زيادة عن نفع الطيب . ومكان هذه الكلمة في ط : « الوزارة » .

وقد عرفت أنه في ذلك التاريخ لم يكن دخل السلطان غرناطة ، ولم يلحق به ابن الخطيب حتى دخلها .

وقد ذكر ولي الدين بن خلدون هذه الواقعة في تاريخه الكبير ، وأحسن سردها ، فقال في ترجمة أيام السلطان أبي سالم ما نصه :

خير هذه القصة  
كما رواها ابن  
خلدون

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة  
ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين [وسبع مئة<sup>(١)</sup>] ونصب ابنه محمد للأمر ، واستبدَّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته ، فلما عدلوا بالأمر عنه حجَّبه ببيع قصورهم ، وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد ، فكان يدعو سرًّا إلى القيام بأمره ، حتى أمكنته فرصة في الدولة بخروج السلطان إلى بعض مُتنزَّهاته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في [بعض]<sup>(٢)</sup> أو شبَّ جمعهم من الطَّعام لثورته ، وعمد إلى دار الحاجب رضوان ، فأقتحم عليه الدار ، وقتله بين حرَّمه وبناته ، وقرَّبوا إلى إسماعيل فرسه فركب ، فأدخلوه القصر ، وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طُبوهم بسور الحمراء ، وفرَّ السلطان من مكانه بمتنزهه ، فلحق بوادي آش ، وغدا<sup>(٣)</sup> الخاصة والعامة على إسماعيل فبايعوه ، واستبدَّ عليه هذا الرئيس ابن عمه ، فنخلعه لأشهر<sup>(٤)</sup> من بيعته ، واستقل

(١) زيادة عن نفع الطيب .

(٢) زيادة عن تاريخ ابن خلدون (ج ٧ ص ٣٠٦ طبعة بلاق) .

(٣) الكلام من قوله «وغدا» إلى قوله «بوادي آش» ساقط في تاريخ ابن خلدون .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : «نخلعه لشهرين» .

بسلطان الأندلس . ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادي آش ، بعد مقتل حاجبه رضوان ، واتصل الخبرُ بالسلطان المولى أبي سالم ، امتعض لمهلك رضوان ، وخلع السلطان رَعِيًا لما سلف له في جوارهم ، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجاسه لاستقدامه ، فوصل إلى الأندلس ، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب ، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله ابن الخطيب ، كانوا اعتقاله لأول أمرهم ، لما كان رديفا للحاجب رضوان ، ورُكنا لدولة المخلوع ، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه ؛ ولحق مع الرسول أبي القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب ، وأجازَ لذي القعدة من سنته ، وقدم على السلطان بفاس ، وأجلَ قدومه ، وركب للقاءه ، ودخل به إلى مجلس ملكه ، وقد احتفل ترتيبه وغصن بالمشيخة والعليّة ، ووقف وزيره ابن الخطيب ، فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصريحه لسلطانه ، ويستحثه لمظاهرة على أمره ، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس ، شفقة له ورحمة .

ثم سرّد وليّ الدين بن خلدون القصيدة التي قدمنا ذكرها إلى آخرها ، قال (١) : ثم انفض المجلس ، وانصرف ابن الأحمر إلى منزله (٢) وقد فرشت له القصور ، وقربت الجياد بالمرائب الذهبية ، وبعث إليه بالكسبي الفاخرة ، ورُتبت الجرايات له ولمواليه من المغلوجي (٣) ، وبطانته من الصنائع ، وحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة (٤) ،

(١) في ت : « ثم قام ثم انفضى ... الخ » .

(٢) كذا في ت ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدون . وفي ط : « منزله » .

(٣) يريد المغلوجين ، أي الموالى من النصارى . (عن تكملة العجمات لدوزي) .

(٤) في تاريخ ابن خلدون : « الأداة » .

أدبا مع السلطان ، واستقر في مجلته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس . وارتجاع  
ملكه سنة ثلاث وستين ، ما نحن نذكره .

انتهى كلام ابن خلدون ، وفيه بعض مخالفة يسيرة لكلام ابن الخطيب في  
اللمحة البدرية .

ولا بد أن نسرّد كلام ابن خلدون في شأن ابن الخطيب ، إذ ذكره في ترجمة  
السلطان أبي فارس ابن السلطان أبي الحسن المريني بما نصه :  
شيء عن أحوال  
ابن الخطيب كما  
رواه ابن خلدون

الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على السلطان بتلمسان  
نازعا إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس

أصل هذا الرجل من لوشة ، على مرحلة من غرناطة ، في الشمال من البسيط  
الذي فيه ساحتها ، المسمى بالمرّج ، على وادي شنجيل ، ويقال شنبيل<sup>(١)</sup> ، المخترق<sup>(٢)</sup>  
في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ، كان له بها سلف معدود في وزرائها ،  
وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة ، [ واستخدم لملوك بني الأحمر ، واستعمل على  
مخازن الطعام ، ونشأ ابنه محمد بقرناطة<sup>(٣)</sup> ] وقرأ وتآدب على مشيختها ، واختص  
بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرّز في  
الطب ، وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلا حوض<sup>(٤)</sup> السلطان من نظمه

(١) كذا في الأصلين وابن خلدون . وظاهر أن الكلمتين محرفتان عن « شنبيل »  
وهو اسم نهر غرناطة الشهير ، وقد ولع الشعراء بوصف هذا الوادي وتفضيله على  
النيل بزيادة الشين ، وهي ألف من العدد ، أي أنه يفضل النيل بألف ضعف .  
(راجع نفتح الطيب ج ١ ص ٩٤ طبعة أوروبا والإحاطة ج ١ ص ٢٦) .

(٢) في تاريخ ابن خلدون : « المنحرف » .

(٣) هذه العبارة ساقطة في ط .

(٤) كذا في تاريخ ابن خلدون . وفي الأصلين وفتح الطيب : « وامتلا من حول  
السلطان نظمه »

ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ في الشعر والترسيل ، بحيث لا يجارى فيهما ،  
وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره<sup>(١)</sup> ، وملاً الدنيا بمدائحهم ،  
وانتشرت في الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبتته في ديوان الكتاب  
ببابه ، سرءوسا بأبي الحسن بن الجيّاب ، شيخ العُدوتين في النظم والنثر ، وسائر  
العلوم الأدبية ، وكاتب السلطان بقرناطة من لدن أيام محمد الخلويع من سلفه ،  
عند ما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه ، كما مرّ في أخبارهم . فاستبد  
[ ابن الجياب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف  
سنة تسع وأربعين وسبع مئة ، فوّلّى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد ]<sup>(٢)</sup>  
ابن الخطيب رياسة الكتاب<sup>(٣)</sup> ببابه ، مُثَنِّاة بالوزارة ، ولقبه بها ، فاستقل  
بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدوة ،  
ثم داخله السلطان في تولية الأعمال على يده بالمشارطات ، فجمع له بها أموالا ،  
وبلغ به في المخالطة<sup>(٤)</sup> إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله ؛ وسفر عنه إلى السلطان  
أبي عَينان ملك بني مرّين بالعدوة ، معزيا بأبيه السلطان أبي الحسن ، فجلى في  
أغراض سفارته . ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين ، عدا عليه  
بعض الزعانف [ يوم الفطر بالمسجد ]<sup>(٥)</sup> في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه ،  
وفاظ لوقته<sup>(٥)</sup> وتعاورت سيوف الموالى المعلوجي<sup>(٦)</sup> هذا القاتل ، فمزقوه أشلاء ،

(١) هذه الكلمة : « لعصره » . ساقطة في ت وتاريخ ابن خلدون .

(٢) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

(٣) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الكتابة » .

(٤) كذا في ت والنسخة الخطية من نفح الطيب . وفي ط وابن خلدون والنسخة

المطبوعة من نفح الطيب : « في المخالصة » .

(٥) هذه العبارة : « وفاظ لوقته » ساقطة في ت . وفاظ : مات .

(٦) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

وبويج ابنه محمد [ بالأمر ]<sup>(١)</sup> لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان ، الراسخ القدم في قيادة عساكرهم ، وكفالة الأصغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته . كما كان لأبيه ، [ واتخذ لكتابته غيره ]<sup>(٢)</sup> وجعل ابن الخطيب رديفا له في أمره<sup>(٣)</sup> ، ومشاركا في استبداده معه ، فجرت الدولة على أحسن حال ، وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبي عنان ، مستمدين له على عدوهم الطاغية ، على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس ووقتهاها ، واستأذنه في إنشاد شعر<sup>(٤)</sup> قدّمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر      علاك ما لاح في الدجى قر  
ودفعت عنك كف قدرته      ما ليس يستطيع دفعه البشر  
وجهك في النائبات بدر دجى      لنا وفي المحل كفك المطر  
والناس طرا بأرض أندلس      لولاك ما أوطنوا ولا عمروا  
وجملة الأمر أنه وطن      في غير عليك ما له وطر<sup>(٥)</sup>  
ومن به مذ<sup>(٥)</sup> وصلت حبلهم      ما جحدوا نعمة ولا كفروا  
وقد أهتمهم بأنفسهم      فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس :

(١) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

(٢) كذا في ط وتاريخ ابن خلدون . وفي ت ونفح الطيب : « رديفا لرضوان في أمره » .

(٣) في تاريخ ابن خلدون : « شىء من الشعر » .

(٤) هنا البيت ساقط في تاريخ ابن خلدون .

(٥) كذا في نفح الطيب وتاريخ ابن خلدون . وفي الأصلين : « قد » .

ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردّهم بجميع ما طلبوه . وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف ، وكان معه في ذلك الوفد : لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا .

ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين ، ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان ، شرّكه في جدّه الرئيس أبي سعيد ، وتحيّن خروج السلطان إلى متنزهه خارج الحمراء ، وتسوروا دار الملك المعروفة بالحمراء ، وكبس رضوان في بيته ، فقتله ونصب الملك إسماعيل بن السلطان أبي الحجاج ، بما كان صهره على شقيقته ، وكان معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه ، وبايع له ، وقام بأمره مستبداً عليه ، وأحسن السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان ، فركب ناجياً إلى وادي آش ، وضبطها ، وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب ، وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس ، واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب ، وضيق عليه في محبسه ، وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس ، وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم ، فزين له استدعاء هذا السلطان الخلويع من وادي آش ، يعدّه زبوناً<sup>(١)</sup> على أهل الأندلس ، ويكفّ به عادية القرابة المرشحين هنالك ، متى<sup>(٢)</sup> طمحووا إلى ملك المغرب ، فقبل ذلك منه ، وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه ، وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التّمساني ، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب ، وحلّ معتقله ، فأطلق ؛ وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش ، وسار في ركاب سلطانه ، وقدموا على

[١٣٠]

(١) زبونا ، أي حرباً وقوة . (انظر تكملة المعجم لدوزي مادة زين) .

(٢) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « كما » . وفي ت : « بمن » .

السلطان أبي سالم ، فاهتزَّ لقدم ابن الأحمر ، وركب في الموكب لتلقيه ، وأجلسه  
إزاء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مر ، يستصرخ السلطان لنصره ،  
فوعده ، وكان يوماً مشهوداً ، وقد مر ذكره ، ثم أكرم مشواه ، وأرغد نزله ،  
ووفر أرزاق القادمين في ركابه ، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والإقطاع .  
ثم استأنس<sup>(١)</sup> واستأذن السلطان في التجوال بجبات<sup>(٢)</sup> مراكش ، والوقوف على  
آثار الملك بها ، فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه ، فتباروا<sup>(٣)</sup> في ذلك ،  
وحصل منه على حظ . وعند ما مر بسلا إثر قفوله من سفره ، دخل مقبرة الملوك  
بشالة ، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن ، وأنشد قصيدة على روى الراء  
[الموصولة]<sup>(٤)</sup> ، يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بغرناطة ، مطلعها :

إن بان منزله وشطت داره قامت مقام عيانه أخباره  
قسّم زمانك عبّرة أو عبّرة هذا ثراه وهذه آثاره

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فشفعوه ،  
واستقر هو بسلا ، منتبذاً عن سلطانته طول مقامه بالعدوة . ثم عاد السلطان محمد  
المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين ، وبعث عن مخلفه بنفاس من  
الأهل والولد ، والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي ، فاستقدم ابن  
الخطيب من سلا ، وبعثهم لنظره ، فسُرَّ السلطان بقدومه ، وردّه إلى منزلته ،  
كما كان مع رضوان كافله ، وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن  
أشياخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه ، عندما أحس بالشر من الرئيس

(١) في ط ونفح الطيب : « استأنس » .

(٢) في تاريخ ابن خلدون : « في التحول إلى جهات . . . الخ » .

(٣) في تاريخ ابن خلدون : « فتباروا » .

(٤) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

صاحب غرناطة ، وأجاز يحيى من هنالك إلى العُدوة ، وأقام عثمانُ بدار الحَرَب ، فصَحِبَ السلطانَ [ في مَثْوَى اغترابه هنالك ، وتقلَّب في [مذاهب] <sup>(١)</sup> خِدْمَتِهِ ، وانحرفوا عن الطاغية بعد <sup>(٢)</sup> ما يئسوا من الفتح على يده ، فتنحَّوْا عنه إلى ثُغُور بلادهم ، وخاطبوا [الوزير] <sup>(٣)</sup> عمر بن عبد الله في أن يملكهم من بعض الثغور الغربية <sup>(٤)</sup> التي لطاغيتهم <sup>(٥)</sup> بالأندلس ، يرتقبون منها الفتح ، وخاطبني السلطانُ الخلوْع في ذلك ؛ وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله أذمة مرعية ، وخاصة متأكدة ، فوفيت <sup>(٥)</sup> للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله ، وسمَّته على أن يرد عليه مدينة رُنْدَةَ ، إذ هي من ثراث سلفه ، فقبل إشارتي في ذلك ، وتَسَوَّغَهَا السلطانُ الخلوْع ، ونزل بها وعثمانُ بن يحيى في جُمَّلته ، وهو المقدم في بطانته ، ثم غزوا منها مالقة ، فكانت ركابا للفتح ، وملكها السلطانُ ، واستولى بعدها على دار ملكه بغرناطة ؛ وعثمانُ بن يحيى متقدم القوم في الدولة ، عريق في الخالصة ، وله على السلطان دالة ، واستبداد على هواه . فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعادته إلى مكانه في الدولة ، من علو يده ، وقبول إشارته ، أدركته الغيرة من عثمان ، ونكِر على السلطان الاستكفاء به ، و [أراه] <sup>(٦)</sup> التخوف من هؤلاء الأعياض <sup>(٦)</sup> على ملكه ، فحذره السلطان ، وأخذ في التدبير عليه ، حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين ، وأودعهم <sup>(٧)</sup> المُطْبِق ، ثم غرَّبهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب

(١) زيادة عن نفع الطيب .

(٢) كذا في تاريخ ابن خلدون . وفي الأصلين : « عند » .

(٣) كذا في نفع الطيب وابن خلدون . وفي الأصلين : « الغربية » .

(٤) في تاريخ ابن خلدون . « أطاعتهم » .

(٥) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٦) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الأعياص » .

(٧) في ط : « وأودعهم » .

الجو ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بينه بتدمايه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، [١٣٢] وعليقت به الآمال ، وغشي بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتمنوا<sup>(١)</sup> في السعيات فيه ، وقد صم السلطان عن قبولها ؛ ونمى الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التفويض ، واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، ملك العدو يومئذ ، في القبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي ، كانوا قد نصّبوه شيخاً على الغزاة بالأندلس ، لما أجاز من العدو بعد ما جاس خلالها ، لطلب الملك ، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية ، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله ، القائم حينئذ بدولة بني مرين ، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساي ، ونزلوا على السلطان الخلويع عام سبعة وستين ، فأكرم نزلهم ، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه . وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله ، فغص بما فعله السلطان الخلويع من ذلك ، وتوقع انتقاص أمره منهم ، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرّ بها في بني مرين ، فجزع لذلك ، وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن يفلوسن وابن ماساي ، وإراحة نفسه من شعبهم ، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له العهد بخطه ، على يد سفيره إلى الأندلس وكتبه أبي يحيى بن أبي مدين<sup>(٢)</sup> ؛ وأغرى ابن الخطيب سُلطاناه بالقبض على ابن يفلوسن وابن ماساي ، فقبض عليهم [١٣٣] واعتقلهم ، وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة ،

(١) في تاريخ ابن خلدون : « فتوافقوا على ... الخ » .

(٢) العبارة من قوله : « جزع » إلى هنا ساقطة في تاريخ ابن خلدون .

من القدر فيه والسعاية ، وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها ، وأنهم قد أحفظوه عليه ، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور [ الغربية ] <sup>(١)</sup> ، وسار إليها في لمة من فرسانه ، ومعه ابنه علي الذي كان خالصة للسلطان ، وذهب لطيبته ، فلما حاذى جبل الفتح ، فرضة الحجاز إلى العدو ، مال إليه ، وسرح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه . [ وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك ، وجيز له الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبته ، وتلقاه ولايتها بأنواع التكرمة ، وامثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين ، بمقامه تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ] <sup>(٢)</sup> ، وأحلّه من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبي يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر <sup>(٣)</sup> المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وإبداء ما كان كامناً في نفسه من سقطاته ، وإحصاء معايبه ، وشاع على أسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة ، أحصوها عليه ونسبوها [ إليه ] <sup>(٢)</sup> ، ورُفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن بن الحسن فاسترعاها ، وسجّل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وإمضاء حكم الله فيه ، فصمّ عن ذلك ، وأنّف لذمته أن تخفّر ، ولجواره أن يُردّ ، وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ! وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى ؛ ثم وفرّ

(١) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

(٢) زيادة عن ت وابن خلدون ونفح الطيب .

(٣) في ابن خلدون : « لفظ » .

الجريّة والإقطاع له ولبنيه ، ولمن جاء من أهل الأندلس في جملة . فلما هلك  
السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين ، ورجع بنو مرين إلى المغرب ، وتركوا [١٣٤]  
تلمسان ، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي ، القائم بالدولة ، فنزل  
بفاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق في بناء المساكن ، واغتراس  
الجنات ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى ،  
واتصلت حاله على ذلك ، إلى أن كان ما ذكره .  
انتهى كلام ابن خلدون وأكثره بلفظه .

قلت : وقد وقفت على كتاب للقاضي أبي الحسن بن الحسن المذكور يخاطب  
به ابن الخطيب ويعظه ، ويشير إلى ما اشتغل به من البنيان ، وفيه ما يبين كلام  
ابن خلدون السابق وزيادة ، وما يدل على ما ذكره ابن خلدون من أنه سجّل  
عليه بأمر منكرة ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وقد أسقطت بعضه اختصارا ،  
ونص ما تعلق به الغرض قوله يخاطب الوزير ابن الخطيب :

كتاب القاضي  
أبي الحسن إلى  
ابن الخطيب

فشرعتم في الشراء ، وتشديد البناء ؛ وتركتم الاستعداد لهادم اللذات ،  
هيئات هيئات ؛ تبنون مالا تسكنون ، وتدخرون مالا تأكلون ، وتؤملون مالا  
تدركون ؛ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مُشَيَّدة ، فأين المهرب  
مما هو كائن ! ونحن إنما نتقلب في قدرة الطالب ، شرقتم أو غربتم ، [والأيام  
تتقاضى الدين ، وتنادى بالنفس الفرارة إلى أين إلى أين ! وتترك الكلام مع  
الناقد] <sup>(١)</sup> فيما ارتكبه من تركيته نفسه ، وعدّ ماجلبه من مناقبه ، ما عدا ما هدّد  
به من حديد لسانه ، خشية اندراجه في نمط من قال فيه رسول الله صلى الله عليه

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت وفتح الطيب .

وسلم : « إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء فُحْشِه »<sup>(١)</sup> . ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه ؛ ونرحمه على ما أبداه وأهداه من العيوب التي نَسبها لأخيه ، واستراح على قوله بها فيه ، ونذكره على طريقة نصيحة الدين ، بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : [١٣٥]

« أتدرون من المُفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ! فقال : إن المُفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعْطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطرح عليه ، ثم طرح في النار » . ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق ، هو الذي حملني على نصحكم ومراجعةكم في كثير من الأمور ، منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله ، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتاً ، لغير شيء حصل بيدكم ، وضررتم أنفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنص الكتاب والسنة قبلكم ، والرضا بهذه الصفة الخاسرة أمر بسيد من الدين والعقل . وقد قلت لكم غير ما مرّة عن أطراسكم المسودة ، بما دعوتهم إليه من البدعة ، والتلاعب بالشرعية : إن حقها التخريق والتحريق ، وإن من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم ، والله الشهيد بأني نصحتكم وما غششتكم ، وليس هذا القول وإن كان ثقيلاً عليكم ، بمُخالف كل المخالفة لما ذنبتكم<sup>(٢)</sup> به من تقدم المواجهة بالملاطفة ، والمعاملة بالمكارمة ، فليست المداراة بقادحة في الدين ، بل هي مجودة

(١) الحديث كما في الجامع الصغير للسيوطي (ج ١ ص ٢٢٨) : « إن من شر الناس منزلة

عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه » .

(٢) كذا في الأصلين ونفح الطيب . ولعلها محرفة عن « زنتم به » ، أي ظنتم به .

في بعض الأحوال ، مستحسنة على ما بينه العلماء ، إذ هي مقارنة<sup>(١)</sup> في الكلام ، أو مجاملة بأسباب الدنيا ، لصلاحها أو صلاح الدين ، وإنما المذموم المداهنة ، وهي يذل الدين لمجرد الدنيا ، والمضاعة به لتحصيلها ؛ ومن خالط للضرورة مثلكم وزايله بأخلاقه ، ونصحه مخاطبة ومكاتبة ، واستدل له بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحة مقالته ، فقد سلم والحمد لله من مداهنته ، وقام الله [١٣٦] بما يجب عليه في حقكم من التحذير والإنكار ، مع الإشفاق والوجل . وأكثرتم في كتابكم من المنّ بما ذكرتم أنكم صنعتم ، وعلى تقدير الموافقة لكم ، لبيتم فعلتم فسلمنا من المعرة وسلمتم ، وجلّ القائل سبحانه : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم » . وقلمنا شاركتم أنتم في شيء إلا بأعراض حاصلة في يديكم ، أو لأعراض دنيوية خاصة بكم ، فالللام إذاً في الحقيقة إنما هو متوجه إليكم . وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم وكلامكم ، من التندم<sup>(٢)</sup> على فراق محلكم ، والتعلل بأخبار قطركم وأهلكم ، فتناقض منكم ، وإن كنتم فيه بغدركم<sup>(٣)</sup> : أتبكي على لبي وأنت تركتها فكنت كاتٍ حثثه<sup>(٤)</sup> وهو طائع وما كل ما مننتك نفسك خالياً<sup>(٥)</sup> تلاقى ولا كل الهوى أنت تابع فلا تبكين في إثر شيء ندامة إذا نزعته من يديك النوازع<sup>(٦)</sup>

- (١) في النسخة الخطية من نفع الطيب . « مقارنة » .  
 (٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الشؤم » .  
 (٣) كذا في نفع الطيب المطبوع والخطي . وفي الأصلين : « بغدركم » .  
 (٤) كذا في الأغاني (ج ٩ ص ٢١٧ طبعة دار الكتب) . وفي الأصلين ونفع الطيب : « غيه » .  
 (٥) كذا في الأغاني . وفي الأصلين ونفع الطيب : « بخليا » .  
 (٦) البيت كما في الأغاني :

فلا تبكين في إثر لبي ندامة وقد نزعته من يديك النوازع  
 وهذه الأبيات من شعر لقيس بن ذريح في زوجته لبي بنت الحباب الكعبية .

وعلى أن تأسفكم<sup>(١)</sup> لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم ، والخروج لا لضرورة غالبية عن أوطانكم ، من الواجب بكل اعتبار عليكم ، سيما وقد مددتم إلى التمتع لغيرها عينيكم . ولو لم يكن لهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلا ما خصت به من بركة الرباط ، ورحمة الجهاد ، لكفاها فخراً على ما يجاورها من سائر البلاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه » ، وقال عليه السلام : « الرُّوحَةُ يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها » . وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكتملة والاستغفار ، مع الانقطاع في أحد المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع ، وهي طيبة أو مكة أو بيت المقدس ، فقد خسرتم صَفقة رحلتكم ، وتبين أن لغير وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم ؛ اللهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذى قتل مئة نفس ، وسأل أعلم أهل الأرض ، فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التى ارتكب فيها الذنوب ، واكتسب بها العيوب ؛ فأمره آخر ، مع أن كلام العلماء فى هذا الحديث معروف<sup>(٢)</sup> ؛ ويقال لكم من الجواب الخاص بكم : فعليكم إذاً بترك القيل والقال ، وكسر حربة الجدال والقتال ، وقصر ما بقى من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال . ووقعت فى مكتوبكم كلمات أوردتها النقد فى قالب الاستهزاء والازدراء ، والجهالة بمقادير الأشياء ، منها : ريح صرصر ، وهو لغة القرآن ، وقاع قرقر ، وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد صلى الله عليه وسلم . ثبت فى الصحيح فى باب التغليظ فيمن لا يؤدى زكاة ماله ، « قيل : يا رسول الله ، والبقر والغنم ؟ قال : ولا صاحب بقر ولا غنم

[١٣٧]

(١) فى ت : « أسفكم » .

(٢) انظر القرطبي (ج ٦ ص ١٥٣ طبعة دار الكتب) عند تفسير قوله تعالى :

« أو ينقوا من الأرض » .

لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة يُطْحَ لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها<sup>(١)</sup> . الحديث الشهير . قال صاحب المعلم<sup>(٢)</sup> :  
 بُطِحَ لها بقاع قرقر ، أى ألقى على وجهه ، والقاع : المستوى من الأرض ،  
 والقرقر : كذلك ؛ هذا ما حضر من الجواب . وبقي في مكتوبكم حشو كثير من  
 كلام الإقذاع ، وفُحِّشَ بعيد من الحِشمة والحياء ، رأيت أن من الصواب  
 الإضراب عن ذكره ، وصَوَّنَ اليد عن الاستعمال فيه ، والظاهر أنه إنما صدر  
 عنكم وأتم بحال مَرَضٍ ، فلا حرج فيه عليكم إن شاء الله ، أجلكم ، ومكَّن  
 أمنكم ، وسكن وجلكم ، ومنه جلَّ اسمه<sup>(٣)</sup> نسأل لى ولكم حسن الخاتمة ،  
 والفوز بالسعادة الدائمة ، والسلام الأتم بعتمكم ، والرحمات والبركات من كاتبه  
 على بن عبد الله بن الحسن ، وفقه الله .

وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبع مئة .

وقيد رحمه الله في مُدْرَج طى هذا الكتاب ما نصه :

يا أخى ، أصلحنى الله وإياكم ، بقى من الحديث شىء ، الصواب الخروج [١٣٨]  
 عنه لكم ، إذ هذا أوانه ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه ، وليكن  
 البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله ، وحاصله :

أنكم عددتهم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات ، وقطعتم بنسبة الأمور  
 كلها لأنفسكم<sup>(٤)</sup> ، وأنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنكم ، من غير مشاركة  
 فى شىء منها لكم ، ثم مفتتم بها المن القبيح ، المبطل لعمل برِّكم ، على تقدير

(١) ارجع إلى مسلم والبخارى فى باب الزكاه فى لفظ الحديث روايات .

(٢) لعله يريد : المعلم بفوائد مسلم ، وهو شرح على صحيح مسلم للإمام أبى عبد الله  
 محمد التيمى .

(٣) فى النسخة الخطية من نفتح الطيب : « ومنه سبحانه نسأل . . . الخ » .

(٤) فى نفتح الطيب : « إلى أنفسكم » .

التسليم في فعله لكم ، ورميتم غيركم بالتقصير في حاله كله ، طريقة من يبصر القذى في عين أخيه ويدع الجذع في عينه ، وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس ، تقلد كلفة قضاء الجماعة ، وما كان إلا أن وليتها بقضاء الله وقدره ؛ فقد تبين لكل ذى عقل سليم أنه لا موجد إلا الله ، وإذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلًا بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه ، من غير عاضد له على تحصيل مراده ولا معين ، ولكنه ، جلت قدرته ، وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه ، وأعد فاعل الشر بالعقاب عدلا منه ، وكأني بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة ، وما أحوجكم إلى تأملها بعين اليقين ، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة<sup>(١)</sup> من النكاية ، باستحقاقكم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمر الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك في جملة مسائل ، منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضى موجباته ، على كره منكم ؛ ومنها مسألة ابن أبي العيش المثقف<sup>(٢)</sup> في السجن على آرائه المضلة ، التي كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجه من الثقاف<sup>(٣)</sup> ، من غير مُبالاة بأحد ؛ ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه مطالبة بدم قتيل ، وسبق المدعى عليه للذبح<sup>(٤)</sup> بغير سكين ، فما وسعني بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة ، فأنفتم لذلك ، وسجنتم الطالب<sup>(٥)</sup> ولي الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه ، ولا يجمل بي ولا بكم

[١٣٩]

- (١) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « المنكرة » .
- (٢) المثقف : المسجون . (عن تكملة المعجمات لدوزي) .
- (٣) الثقاف : الحبس والسجن . (عن دوزي) .
- (٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الذبيح » .
- (٥) في النسخة الخطية من نفح الطيب : « الطالب » .

ذكره . والمسألة الأخرى أتم توليتم كبرها ، حتى جرى فيها القدر بما جرى من الانفصال ، والحمد لله على كل حال .. وأما الرمي بكذا وكذا مما لا علم لنا بسببه ، ولا عذر لكم من الحق في التكلم به ، فشىء قلما يقع مثله من البهتان ، ممن كان يرجو لقاء ربه ، وكلامكم في المدح والهجو هو عندى من قبيل اللغو الذى نمر به كراما ، والحمد لله فكثروا<sup>(١)</sup> أو أقلوا من أى نوع شئتم ، أتم وما ترضونه لنفسكم<sup>(٢)</sup> ، وما فهت لكم بما فهت من الكلام ، إلا على جهة الإعلام ، لا على جهة الانفعال ، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال ، فذهبي غير مذهبيكم ، وعندى ما ليس عندكم .

وكذلك رأيتم تكثرون في مخاطبتكم من لفظ الرقية في معرض الإنكار لوجود نفعها ، والرمي بالمنقصة والحق لمستعملها ، ولو كنتم قد نظرتم في شىء من كتب السنة ، وسير الأمة المسامة ، نظر مصدق ، لما وسعكم إنكار ما أنكرتم ، وكتبه بخط يديكم ، فهو قادح كبير في عقيدة دينكم ، فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المراد بها هو وآحاد أمته ؛ وفي أمهات الإسلام الخمس أن رسول صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى رقا جبريل ، فقال : بسم الله يُبريك<sup>(٣)</sup> ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شرّ حاسد إذا حسد ، ومن شرّ كل ذي عين . وفي الصحيح أيضا أن أناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر ، فمروا بحى من أحياء العرب ، فاستضافوهم فلم يضيفوهم ، فقالوا : هل فيكم راق ؟ فإن سيد الحى لديغ أو مصاب ؛ فقال رجل من القوم : نعم ، فأتاه فرقا بفاحة الكتاب ، فبرى الرجل ، فأعطى قطيعا من

(١) في الفسخة الخطية من نفع الطيب : « أ كثروا أو قللوا » .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « لأنفسكم » .

(٣) يريد : « يبرئك » فسهل .

غنم ، الحديث الشهير . قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقبة والطب وتعليم القرآن ، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وأبي ثور وجماعة من السلف ، وفيه جواز المقارضة ، وإن كان ضد ذلك أحسن ، وفي هذا القدر كفاية . وما رقيت قط أحداً على الوجه الذي ذكرتم ، ولا استرقيت ، والحمد لله ، وما حملني على تبين ما بينته الآن لكم في المسألة ، إلا إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم ، فإني أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن في الشريعة ، ورمي علمائها بالمنقصة ، على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم ، منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب على جميع الممكنات ؛ وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام ، قلما تجوز عليهم ، حَفِظَهُمُ اللهُ ، المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول التي لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة ، أعاذنا الله من دَرَكِ الشقاء ، وشماتة الأعداء ، وجهد البلاء .

وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجنب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، وقائد الغر المحجلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نقل عنكم في هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر في النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها ، وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم ، وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة ، امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات ، لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول ما صدر عنكم ، من العبث في الأبدان والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المسكر والحيل والغدر في غالب<sup>(١)</sup> الأحوال ، للشريف والمشروف ، والخديم والمخدوم ، ولو لم يكن في الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتم به لنفسكم ، من

[١٤١]

الاتسام بسوء العهد ، والتجاوز المحض ، وكفران النعم ، والركون إلى ما تحصل من الحطام الزائل<sup>(١)</sup> ، إلا عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم ، أيده الله بنصره ، وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه ، وفي الكثير من أهل قطره ، لكفاكم وضمة لا يغسل دَنَسها البحر ، ولا يندسى عارها الدهر ، فإنكم تركتموه أولاً بالمغرب عند تلون الزمان ، وذهبت للكديبه<sup>(٢)</sup> ، والأخذ بمتتضي المقامة الساسانية ، إلى أن استدعاه الملك ، وتخلصت له بعد الجهد الأندلس ، فستقطم عليه سقوط الثباب على الحلواء ، وضربت وجوه رجاله بعضاً ببعض ، حتى خلا لكم الجو ، وتمكن الأمر والنهي ، فهزتم ولمزتم ، وجمعت من المال ما جمعت ، ثم ورَّيتم بتفقد نغر الجزيرة الخضراء ، مكرراً منكم ، فلما بلغت أرض الجبل المحرقتم عن الجادة ، وهربتم بأثقالكم الهروب الذي أنكره عليكم كل من بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر في العُدوتين ، من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم ، أو يثق بكم في قول أو فعل صالح أو طالح . ولو كان قد بقي لكم من العقل [١٤٢] ما تتفكرون به في الكيفية التي ختمتم بها عملكم بالأندلس ، من الزيادة في المغرم وغير ذلك ، مما لكم وزره ووزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة ، حسبما ثبت في الصحيح لملككم على مواصلة الحزن ، وملازمة الأسف والندم على ما أوقعت فيه نفسكم الأمانة ، من التورط والتنشيب في أشطان الآمال ، ودسائس الشيطان ، ونعوذ بالله من شرور الأنفس ، وسيئات الأعمال .

وأما قولكم عن فلان : إنه كان حشرة في قشور<sup>(٣)</sup> اللوز ، وإن فلاناً كان

(١) كذا في نصح الطيب . وفي الأصلين : « الحطام باليد » .

(٢) كذا في نصح الطيب المطبوع . وفي النسخة الخطية : « للكديبة » . وفي

الأصلين : « للكيدة » .

(٣) في نصح الطيب : « في قلوب » .

بُرغوثًا في تراب الخمول ، فكلام سَفَسَف ، يقال لكم من الجواب عليه : وأنتم يا هذا ، أين كنتم منذ خمسين سنة مثلاً ؟ خلق الله الخلق لا استظهاراً بهم ولا استكثاراً ، وأنشأهم كما قدر أحوالاً وأطواراً ، واستخلفهم في الأرض بعد أمة أممًا ، وبعد عصر أعصاراً ، وكلفهم شرائع وأحكامه ، ولم يتركهم هملاً ، وأصرهم ونهاهم ، ليلبواهم أيهم أحسن عملاً ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وبكل اعتبار فلا نعلم في نمط الطلبة تدريجاً كان أسمح في تدريجكم ، ونبدأ من كذا ، فإنه كان كذا وكذا ، وأكثر أهل زمانه تخملاً وتقللاً في نفسه بالنسبة إلى منصبه ، كان الشيخ أبو الحسن بن الجياب ، ولكنه حين علم رحمه الله من نشأتكم ؛ وحالتكم ما علم ، نبذ مصاهرتكم ، وصرف عليكم صداقكم وكذلك فعلت بنت جَزَى زوج الرهيصي معكم ، حسباً هو مشهور في بلدكم ، وذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغنى حيث تقرتم بذكر العَرَض [وهو بفتح العين والراء : حُطام الدنيا ، على ما حكى أبو عبيد ، قال أبو زيد : هو بسكون الراء : المال الذي لا ذهب فيه ولا فضة] ، وأي مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقافة<sup>(١)</sup> ، على ما كان قد تبقى عنده من مجبى قرية مترايل ، ثم من العدد الذي برز قبلكم ، أيام كانت أشغال الطعام بيديكم ، على ما شهد به الجمهور من أصحابكم ؛ وأما الفلاحة التي أشرتم إليها ، فلا حق لكم فيها ، إذ هي في الحقيقة لبنت مال المسلمين ، مع ما بيديكم ، على ما تقرر في الفقهيات ، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حسباً ، ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سَقَطَاتكم في النقال والتميل ، ولم يُصْرَف إلى دفع معرفتها عنكم وجه التأويل ، لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبي الخير بل أبي الشر ، الحادثة أيام خلافة الحكم ، المسطورة في نوازل

(١) يريد : الحبس والسجن . (انظر تكملة المعجمات لدوزي) .

أبي الأصبع بن سهل ، فاعلموا ذلك ، ولا تهملوا إشارتي عليكم قديماً وحديثاً بلزوم الصلوات ، وحضور الجماعات ، وفعل الخيرات والعمل على التخلص من التبعات ، إن وعد الله حق ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرّنكم بالله الغرور .

وقلت في كتابكم : أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد ؟ وقد أذهب الله عنا ببركة الملة المحمدية غيبة الجاهلية ، في التفاخر بالآباء ، والكنى أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم : إن كانت الإشارة إلى الجيب بهذا ، فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أمائل قطره . قال القاضي أبو عبد الله ابن عسكر : وقد ذكر في كتابه من سكنى فلان بن فلان ما نصه : وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة ، لم يزالوا يرثون ذلك كبراً عن كابر ، استعصى جده المنصور ابن أبي عامر . وقال غيره وغيره ، وبيدى من عهود الخلفاء ، وصكوك الأمراء المكتتة بخطوط أيديهم ، من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هذا العهد القريب ، [١٤٤] ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد ، والمنة لله وحده . وإن كانت الإشارة إلى الغير<sup>(١)</sup> من الأصحاب في الوقت ، حفظهم الله ، فكل واحد منهم إذا نُظر إليه بعين الحق ، وُجد أقرب منكم نسباً للخطط المعتمدة ، وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب ، أو مساوياً على فرض المسامحة لكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، حرام دمه وماله وعرضه .

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول : من كان يافلان من قومكم في عمود نسبكم فقيهاً مشهوراً ، أو كاتباً قبلكم معروفاً ، أو شاعراً مطبوعاً ، أو رجلاً نبياً مذكوراً ، ولو كان يالوشى وكان ، لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف

(١) في النسخة المطبوعة من نفع الطيب : « للغير » .

والتواصل والتواضع ، وترك التحاسد والتباغض والتفاطع ، إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأبدانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وكذلك العَجَب كل العجب من تسميتكم الخَرِبات التي شرعتم في بنائها بدار السلامة ، وهيئات هيهات ، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء ، وعناء وفناء ، ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار في الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها ، لأغناكم عن العلم اليقيني بما لها ، وأظهرتم سروراً كثيراً بما قلتم إنكم نلتهم حيث أنتم من الشهوات التي ذكرتم أن منها إلا كثار من الأكل والحرق ، والقعود بإزاء جارية الماء على نِطع الجلد ، والإمسك أولى بالجواب على هذا الفصل ، فلا خفاء بما فيه من الخِسة والخبائث والخبث ، وبالجملة ، فسرور العاقل إنما ينبغي أن يكون بما يجمل تقديمه من زاد التقوى للدار الباقية ، فما العيش كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا عيش الآخرة ، فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض [١٤٥] بعضاً ، عسى أن يكون لكم ، ولا تخلقوا كيلاً<sup>(١)</sup> يكون عليكم ، هذا الذي قلته لكم وإن كان لدى من يقف عليه من نمط<sup>(٢)</sup> الكثير ، فهو في اعتبار المكان ، وما سر من الزمان في حيز السير ، وهو في نفسه قول حق وصدق ، ومُستند أكثره كتاب الله وسنة محمد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبيائه ، فاحمدوا الله العلي العظيم على تذكيركم به ، إذ هو مجرى النصيحة الصريحة ، يسرني الله وإياكم لليسرني ، وجعلنا ممن ذُكر فانتفع بالذكرى ، والسلام .

اتمهي كلام القاضي ابن الحسن النبأهي رحمه الله .

قلت : ولعل هذا الكلام وأشباهه هو الحامل لابن الخطيب على هجو القاضي

(١) كذا في ط . وفي ت ونفع الطيب : « كلا » .

(٢) في النسخة الخطية من نفع الطيب : « وغط » .

ابن الحسن المذكور في السكتيبة الكامنة ، حيث ذكره ولقبه بـجُمسوس<sup>(١)</sup> ، ووصفه بما لا يليق ذكره ، ثم ألف في ذلك تأليفاً مستقلاً ، سماه بـمُخَلع الرِّسَن ، في وصف القاضي ابن الحسن ، حسبما أُنفيت ذلك بخط شيخ شيخنا القاضي سيدي عبد الواحد الوائشريسي رحمه الله ، ولا يخلو كلام كل واحد منهما من تحامل على صاحبه ، والله يسمح لنا ولهما بجاه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ولي الدين بن خلدون في تاريخه ، في موضع آخر ما نصه :

كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من زُنْدَة إلى مملوكه بغرناطة ، في جمادى من سنة ثلاث وستين ، وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتزى على ملكهم ، حين هرب من غرناطة إليه ، وفاءً بعهد المخلوع ، واستوى على كرسيه ، واستقل بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب ، فاستخلصه ، وعقد له على وزارته ، وفوض إليه في القيام بملكه ، فاستولى عليه ، [١٤٦] وملك هواه ، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى إن نزلت به آفة في رياسته ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرةً من<sup>(٢)</sup> ولد عمهم السلطان أبي علي ، ويخشونهم على أمرهم ، ولما لحق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفوسن بالأندلس ، اصطفاه ابن الخطيب ، واستخلصه لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته ، وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة ، مكان بني عمه من الأعياض<sup>(٣)</sup> ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره ، واستقل بملكه ، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند سلطانه ، فُدس<sup>(٤)</sup> إليه باعتقال عبد الرحمن

(١) الجمسوس : الفصير الديميم .

(٢) في تاريخ ابن خلدون ( ج ٧ ص ٣٣٧ طبعة بلاق ) : « علي » .

(٣) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الأعياض » .

(٤) كذا في ط وتاريخ ابن خلدون ونفح الطيب . وفي ت : « فأسر »

ابن أبي يفلوسن ، ووزيره [ المطاردي به ]<sup>(١)</sup> مسعود بن ماساي ؛ وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره ، وحمل السلطان عليهما ، إلى أن سطا بهما ابن الأحمر ، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز ؛ وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم ، وتنكر له ، فزاع عنه إلى عبد العزيز<sup>(٢)</sup> سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين ، لما قَدَّم من الوسائل ، ومهد من السوابق ؛ فقبله السلطان ، وأحلّه من مجلسه محل الاصطفاء والقرب ، وخطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه ، واستقر في جملة السلطان . ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان [ عبد العزيز ]<sup>(٣)</sup> في ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ؛ ونمى ذلك إلى ابن الأحمر ، فبعث إلى السلطان [ عبد العزيز ]<sup>(٣)</sup> بهديّة لم يُسمع بمثلا ، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها ، وبغالها الفارهة ومعلوجي<sup>(٤)</sup> السبّي وجواريه ، وأوفد بها رسله ، يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونسكه . ولما هلك واستبد الوزير ابن غازي بالأمر ، تحيز إليه ابن الخطيب وداخله ، وخطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خطب السلطان [ عبد العزيز ]<sup>(٣)</sup> ، فلجّ واستنكف عن ذلك وأقبح الرد ، وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته ؛ فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ، وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية<sup>(٥)</sup> ، ومعه الوزير مسعود بن ماساي ، ونهض — [ يعني ابن الأحمر ]<sup>(٣)</sup> — إلى جبل الفتح ، فنازله بعساكره ، ونزل عبد الرحمن ببطوية .

[ ١٤٧ ]

(١) زيادة عن ابن خلدون .

(٢) العبارة من قوله « وتغير الجو » إلى قوله « عبد العزيز » ساقطة في تاريخ ابن خلدون .

(٣) زيادة عن نفح الطيب .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٥) بطوية : من حصون ورباطات سفاقس ، وهي على البحر وبها منار مفرط في الارتفاع .

(عن المغرب للبكري) .

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا ، تركته لطوله ، وملخصه : أن الوزير أبو بكر ابن غازي ، الذي كان معه <sup>(١)</sup> ابن الخطيب ، ولّى ابن عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة ، خوفا عليها من ابن الأحمر ، ونهض هو ، أعنى الوزير ، إلى منازلة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ببطوية ، إذ كانوا قد بايعوه ، فامتنع عليه ، وقاتله أياما ، ثم رجع إلى تازا <sup>(٢)</sup> ، ثم إلى فاس ، واستولى عبد الرحمن على تازا ، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأي ، إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم ، وهو المعروف بذي الدولتين ، وهذه هي دولته الأولى ، وذلك أن ابن عم الوزير ، وهو محمد بن عثمان ، لما تولى سبتة ، كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتوح ، وأخذ بمخنقته ، وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب ، فاستعجب له ، وقبح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر بن غازي ، من الاستغلاظ له في شأن ابن الخطيب وغيره ، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله في [١٤٨] البيعة لابن السلطان أبي سالم ، من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطانا ، ولا يتركهم فوضى وهملات تحت ولاية الصبي الذي لم يبلغ ، ولا تصح ولايته شرعا ، وهو السعيد بن أبي فارس ، الذي بايعه الوزير أبو بكر بن غازي بتلمسان حين مات أبوه ، واستبد عليه ، واختص ابن الأحمر أحمد ابن أبي سالم من بين أولئك الأبناء ، لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من الموالاة . وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطا ، منها أن ينزلوا له عن جبل الفتوح ، الذي هو محاصر له ، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بني مرين ، ليكونوا تحت حوطة ، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا

(١) في نفع الطيب : « الذي كان تحيز إليه ابن احصب » .

(٢) تازا : موضع من أعمال بني العافية ، في جبل منه الذهب . (عن المغرب للبكري) .

عليه ؛ فانعقد أمرهم على ذلك ، وتقبل محمد بن عثمان شروطه ، وركب من سبئنة إلى طنجة ، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله ، فبايعه ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبئنة للبيعة وكتابتها ، فقدموا وبايعوا ، وخاطب أهل جبل الفتوح ، فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم . وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتوح ، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته ؛ فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه ، ودخله ، ومحا دعوة بني مرين ، مما وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس ، وأمده بعسكر من غزاة الأندلس ، وحمل إليه مالا للإعانة على أمره . ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر بن غازي ، قامت عليه القيامة ، وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يُمَوِّه بأن هذا عن أمره ، فغبراً من ذلك ، ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر ، فاعتل له [١٤٩] بانعقاد البيعة لأبي العباس . وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى مارامه منه ، بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس ، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمه ، ونهض إلى تازا المحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ، فاهتبل<sup>(١)</sup> في غيبة ابن عمه محمد بن عثمان مُلْكَ المغرب ، ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة<sup>(٢)</sup> نحو ستائة ، وعسكر آخر من الغزاة . وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه السلطان أحمد ، ومظاهرتة ، واجتماعهما على مُلْكِ فاس ، وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه ، فتراضيا . وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس ، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من

(١) اهتبل : غم .

(٢) الناشبة ، يريد : الرماة .

تازا ، فانفضَّ معسكره ، ورجع إلى فاس ، ونزل بكُدْيَةِ العرائس ؛ وانتهى  
السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون<sup>(١)</sup> ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، فاقتل  
مَصَافَّةً ، ورجع على عقبه مفلولا ، وانتهب عسكره ، ودخل البلد الجديد البيضاء ،  
وجأجا<sup>(٢)</sup> بالعرب أولاد حسين ، فعسكروا بالزيتون ظاهر فاس ، فنهض إليهم  
الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف ، وشرَّدهم إلى  
الصحراء ، وشارف السلطان أبو العباس أحمد بمجموعة من العرب وزناته ،  
وبعثوا إلى وليّ دولتهم ونزمار بن عريف ، بمكانه من قصره الذي اختطه  
بمَلْوِيَّة<sup>(٣)</sup> ، فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق ،  
فاجتمعوا بوادي النجا ، وتحالفوا ، ثم ارتحلوا إلى كُدْيَةِ العرائس في ذى القعدة  
من سنة خمس وسبعين ، وبرز إليهم الوزير بعساكره ، فانهزمت جموعه ،  
وأحيط به ، وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق . واضطرب معسكر  
السلطان أبي العباس بكُدْيَةِ العرائس ، ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه ، وضربوا  
على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار ، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ؛  
ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر ، فأحكموا الحصار ، وتحكموا في ضياع ابن  
الخطيب بفاس ، فهدموها ، وعاثوا فيها . ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل  
محمد بن عثمان ابن عمه الوزير أبا بكر في النزول عن البلد الجديد ، والبيعة للسلطان ،  
لكون الحصار قد اشتد به ويئس ، وأعجزه المال ، فأجاب ، واشترط عليهم الأمير

(١) الذي في المغرب للبكري : « زرهونة » .

(٢) كذا في ت ونفح الطيب : وجأجا : أهاب ودعا . وفي ط : « وجاء » .

(٣) ملوية : نهر كبير مشهور في المغرب الأقصى ويصب إليه نهر سجلماسة ويصيران  
نهرًا واحدًا يصب في بحر الروم في شرقي سبتة وجنوبها على ثلاث مئة وعشرة  
أميال . (عن تقويم البلدان) .

عبد الرحمن التجاني له عن أعمال سراكش بدل سجلماسة ، ففقدوا له على كرهه ، وطوّوا على المكر ، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العباس وبايعه ، واقتضى عهده بالأمان وتخليفة سبيله من الوزارة ، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سبع الحرم ، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى سراكش ، واستولى عليها .

### محنة ابن الخطيب ووفاته :

ثم ذكر ابن خلدون الخبر عن مقتل ابن الخطيب فقال :

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه [فاتح] <sup>(١)</sup> سنة ست وسبعين ، استقلّ بسلطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود بن أعراب كبير بني عسكر رديف له ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب ، وإسلامه إليه ، لِمَا نَمَى إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز المريني <sup>(٢)</sup> بملك الأندلس ، فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ، ولقيه أبو بكر بن غازي بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ، ولازمه بالحِصار ، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد ، خوفا على نفسه . فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه ، فقبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وطَّيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر ؛ وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب ، لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة

(١) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة في ت ونفح الطيب .

الغزاة بالأندلس ، متى أعاده الله إلى ملكه ، فلما استقر له سلطانه ، أجاز له سليمان سفيرا عن: [الوزير] <sup>(١)</sup> عمر بن عبد الله ، ومقتضيا عهده من السلطان ، فصدده ابن الخطيب عن ذلك ، [محتجا] <sup>(٢)</sup> بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياض الملك من بني عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناتة ؛ فرجع سليمان ، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ، ثم جاوز الأندلس لحل إمارته من جبل الفتح ، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ، يشير <sup>(٣)</sup> كل واحد منهما لصاحبه بما يحفظه ، مما كمن في صدورهما . وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله ابن زمرك ، فقدم على السلطان أبي العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور <sup>(٤)</sup> في مجلس الخاصة ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في الحجة <sup>(٥)</sup> ، فعظم النكير فيها ، فوبَّخ ونكَّل ، وامتنحن بالعذاب بمشهد ذلك الملاء ، ثم نُقل <sup>(٦)</sup> إلى محبسه ، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ، ودرس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من جاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا ، ومعهم زعانفة جاعوا في لفيف الخدم ، مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خنقا في محبسه ، وأخرج شلوه من الغد فدُفن في مقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على شافة <sup>(٦)</sup> قبره طريحا ، وقد جمعت له أعواد ، وأضرمت

(١) زيادة عن نفع الطيب .

(٢) في نفع الطيب : « ينفث » .

(٣) كذا في ت ونفع الطيب . والمشور : يريد مجلس المشورة . (راجع تكملة العنجات

لدوزي) . وفي ط : « بالمشور » .

(٤) في ت : « بالحجة » .

(٥) كذا في ط ونفع الطيب المطبوع . وفي ت والنسخة الخطية من نفع الطيب « نل » .

(٦) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب المطبوع والخطي : « سافة » . وفي الاطحة :

« سافة » . ولعل الكلمة محرفة عن : « حافة » .

عليه نار ، فاحترق شعره ، واسودَّ بشره ، فأعيد إلى حفرته ، وكان في ذلك انتهاء محنته . وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان ، واعتدوها من هَنَاتِه ، وعظَّم التَّكْيِيرَ فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعّال لما يريد .

وكان ، عفا الله عنه ، أيام امتحانه بالسجن يتوقّع مصيبة الموت ، فتجشّش شعره في محبسه يبكي نفسه

هواتفه بالشعر ، يبكي نفسه ، ومما قال في ذلك :

بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرْتْنَا الْبُيُوتُ      وَجئْنَا بوعظ ونحن صموتُ  
وَأَنفَاسُنَا سَكَنْتْ دَفْعَةً      كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهِ الْقُنُوتُ  
وَكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا      وَكُنَّا نَقُوتُ فَمَا نَحْنُ قُوتُ  
وَكَنَّا شُمُوسَ سَمَاءِ الْعَالَا      غَرَبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السَّمُوتُ<sup>(١)</sup>  
فَكَمْ خَذَلَتْ ذَا الْحُسَامِ الظُّبَا      وَذُو الْبُخْتِ كَمْ جَدَّلَتْهُ الْبُخُوتُ  
وَكَمْ سَيَقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ      فَتَى مُلِثَتْ مِنْ كُسَاهِ التُّخُوتِ  
فَقُلْ لِلْعَدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ      وَفَاتِ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتُ  
وَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْهُمْ لَهُ      فَقُلْ : يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ

انتهى كلام ابن خلدون في ديوان العبر .

تخميس لبعض  
بني الصباغ

ورأيت تخميسا لبعض بني الصباغ على هذه القطعة ، لكنه زاد فيها بعض

أبيات على ما ذكره ابن خلدون ، وها أنا أثبتته تيمنا للفائدة ، وهو :

أَيَا جَاهِلًا غَرَّهَ مَا يَفُوتُ      وَأَهْلَاهُ حَالٌ قَلِيلُ الثَّبُوتِ  
تَأْمَلُ لِمَنْ بَعْدَ أَنْسٍ يَصُوتُ<sup>(٢)</sup>      بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرْتْنَا الْبُيُوتُ  
وَجئْنَا بوعظ ونحن صموتُ

(١) السموت : الطرق ؛ الواحد : سمت . ولعله يريد : مدارات النجوم .

(٢) في ط ونفح الطيب : « يقوت » .

لقد نلتُ من دَهْرنا رِفْعَةً      تقضتُ كَبْرُقَ مَضَى سُرْعَةً  
فهيئاتُ ترجو لها رِجْعَةً      وأصواتنا<sup>(١)</sup> سَكنتُ دَفْعَةً

كجهر الصلاة تلاه القنوتُ

بدا لي من العزِّ وجهٌ شَبَابُ      يُؤمِّلُ سَيْبِي وبأسى يُهَابُ<sup>(٢)</sup> [١٥٣]  
فسرعان مُزَّقُ ذاك الإهابُ      ومدتُ وقد أنكرتنا الثيابُ

علينا<sup>(٣)</sup> نسايجها العنكبوتُ

فأها لعزِّ تقضى مَنَامًا      مُنَحْنَا به الجاه دَوْمًا<sup>(٤)</sup> كِرَامًا  
وكنا نسوسُ أمورًا عِظَامًا      وكنا عِظَامًا فِصْرًا عِظَامًا  
وكنا نقوتُ فيها نحن قُوتُ

وكنا لذا المَلَكِ حَلَى الطُّلَا      فأها عليه زمانًا خَلَا  
نُعَوِّضُ من جِدَّةِ البَلَى      وكنا شُموسَ سماءِ العُلالَا  
غَرَبْنَ فَناحتُ علينا الشُّموتُ

تعوذتُ بالرغمِ صرفِ اللِيَالِي      وَحَمَلْتُ نَفْسِي فوقَ اِحْتِمَالِي  
وأيقنتُ أن سوف يأتي اِرْتِمَالِي      وَمَنْ كانَ مُنْتَظَرًا لِلزُّوالِ  
فكيف يُؤمِّلُ منه الثبوتُ

(١) فيما مر: « وأنفاسنا » .

(٢) كذا في نفع الطيب . والسبب : العطاء . وفي ت : « يؤمن شيبى » . وفي ط :

« يؤمن سيني وسيني .. الخ » .

(٣) في ط : « عليها » .

(٤) كذا في ت . وفي ط : « قدما » . وفي نفع الطيب : « قوما » .

هو الموت يا ما له من نَبَا<sup>(١)</sup> يَجُوزُ الحِجَابَ إلى مَنْ أبنِي  
ويألف<sup>(٢)</sup> أخذ سنى الحِجَابِ<sup>(٣)</sup> فكم أسلمت ذا الحُسَامِ الطُّبَا

وذا البخت كم جدلته البُخوتُ

هو الموتُ أفصح من مُجْمَةٍ وأيقظَ بالوعظ من نَوْمَةٍ  
وسألَى عن الحزن ذا حُرْقَةٍ فكم سيق للقبْرِ<sup>(٤)</sup> في خِرْقَةٍ

فتى ملئت من كُساه التُّخوتُ

تقضى زمانى بعيشٍ خَصِيبٍ وعندي لذني انكسارُ المُنِيبِ  
وها الموتُ قد صُبت منه نصيبي<sup>(٥)</sup> فقل للعدا ذهب ابن الخطيبِ

وفات ومن ذا الذي لا يفوتُ

مضى ابنُ الخطيبِ كمن قبله ومن بعده يقنق سُبُلَهُ  
وهذا الردى نائر شمله<sup>(٦)</sup> فمن كان يفرح منهم له

فقل يفرح اليوم من لا يموتُ

(١) يريد : « نبا » فسهل للشعر .

(٢) كذا في نفع الطيب المطبوع . وفي الأصلين والنسخة الخطية من نفع الطيب  
« ويألف » .

(٣) كذا في النسخة الخطية من نفع الطيب ، يريد : الحياء ، وقصره للشعر . ويريد  
بسنن الحياء : الشريف العزيز الممتنع في خبائه . وفي الأصلين ونفع الطيب  
المطبوع : « الحبا » .

(٤) في ت (هنا) : « الموت » .

(٥) كذا في نفع الطيب المطبوع والخطوط . وفي ت : « قد ضقت منه نصيب »  
وفي ط : « قد ضعت منه نصيب » .

(٦) موضع هذا الشطر في الأصلين بياض . وقد زدناه عن نفع الطيب .

هو الموتُ عمٌّ فما للعِدا يُسرُّون بي حين<sup>(١)</sup> ذُقتُ الردى  
ومن فاته اليومَ يأتي غداً سَيَبلى الجديدُ إذا ما المدى  
تتابع آحاده والشبوتُ

أخىَّ تونخَّ طريقَ النجاةِ وقدمَ لنفسك قبل الماتِ  
وشمرَّ بجِدِّ لِمَا هو آتٍ ولا تعترزُ بسرابِ الحياةِ  
فإنك عما قريب تموتُ

انتهى . وقد تذكرت بقوله :

سَيَبلى الجديد إذا ما المدا تتابع آحاده والسبوت  
قول الآخر :

نَطَوِي سُبوتًا وآحادًا وننشرها ونحن في الطيِّ بين السبِّتِ والأحدِ  
فعدَّ ما شئتَ من سبِّتٍ ومن أحدٍ لا بد أن يدخل المَطْوِيُّ في العَدَدِ

سُعره :

شعر ابن الخطيب

قال بعض الأعلام : شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع ، ولا معرَّج  
على شاعر بعده للأذان والمسامع ؛ فمن ذلك قوله سماحه الله :

عسى خَطْرَةٌ بِالرَّكْبِ يَاحَادَى الْعَيْسِ<sup>(٢)</sup> على الهضبةِ الشِّمَاءِ من قَصْرِ بَادِيسِ<sup>(٣)</sup>

(١) في ت : « حيث » .

(٢) كذا في ط ونفح الطيب (ج ٤ ص ٥٨٤) . وفي ت : « نظرة » .

(٣) باديس : فرضة بينها وبين سببته مئة ميل ، ويقابلها من الأندلس مالقة . (عن  
تقويم البلدان) .

- لَنظُنُّرَ مِنْ ذَاكَ الزُّلَّالِ بَعْلَةً      وَتَنُمُ فِي تِلْكَ الظُّلَّالِ بِتَعْمُرِيسٍ (١)
- حَبَسْتُ بِهَارِ كَبِيٍّ فُوقَاً وَإِنَّمَا      عَقَدْتُ عَلَى قَلْبِي لَهَا عَقْدَ تَحْبِيسٍ (٢)
- لَقَدْ رَسَخْتُ آيُّ الْجَوَا فِي جَوَانِحِي      كَمَا رَسَخَ الْإِنْجِيلُ فِي قَلْبِ قَيْسِيسٍ
- بِمَيْدَانِ جَفْنِي لِلْسَّهَادِ كَثِيبَةٌ      تُعِيرُ عَلَى سَرِّحِ الْكُرَى فِي كَرَادِيسٍ (٣)
- وَمَا بِي إِلَّا تَفْحُوسَةٌ حَاجِرِيَّةٌ      سَرَّتْ وَالِدَجِي مَا بَيْنَ وَهْنٍ وَتَغْلِيسٍ (٤)
- أَلَا نَفْسٌ يَارِيحُ مِنْ جَانِبِ الْحِمَى      تُنْفَسُ مِنْ نَارِ الْجَوَى بِعَضِّ تَنْفِيسٍ
- وَيَا قَلْبَ لَا تُلْقِ السَّلَاحَ فَرِيحًا      تَعَذَّرَ فِي الدَّهْرِ اطِّرَادُ الْمُقَابِيسِ
- وَقَدْ تُعْتَبِ الْأَيَّامُ بَعْدَ عِتَابِهَا      وَقَدْ يُعْتَبِ اللَّهُ النَّعِيمَ مِنَ الْبُوسِ
- وَلَا تَخْشَى لُجَّ الدَّمْعِ يَا خَطْرَةَ الْكُرَى      إِلَى الْجَفْنِ بِلِ قَيْسِي عَلَى صَرِّحِ بَلْقَيْسِ (٥)
- تَقُولُ سُلَيْمَى : مَا لِحَسَمِكَ شَاحِبًا      مَقَالَةٌ تَأْنِبُ يُشَابُ بَتَانِيسِ
- وَقَدْ كُنْتَ تَعْطُونَ كَمَا هَبَّتِ الصَّبَا      بَرِيَّانَ فِي مَاءِ الشَّبِيبَةِ مَغْمُوسِ
- وَمِنْ رَاجِحِ الْأَيَّامِ يَا بِنْتَ عَامِرٍ      يَجُوبُ النَّالِرَاحَتِ يَدَاهُ بِتَغْلِيسِ (٦)

(١) التعريس : النزول للاستراحة آخر الليل .

(٢) الفواق (بالضم والفتح) : ما بين الحلتين من الوقت ؛ أو ما بين فتح يدك

وقبضها على الضرع . يريد : وقتاً قصيراً .

(٣) الكراديس : القطع العظيمة من الخيل . يريد : جيوش السهاد .

(٤) حاجرية : نسبة إلى حاجر . وهو منزل من منازل الحاج . والوهن : نحو من

نصف الليل أو بعد ساعة منه . والتغليس : آخره .

(٥) لا تخش : الصواب فيه فتح الشين وإسكان الياء ، إلا أن الوزن لا يستقيم

بهذا الضبط . ويشير بصرح بلقيس إلى الآية الكريمة : « قيل لها ادخلي

الصرح » .

(٦) راجح الأيام : غالبها ، يرجو أن ترجع كفته .

فلا تحسبي والصدقُ خيرٌ<sup>(١)</sup> سحبية  
وقفـراء أما ركبها فمضلل  
سـنحنا<sup>(٤)</sup> بها من هضبة لقرارة  
إذا ما نهضنا عن<sup>(٦)</sup> مقيل غزالة  
أردنا بها كأساً دهاقاً من الشرى  
وحانة خمار هدانا لقصدها  
تطلع ربانيتها من جـداره  
بكرنا وقلنا إذ نزلنا بساحة  
أيا عابد الناسوت إنا عصابة  
وما قصـدنا إلا المقام بحانة  
فأنزلنا قوراء في جنباتها<sup>(٨)</sup>  
بدرنا بها طين الختام بسجدة  
ودار العذارى بالمدام كأنها  
وصارفنا فيها نضارا بمثلـه

ظهور النوى إلا بطون النواميس<sup>(٢)</sup>  
ومرّ بها من آنس غير مانوس<sup>(٣)</sup>  
ضلالا وملنا من كناس إلى خيس<sup>(٥)</sup>  
نزلنا فعرسنا بساحة عريس<sup>(٧)</sup> [١٥٥]

أملنا بها عند الصبح من الروس  
شميم الحميا واصطكك النوايس  
يهيم في جنح الظلام بتقديس  
عن الصافات الجرد والضمر العيس  
أتينا لتثليث بلى ولتسديس  
وكم أليس الحق المبين بتلبيس  
محارب شتى لاختلاف النواميس  
أردنا بها تجديد حسرة إبليس  
قطاً تتهادى في رياش الطواويس  
كأننا ملأنا الكأس ليلا من الكيس

(١) في ت : « غير » . وهو تحريف .

(٢) كذا في الأصاين ونفح الطيب المخطوط والمطبوع . ولعلها محرفة عن « النوايس »

بمعنى القبور .

(٣) المربع : الموضع الذي يرتفع فيه في الربيع .

(٤) في نفح الطيب : « سحننا » .

(٥) الكناس : بيت الظبي . والحيس : موضع الأسد .

(٦) في ت : « من » .

(٧) العريس : مأوى الأسد .

(٨) في نفح الطيب المخطوط والمطبوع : « فأنزلنا قورا على جنباتها » .

وَقُمْنَا نَشَاوَى عِنْدَمَا (١) مَتَعَ الضُّحَى  
 فَقَالَ : لِبئْسَ الْمَسَامُونَ ضِيُوفَنَا  
 وَهَلْ فِي بَنِي مَثْوَاكَ إِلَّا مُبْرَزٌ  
 إِذَا هَزَّ عَسَّالَ الْيَرَاعَةِ فَاتَكَأَ  
 يَقَلَّبُ تَحْتَ النَّقْعِ مُقَلَّةٌ ضَا حَكْ  
 سَبِينَا عُقَارِ الرُّومِ فِي عُقْرِ خَانِنَا (٢)  
 لَئِنْ أَنْكَرْتُ شَكْلِي فَفَضَّلِي وَاضْحُ  
 رَسَبْتُ بِأَقْصَى الْغَرْبِ ذُخْرَ مَضْنَةٍ (٣)  
 وَأَعْرَيْتِ سُوسِي (٤) بِالْعُذَيْبِ وَبَارِقِ  
 كَمَا نَهَضْتَ غُلْبَ الْأَسْوَدِ مِنَ الْخَيْسِ (٥)  
 أَمَا وَأَبِيكَ الْحَبْرُ (٦) مَا نَحْنُ بِالْبَيْسِ (٧)  
 بِحَلْبَةِ سُورَى أَوْ بِحَلْقَةِ تَدْرِيسِ  
 أَسْأَلُ نَجْمِيعَ الْحَبْرِ فَوْقَ الْقِرَاطِيسِ  
 إِذَا التَّفَتَ الْأَبْطَالُ عَنِ مَقَلِّ شُوسِ (٨)  
 بِحَيْلَةٍ (٩) تَمُؤِيهِ وَخُدْعَةٍ تَدْلِيسِ  
 وَهَلْ جَائِزٌ فِي الْعَقْلِ أَنْكَارُ مَحْسُوسِ  
 وَكَمْ دُرَّةٌ عَلِيَاءٌ فِي قَاعِ قَامُوسِ  
 عَلَى وَطَنِ دَانِي الْجَوَارِ مِنَ الشُّوسِ (١٠)

ومن ذلك قوله رحمه الله في الميلاء النبوي على صاحبه الصلاة والسلام  
 يمدح مخدمه أبا عبد الله الخلووع :

مَا عَلَى الْقَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاحٍ  
 أَنْ يُرَى طَائِرًا بَعْدَ جُنَاحِ

قصيدة  
 لابن الخطيب  
 في المولد النبوي

- ( ١ ) في ت : « بعدما » .
- ( ٢ ) متع الضحى : بلغ آخر غايته .
- ( ٣ ) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « الخير » .
- ( ٤ ) بالبيس : يريد : بالبئس ، أي لسنا بمن يقال لهم : بئس المسلمون .
- ( ٥ ) شوس ، أي تنظر بمؤخر العيون غضبا .
- ( ٦ ) في نفع الطيب : « دارها » .
- ( ٧ ) في ط ونفع الطيب : « بحماية » .
- ( ٨ ) في نفع الطيب : « ثغر مضلة » .
- ( ٩ ) كذا في الأصلين ونفع الطيب المطبوع . والسوس (هنا) : السجبة والطبع . وفي  
 النسخة الخطية من نفع الطيب : « موسى » .
- ( ١٠ ) العذيب وبارق : موضعان بالكوفة وفيهما يقول أبو الطيب :  
 تذكرت ما بين العذيب وبارق بحر عوالينا وبحرى السوابق  
 والسوس : كورة بالمغرب مدينتها طنجة .

وعلى الشوق أن يُشَبَّ إذا هبَّ بأنفاسكم نسيمُ الصباحِ  
 جيرةَ الحى والحديثِ شُجونُ والليالى تلينُ بعدَ الجِماحِ  
 أتروُن السُّلُوَّ خَاسِرُ قَلْبِي بعدكم ؟ لا ، وفالقِ الإصباحِ  
 ولو أنى أُعْطِيَ اقتراحى على الأيامِ ما كان بُعْدُكُمْ باقتراحى [١٥٦]  
 ضايقتنى فيكمُ صروفُ الليالى واستدارت علىّ دَوْرُ الوِشاحِ (١)  
 وسَقَّتْنِي كَأْسُ الفِراقِ دِهاقاً فى اغتباقِ مُواصلِ واصطباحِ (٢)  
 واستباحت من جِدَّتِي وَفَتَايِ حَرَمًا لَمْ أَخْلَهُ بالمُستباحِ  
 ومنها :

يأتري والنفوس أسرى أمانى ما لها من (٣) وثاقها من سراح  
 هل يُباحُ الوُورودُ بعدَ ذِيادٍ أو يُباحُ اللِّقاءُ بعدَ انتراح  
 وإذا أعوذَ الجِسومَ التِّلاقِ نابَ عنه تعارفُ الأرواحِ

وهى طويلة ، ولم يحضرنى منها فى هذا التاريخ سوى ما كتبتة . قلت : وأظن  
 أن الفقيه الكاتب أبا زكريا يحيى بن خلدون كاتب الإنشاء بتلمسان المحروسة ،  
 أيام السلطان أبى حمو (٤) موسى بن يوسف الزيانى رحمه الله نسج على منوال  
 هذه القصيدة فى قصيدة بديعة له ، ورفعها إلى السلطان أبى حمو فى مولد سنة

قصيدة  
 لأبى زكريا  
 ابن خلدون  
 يحاكى بها  
 قصيدة  
 ابن الخطيب

(١) الوشاح (بالضم والكسر) : أديم عريض يرصم بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها  
 وكشحتها .

(٢) الاغتباق : شرب القبوق ، وهو شراب العشى . والاصطباح : شرب الصبوح ،  
 وهو شراب الصبح .

(٣) كذا فى ط ونفح الطيب (ج ٤ س ٦٠٢) . وفى ت : « عن » .

(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين هنا : « حم » .

ثمان وسبعين وسبع مئة . وهذا ابن خلدون أخو ولي الدين صاحب التاريخ  
المشهور ، ونص القصيدة :

ما على الصَّبِّ في الهوى من جُنَاحٍ      ما على الصَّبِّ في الهوى من جُنَاحٍ  
وَإِذَا مَا الْمُحِبِّ عَيْلًا اصْطَبَارًا      وَإِذَا مَا الْمُحِبِّ عَيْلًا اصْطَبَارًا  
يَا رَعَى اللهُ بِالْمُحِصِّ رُبْعًا      يَا رَعَى اللهُ بِالْمُحِصِّ رُبْعًا  
كَمْ أَدْرْنَا كَأْسَ الْهَوَى فِيهِ مَزْجَا      كَمْ أَدْرْنَا كَأْسَ الْهَوَى فِيهِ مَزْجَا  
هَلْ إِلَى رَسْمِهِ الْمُحِيلِ سَبِيلٌ      هَلْ إِلَى رَسْمِهِ الْمُحِيلِ سَبِيلٌ  
نَسْأَلُ الدَّارَ بِالْخَلِيطِ وَنَسْقِي      نَسْأَلُ الدَّارَ بِالْخَلِيطِ وَنَسْقِي  
أَيَّ شَجْوٍ عَايَنْتُ بَعْدَ نَوَاهَا      أَيَّ شَجْوٍ عَايَنْتُ بَعْدَ نَوَاهَا  
أَهْلَ وَدَى إِنْ رَابَكُمْ بَرَحٌ وَجَدَى      أَهْلَ وَدَى إِنْ رَابَكُمْ بَرَحٌ وَجَدَى  
فَاسْأَلُوا الْبَرْقَ عَنِ خُفُوقِ فَوَادَى      فَاسْأَلُوا الْبَرْقَ عَنِ خُفُوقِ فَوَادَى  
يَا أَهْيَلِ الْحَمَى نَدَاءَ مَشُوقٍ      يَا أَهْيَلِ الْحَمَى نَدَاءَ مَشُوقٍ  
طَلَمَا اسْتَعَذَبَ الْمَدَامِعَ وَزِدَا      طَلَمَا اسْتَعَذَبَ الْمَدَامِعَ وَزِدَا  
عَادَهُ بِالطُّولِ لِلشُّوقِ عَيْدٌ      عَادَهُ بِالطُّولِ لِلشُّوقِ عَيْدٌ [١٥٧]  
مَنْ لَقِبَ مِنَ الْجَوَى فِي ضِرَامٍ      مَنْ لَقِبَ مِنَ الْجَوَى فِي ضِرَامٍ  
وَلِصَبِّ يَهْيِجُهُ الذِّكْرُ شَوْقًا      وَلِصَبِّ يَهْيِجُهُ الذِّكْرُ شَوْقًا  
وَلِيَالٍ قَضَيْتُ لِلَّهِ فِيهَا      وَلِيَالٍ قَضَيْتُ لِلَّهِ فِيهَا

(١) المحصب : موضع فيما بين مكة ومنى ، وهو إلى منى أقرب . (عن معجم البلدان) .

(٢) الطلاح : الإبل التي أعيها السفر وأضناها .

(٣) مزاح : بعيد .

راكباً في الهوى ذُلُولُ تَصَابٍ<sup>(١)</sup>      ساحباً في الغرام ذيلَ مَراحِ  
 ونجومُ المني تُنيرُ إلى أن      رَوَّعَ الشيبُ سيرُها بالصباحِ  
 أي مسرّى حَمِدْتُ لم أخل<sup>(٢)</sup> منه      بسوى حسرةٍ وطولِ افتضاحِ  
 وَاخْسَارِي يومَ القيامةِ إن لم      يغفرِ اللهُ زَلَّتِي واجترَاحِي  
 لم أقدمُ وسيلةً فيه إلا      حُبَّ خيرِ الورى الشفيحِ الماحي  
 سيّدِ العالمينِ دُنيا وأخرى      أشرفِ الخلقِ في العُلا والسّماحِ  
 سيّدِ الكونِ من سماءِ وأرض      سيرُّه بين غايةٍ وافتتاحِ  
 زهرةِ الغيبِ مَظْهَرُ الوَحْيِ معنَى النورِ      كُنْهَ المِشْكَاةِ والمِصْبَاحِ  
 آيةِ المِكرُماتِ قُطْبُ المعالي      مصطفىِ اللهُ من قُرَيْشِ البِطاحِ  
 أوّلِ الأنبياءِ تَخْصِيصِ زُلْفِي      آخرِ المرسلينِ بعثَ نِجَاحِ  
 صفوةِ الخلقِ أرفعِ الرسلِ قَدْرًا      وسراجِ الهدى وشمسِ الفلاحِ  
 مَنْ لِمِيلادهِ بِمِكةِ ضاءتِ      من قُرَيْ قَيْصَرٍ جَمِيعِ الضواحي  
 وَخَبَّتْ نارِ فارسٍ وتداعتِ      مِنْ مَشِيدِ الإيوانِ كلِّ النواحي  
 من رَقِي في السماءِ سَبْعًا طِباقا      ورأى آيَ رَبِّهِ في اتِّضاحِ  
 ودنا منه قَابَ قَوْسَيْنِ قُرْبًا      ظافراً في العُلى بَكلِّ اقتراحِ  
 من هَدَى الخلقِ بين حُمْرِ وَسُودِ      وجَلَّ لِيَسْلَ غِيْثِهِمِ بالصباحِ  
 من يُجِيرِ الورى غدا يومَ يُجْزَى      كلِّ عاصِ وطائِعِ باجتراحِ

(١) في نفع الطيب : « تقاب » .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب الخطي والمطبوع . وفي ت : « لم أنل » .

مَن إِلَى حَوْضِهِ وَظِلِّ لَوَاهِ (١)  
 أَحْمَدَ الْمُجْتَبَى حَبِيبًا وَأَتَى  
 فِي أَنَاجِيهِ لَه الْمَسِيحُ تَلَاهِ  
 وَلَكُمْ حُجَّةٌ وَبِرْهَانٍ صَدَقِ  
 إِنَّ فِي النَّجْمِ وَالنَّبَاتِ لَأَيًّا  
 مَعْجَزَاتٍ فَتَنَ الْمَدَارِكَ وَصَفَا  
 يَا رُوَاةَ الْقَرِيضِ وَالشَّعْرِ عَجْرًا  
 إِنَّمَا حَسَبْنَا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ  
 يَا إلهِي بِحَقِّ أَحْمَدَ عَفْوًا  
 وَأَدِيمَ دَوْلَةَ الْخَلِيفَةِ مُوسَى  
 مَفْخَرُ الْمَلِكِ مُسْتَقَرُّ الْمَزَايَا  
 نَاصِرُ الْحَقِّ خَاذِلُ الْجَوْرِ عَدْلًا  
 يَتَلَقَّى النَّسْدَى بِوَجْهِ حَيٍّ  
 وَلَهُ الْمَكْرُمَاتُ إِرثًا وَأُبْسًا (٤)  
 مِنْ عُلَا بَاذِخٍ وَفَخْرٍ صَمِيمِ  
 وَأَحَادِيثَ فِي الْعَالِي حِسَانِ  
 عَاقِدَ صَفْقَةَ الْعُلَا كُلِّ حِينِ

يَلْبَجُ النَّاسُ بَيْنَ ظَامٍ وَضَاحِي (٢)  
 فَوْقَ عِزِّ الْحَبِيبِ مَرْمَى طِيَّاحِ  
 بِاسْمِهِ وَالْكَلِيمِ فِي الْأَوَّاحِ  
 فِي سَمَاعِ أَتَى بِهَا وَالطَّيَّاحِ  
 بَهَّرَتْ وَالْجَمَادِ وَالْأَرْوَاحِ  
 وَحِسَابَا كَالزُّهْرِ أَوْ كَالصَّبَّاحِ  
 مَا عَسَى تُدْرِكُونَ بِالْأَمْدَاحِ  
 وَهِيَ لِلْفَوْزِ آيَةٌ أُسْتَفْتَاحِ  
 عَنِ (٣) ذُنُوبِ جَنِينَتَيْنِ قَبَاحِ  
 ذِي الْعَالِي الْمُبِينَةِ الْأَوْضَاحِ  
 مَظْهَرِ اللَّطْفِ ذُو التَّقَى وَالصَّلَاحِ  
 مَلْبَجُ الْخَائِفِينَ بِحُرِّ السَّمَاحِ  
 وَيُلَاقِي الْعِيدَا بِبِأَسِ صِفَاحِ  
 حَازَ حَمْدًا بِهَا مُعَلَّى الْقِدَاحِ  
 وَكَمَالِ بَحْتٍ وَتَجْدِ صُرَاحِ  
 رُوِيَتْ عَنْهُ فِي الْعَوَالِي الصَّحَاحِ  
 فَاتَزَ فِيهِ سَعْيُهُ بِالرَّيَّاحِ

[١٥٨]

(١) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « حماه » .

(٢) الضاحي : الذي يبرز للشمس ويصلي حرها .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « من » .

(٤) كذا في الأصلين ونفح الطيب . ولعلها : « كسبا » .

لِلنَّدى وَالهُدى يَرُوح وَيَعْدُو      أَيْ مَنَدَى إِلَى الْعَلَا وَمَرَّاحِ  
 مَلِكٍ تُشْرِقُ الْأَسِرَّةَ مِنْهُ      فِي سَمَاءِ السَّرِيرِ نُورَ صَبَّاحِ  
 وَإِذَا مَا عَالَا بِعَالَى الْعَوَالِي      صَهْوَةَ الْجُرْدِ فَهُوَ لَيْثُ الْكِفَاحِ  
 لَيْسَ الدَّهْرُ مِنْهُ حُكْلَةٌ حُسْنٌ      وَتَنَى لِلشَّرُورِ عِطْفَ مِرَّاحِ  
 وَعَلَا عَاتِقَ الْخِلَافَةِ مِنْهُ      طِرْزَ فَنَخْرِ سَبَى النُّهَى بِالتَّاحِ  
 وَرِثَ الْمُلْكَ شَاخِحًا عَنْ سَرَاةٍ      شَيْدُوا رُكْنَهُ بِأَيْدِي الصَّفَاحِ  
 مِنْ بَنِي الْقَاسِمِ الَّذِينَ تَحَلَّوْا      بِالْمَعَالِي وَاسْتَأَثَرُوا بِالْفَلَاحِ  
 فَرَعَوْا هَضْبَةَ الْخِلَافَةِ مَجْدًا      رَفَعُوا سَقْفَهُ عَلَى الْأَرْمَاحِ  
 نَشَرُوا رَايَةَ الْمَفَاخِرِ تَحْمَدًا      خَافِقَ النُّورِ بِالرُّبَا وَالْبِطَاحِ  
 يَا إِمَامًا بَدَّ الْمُلُوكَ جَلَالًا      وَجَمَالَ فُدَيْتَ بِالْأُرُوحِ  
 أَنْتَ شَمْسُ الْكَمَالِ دُمْتَ عَلِيًّا      فِي اغْتِبَاقِ مِنَ الْمُنَى وَاضْطِبَاحِ  
 وَبَنُوكَ الْأَعْلُونَ أَنْجُمُ سَعْدٍ      زَاهِرَاتُ بُنُورِكَ الْوَضَاحِ  
 وَأَبُو تَاشَفِينَ بَدْرٌ مُنِيرٌ      زَانَهُ اللَّهُ بِالْخِلَالِ الصَّبَّاحِ  
 أَكْمَلَ الْعَالَمِينَ خَلْقًا وَخُلُقًا      أَشْرَفَ النَّاسِ فِي النَّدى وَالْكَفَاحِ  
 وَبِكُمْ زُيِّنَتْ سَمَاءُ الْمَعَالِي      وَاهْتَدَى النَّاسُ فِي الدُّجَى وَالصَّبَّاحِ

قلت : قوله :

أَكْمَلَ الْعَالَمِينَ خَلْقًا وَخُلُقًا      أَشْرَفَ النَّاسِ فِي النَّدى وَالْكَفَاحِ

لا يخلو من قلة تحفظ ، ومثل هذا في الحقيقة إنما يُطلق على رسول صلى الله عليه [١٥٩] وسلم ، وإن كان المتكلم أراد أهل عصره .

وصف ليالى  
مولد النبي  
أيام السلطان  
أبي حمو

وكان السلطان أبو حمو<sup>(١)</sup> موسى بن يوسف المدوح في هذه القصيدة يحتفل  
لكيلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب  
والأندلس في ذلك العصر وما قبله يعتنون بذلك ، ولا يقع منهم فيه إغفال ؛  
وقد تقدم أن العزفي صاحب سبته هو الذي سن ذلك في بلاد المغرب ، وأتى  
بزأني تدينه إلى الله وتقرّب ؛ واقتفى الناس سنّه ، وتقلدوا مننه ؛ تعظيماً للجناب  
الذي [وجب] له السموات والعلو ، على أن بعضهم قد خرج في ذلك إلى حد الإسراف  
والغلو ؛ وكل يعمل على شاكلته .

ومن جملة احتفال السلطان أبي حمو<sup>(١)</sup> المذكور ما قاله صاحب راح  
الأرواح<sup>(٢)</sup> : « إنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوي ، على صاحبه الصلاة والسلام ،  
بمشورة من تلمسان المحروسة ، مدعاة حفيظة ، يحشر فيها الناس خاصة وعامة ،  
فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ؛ وبسط مؤشاه ، ووسائد بالذهب  
مغشاه ؛ وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالكهلات ؛ ومباخر صُفر منصوبة كلقباب ،  
يخالها المبصر من تبر [مذاب]<sup>(٣)</sup> ؛ ويُفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها  
أزهار الربيع المنمنمة ؛ تشبهها الأنفوس وتستلذها النواظر ، ويخالط حُسن رِيّها<sup>(٤)</sup>  
الأرواح ويُنحمر ؛ رُتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت  
الجميع أبهة الوقار والإجلال ؛ وبعقب ذلك يحتفل المُسمعون بأمداح المصطفى  
عليه الصلاة والسلام ، ومُكفّرات ترغّب في الإقلاع عن الآثام ؛ يخرجون فيها  
من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ؛ ويأتون من ذلك بما<sup>(٥)</sup> تطرب له

[١٦٠]

- (١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « أبو حم » .
- (٢) صاحب راح الأرواح هو أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني .
- (٣) التكملة عن نفع الطيب .
- (٤) في ط : « رؤياها » .
- (٥) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « ما » .

النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ؛ وبالقرب من السلطان ، رضوان الله عليه ،  
خزانة [المنجاة] <sup>(١)</sup> ، قد زُخِرِفَتْ كأنها حُلَّةٌ يمانية ، لها أبواب مُرْتَجَّةٌ <sup>(٢)</sup> ، على  
عدد ساعات [ <sup>(٣)</sup> الليل الزمانيه ؛ فهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ،  
وفتح عند ذلك باب من أبوابها ؛ وبرزت منه جارية صُوِّرت في أحسن صورته ،  
في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطوره ؛ فتضعها  
بين يدي السلطان بلطافه ، ويُسراها على فهمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافه ؛  
هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداء المنادى حتى " على الفلاح " .  
انتهى كلام صاحب راح الأرواح .

وقال <sup>(٤)</sup> في نظم الدرر والعقيان في هذا المعنى ما نصه :

« وكان ، يعنى السلطان أبا حمو ، يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ،  
ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يُقيم مدعاة ، يحشر لها الأشراف والشوكة ،  
فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان  
الحضرة على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخبز الملون ، وبأيديهم  
مباخر ومِرَشَّات ، ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجاة ذات تماثيل الجُين  
محمكة الصنعة ، بأعلاها أَيْكَة تحمل طائرا ، قرّخاه تحت جناحيه ، ويختله  
فيهما <sup>(٥)</sup> أرقم ، خارج من كوة بجذرا الأيكة صُعُدا <sup>(٦)</sup> ، وبصنذرها أبواب مُرْتَجَّة

(١) المنجاة : آلة لرصد الوقت . ( انظر تكملة المعجمات لدوزى ) .

(٢) كذا في النسخة الخطية من نفح الطيب وفيما سيأتى في الأصلين . وفي الأصاين هنا

ونفح الطيب المطبوع : « موجفة » .

(٣) التكملة عن ت ونفح الطيب .

(٤) يريد أبا عبد الله التلمساني ثم التنسي صاحب راح الأرواح .

(٥) في نفح الطيب : « فيها » .

(٦) في نفح الطيب : « صاعدا » .

بعدد ساعات الله الزمانية ، يصاقب طرْفِها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُورُن  
 رأس الخزانة ، قرأ كل ، يسير على خط الاستواء سير نظيره من الفلك ، ويُسامت  
 أول كل ساعة بأبها المرتج ، فينقضُ من البابين الكبيرين عُقَابان ، بِفِي (١) كل  
 واحد منهما صَنْجَة صُفْر ، يلقىها إلى طَسْت من الصُفْر مجوف ، بوسطه ثقب يفضى  
 بها إلى داخل الخزانة فيرن ، وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبواه ، فهنا [١٦١]  
 يفتح باب الساعة الناهية ، وتبرز منه جارية محزّمة ، كأظرف ما أنت راء ،  
 بينماها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويُسراها موضوعة على فيها ، كالمبايعة  
 بالخلافة ، والمُسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا  
 ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم . ثم يُوقى آخر الليل بموائد كالهالات دُورا ،  
 والرياض نورا ؛ قد اشتملت من أنواع محاسن الطعام على ألوان تشبهها الأنفس ،  
 وتستحسنها الأعين ، وتلذّ بسمع أسمائها الأذن ، ويشره مُبصرها للقرب منها  
 والتناول وإن كان ليس بعَرْتان ؛ والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتداء جلوسه  
 فيه ، وكل ذلك برأى منه ومسمع ، حتى يصلي هنالك صلاة الصبح

على هذا الأسلوب تمضي ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام  
 دولته ، أعلى الله مقامه في عليين ، وشكر له في ذلك صنعه الجميل ، آمين .

وما من ليلة مولد صرت في أيامه إلا ونظم فيها [قصيدا] (٢) في مدح المصطفى  
 صلى الله عليه وسلم أول ما يبتدئ المُسمع في ذلك المحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه  
 إنشاد من رفع إلى مقامه العلى في تلك الليلة نظما .

انتهى كلام صاحب نظم الدرر والعقيان ، وهو أتم مساقا من كلامه في  
 راح الأرواح .

(١) في نفح الطيب : « في يد » .

(٢) زيادة عن ت ونفح الطيب .

أقول : ولا بد أن نذكر جملة من القطع التي أنشأها الكاتب أبو زكرياء يحيى بن خلدون كاتب السلطان أبي حمو المذكور ، على لسان جارية المنجانية ، مخاطبة بما سر من الليل ، وكانت الجارية تأتي بها في يدها اليمنى ، كما ذكرناه ؛ فمن ذلك [ قوله رحمه الله في مضيّ ساعتين من الليل :

شعر لأبي زكريا  
ابن خلدون  
في المنجانية

أخليفة الرحمن والملك الذي      تنو لعزّ علاه أملاكُ البَشْرِ  
لله مجلسك الذي يحكي عُلا      بك مالِكِي أفقِ السماء لمن نظر  
أو ما ترى فيه النجوم زواهرا      وجهُ الخليفة بينهن هو القمر  
والليل منه ساعتان قد انقضت      تُثْنِي عليك ثنا الرياض على المطر  
لا زال هذا الملك منصوراً بكم      وبلغت مما ترتجبي أسنى الوطر

[ وقوله رحمه الله في انقضاء ثلاث ساعات من الليل :

أمولاي يا ابن الملوك الألى      لهم في المعالي سَنِي الرتب  
تولت ثلاث من الليل أبقت لك الفخر في عُجمها والعرب      فدم حبة الله في أرضه  
تنال الذي شئت من أرب

وقوله رحمه الله في مضي ست ساعات :

يا ماجدا وهو فرد      تخاله في عساكره  
ست من الليل ولت      ما إن لها من نظائر  
دامت لياليك حتى      إلى المعاد نواضر

وقوله رحمه الله في مضي ثمان ساعات :

يا أكرم الخلق ذاتا      وأشرف الناس أسرة  
مرت ثمان وأبقت      في القلب مني حسره

فِيهِنَّ كَانَ شِيبَانِي      أَخَا نَعِيمٍ وَنَضْرَهُ  
وَلَىٰ بِهَا الدَّهْرُ عَنِّي      تُرَىٰ لَهَا بَعْدُ كَرَاهَهُ  
فَاللَّهُ يُبْقِيكَ مَوَّلِي      يُطِيلُ فِي السَّعْدِ عُومَرَهُ

وقوله رحمه الله في مضي عشر ساعات :

يَا مَالِكَ الْخَيْرِ وَالْخَيْلِ الَّتِي حَكَمْتُ      لَهُ بَعِزٌّ عَلَى الْأَيَّامِ مُقْتَبِلِ  
هَذَا الصَّبَاحِ وَقَدْ لَاحَتْ بِشَائِرُهُ      وَاللَّيْلُ وَدَعْنَا تَوَدِيعَ مَرْتَحِلِ  
لِلَّهِ عَشْرَةٌ مِنَ السَّاعَاتِ بَاهِرَةٌ      مَضَيْنَ لَاعِنَ قَلْبِي مِنَّا وَلَا مَلَلِ  
كَذَا تَمُرُّ لَيْسَالِي الْعُمُرِ رَاحِلَةٌ      عَنَّا وَنَحْنُ مَعَ الْأَمَالِ فِي شُغْلِ  
نُحْمِي وَنُضْبِحُ فِي لَهْوٍ نُسْرُهُ بِهِ      جَهْلًا وَذَلِكَ يُبْدِنِينَا مِنَ الْأَجَلِ  
وَالْعَمْرُ يَمْضِي وَلَا نَدْرِي فَوَا أَسْفَا      عَلَيْهِ إِذْ مَرَّ فِي الْأَنَامِ وَالزَّلَلِ  
يَا لَيْتَ شِعْرِي غَدًا كَيْفَ الْخِلَاصِ بِهِ      وَلَمْ نُقَدِّمْ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْعَمَلِ  
يَا رَبُّ عَفْوِكَ عَمَا قَدْ جَنَّتْهُ يَدِي      فَلَيْسَ لِي بِجِزَاءِ الذَّنْبِ مِنْ قَبْلِ  
يَا رَبِّ وَأَنْصُرْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ أَبَا      حَمَوِ الرِّضَا وَأَنَّ لَهُ غَايَةَ الْأَمَلِ  
وَأَبْقِ فِي الْعِزِّ وَالتَّمَكِينِ مَدَّتَهُ      وَأَعْلِ دَوْلَتَهُ الْفَرَا عَلَى الدُّوَلِ

[١٦٣]

ومن الموشحات التي خوطب بها السلطان أبو حمور رحمه الله في مولد سنة سبع وستين وسبع مئة ، قول طبيب دولته أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهرير بالتلايسى ، رحمه الله تعالى :

لِي مَسْدَمَعٌ هَتَّانُ      يَنْهَلُ مِثْلَ الدَّرَزِ  
قَدْ صَيَّرَ الْأَجْفَانَ      مَا إِنْ لَهَا مِنْ أَثَرِ

موشحة  
للتلايسى  
يخاطب بها  
أبا حمو

(١) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « ياليت أن غدا » . وفي ت « ياليت غدا » .  
وهما ظاهرهما التحريف .

حَقَّ لَهُ يَجْرِي      دَمًا عَلَى طَوْلِ الدَّوَامِ  
 مُذْ جَدَّ فِي السَّيْرِ      نَاسٌ إِلَى خَيْرِ الأَنَامِ  
 وَعَاقَبَنِي وَزْرِي      يَا صَاحِبَ عَنِ ذَاكَ العَمَامِ  
 وَسَارَتِ الأَطْعَامُ      يُحْدِي بِهَا فِي السَّخَرِ  
 فَاسْتَبْشَرَ الرِّكْبَانُ      بِقَرَبِ نَيْلِ الوَطْرِ  
 يَا سَعْدَةَ مَنْ زَاوَى      قَبْرَ النَّبِيِّ المِصْطَفَى  
 مُحَمَّدَ الحِمْزِ      قُطْبَ المَعَالِيِ وَوَفَا  
 فِي مَدْحِهِ قَدْ حَازَ      الخَلْقُ طُرًّا وَكُنْفَى  
 فِي مُحْكَمِ القُرْآنِ      وَشَرْحِهِ وَالسَّيْرِ  
 فَضَّلَهُ الرَّحْمَنُ      عَلَى جَمِيعِ البَشَرِ  
 يَا حَادِيَ الرِّكْبِ      بِاللَّهِ إِنْ جِئْتَ البَقِيعِ  
 تَحِيَّةَ الصَّابِ      بَلِّغْ إِلَى المَادِي الشَّفِيعِ  
 غُرِّبْتُ بِالعَرَبِ      عَنِ ذَاكَ المَغْنَى الرَّفِيعِ  
 وَليسَ لِي إِمكَانُ      يُنْهَضُنِي لِلسَّفَرِ  
 إِلا مِنَ السُّلْطَانِ      المَلِكِ المِظْفَرِ  
 مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْمُو      إِلَى المَعَالِيِ كُلِّ حِينِ  
 ذَاكَ أَبُو حَمَوِ      المَوْلَى أَمِيرُ المَسْلَمِينَ  
 طَاعَتُهُ غُنْمُ      فَلْنَا بِهَا دُنْيَا وَدِينِ  
 أَظْهَرَ فِي البُلْدَانِ      مِنْ عَدْلِهِ المِشْتَهَرِ  
 وَنَمَّ بِالإِحْسَانِ      لِلبَدْوِ ثُمَّ الحَضَرِ

قَابَلَهُ إِسْعَادُ تَكَلَّمَ عَنْهُ الْأُسَيْنَةُ  
 قَبِيلُ عَبْدِ الْوَادِ<sup>(١)</sup> بِهِ غَدَّتْ فِي سُلْطَنِهِ  
 أَيَامُهُ أَعْيَادُ يَالَيْتَهَا أَلْفَا سَنَتُهُ  
 مُلْكُ بَنِي زَيْبَانَ بِالْمَشْرِفِيِّ الذَّاكِرِ  
 أَحْيَاهُ إِذْ قَدْ كَانَ لَيْسَ لَهُ مِنْ خَبَرِ  
 تَاهَتْ تَمَسَاتٍ بِمَلِكِهِ عَلَى الْبِلَادِ  
 صَارَ لَهَا شَانُ وَسَعْدُهَا حَلْفُ زِدْيَادِ  
 قَدْ ضَلَّ إِنْسَانٌ قَالَ بِهَا يَشْكُو الشَّهَادِ  
 لَيْلُ الْهَوَى يَقْظَانُ وَالْحَبِّ تَرْبُ السَّهْرِ  
 وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانُ وَالنُّومُ مِنْ<sup>(٢)</sup> عَيْنِي بَرَى<sup>(٣)</sup>

وكان هذا السلطان أبو حمور رحمه الله يقرض الشعر ، ويجب أهله ، وله  
 رحمه الله تأليف حسن في السياسة ، لخص فيه « سُؤْلَانُ الْمُطَاعِ » لابن ظَفَرٍ ،  
 وزاد عليه فوائد ، وأورد فيه جملة من نظمه ، وأمورا جرت له مع معاصريه من  
 ملوك بني مَرَيْنٍ وغيرهم ، وصنّفه برسم ولي عهده أبي تاشفين ، وسمّاه « نظم  
 السلوك ، في مياسة الملوك » .

قصيدة  
 ابن الخطيب  
 للسلطان أبي حمور  
 يستعبد به

وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب المذكور آنفا كثيرا  
 ما يوجّه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجّه له<sup>(٤)</sup> قصيدة مينية فائقة ، وذلك  
 عند ما أحسن بتغيير سلطانه عليه ، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه ، لتمهد له مشواه ؛

(١) في ط : « الجواد » .

(٢) كذا في ط . وفي ت : « عن » .

(٣) برى : يريد : « برىء » فسهل للشعر .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب ( ج ٤ ص ٢٧ ، طبعة بلاق ) . وفي ت : « إليه » .

وتحصل له المستقرّ ، إذا ألباه الأمر إلى المفترّ ؛ فلم تساعده الأيام ، كما هو شأنها في أكثر الأعلام ؛ وهي هذه :

أُطْلِعَنَ فِي سُدْفِ الْفُرُوعِ شُمُوسًا ضَحِكَ الظَّالِمَ لَهَا وَكَانَ عَبُوسًا  
وَعَطْفَنَ قُضْبًا لِلْقُدُودِ نَوَاعِمًا بُوِّسْنَ أَدْوِاحَ النِّعَمِ غُرُوسًا  
وَعَدَّانَ عَنِ جَهْرِ السَّلَامِ مَخَافَةَ الْوَأَشَى فَجِنِّنَ بَلْفِظَهُ مَهْمُوسًا  
وَسَفَرْنَ مِنْ دَهَشِ الْوِدَاعِ وَقَوْمِهِنَّ إِلَى التَّرْحَلِ قَدْ أَنَاخُوا الْعَيْسَا  
وَوَخَّسْنَ مِنْ خَلَالِ الْحِجَالِ إِشَارَةً فَتَرَكْنَ كُلَّ حِجَالِهَا مَخْلُوسَا  
لَمْ أُنْسَهَا مِنْ وَحْشَةٍ وَالْحَيِّ قَدْ زَجَرَ الْحَمُولَ وَآثَرَ التَّغْلِيْسَا  
لَا الْمُلْتَقَى مِنْ بَعْدِهَا كَتَبَ (١) وَلَا عُوجُ الرِّكَابِ تَسَامُ التَّخْيِيسَا (٢)  
فَوَقَفْتُ وَقِفَةَ هَائِمِ بَرْحَاوُهُ وَقَفْتُ عَلَيْهِ وَحُبِّسْتُ تَحْيِيسَا  
وَدَعَوْتُ عَيْنِي عَاتِبًا وَعَيْونَهَا بَعَا النَّوَى قَدْ بُجِّسْتُ تَبْجِيسَا  
نَافَسْتُ يَا عَيْنِي دُرَّ دُمُوعِهِمْ فَعَرَضْتُ دُرًّا لِلدُّمُوعِ نَفِيسَا  
مَا لِلْحَمَى بَعْدَ الْأَحْبَةِ مُوْحِشًا وَلَكُمُ تَرَاءَى أَهْلًا مَانُوسَا  
وَلِيسْرِهِ حَوْلَ الْحَيْمِلَةِ نَافِرًا عَمَّنْ يُحْسِنُ بِهِ وَكَانَ أُنَيْسَا  
وَلِظَلِّهِ الْمُرُودِ غَمْرٌ قَلْبِيهِ لَا يَقْتَضِي وَرْدًا وَلَا تَعْرِيسَا (٣)  
حَيِّتُهُ فَأَجَابَنِي رَجْعُ الصَّدَى لَا فَرَقَ بَيْنَهُمَا إِذَا مَا قَيْسَا  
مَا إِنْ يَزِيدُ عَلَى الْإِعَادَةِ صَوْتُهُ حَرَفًا فَيَسْفِي بِالْمَزِيدِ نَسِيسَا (٤)

(١) كَتَبَ ، أَيْ قَرِيبَ .

(٢) كَذَا فِي ط . وَالتَّخْيِيسُ : أَنْ تَدُلَّ الدَّابَّةُ وَتَرَاضَ بِالرِّكَّابِ . وَفِي ت وَنَفَحَ

الطَّيْبُ : « التَّجْنِيسَا » .

(٣) الْقَلْبُ : الْبَيْتُ . وَغَمْرُهُ : أَيْ مَأْوَاهُ الْغَامِرُ . وَالتَّعْرِيسُ : الزُّوْلُ آخِرَ اللَّيْلِ .

(٤) النَّسِيسُ : غَايَةُ جَهْدِ الْإِنْسَانِ .

نَضَبَ المَعِينِ وَقَلَّصَ الظَّلُّ الَّذِي      ظَلْنَا وَقُوفًا عِنْدَهُ وَجُلُوسًا  
 نَتَوَاعَدُ الرُّجْعَى وَنَفْتِمِ اللَّقَا      وَنُدِيرُ مِنْ شَكْرَى الغَرَامِ كَوْوسَا  
 فَإِذَا سَأَلْتَ فَلَا تَسْأَلِ مَخْبِرًا      وَإِذَا سَمِعْتَ فَلَا تُحَسِّ حَسِيسَا  
 عَهْدِي بِهِ وَالدَّهْرُ يُتَحِفُ بِالْمَنَى      وَقَدْ اقْتَضَتْ نِعْمَاهُ أَنْ لَا بُوسَا<sup>(١)</sup>  
 وَالعَيْشُ غَضُّ الرِّبْعِ وَالدُّنْيَا قَدِ اجْتَسَمَتْ بِمَغْنَاهُ<sup>(٢)</sup> عَلَى عَرُوسَا  
 أَتْرَى يُعِيدُ الدَّهْرُ عَهْدًا لِلصَّبَا      دَرَسَتْ مَغَانِي الأَنْسِ فِيهِ دُرُوسَا  
 [أوطانٍ أوطارٍ تَعَوَّضَ أَفْقَاهَا      مِنْ رَوْنَقِ البِشْرِ البَهِيِّ عُبُوسَا]<sup>(٣)</sup>  
 هِيَهَاتَ لَا تُغْنِي لَعَلٌّ وَلَا عَسَى      فِي مِثْلِهَا إِلَّا لآيَةَ عَيْسَى  
 وَالدَّهْرُ فِي دَسْتِ القَضَاءِ مُدْرَسٌ      فَإِذَا قَضَى يَسْتَأْنِفُ التَّدْرِيسَا  
 تَفْتَنَنَّ فِي جُمَلِ الوَرَى أَبْحَاثِهِ      لِأَسِيًّا فِي بَابِ رِثْمٍ وَبِيسَا  
 وَسَجِيَّةُ الإِنْسَانِ لَيْسَ بِنَاصِلِ      مِنْ صِبْغِهَا حَتَّى يُرَى مَرْمُوسَا  
 يَغْتَرُّ مَهْمَا سَاعَدَتْ آمَالُهُ      فَإِذَا عَرَاهُ الخَطْبُ كَانَ يُوسَا  
 فَلَوْ أَنَّ نَفْسًا مُكَنَّتْ مِنْ رُشْدِهَا      يَوْمًا وَقَدَّسَهَا الهُدَى تَقْدِيسَا  
 لَمْ تَسْتَفْزِ رَسُوخَهَا النُّعْمَى وَلَا      هَلَعَتْ إِذَا كَثُرَتْ<sup>(٤)</sup> إِلَيْهَا البُوسَا  
 قَلْ لِلزَّمَانِ إِلَيْكَ عَن مَتَدَمِّ<sup>(٥)</sup>      بَضْمَانٍ عِزٍّ لَمْ يَكُنْ لِيَخِيسَا<sup>(٦)</sup>

[١٦٦]

(١) لا بوسا : لا بؤسا ، فسهل .

(٢) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « بمعناه » .

(٣) التكملة عن ت ونفع الطيب .

(٤) كذا في نفع الطيب . وفي ت : « كسرت » . وفي ط : « كثرت » وكلاهما تحريف .

(٥) المتدمم : المستنكف .

(٦) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « تبخيسا » .

فإذا استحرَّ جِلادُهُ فأنا الذي اسْتَغْشَيْتَ مِنْ سَرْدِ<sup>(١)</sup> اليقين لبوسا<sup>(٢)</sup>  
 وإذا طغا فرعونه فأنا الذي  
 أنا إذا أبو مثنوا<sup>(٣)</sup> من يحمي الحمي  
 يحمي أبي نحو حططت ركابي  
 أسد الهياج إذا خطا قدما سطا  
 بدر الهدى يابى الظلال ضياؤه  
 جبيل الوقار رسا وأشرف واعتلى  
 غيث النوال إذا الغمام حلوبة  
 تلقاه يوم الأنس روضا ناعما  
 كم نعمة جلي وكم خطب كفي  
 كم حكمة أبدى وكم قصد هدى  
 أعلى بنى زيان والفد الذي  
 جمع التدى والباس والشيم العلاء  
 والحلم ليس يباين الخلق الرضا  
 من ضره وأذاه عذت بموسى  
 ليثا ويعلم بالزئير الخيسا  
 لما اختبرت الليث والعريسا  
 فيخاف الأسد الهزبر فريسا  
 أبدا فيجلو الظلمة الحنديسا<sup>(٤)</sup>  
 وسمما فطأطأت الجبال رؤوسا  
 مثلت بأيدي الخالبيين بسوسا<sup>(٥)</sup>  
 وتراه بأسا في الهياج بئيسا  
 إن أوطأ الجرود العتاق وطيسا  
 للسالكين أبان منه دريسا<sup>(٦)</sup>  
 لبس الكمال فزين الملبوسا  
 والشودد المتواتر القدموسا<sup>(٧)</sup>  
 والعلم ليس يعارض الناموسا

(١) سرد اليقين : أى درع من اليقين .

(٢) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « البوسا » .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « مثنواى » .

(٤) الجنديس : الشديد الظلمة .

(٥) البسوس : الناقة التي لا تدر إلا على الإساس ، أى التلطف ، بأن يقال لها : بس بس ، تسكينا لها .

(٦) الدريس : الطريق الخفى .

(٧) القدموس : القديم .

والسعدَ يغنى حكمه عن نصبةٍ      تستخبرُ التربيعَ والتسديسا  
 كم راضٍ صعباً لا يراضُ معاصيا      كم خاض حرّاً لا يُخاض ضرُوسا  
 يبلغُ التي لا فوقها متمهلاً      وعلاً الشها واستسفلَ البرجيسا<sup>(١)</sup>  
 يا خيرَ مَنْ خفت عليه سحابة      للنصر تُمطره أجشٌ بجيسا<sup>(٢)</sup>  
 وأجلَ مَنْ حملته صهوةُ ساج      إن كرهَ ضعُف كرهه الكردوسا<sup>(٣)</sup>  
 قسماً بمن رفع السماءَ بغير ما      عمدٍ ورفَع فوقها إدريسا  
 ودحا البسيطة فوق لُججٍ مزيدٍ      ما إن يزال على القرار حبيسا  
 حتى يهيب بأهله الوعدُ الذي      حشرَ الرئيسَ إليه والمرءوسا  
 ما أنت إلا ذخرٌ دهرك دُمّت في الصَّوْن      الحريزِ مُمتعا محروما  
 لو ساومتَه الأرضُ فيك بما حوت      لَرَآك مُستاماً بها مَبخُوسا  
 حلف<sup>(٤)</sup> البرور بها الياسةَ صادقٍ      ويمينُ مَنْ عقد اليمين غموسا<sup>(٥)</sup>  
 مَنْ قاسَ ذاتك بالذواتِ فإنه      جهلَ الوزان وأخطأ التقييسا  
 لا تستوى الأعيانُ فضلَ مزينةٍ      وطبيعة فطرَ الإله وسُوسا<sup>(٦)</sup>  
 لعناية التخصيص سرٌّ غامض      من قبلِ ذرء الخلقِ خصَّ نفوسا  
 مَنْ أنكرَ الفضلَ الذي أُوتيته      جحدَ العيانَ وأنكرَ المحسوسا

[١٦٧]

- (١) البرجيس (بالكسر) : نجم ، أو هو المشتري .  
 (٢) بجيسا : غزيرا .  
 (٣) الكردوس : القطعة العظيمة من الخيل .  
 (٤) كذا في نفح الطيب . وفي الأصاين : « كلف » .  
 (٥) يمين : يكذب . واليمين الغموس : التي تنفس صاحبها في الإثم ثم في النار ، وهي الكاذبة التي يتعمدها صاحبها غالبا بأن الأمر بخلافه .  
 (٦) السوس : الطبيعة والسجية .

من دَانَ بالإِخْلَاصِ فِيكَ فَعَقَدُهُ      لا يَقْبَلُ التَّمْوِيهَ وَالتَّلْبِيسَا  
 وَالمُنْتَمَى العَالَوِيَّ عِيصُكَ لَمْ تَكُن      لَتُرَى دَخِيلَا فِي بَنِيهِ دَسِيسَا<sup>(١)</sup>  
 بَيْتَ البَتُولِ وَمُنْتَمَى الشَّرَفِ الَّذِي      تَحْمِي المَلَائِكُ دَوْحَهُ العَمْرُوسَا  
 أَمَا سِيَاستِكَ الَّتِي أَحْكَمْتَا      فَرَمَيْتَ بِالتَّقْصِيرِ أُسْطَالبِيسَا  
 فَلَوَّانَ كِسْرَى الفَرَسِ أَبْهَرِ بَعْضَهَا      مَا كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يُعَدَّ سَوَّوسَا<sup>(٢)</sup>  
 لَوْ سَارَ عَدْلُكَ فِي السَّنِينَ لَمَا اشْتَكْتَا      بَحْسَا وَلَمْ يَكُ بَعْضُهُنَّ كَيْسَا  
 وَلَوِ الجَوَارِي الخُنْسُ انْتَسَبْتَ إِلَى      أَقْوَامِ عَزِّكَ مَا خَنَّسْنَ خُنُوسَا<sup>(٣)</sup>  
 قُدَّتِ الصَّعَابُ فَكُلَّ صَعْبٍ سَامِحٌ      لَكَ بِالقِيَادِ وَكَانَ قَبْلُ شَمُوسَا  
 تَلَقَى اللِّيُوثَ وَلِلقِتَامِ غَمَامَةٌ      قَدَحَ الصَّفِيحُ وَمِيضَهَا العَقْبُوسَا  
 وَكَانَتْهَا تَحْتَ الدُّرُوعِ أَرَاقِيمٌ      يَنْظُرُونَ مِنْ خَلَلِ المَغَاغِرِ شُوسَا<sup>(٤)</sup>  
 مَا لَبِنَ مَامَةَ فِي القَدِيمِ وَحَاتِمٌ      ضَرَبَ الزَّمَانَ بِجُودِهِم نَاقُوسَا<sup>(٥)</sup>  
 مِنْ جَاءَ مِنْهُمْ مِثْلَ جُودِكَ كَلِمَا      حَسِبُوا المَكَارِمَ كُسُوةَ أَوْ كَيْسَا  
 أَنْتَ الَّذِي افْتَكَّ السَّفِينِ وَأَهْلَهُ      إِذْ أَوْسَعْتَ سُبُلَ الإِخْلَاصِ طُمُوسَا  
 أَنْتَ الَّذِي أَمَدَدْتَ ثَغْرَ اللَّهِ بِالصَّـ      دَقَاتِ تَبْلِسُ كَرَّةً إِبْلِيسَا  
 وَأَعْنَتَ أُنْدُلُسَا بِكُلِّ سَبِيكَةٍ      مَوْسُومَةٍ لَا تَعْرِفُ التَّدْلِيْسَا

(١) العيص : الأصل .

(٢) في نفع الطيب المطبوع والمخطوط : « بسوسا » .

(٣) الجوارى الخنس : منها زحل والمريخ والمشتري وعطارد والزهرة ؛ وخنوسها : اختفاؤها .

(٤) شوسا : ناظرة بمؤخر العين غضبا .

(٥) ابن مامة : هو كعب ، وهو من أجواد العرب .

وشحنته بالبر في سبل الرضا  
 إن لم تجر بها الخميس فطلما  
 وملاّت أيديها وقد كادت على  
 صدقت لآمال صنعة جابر<sup>(١)</sup>  
 والحلّ والتقطير والتصعيد والتّ  
 فسبكت من آمالها مالا ومن  
 بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا  
 تدبير من قلب السطور سبائكا  
 ونحوّت نحو الفضل تعضد منه بال  
 وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا  
 ونشرت راية عزهم من بعدما  
 أحكت حيلة برهم بلطافة  
 وفلّت من حدّ الزمان وإنه  
 وشحذت حدّا كان قبل مثلما

والبرّ قارب قاعها القاموسا  
 جهزت فيها للتوال خميسا  
 حكم القضاء تشابه التفليسا  
 وكفيتها التشميع والتشميسا<sup>(٢)</sup>  
 خمير والتّصويل والتكليسا<sup>(٣)</sup>  
 أوراقها ورقا وكن طروسا  
 وزنا ولا لونا ولا ملموسا  
 منها ومن طبع الحروف فلو سا  
 مسموع ما ألفت منه مقيسا  
 تغني القديم وتطلق المحبوسا  
 دال الزمان فسامها تنكيسا  
 قد أعجزت في الطب جالينوسا  
 أوحى وأمضى من غرار الموسى  
 ونعشت جدّا كان قبل تعيسا

[١٦٨]

(١) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ١٧١ من هذا الجزء) .

(٢) التشميع : تليين الشيء وتصويره كالشمع . (عن مفاتيح العلوم للخوارزمي) .

(٣) الحل : أن يجعل المنعقدات مثل الماء . والتقطير : مثل صنعة ماء الورد ، وهو أن يوضع الشيء في القمع ويوقد تحته ، فيصعد ماؤه إلى الأنبيق ، وينزل إلى القابلة ، ويجمع فيه . والتصعيد : شبيهه بالتقطير ، إلا أن أكثر ما يستعمل في الأشياء اليابسة . والتصويل : أن يجعل الشيء الذي يرسب في الرطوبات طافيا ، وذلك أن يصير مثل الهباء حتى يصول على الماء . والتكليس : أن يجعل جسد في كيزان مطينة ويجعل في النار حتى يصير مثل الدقيق . والشيء يكلس ثم يصول . (عن مفاتيح العلوم)

لم تَرَجُ إِلَّا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ      فِي شِدَّةِ تُكْنَفَى وَجُرْحِ يُوسَى  
 قَدِمْتَ صُبْحًا فَاسْتَضَاتْ بِنُورِهِ      وَوَجَدْتَ عِنْدَ الشِّدَّةِ التَّنْفِيسَا  
 مَا أَنْتَ إِلَّا فَالِحٌ <sup>(١)</sup> مَتَيْقِنٌ      بِالنُّجُحِ تَعْمُرُ مُرْمَرًا وَيَبْيَسَا  
 وَمُتَّاجِرٌ جَعَلَ الْأَرِيكَةَ صَهْوَةً      عَرَبِيَّةً وَالْمَتَّكَ الْقَرَبُوسَا <sup>(٢)</sup>  
 مَا إِنْ تُبَايِعَ أَوْ تُشَارِي <sup>(٣)</sup> وَائْتَقَا      بِالرَّيْحِ إِلَّا الْمَالِكَ الْقُدُوسَا  
 وَالْعَزْمُ يَفْتَرِعُ النُّجُومَ بِنَاؤِهِ      مَهْمَا أَقَامَ عَلَى الثَّقَى تَأْسِيسَا  
 وَمَقَامَ صَبْرِكَ وَاتِّكَاكَ مُذْكَرٌ      بِحَدِيثِهِ الشُّبْلِيِّ أَوْ طَاوُوسَا <sup>(٤)</sup>  
 وَمَنْ ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَفَقَّ سَعِيَهُ      فَرَأَى الْعَظِيمَ مِنَ الْخُطُوطِ خَسِيسَا  
 مَا أَزْدَدَتْ بِالْتَمَحِيصِ إِلَّا جِدَّةً      وَنَضُوتَ مَنْ خَلَعَ الزَّمَانَ لَبِيسَا  
 وَلِظَالِمَا طَرَقَ الْخُسُوفُ أَهْلَةً      وَلِظَالِمَا اعْتَرَضَ الْكُسُوفُ شُمُوسَا  
 ثُمَّ انْجَلَتْ نَسَمَاتُهَا عَنِ مَشْرِيقِ      لِلسَّعْدِ لَيْسَ بِحَاذِرٍ تَعْدِيسَا  
 خُذْهَا إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى سَيْنِيَّةٍ      تُرْضِي الطَّبَاقَ وَتَشْكُرُ التَّجْنِيسَا  
 إِنْ طُوِلَتْ <sup>(٥)</sup> بِالْتَرَمَنِ حَوْلَ الطَّلِي      يَوْمًا تَشَكَّتْ حَظَّهَا الْمَوْكُوسَا  
 لَوْلَاكَ مَا أَصْنَعْتَ لِحِطْبَةِ خَاطِبِ      وَلَعُنَّتْ فِي بَيْتِهَا تَعْنِيسَا  
 قَصَدَتْ سَلِيمَانَ الزَّمَانَ وَقَارِبَتْ      فِي الْخَطُوطِ تَحْسِبُ نَفْسَهَا بَلْقِيسَا

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِينَ وَنَفَحَ الطَّيْبُ . وَفِي ت : « وَالْج » .

(٢) الْقَرَبُوسُ : حَنُوسُ السَّرِجِ .

(٣) كَذَا فِي نَفْحِ الطَّيْبِ . وَفِي الْأَصْلِينَ : « مَا إِنْ يُبَايِعَ أَوْ يُشَارِي » .

(٤) الشُّبْلِيُّ : هُوَ أَبُو بَكْرٍ دَلْفُ بْنُ جَعْدِرِ الصُّوفِيِّ وَكَانَتْ وَفَاتِهِ سَنَةَ ٣٣٤ هـ .

وَطَاوُوسُ : هُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ أَبُو سَعِيدِ الْمَالِئِيِّ الصُّوفِيِّ وَكَانَتْ وَفَاتِهِ

سَنَةَ ٤١٢ هـ .

(٥) كَذَا فِي ط وَنَفَحَ الطَّيْبُ . وَفِي ت : « طُوِلَتْ » .

لى فيك ودُّ لم أكن من بعد ما أعطيتُ صَفَقَةَ عهدِه لِأَخِيْسَا  
 كَمْ لى بصِحَّةِ عَقْدِه مِنْ شَاهِدٍ لا يَحْذِرُ التَّجْرِيحَ والتَّدْلِيْسَا  
 يَقْفُو الشَّهَادَةَ بِالْيَمِينِ وَإِنَّهُ لَمَوْءَمَّنٌ مِنْ أَنْ يُعَدَّ فَسِيْسَا (١)  
 لا يَسْتَقِرُّ قَرَارُ أَفْكَارِي إِلَى أَنْ أَسْتَقِرُّ لَدَى عَالَاكِ جَلِيْسَا  
 وَأَرَى تُجَاهَكَ مَسْتَقِيمَ السَّيْرِ لِلسَّقْصُدِ الَّذِي أَعْمَلْتُهُ مَعَكُوسَا  
 هِيَ دِينُ أَيَّامِي فَإِنْ سَمَحْتَ بِهِ لَمْ يَبْقَ مِنْ شَيْءٍ عَلَيْهِ يُوسَى  
 لا زَالَ صُنْعُ اللَّهِ مَجْنُوبَا إِلَى مَشَاوِكِ يَهْدِي الْبَشَرَ والتَّانِيْسَا  
 مَتَابَعَا كَتَتَابِعِ الْأَيَّامِ لا يَنْذِرُ التَّعَاقُبَ جُمْعَةَ وَخَمِيْسَا  
 فَوَا أَنْصَفْتِكَ إِيَالَةَ الْمَلِكِ الَّتِي رُضْتُ الزَّمَانَ لَهَا وَكَانَ شَرِيْسَا  
 قَرَنْتُ بِذِكْرِكَ والدَّعَاءَ لَكَ الَّذِي تَخْتَارُهُ التَّسْبِيْحَ والتَّقْدِيْسَا  
 الْقَلْبُ أَنْتَ لَهَا رُبِيْسَ حَيَاتِهَا لَمْ تَعْتَبِرْ مَهْمَا صَلَّحْتَ رُبِيْسَا

[١٦٩]

قال الحافظ أبو عبد الله التنسي، رحمه الله ورضي عنه: هذا ابن الخطيب في هذه السينية حذو أبي تمام في قصيدته التي أولها:

أَقْشِيْبَ رَبِّعِهِمْ أَرَاكَ دَرِيْسَا تَقْرِي ضِيُوفَكَ لَوْعَةَ وَرَسِيْسَا  
 واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها. انتهى.

نثر له أيضا  
 وصل به  
 القصيدة

ووصل ابن الخطيب هذه السينية بنثر بارع يخاطب به السلطان أبا حمو  
 المذكور، ونصه:

(١) الفسيس: الأحمق الضعيف العقل. وفي ت: «فسيسا» بالاقاف بدل الفاء، وهو تصحيف.

« هذه القصيدة ، أبقى الله أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع ،  
والثناء المسموع ، والملك المنصور الجموع ؛ نفثة من باح بسرّ هواه ، ولجى دعوة  
الشوق العايب بلبه<sup>(١)</sup> وقد ظفر بمن يهدى خبر جواه إلى محل هَوَاهُ ؛ ويختلس  
بعث تحييته ، إلى مُشير أريحته ؛ وهى بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال ، الشاذّ  
عن الآمال ؛ عنوان من كتاب ، وذوّاق من أوقار ذات أقتاب ؛ وإلا فن يقوم  
بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافئ إحسانها إحسانه ؛ أو يستقل بوصفها يراعه ،  
أو تهض بأيسر وظيفها ذراعه ؛ ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينفد  
بالاغتراف ؛ لا سيما وذاتكم اليوم والله يُبقيها ، ومن المكاره يقيها ، وفي معارج  
القرب من حضرة القدس يُرقيها ، ياقوتة اختارها واعتبرها ، ثم بلاها بالتحخيص [١٧٠]  
في سبيل التخصيص واختبرها ، وسبيكة خلصها وسجّرها ، نخلصها بسجّرها  
من الشوب ، وأبرزها من أبواب النوب<sup>(٢)</sup> ؛ وقصرت عن هذه الأثمان ، وسرّ  
بصدق دعواه<sup>(٣)</sup> البهرمان<sup>(٤)</sup> ؛ ليفاضل بين الجهام والصيّب ، ويميز الله الخبيث  
من الطيب ؛ فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعُدّه ، وعرفّكم بنفسه في حال  
الشده ، ثم فسح لكم بعد ذلك في اللده ؛ لتعرفوه إذا دال الرّخاء ، وهبّت بعد  
تلك الزعازع الرّيح الرّخاء ؛ وملاكم من التجارب ، وأوردكم من الطافه أعذب  
المشارب ؛ ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلاله ، ولم يسلبكم إلا حقيرا عند أوليائه ؛

(١) وردت هذه العبارة محرّفة في ت هكذا : « ودعوة الشوق الثابت بلبه » .

(٢) وردت هذه العبارة في الأصلين هكذا : « وسبيكة خلصها وشعرها نخلصها  
الشحيرة من الشوب وأبرزتها من ... الخ » . وفي نفع الطيب : وسبيكة خلصها  
وسخرها ، نخلصها لتسخيره من الشوب ... الخ » . والعبارة في كل ذلك قلقة ،  
ولعل ما أثبتناه أقرب إلى المعنى المراد . والسجّر : مصدر سجر التنور ونحوه ،  
إذا أحماه .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ت : « دموعه » . وفي ط : « دعوته » .

(٤) البهرمان : العصفور ، وهو دون الأرجوان شدة حمرة .

وأعادكم المعاد المطهر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المعلم المشهر ؛ فأنتم اليوم بعين العناية ، بالإفصاح والكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية ؛ فإن كان الملك اليوم عالماً يُدرّس ، وقوانين في قوة الحفظ تُغرّس ، وبضاعة برصد التجارب تُحرّس ؛ فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعي شعوبه المنسوبة ؛ إلى ما حُزتم من أشتات الكمال ، المرّبية على الآمال ؛ فالبيت علويّ المنتسب ، والمُلك بين الموروث والمكتسب ؛ والجود يعترف به الوجود ، والدين يشهد به الركوع والسجود ؛ والبأس تعرفه التهامم والنجود ، والخلق يحسده الروض المجود ؛ والشعر يعترف من عذب ندير ، ويصدق من قال بديء بأمير وختم بأمير ؛ وإن مملوككم حوّم من بابكم على العذب البرود ، فعاقه الدهر عن الورود ؛ واستقبل أفقه ليحقق الرصد ، ولكنه أخطأ القصد ؛ [١٧١]

ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ؛ فربما خبي نصيب ، أو كان مع الخواطي سهم مُصيب ؛ وكان يؤمل صحبة ركّاب الحجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى الجاز ؛ وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التي خالص منها إلى الفتنة الانتساب ؛ ومن طلب الأيام أن تجرى على اقتراحه ، وجب العمل على اطراحه ؛ فإنما هي البحر الزاخر ، الذي لا يُدرك منه الآخر ؛ والرياح متغايره ، والسفينة الحائره ؛ فتارة يتعذر من الرّسى الصّرف ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف ؛ هذا إن سالمها عطّبها ، وأعني من الوعود حطبها ؛ ولقد علم الله جلّ جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب ، ممن <sup>(١)</sup> يجبر كسر القلوب ؛ فإنه مما انعقد على كماله الإجماع ، وصح في عوالم معاليه السماع ، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع ؛ أخلاقاً هذبها الكرم الوضاح ،

(١) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « فن » .

وسجية كلف بها الكمال الفصاح ؛ وحرصاً على الذكر الجميل ، وما يتنافس فيه  
إلا من سمت هممه ، وكرمت ذممه ، وألفت الخلد ريمه ؛ إذ الوجود سراب ، وما  
فوق التراب تراب ؛ ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يُسَطَّر في أوراق<sup>(١)</sup> ؛  
حسباً قلت من قصيدة كتبتها على ظهر [مكتوب]<sup>(٢)</sup> موضوع ، أشار به من  
كانت له طاعة ، فوفت بمقترحه استطاعه :

يمضي الزمان فكلّ فانٍ ذاهبٌ إلا جميلَ الذكر فهو الباقي  
لم يبق من إيوان كسرى بعد ذا لك الحفل إلا الذكر في الأوراق  
هل كان للسفاح والمنصور وألمهدي من ذكر على الإطلاق  
أو للرشيد وللأمين وصنوه لولا شـبابة يراعة الوراق  
رجع التراب إلى التراب بما اقتضت في كل خلق حكمة الخلاق [١٧٢]  
إلا الثناء الخالد العطر الشذا يهدي حديث مكارم الأخلاق  
والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب ، أن يمتكنا من حُسن الثاب<sup>(٣)</sup> ؛ فتحظى  
بحلول ساحته ، ثم بلثم راحتته ؛ ثم بالإصغاء ، ولا مزيد للابتغاء ؛ إلى أن ترتفع  
الوساطه ، وتغنى عن التركيب البساطه ؛ ويُنتسى الأثر بالعين ، ويُحسّن الدهر  
قضاء الدين ؛ ونسأل الذي أغرى بها القريحه ، ولم يجعل الباعث إلا المحبة الصريحه ؛  
أن يُبقى تلك المثابة زيناً للزمان ، وذخراً مكنوفاً باليمن والأمان ، مظلاً برحمة  
الرحمن ، بفضله وكرمه . انتهى .

ومن مقطوعاته ، أي ابن الخطيب ، البديعة في مخاطبة هذا السلطان أبي حمو  
صاحب تلمسان ، قوله يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس :

بعض مقطوعات  
لابن الخطيب  
في السلطان  
أبي حمو

(١) في ط : « أو ذكر جميل » .

(٢) زيادة عن نفع الطيب .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « المناب » .

لقد زار الجزيرة منك بحرٌ      يُمدّ فليس تعرف منه جزراً  
أعدت لها بعهدك عهد موسى      سميك فهي تملو منه ذكراً  
أقت جدارها وأفدت كَنزاً      ولو شئت اتخذت عليه أجراً  
وقوله :

وقالوا الجزيرة قد صوّحتُ      فقلت : غمام الندى تنتظرُ  
إذا وكفتُ كفُّ موسى بها      غماما يعود الجنبُ الخضرُ  
ومخاطبات الوزير ابن الخطيب للسلطان أبي حمو كثيرة جداً ، ولنقتصر منها  
على ما ذكرناه .

ومن نظم ابن الخطيب رحمه الله :

يا إمام الهدى وأى إمام      أوضَحَ الحقَّ بعد إخفاء رُسمه  
أنتَ عبدُ الحلِيمِ حلمك نرجو      فالسُمى له نصيبٌ من اسمه

[وله يخاطب عبد الواحد بن زكرياء بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان  
إفريقية مؤدّعا :

أبا مالك أنتَ نجمُ الملوكِ      غيوثِ الندى وليوثِ النزالِ  
ومثلك يرتاح للمكرّماتِ      ومالك بين الورى من مثالِ  
عزيز بأنفسنا أن نرى      ركابك مؤذنة بارتحالِ  
وقد خبرتُ منك خُلُقاً كريماً      أناف على درجاتِ الكمالِ  
وفازت<sup>(١)</sup> لديك بساعات أنس      كما زار في الليل طيفُ الخيالِ  
ولولا تعلُّنا أننا      نزورك<sup>(٢)</sup> فوق بساطِ الجلالِ

(١) كذا في نفع الطيب (ج ٤ ص ١٧٦) . وفي الأصلين : « وجزت » .

(٢) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « بزورك » .

شعره له يودع به  
عبد الواحد ابن  
سلطان إفريقية

ونبلغُ فيكَ الذي نبتغيُ      وذاك على الله سهل المنال  
لما فترتُ أنفُسُ من أسَى      ولا برحت أذمُعُ في انهمال  
تلقتك حيثُ احتلت السعودُ      وكان لك الله في كل حال  
وتوفى أبو مالك المخاطب بهذا ببلد الجريد سنة خمسين وسبع مئة<sup>(١)</sup>  
ومن أبدع ما وقع لابن الخطيب لاميته التي أولها :

\* الحق يعلو والأباطل تسفل \*

قال ابن حجة في شرح بديعته ، الذي سماه بتقديم أبي بكر ، ما نصه :  
« ومما يشعر بالتهنئة والنصر على الأعداء ، براعة الاستهلال للعلامة إمام  
المغرب ، ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب ، وهي :

من قصيدة  
« المنح الغريب »  
له

الحق يعلو والأباطل تسفل      والله<sup>(٢)</sup> عن أحكامه لا يُسأل [١٧٣]

فإنه قال : نظمت للسلطان أسعده الله تعالى وأنا بمدينة سلا ، لما انفصل  
طالباً حقه بالأندلس ، قصيدة كان صنع الله براعة استهلالها<sup>(٣)</sup> ، ووجهت بها إليه  
إلى رُنْدَة قبل الفتح ، ثم لما قَدِمْتُ أنشدتها [ بين يديه ]<sup>(٤)</sup> بعد الفتح وفاء  
بنذرى ، وسميتها : « المنح الغريب ، في الفتح القريب » ، منها قوله رحمه الله :

وإذا استحالَت حالة وتبدلت      فالله عز وجل لا يتبدلُ  
واليسرُ بعد العسر موعود به      والصبر بالفرج القريب مؤكَّل  
والمستعدُّ لما يؤمل ظافر      وكفاك شاهد « قيِّدوا وتوكلوا »

(١) في نفع الطيب : سنة ٧٤٠ .

(٢) في شرح بديعية ابن حجة : « والحق » .

(٣) في شرح البديعية المذكور : « كان صنع الله مطابقاً لاستهلالها » .

(٤) الزيادة عن شرح البديعية لابن حجة .

أحمد والحمد منك سجية      بحُلِيِّهَا دُونَ<sup>(١)</sup> الْوَرَى تَتَجَمَّلُ  
أَمَا سَعُودِكَ فَهُوَ دُونَ مُنَازِع      عَقَّدَ بِأَحْكَامِ الْقَضَاءِ مُسَجَّلُ  
وَلَاكِ السَّجَايَا الْغُرَّ وَالشِّيمَ الَّتِي      بَغْرِيهَيَا يَتَمَثَّلُ الْمُتَمَثَّلُ  
وَلَاكِ الْوَقَارَ إِذَا تَزَلَّزَلَتِ الرَّبَا      وَهَفَّتْ مِنَ الرَّوْعِ الْمِضَابُ الْمُثَلُّ  
عَوِّذْ كِلَاكِ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ      قَدْ تَنْقُصُ الْأَشْيَاءُ مِمَّا تَكْمَلُ  
تَابَ الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِمَّا قَدْ جَنَى      وَاللَّهُ يَا مُرُّ بِالْمَتَابِ وَيُقْبَلُ  
إِنْ كَانَ مَاضٍ مِنْ زَمَانِكَ قَدْ مَضَى      بِإِسَاءَةٍ قَدْ سَرَّكَ الْمُسْتَقْبَلُ  
هَذَا بِذَلِكَ فَشَفَعِ الثَّانِي<sup>(٢)</sup> الَّذِي      أَرْضَاكَ<sup>(٣)</sup> فِيمَا قَدْ جَنَاهُ الْأَوَّلُ  
وَاللَّهُ قَدْ وَّلَاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ      لِمَا ارْتَضَاكَ وَوَلَايَةَ لَا تُعْزَلُ  
وَإِذَا تَعَمَّدَكَ الْإِلَهَ بِنَصْرِهِ      وَقَضَى لَكَ الْحُسْنَى فَنَ ذَا يَخْذَلُ  
وَضَعْنَتْ عَنْ أَوْطَانِ مَلِكِكَ رَاكِبَا      مَتْنٌ<sup>(٤)</sup> الْعُجَابِ فَأَيُّ صَبْرٍ يَجْمَلُ ؟  
وَالْبَحْرُ قَدْ حُنَيْتَ<sup>(٥)</sup> عَلَيْكَ ضُلُوعَهُ      وَالرِّيحُ تَقْطَعُ لِلزَّفِيرِ<sup>(٦)</sup> وَتُرْسِلُ  
وَلَاكِ الْجَوَارِي الْمُنَشَّاتِ قَدْ أُغْتَدَتْ      تَخْتَالُ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ وَتُرْفَلُ  
جَوْفَاءَ يَحْمِلُهَا وَمَنْ حَمَلَتْ بِهِ      مَنْ يَعْلَمُ الْأَثَى وَمَاذَا تَحْمَلُ  
صَبَّحَتْهُمْ غُرَّرَ الْحِيَادِ كَأَنَّمَا      سَدَّ<sup>(٧)</sup> الثَّنِيَّةَ عَارِضٌ مَتَهَلَّلُ

(١) في شرح البديعية : « بين » .

(٢) كذا في البديعية . وفي الأصلين : « الجاني » .

(٣) كذا في ط . وفي ت : « ارتضاك » .

(٤) كذا في البديعية . وفي الأصلين : « بين » .

(٥) كذا في نفتح الطيب ، وفي ط : « خفت » وفي ت : « خفت عليه » .

(٦) في البديعية : « تبتلع الزفير » .

(٧) كذا في البديعية . وفي ت : « كأنها بيد الثنية » أي بطريق الثنية . وفي ط :

« كأنها أسد الثنية » . وهي محرقة عما أثبتناه في صلب الكتاب .

مِنْ كُلِّ مَنْجَرِدٍ أَغْرَ مُحَجَّلٍ      يرمى الجياد<sup>(١)</sup> به أغرٌ مُحَجَّلٌ  
 زَجَلُ الْجَنَاحِ إِذَا أَجَدَّ لُغَارَةٌ<sup>(٢)</sup>      وَإِذَا تَغْنَى لِلصَّهِيلِ فُبُلْبُلٌ  
 جِيدٌ كَمَا التَّفَتَ الظَّلِيمِ وَفَوْقَهُ      أُذُنٌ مَمَشَّقَةٌ وَطَرْفٌ أَكْحَلٌ  
 ومنها:

[١٧٤]      وخليج هندٍ راقٍ حسنُ صفائه      حتى يكاد يعوم<sup>(٣)</sup> فيه الصيقل  
 غرقت بصفحته النمل وأوشكت      تبغى النجاة فأوثقتها الأرجل  
 فالصرح منه ممرّد، والصفح منه مؤرّد، والشطّ منه مُصنَدَلٌ<sup>(٤)</sup>  
 وبكل أزرق إن شكت الحاظله      مرّة العيون فبالعجاجة يُكْحَلُ<sup>(٥)</sup>  
 مُتَأَوِّدٌ أَعْطَافَهُ فِي نَشْوَةٍ      مِمَّا يُعَلِّقُ مِنَ الدَّمَاءِ وَيُنْهَلُ  
 عَجَبًا لَهُ أَنْ النَجِيمِ بِطَرْفِهِ      رَمَدٌ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مُقْتَلُ  
 اللَّهُ مَوْفِقُكَ الَّذِي وَثَبَاتَهُ      وَثَبَاتَهُ مَمْلُوكٌ بِهِ يُتَمَثَّلُ  
 والنَّصْلُ خَطٌّ، وَالْمَجَالُ صَحِيفَةٌ      وَالسَّمَرُ تَنْقُطُ، وَالصَّوَارِمُ تَشْكُلُ  
 والبَيْضُ قَدْ كَسِرَتْ حُرُوفُ جُفُونِهَا      وَعَوَامِلُ الْأَسَلِ الْمُثَقَّفُ تَعْمَلُ

وهي طويلة ، وجميعها فرائد ؛ ولم أكثر منها إلا لعلى أن كلام لسان الدين  
 ابن الخطيب غريب في هذه البلاد . انتهى كلام ابن حجة رحمه الله .

ومن هذه بعد قوله « وطرف أكحل » :

فكأنما هو صورة في هيكل      من لطفه وكأنما هو هيكل

(١) كذا في البديعية . وفي الأصلين : « الجراد » .

(٢) في ت والبديعية : « لغاية » .

(٣) في البديعية . « يقول » .

(٤) في ط والبديعية ونفح الطيب : « مهدل » .

(٥) مره العيون : خلوها من الكحل ، أو فسادها لتركة .

ومنها ، بعد قوله : « والبيض قد كسرت » البيت ، قوله :

لله قومك عند مُسْتَجَرِّ القَنَا      إذ تَوَّبَ الدَّاعِي المُهَيَّبَ وأَقْبَلُوا  
قوم إذا لَفَحَ الهَجِيرَ وَجُوهَهُمْ      حَجَبُوا برايات الجهاد وظَلُّوا

من مقطوعات له  
لما أشرف على  
مراكش

ومن مقطوعات ابن الخطيب قوله لما أشرف على مراكش :

ماذا أُحْدِثُ عن بحر سَبَّحَتْ به      من البحار فلا إثم ولا حَرَجُ  
دَحَاهُ مبتدع الأشياء مستويا      ما إن به دَرَكٌ كَلًّا ولا دَرَجُ  
حتى إذا ما للنار الفرد لاح لنا      صحَّتْ بشرى يامطايا<sup>(١)</sup> جاءك الفرج  
قَرُبْتُ من عامر داراً ومَنْزَلَةً      والشاهدُ العدلُ هذا الطَّيِّبُ والأرج  
وقال رحمه الله :

كَأَنَّا بِنَامِسْنَا نَجُوسُ خَلَالِهَا      وممدودها في سيرنا ليس يُقْصَرُ  
مراكبُ في البحر المحيط تُخَبِّطُ      ولا جهة تدرى ولا البر يُبْصَرُ

كتاب ابن خاتمة  
إلى ابن الخطيب

[١٧٥] قال ابن الخطيب : ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العدو ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانتباض عن الخدمة ، والتَّيِّبِ على السلطان ، والدالة<sup>(٢)</sup> والتكبر على أعلى رُتَبِ الخدمة ، وتطارحتُ على السلطان في استنجاز وَعَدِّ الرحلة ، ورغبت في تبرة<sup>(٣)</sup> الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبني ، يعني أبا جعفر بن خاتمة ، بعد صدر بلغ من حسن الإشارة ، وبراعة الاستهلال الغاية ، بقوله :

(١) هذه الكلمة ساقطة في ت .

(٢) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « والدولة » .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ت : « ترقية » وفي ط : « نفويت » .

« وإلى هذا يا سيدى ومحل تعظيمى وإجلالى ، أمتع الله تعالى بطول بقائكم ، وضاعف فى العز درجات ارتقائكم<sup>(١)</sup> ؛ فإنه من الأمر الذى لم يغب عن رأى العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ؛ أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ؛ وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ؛ وقلادة نحرها ، وفريدة دُرّها<sup>(٢)</sup> ، وعقد جِيدها [ المنصوص ]<sup>(٣)</sup> ، وكال زينها<sup>(٤)</sup> على العموم والنُصوص ؛ ثم أتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ؛ وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب<sup>(٥)</sup> مارستانها ؛ والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ؛ فلديّه يُحلّ المشكل ، وإليه يلتجأ فى الأمر المعضّل ؛ فلا غرّ وأن تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحقق نحوكم الأذهان والأفكار ؛ ويُزجر عنكم السائح والبارح ، ويُستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ؛ استقراء لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم ، واستكشافاً عن سرايمى سهامكم ؛ لا سيما مع إقامتكم على جناح خُفوق ، وظهوركم فى مُلتَمع بُروق ، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ؛ حتى تستقر بكم الديار ، ويلقى عصاه التّسيار ؛ ولها العذر فى ذلك ، إذ صدّعها بفراقكم لم يندمل ، وسرورها بلبقائكم لم يكتمل ؛ فلم يبرّ بعد جناحها المهيض ، ولا جمّ ماؤها المغيض ، [١٧٦] ولا تميزت من داجيها ليلائها البيض ؛ ولا استوى نهارها ، ولا تألقت أنوارها ؛ ولا اشتملت نعاؤها ، ونسيت غماؤها ؛ بل هى كالناقة ، والحديث العهد بالمكاره ، تستشعر نفس العافيه ، وتمسح منكم باليد الشافيه ؛ فبحنانكم عليها ، وعظيم

(١) فى ط : « ارتفاعكم » .

(٢) فى ط : « دهرها » .

(٣) التكهلة عن نفح الطيب .

(٤) فى نفح الطيب : « وتام زينتها » .

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « وطب » .

حرمتمكم على من لديها ؛ لا تشوبوا لها عذب المُججاج بالأجاج ، وتقطموها عما  
عُودت من طيب المزاج ؛ فما لدائها — وحياة قربكم — غير طيبكم من علاج ؛ وإني  
ليخاطرُ بخاطري محبة فيكم ، وعناية بما يعنيتكم ، ما نال جانبكم — صانه الله — بهذا  
الوطن من الجفاء ، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء ؛ وأن الوطن  
إحدى الحواضن الأظنار ، التي يحق لها جميل الاحتفاء ، وما يتعلق بكم من حرمة  
أولياء القرابة وأوداء الصفاء ؛ فيغلب على ظني أنكم لحسن العهد أجنح ، وبحق  
نفسكم عن حق أوليائكم أسمح ، ولتلي هي أعظم قيمة من فضائلكم أوهب وأسبح .  
وهب أن الذر لا يحتاج في الإثبات ، إلى شهادة النحور واللِّبَّات ؛ والياقوت  
غنى المكان ، عن مظاهرة الفلائد والتهيجان ، أليس أنه أعلى للعيمان ، وأبعد  
عن مكابرة البرهان ، تألقها في تاج الملك أنوشيروان ؛ فالشمس وإن كانت أم  
الأنوار ، وجلاء الأَبصار ، مهما أغشى مكانها من الأفق قبيل : الليل هو أم نهار ؛  
وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ؛ مواطن استقرارهم ، وأما كن  
قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم ، واستبدال دار خير من دارهم ؛ ومتى توازن  
الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء  
أولياء وعُباد ، وما فوقه سرابط جهاد ، ومعاقد ألوية في سبيل الله ومضارب  
أوتاد ؛ ثم يُبَوِّئُ ولده مُبَوِّأً أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ؛ أعيد  
أنظاركم المسددة من رأى فائل ، وسعى طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من  
هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد . - وهي طويلة .

[١٧٧]

قال ابن الخطيب : فأجبتته بقولي :

لَمْ فِي الْهَوَى الْعُذْرَى أَوْ لَا تَلَمْ      فَاغْدُلْ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي  
شَأْنُكَ تَعْنِينِي وَشَأْنِي الْهَوَى      كُلُّ امْرَأٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

رد ابن الخطيب  
على كتاب  
ابن خاتمة

أهلاً بـتُحْفَةِ القَادِمِ ، وَرِيحَانَةِ المُنَادِمِ ، وَذِكْرِي الهَوَى المِتْقَادِمِ ؛ لَا يُصْفِرُ (١) اللهُ  
مَسْرَاكَ ، بِمَا أَسْرَاكَ ؛ لَقَدْ جُبْتُ (٢) إِلَى من هَمَّوِي لَيْلَا ، وَجَسْتِ رَجُلَا وَخَيْلَا ،  
وَوَفَّيْتِ من صَاعِ الوَفَاءِ كَيْلَا ، وَظَنَنْتِ بِي الأَسْفِ عَلَى مَا فَاتَ فَأَعْمَلْتِ الأَلْتِفَاتِ  
لِكَيْلَا ؛ فَأَقْسَمَ لَوْ أَنَّ أَمْرِي اليَوْمِ بِيَدِي ، أَوْ كَانَتِ اللَّمَّةُ السُّودَاءِ من عُدْدِي ؛  
مَا أَفَلْتِ شِرَاكِي المَنْصُوبَةَ لِأَمْثَالِكَ ، حَوْلَ المِيَاهِ وَبَيْنَ المَسَالِكِ ، وَلَا عَلِمْتِ  
مَا هُنَالِكَ ؛ لَكِنَّكَ طَرَقْتَ حَمِي كَسَعْتَهُ الغَارَةُ الشَّعْوَاءِ ، وَغَيَّرْتَ رُبْعَهُ الأَنْوَاءِ ؛  
نَفْعِدُ بَعْدَ ارْتِجَاجِهِ ، وَسَكَتِ أُذُنُ دَجَاجِهِ ، وَتَلَاعَبَتِ الرِّيَاحُ الهُوجَ فَوْقَ فِجَاجِهِ ؛  
وَطَالَ عَهْدُهُ بِالزَّمَانِ الأَوَّلِ ، وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ من مَعْوَلٍ ؛ وَحَيَّا اللهُ نَدْبَا  
إِلَى زِيَارَتِي نَدْبَكَ ، وَبَادَابِهِ الحَكِيمِيَّةِ أَدْبَكَ :

فَكَانَ وَقَدْ أَفَادَ بَكَ الأَمَانِي كَمَنْ أَهْدَى الشَّفَاءَ إِلَى العَلِيلِ

وَهِيَ شَيْمَةٌ بَوْرَكَتِ من شَيْمِهِ ، وَهَبَةُ اللهُ قَبْلَهُ مِنْ لَدُنِ المَشِيمِهِ ، وَمَنْ مِثْلَهُ  
فِي صِلَةِ رَعْيِي ، وَفَضْلِ سَعْيِي ، وَقَوْلِي وَوَعْيِي ؟

قَسَمًا بِالكَوَاكِبِ الزُّهْرِ وَالزُّهْرِ عَاتِمِهِ

[١٧٨]

إِنَّمَا الفَضْلُ مِثْلَةُ خَتَمَتِ بَابِنِ خَاتِمِهِ

كَسَانِي حُلَّةَ فَضْلِهِ ، وَقَدْ ذَهَبَ زَمَانُ التَّجَمُّلِ ، وَحَمَلَنِي شُكْرُهُ وَكَتَبَنِي وَاهٍ عَنِ  
التَّحَمُّلِ ، وَنَظَرَنِي بِالعَيْنِ الكَلِيمَةِ عَنِ العَيْبِ فَهَلَا أَجَادُ التَّنَاقُلِ ، وَاسْتَطَلَعَ طَلِعَ  
نَتِّي ، وَوَالِي فِي مَبْرَكِ المَعْجَزَةِ حَتَّى ، إِنَّمَا أَشْكُو بَيْتِي :

\* وَلَوْ تَرَكْتُ القَطَا لَيْلَا لِنَامَا \*

(١) فِي ط وَنَفَحِ الطَّيْبِ : « لَا يُصْفِرُ » .

(٢) كُنَّا فِي نَفْحِ الطَّيْبِ . وَفِي الأَصْلِينَ : « جُبْتُ » .

وما حال شَمَلٌ وتَدُهُ مفروق ، وقاعدته فَرُوق ، وصُواعُ بنى أبيه  
مسروق ؛ وقلبٍ قرحُه من عضة الدهر دام ، وجمرة حَسْرته ذات احتدام ؛ هذا  
وقد صارت الصغرى ، التي كانت الكبرى ؛ لمشيب<sup>(١)</sup> لم يدع أن هم لما  
نجم ، ثم تهلل عارضه وانسجم :

لا تجمعي هَجْرًا علىَّ وغُرْبَةً فاهجر في تَلَفٍ الغريب سريع  
نظرتُ فإذا الجنب ناب ، والنفس فريسة ظُفر وناب ، والمال أكيّلة انتهاب ،  
والعمر رَهْنٌ ذهاب ، واليد صِفر من كل اكتساب ، وسوق المَعاد مترامية  
والله سريع الحساب :

ولو نُعْطِيَ الخيَارَ لما افترقنا ولكن لا خيَارَ مع الزَّمانِ  
وهبُ أن العمر<sup>(٢)</sup> جديد ، وظل الأمن مديد ، ورأى الاغتباط بالوطن شديد ،  
فما الحُبجة لنفسى إذا مرت بمطّارح جفوتها ، وملاعب هفوتها ؛ ومثاقف قناتها ،  
ومظاهر عَزَّأها ومَنَّاتها ؛ والزمان ولود ، وزناد الكون غير صُلُود !  
وإذا امرؤٌ لَدَغْتَهُ ألقى مرة تركته حين يُجَرُّ حَبْلٌ يَفْرَقُ  
ثم إن المرغَّبُ قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وهب ، والعارض قد اشتهب ؛  
وآراء الاكتساب مرجوحة<sup>(٣)</sup> مفوضه ، وأسماؤه على الجوار مخفوضه ، والنية  
مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقوده ، والتوبة بفضل الله عن وجل منقوده ،  
غير معترضة ولا منقوده<sup>(٤)</sup> ؛ والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ؛ والاقتصاد

[١٧٩]

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « لسبب » وهو تصحيف .

(٢) في ط : « الأمر » .

(٣) في ط : « مرجومة » .

(٤) منقودة (الأولى) : من نقد الثمن ، وهو تعجيله . و(الثانية) : من النقد ، وهو

تمييز ما في الشيء من حسن وقبح .

قد قرت العين بصحبته ، والله قد عوّض حب الدنيا بمحبته ؛ فإذا راجعها مثلى  
من بعد الفراق ، وقد رَقَى لَدَغَتَهَا أَلْفَ رَاقٍ ؛ وجمعتني بها الحجره ، فما الذى تكون  
الأجره ؟ نجل شانى ، وإن رضى الوامق<sup>(١)</sup> وسخِط الشانى ؛ إني إلى الله مهاجر ،  
وللعرض الأدنى هاجر ، ولأظعان الشرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى أوحاجر ؛  
لكن دعانى للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ؛ خلعت نعلى الوجود وما خلعتنه ،  
وشوقى أمرنى فأطعته ، وغالب صبرى والله فما استطعته ؛ والحال أغلب ، وعسى  
ألا يخيب المطلب ؛ فإن يسر رضاه فأمل كَمَل ، وراحل احتمال ، وحادٍ أشجى  
الناقة والجل ؛ وإن كان خلاف ذلك ، فالزمان جهم العوائق ، والتسليم بمقامى لائق ؛  
ما بين غمضة عين وانتباهتها يصرف الأمر من حال إلى حال  
وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليؤمن طيره ، وعموم خيره ؛ وبركة جهاده ،  
ومحمران رُباه ووهاده ، بأشلاء عباده وزُهاده ؛ حتى لا يفضله إلا أحد الحرمين ،  
فحق برئ من المين ؛ لكننى للحرمين جنحت ، وفي جو الشوق إليهما سنحت ؛  
فقد أفضت إلى طريق قصدى محبته ، ونصرتنى والمنة لله حُجته ؛ وقصد سيدي  
أستنى قصد توخاه الحمد والشكر ، ومعروف عرف به الشكر ؛ والآمال من فضل  
الله بعد ثمتار ، والله يخلق ما يشاء ويختار ؛ ودعاؤه بظهر الغيب مدد ، وعُدّة  
وعَدَد ، وبره حالى الظعن والإقامة معتملم ومعتمد ، ومجال المعرفة بفضل لا يحصره  
أمد . والسلام . انتهى .

وقال في الإحاطة في ترجمة السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني ،

بعد كلام كثير ، ما نصه :

من رثاء السلطان  
أبي سالم

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « الموافق » .

« فلقد كان بقيّة البيت ، وآخر القوم دّمائة وحياء ، وبعداً عن الشر ، وركونا  
للعافية ، وأنشدت على قبره الذي وُوريت به جُنته بالقلة من ظاهر المدينة ،  
قصيدة أدت فيها بعض حقه ، وهي :

بنى الدنيا بنى لَمَعَ السَّرَابِ      لِدُوا لِمَوْتِ وَاِبْنُوا لِلخِرَابِ  
اتمى المقصود منه .

شعر له في  
الرجبة إلى الله

ومن نظم ابن الخطيب في الرغبة إلى الله تعالى :

إِلَهِيَّ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَالْمَسْعَى      وَجَمْعٌ إِذَا مَا الْخَلْقُ قَدْ نَزَلُوا جَمْعًا  
وَبِالْمَوْقِفِ الْمَشْهُودِ يَا رَبِّ فِي مَنِيَّ      إِذَا مَا أَسْأَلَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِكَ السَّمْعَا  
وَبِالْمِصْطَفَى وَالصَّحْبِ عَجَّلْ إِقَالَتِي      وَأَنْجِخْ دُعَائِي فِيكَ يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى  
صَدَعْتُ وَأَنْتَ الْمَسْتَغَاثُ جَنَابِهِ      أَقِيلْ عَثْرَتِي يَا مَأْمُولِي وَاجْبُرِ الصَّدْعَا

شعر له  
بعد عودته  
من الرحلة  
المراكشية

وقال رحمه الله عقب الإياب من الرحلة المراكشية :

أَفَادَتْ وَجْهَتِي بِنَدَاكَ مَا لَا      قَضَى دِينِي وَأَصْلَحَ بَعْضَ حَالِي  
وَمَتَّعَتْ الْخَوَاطِرَ بِالنَّشْرَاحِ      وَأَطْرَفَتْ النُّوَاطِرَ بِاِكْتِحَالِ  
وَأَبَتْ خَفِيفَ ظَهْرٍ وَالْمَطَايَا      بِجَاهِكَ تَشْتَكِي ثِقَلَ الرَّحَالِ  
وَشَانِي لِلْعَالَمِ غَيْرِ شَانِي      وَحَالِي بِالْمَكَارِمِ جِدُّ حَالِ  
فَحُبُّ عُلَاكَ إِيْمَانِي وَعَقْدِي      وَشَكَرُ نَدَاكَ دِينِي وَانْتِحَالِي  
كَأَنَّ قَدْ صَحَّ لَلَّهِ انْقِطَاعِي      بِتَأْمِيلِي جَنَابَكَ وَارْتِحَالِي  
وَمَا يَبْقَى سِوَى فِعْلِ جَمِيلِ      وَحَالُ الدَّهْرِ لَا تَبْقَى بِحَالِ  
وَكُلُّ بَدَايَةِ فَاِلَى اتِّهَاءِ      وَكُلُّ إِقَامَةٍ فَاِلَى ارْتِحَالِ  
وَمَنْ سَامَ الزَّمَانَ دَوَامِ أَمْرٍ      فَقَدْ وَقَفَ الرَّجَاءَ عَلَى الْمُحَالِ

وقال رحمه الله في الضراعة إلى مولاه :

مولاي إن أذنبت ، يُنكر أن يُرى      منك الكمالُ ومنى النقصان ؟  
والعفو عن سبب الذنوب مُسبب      لولا الجنّاية لم يسكن غُفران  
[ وقال سألحه الله مما كُتب في حيّطان المدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج :

وله في مدرسة

ألا هكذا تُبنى المدارس للعلم      وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم-  
ويُقصد وجه الله بالعمل الرضا      وتُجنى ثمار العز من شجر العزم  
تفاخر منى حضرة الملك كلما      تقدّم خصم في الفخار إلى خصم  
فأجدى إذا ضن الغمام من الحيا      وأهدى إذا جنّ الظلام من النجم  
فيا ظاعناً للعلم يطلب رحلة      كُفيت اعتراض البيدأ ولُجج اليم  
بباني حطّ الرجل لا تنو وجهة      فقد فزت في حال الإقامة بالغنم  
فكم من شهاب في سماءى ثاقب      ومن هالة دارت على قمر تم  
يُفيضون من نور مبین إلى هدى      ومن حكمة تجلو القلوب إلى حُكم  
جزى الله عنى يُوسُفا خير ما جرى      ملوك بني نصر عن الدين والعلم

وقال ابن الخطيب مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ببعض مسالك

وله في غرناطة

غرناطة ، فأُنشد من نظمه :

« غرناطة ما مثلها حَضْرَةٌ      الماء والبهجة والخضرة

واستجازنى رحمه الله تعالى ، فقلت « (١) :

سكانها قد أُسْكِنُوا جَنَّةً      فهم يُلقون بها نصره (٢)

وكتب رحمه الله عن سلطانه أبي عبد الله بن نصر يخاطب الضريح المقصود ،

وله يخاطب قبر  
الولي السبتي

والمهمل المورود ، والمرعى المنتجع ، والحِوان الذى يكفى الغرثى ، ويمرّض المرضى ،

(١) ما بين هذين القوسين « عن نفع الطيب وهو ساقط من ت .

(٢) ما بين القوسين ساقط في ط .

[١٨١] ويقوت الزماني ، ويتعداهم إلى أهل الجدة زعموا والغني ، قبر ولي الله سيدي أبي العباس السبتي<sup>(١)</sup> ، تقمنا الله به وجبر جالنا ببركاته النعم ، ودفع علينا النقم :

يا ولي الإله أنت جواد وقصدنا إلى حياك المنيع  
راعنا الدهر بالخطوب فحمننا نرتجي من علاك حسن الصنيع  
فهددنا لك الأكف نرجي عودة العز تحت شمل جميع  
قد جعلنا وسيلة ترهبك الزا كي وزلني إلى العليم السميع  
كم غريب أسرى إليك فوافي برضاً عاجلٍ وخير سريع

يا ولي الله الذي جعل جاهه سبباً لقضاء الحاجات ، ورفع الأزمات ، وتصريفه باقياً بعد المات ، وصدق نقل الحكايات ظهور الآيات ؛ نفغني الله بنيتي في بركة تربك ، وأظهر علي أثر توسلي بك إلى الله ربك ؛ مزق شملي ، وفرق بيني وبين أهلي ؛ وتعدني علي ، وصرفت وجوه<sup>(٢)</sup> المكائد إلى ؛ حتى<sup>(٣)</sup> أخرجت من وطني وبلدي ، ومالي وولدي ؛ ومحل جهادي ، وحتى الذي صار لي طوعاً عن آبائي وأجدادي ؛ عن بيعة لم يحل عقدها الدين ، ولا ثبوت جريمة تشين ؛ وأنا قد قرعت باب الله بتأميلك ، فالتمس لي قبوله بقبولك ؛ ورُدني إلى وطني على أفضل حال ، وأظهر علي كرامتك التي تُشد إليها ظهور الرجال ؛ فقد جعلت وسيلتي إليك رسول الحق ، إلى جميع الخلق ؛ والسلام عليك أيها الولي الكريم ، الذي يأمن به الخائف وينتصف الغريم ، ورحمة الله .

(١) أبو العباس السبتي هو الولي الصالح الشيخ أحمد بن جعفر السبتي الخزرجي ، وهو غير

أبي العباس الشريف السبتي الذي تقدم ذكره في هذا الجزء في صفحة ٣٢ وما بعدها .

(٢) في ت : « وجهة » .

(٣) في ت : « حين » .

وقال سماحه الله في معنى التورية الطبية ، بالدواء المسمى بدم الأخوين ،  
في شأن سلطان الأندلس القائم عليهم وأخيه ، وشأن ذلك الدواء النفع من الجراح :

وله يورى  
بدم الأخوين

بإسماعيل ثم أخيه قيس      تأذن هم ليلى بانبلج  
دم الأخوين داوى جرح قلبي      وعالجنى وحسبك من علاج  
وقال مقتبساً في غير ذلك :

وله في اقتباس

يامن بأكناف فؤادى ربيع<sup>(١)</sup>      قد ضاق بي في حبك المتسع  
ما فيك لي جدوى ولا أروعى      شح مطاع وهوى متبع  
وقال في التورية بالطب :

شعره في  
التورية بالطب

إني وإن كنتُ ذا اعتلالٍ      رثتُ القوى بين الهزال  
في «عارض التيس» لي شفاءً      فكيف في عارض الغزال

وقال يخاطب الحاجب الفقيه الخطيب ، سيدي أبا عبد الله بن مرزوق ،

وقال يخاطب  
ابن مرزوق

وطفا على بيت المشاركة في العذار :

[١٨٢]

أما والذي تُبلى لديه السرائرُ      لما كنت أرضى الخسف لولا الضرائرُ  
غدوتُ لضيم ابن الربيب فريسةً      أما ثار من قومي لنصرى ثائر<sup>(٢)</sup>  
إذا التمت كفى لديه جرايتي      كأني جان<sup>(٣)</sup> أوبقته الجرائر  
وما كان ظنى أن أنال جراية      يحكم من جرأها في جائر  
متى جاد بالدينار أخضر زائفاً      ودارته دارت عليها الدوائر  
وقد أخرج التعنيت كيس مرارتي      ورقت لبسواى النفوس الأخير

(١) ربيع : أقام وسكن .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « ناصر » .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « جار » وهو تحريف

تذكرت بيتاً في العذار لبعضهم له مثل بالحسن في الأرض سائر:  
« وما اخضر ذلك الخدّ نبثاً وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر »<sup>(١)</sup>  
وجاء ابن مرزوق لدى ذخيرة وللشدة العظمى تعدّ الذخائر  
ولو كان يدري مدهاني لساء وأنكر ما صارت إليه المصائر  
وكان ابن الربيب هذا من خدام السلطان أبي سالم ، وكانت جريّة  
ابن الخطيب وغيره ممن قدم من أعيان الأندلس على يده ، فكان لا يوفى بحقوقهم ،  
فاشتكى ابن الخطيب به إلى الحاجب ابن مرزوق بهذا النظم المذكور ، وإلى الله  
ترجع الأمور .

شعر له في مخاطبة  
أحد الشرفاء

وقال رحمه الله يخاطب أحد الشرفاء الكرام :

أعيا اللقاء على إلا لحة في جملة لا تقبل التفصيلاً  
فجعلت بابك عن يمينك نائباً أهديه عند زيارتي تقبيلاً  
فإذا وجدتُك نلتُ ما أمّلتُهُ أو لم أجدك فقد<sup>(٢)</sup> شفيت غليلاً

وقال يشكر  
السلطان أبا سالم  
على تخليصه إياه

وقال في مخاطبة السلطان أبي سالم رحمه الله في سبيل الشكر ، عند ما خلّصه  
من الورطة بشفاعته التي قدّمنا ذكرها :

[١٨٣]

سمي خليل الله أحييت مهجتي وعالجني منك الصريح على بُعد  
فإن عشت أبلغ فيك نفسي عذرها وإن لم أعش فالله يجزيك من بعدى

قال : وقلت في التفرّج ، وما أبعده عنّي في الوقت ، والحمد لله :

(١) هذا البيت لعيسى بن سنجر المعروف بالحاجري المتوفى سنة ٦٣٢ هـ من تصيدة مطلعها :

على دمع عيني من فراقك ناظر يرفقه إن لم ترفقه الحاجر

(٢) كذا في ط ونفح الطيب : وفي ت : « فإ » .

أصبح الخلد منك جنة عدن مجتلى أعينٍ وشم أنوفٍ  
ظلتها من الجفون سيوف جنة الخلد تحت ظل السيوف  
وخطب صاحب الأشغال أبا عبد الله بن أبي القاسم بن أبي مدين يهنئه  
بتقلد الخطبة من رسالة :

من رسالة له  
في تهنئة ابن أبي  
مدين بتقلد الخطبة

تعود الأمانى بعد انصراف ويعتدل الشيء بعد انحراف  
فإن كان دهرك يوماً جنى فقد جاء ذا خجل واعتراف  
طلع البشير ، أبقاك الله ، بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنّيه (١) ،  
خصّها الله بنيل الأمنيه ؛ على تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت ، وتأوّهت  
العلياء لتذكر عهدها وبكت ، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث  
الذي تركت ؛ فلولا العذر الذي تأكّدت ضرورته ، والممانع الذي ربما تقرّرت  
لديكم صورته ؛ لكنت أول مُشافه بالهناء ، ومُصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ،  
فنقول والحمد لله والثناء . وهي طويلة .

وقال يخاطب السلطان أبا سالم عند انقطاعه بضريح والده بشالة سلا ، حيث  
مدفن ملوك بني مرين :

رسالته إلى  
السلطان  
أبي سالم  
مستعينا به

عن باب والدك الرضا لا أبرحُ يأسو الزمان لأجل ذاك ويَجرحُ (٢)  
ضربتُ خيامي في حماه فصبيتي تجني الحميم (٣) به وبهمي تشرح  
حتى يُراعى وجهه في وجهتي بعناية تشفي الصدور وتشرح  
أيسوغ عن مثواه سيري خائبا ومنابر الدنيا بذكرك تصدح

(١) في ط : « السريه » :

(٢) في ط : « لأجل ذاك أو يجرح » .

(٣) كذا في الأصلين والسلاوي ، ولعلها مصحفة عن « الحميم » وهو النبات الكثير .  
يريد أنهم في بسطة من العيش .

أنا في حماه وأنت أبصر بالذي يرضيه منك فوزن عقلك أرجحُ  
في مثلها سيف الحمية يُنتضى في مثلها زند الحقيظة يُقدح  
وعسى الذي بدأ الجميل يُعيده وعسى الذي سد المذاهب يفتح

[١٨٤] ومما كتب به إلى السلطان أبي سالم من مدينة سلا ، بعد عودته من  
مراكش .

مولاي المرجو لإتمام الصنيعة ، وصلوة النعمة ، وإحراز الفخر ، أبقاكم الله  
تُضرب بكم الأمثال في البر والرضا ، وعلو الهمة ، ورعى الوسيلة .

مقبّل موطئ قدمكم ، المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب ، من  
الضريح المقدس بشالة ، وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة ، وتيمم<sup>(١)</sup> بالتربة  
الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ، ساعة إياه من الوجهة المباركة ، وزيارة الرُّبُط  
المقصودة ، والترّب المعظمة ، وقد غزم ألا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم ،  
والدخيل المرعى ، حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى ،  
العزیز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته في أمر سهل عليكم ، لا يجز  
إنفاذ<sup>(٢)</sup> مال ، ولا اقتحام خطر ، إنما هو إعمال<sup>(٣)</sup> لسان ، وخط بنان ، وصرف  
غزم ، وإحراز نخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم ،  
أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ، ما يحضر مما يفتح الله فيه ،  
ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ، ما يتلقى عنه من الجواب . وقال لي صدر  
دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم ، سيدي الخطيب ، سنّي الله أمه ، من

(١) كذا في السلاوى ( ج ٢ ص ١١٥ ) . وفي الأصلين : « وتدم » .

(٢) في السلاوى : « إنقاد » .

(٣) في ت : « عمل » .

سعادة مقامكم ، وطول عُمركم : يا فلان ، أنت والحمد لله ممن لا يُنكر عليه الوفاء  
 بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإِنعام ما صدر ، جزاكم  
 الله جزاء المحسنين . وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله  
 إلى التربة الزكية عنكم ، حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم ، والعبد  
 الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أني لما فرغت من مخاطبته بمراي من الملاء  
 الكبير ، والجم الغفير ، أكتب على اللحد الكريم ، داعياً ومخاطباً ، وأصغيت [١٨٥]  
 بأذني نحو<sup>(١)</sup> قبره ، وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنني به  
 يقول لي : قل لمولاك : يا ولدي ، وقرّة عيني ، المخصوص برضاي وبري ، الذي  
 ستر حريمي ، ورد ملكي ، وصان أهلي ، وأكرم صنائعي ، ووصل عملي ، أسلم  
 عليك ، وأسأل الله أن يرضى عنك ، ويُقبل عليك ؛ الدنيا دار غرور ، والآخرة  
 خير لمن اتقى ، وما الناس إلا هالك وابن هالك ، ولا تجد إلا ما قدمت من عمل  
 يقتضى العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ، ومثلك من ذكّر فتذكر ،  
 وعُرّف فما أنكر ؛ وهذا ابن الخطيب [قد]<sup>(٢)</sup> وقف على قبري ، وتهتم بي ، وسبق  
 الناس إلى رثائي ، وأنشدني ومجّدي ، وبكاني ودعالي ، وهنأني بمصير أمري  
 إليك ، وعثر وجهه في ترابي ، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس ، فلو كنت  
 يا ولدي حيّاً لما وسعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي ، وأن أستقل فيه الكثير ،  
 وأحتقر العظيم ، لكن لما عجّزت عن جزائه ، وكَلَّتهُ إليك ، وأحلتته يا حبيب  
 قلبي عليك ، وقد أخبرني أنه سلب المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد  
 ظهر في عَدَم<sup>(٣)</sup> نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجواري ، ويستتر بدخيلي

(١) كذا في السلاوى . وفي الأصلين : « عند »

(٢) التكملة عن السلاوى .

(٣) في ط : « في عظيم » .

وخدمتي ، ويُردّ عليه حقّه بحرمتي ، ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ،  
ويعبّد الله تحت حرمتك وحرمتي ، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه في الحياة ،  
حسبما يعلمه حبیبنا الخالص المحبّة ، وخطیبنا العظيم المزية القديم القربة ، أبو عبد الله  
ابن مرزوق ، فسله يذكرك ، واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا  
الرجل خديمي بعد المات ، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله ورحمته التي وسعت  
كل شيء ، وله يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك ، وينوب عنه في ملازمة بيت  
كُتابك ، وقد استقر بدارك قراره ، وتعين بأمرك مرّته ودثاره ، فيكون  
الشيخ خديم الشيخ ، والشاب خديم الشاب ، هذه رغبتى منك ، وحاجتي  
إليك . واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يذكر ويُتحدّث به في الدنيا ، وبين  
أيدي الملوك والكبراء ، فاعمل ما يبقى لك نخره ، ويتخذ ذكره ، وقد أقام  
مجاوراً ضريحى ، تالياً كتاب الله علىّ ، منتظراً ما يصله منك ، ويقرؤه علىّ ،  
من السعى في خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره ، وإجراء ما يليق  
بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يُسمع عنى  
وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال . [ انتهى ]<sup>(١)</sup>

والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ،  
ولتعلموا وتتحققوا أنى لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ،  
وأخذت حسائف<sup>(٢)</sup> الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التتر ، وخلف البحر من  
الروم ، ووراء الصحراء من الحبشة ، وأمكنهم الله منى من غير عهد ، بعد أن  
بلغهم تدمى بهذا الدخيل ، ومقامى بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحداً  
منهم من حيث الحياء والحشمة من الأموات والأحياء ، وإيجاب الحقوق ، التي

(١) التكملة عن السلاوى .

(٢) الحسائف : العداوات ، جمع حسيفة .

لا يغفلها الكبار للكبار، إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل، والعمو الذي لا تفسده  
المؤاخظة، فضلا عن سلطان الأندلس، أسعده الله بموالاتكم، فهو فاضل، وابن  
ملوك أفاضل، وحوله أكياس، ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم، لاسيا مولاي  
والدم، الذي أتوسل به إليكم وإيهم، فقد كان يتبني مولاي أبا الحجاج، ويشمله  
بكنفه، وصارخه بنفسه، وأمده بأمواله، ثم صير الله ملكه إليكم، وأتم من [١٨٧]  
أتم ذاتا وقبيلا، فقد قررت يا مولاي عين العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي،  
من وفور حشودكم، وكثرة جنودكم، وترادف أموالكم وعددكم، زادكم الله من  
فضله. ولا شك عند عاقل، أنكم إن انحلت عمروة تأميلكم، وأعرضتم عن ذلك  
الوطن، استولت عليه يد عدوه، وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام، الذين  
خضعت لهم التيجان، وتعلق بثوب الملك الصالح، والد الملوك [الكرام] (١)،  
مولاي والدم، وشهرة حُرمة شالة معروفة، حاش لله أن يضيعها أهل الأندلس،  
وما تُوسل إليهم قطُّ بها إلا الآن، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة،  
وأملى منكم أن يتعين من بين أيديكم خديم، بكتاب كريم، يتضمن الشفاعة  
في رد ما أخذ لي، ويخبر بمشواى متراميا على قبر والدم، ويقرر ما لزمكم بسبب  
هذا الترامى، من الضرورة المهمة، والوظيفة الكبيرة، عليكم وعلى قبيلكم حيث  
كانوا، وتطلبون منهم عادة المكارمة بحل هذه العقدة، ومن العلوم أنى لو طلبت  
بهذه الوسائل من طيب (٢) ما لهم، ما وسعهم بالنظر العقلى إلا حفظ هذا الوجه مع  
هذا القبيل وهذا الوطن، فالحياء والحشمة يأيان العذر عن هذا في كل ملة رنحلة،  
وإذا تم هذا الغرض، ولا شك في إتمامه بالله، تقع صدقتكم على القبر الكريم

(١) التكملة عن السلاوى .

(٢) في ت : « صلب » .

بي ، وتعينونني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم  
 ليلة المولد في جواره ، وبين يديه ، وهو غرض غريب مناسب لبركم به ، إلى أن  
 أحج بيت الله بعناية مقامكم ، وأعود داعيا مثنيا ، مستدعيا للشكر والثناء من  
 أهل المشرق والمغرب ، وأتعوض من ذمتي بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك ،  
 يرثها ذريتي ، وقد ساومت في شيء من ذلك ، منتظرا ثمنه ، مما يباع بالأندلس  
 بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا ، أو يتوقع فيه وحشة  
 أو جناء ، والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعي أيضا لوالدكم  
 مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وهأنا أرتقب جوابكم ، بما لي عندكم  
 من القبول ، ويسعني مجدكم في الطلب ، وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض ،  
 والله يطلع من مولاي على ما يليق به . والسلام .

[١٨٨]

وكتبه في الحادي عشر من رجب ، عام أحد وستين وسبع مئة .

وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة :

فابذل من البر المقدر فيكا	مولاي هأنا في جوار أبيكا
والله يسمعك الذي يرضيكا	أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى
تهدي إليك النصر أو تهديكا	واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة
وتطالع الفتح المبين وشيكا	واجبره لجبري قلبه تنل المنى
وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا	فهو الذي سن البرور بأمه
وبما تؤمل نياله يأتيكا	وابعث رسولاك منذرا ومحذرا
وأخاف مملوكا به ومليكا	قد هز عزمك كل قطر نازح
ففضونه ثمر المني تجنيكا	فإذا سموت إلى صرام شاسع
لما جعلت في الثواب شريكا	ضميت رجال الله منك مطالب

فلئن كَفَيْتَ وُجُوهُهَا فِي مَقْصِدِي      وَرَعَيْتَهَا بِرَكَاتِهَا تَكْفِيكَ  
وَإِذَا قَضَيْتَ حَوَائِجِي وَأَرَيْتَنِي      أَمْلِي فَرَبِّكَ مَا أَرَدْتَ يَرِيكَ  
وَاشْدُدْ عَلَيَّ قَوْلِي يَدَا فَهُوَ الَّذِي      بَرَهَانَهُ لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكَ  
مَوْلَايَ مَا اسْتَأْثَرْتَ عَنْكَ بِمُهْجَتِي      أَنِي وَمُهْجَتِي الَّتِي تَقْدِيكَ  
لَكِنْ رَأَيْتَ جَنَابَ شَالَةَ مَغْنَمَا      يُضْفِي عَلَيَّ الْعِزَّ فِي نَادِيكَ  
وَفَرُوضِ حَقِّكَ لَا تَقُوتُ فَوْقَهَا      بَاقٍ إِذَا اسْتَجَزَيْتَهُ يَجْزِيكَ  
وَوَعْدَتِي وَتَكَرَّرَ الْوَعْدَ الَّذِي      أَبْتَ الْمَكَارِمَ أَنْ يَكُونَ أَفِيكَ  
أَضْفِي عَلَيْكَ اللَّهُ سِتْرَ عُنَايَةِ      مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ الطَّرِيقِ يَقِيكَ  
بِبَقَائِكَ الدُّنْيَا تُحَاطُ وَأَهْلُهَا      فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُبْقِيكَ

ولما وصل هذا السلطان أبا سالم رحمه الله راجعه بما نصه ، بعد البسملة [ ١٨٩ ]  
والصلاة :

رد السلطان  
أبي سالم علي  
ابن الخطيب

من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ،  
ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، [ أبي الحسن ، ابن مولانا  
أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ] <sup>(١)</sup> أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين  
المجاهد في سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، أيد الله أمره ،  
وأعزَّ نصره ، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأخطى ، الأوجه الأنوه ،  
الصدر الأحفل ، المصنف البليغ ، الأعرف الأكمل ، أبي عبد الله ابن الشيخ  
الأجل الأعز الأسنى ، الوزير الأرفع الأنجد ، الأصيل الأكمل ، المرحوم المبرور  
أبي محمد بن الخطيب ، وصل الله عزته ، ووالى نعمته <sup>(٢)</sup> .

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت وعن السلاوى .

(٢) في ت : « رفعتة » .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى ، والرضا عن آله وصحبه أعلام الإسلام ، وأئمة الرشد والهدى ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعيني ، بالنصر الأعز ، والفتح الأسنى .

فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم بلوغ الأمل ، ونُجِّح القول والعمل ، من منزلنا الأسعد ، بصفة وادى ملويه ، يمنه الله ، وصنع الله جميل ، ومنه جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة<sup>(١)</sup> برعى الوسائل ، ذلك لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلي المولوى العلوى ، جدد الله عليه ملابس غفرانه ، وسقاه غيوث رحمته وحنانه ، وبما أهديتم إلينا ، من التقرب لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتمال بمطارف حرمة السامية المظاهر ، وإلى هذا وصل الله حظوتكم ، ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابل بالإسعاف المستعذب وردده ، فوقفنا على ما نصّه ، واستوفينا ما شرحه وقصّه ، فأترنا حسن تلتطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفى الحين<sup>(٢)</sup> عيّننا لسكّال مطلبكم ، وتمام ما أربكم ، والتوجه بخطابنا فى حقكم ، والاعتماد بوقفكم ، خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت ، وأباز كريات بن فرقاچه ، أنجدهما الله وتولاها ، وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذى يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسطوا له جملة آمالكم ، وإنا نرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم ، وبرء اعتلاككم ، والله سبحانه يصل

(١) فى ت : « المتكفلة » .

(٢) فى ت : « فى الحسن » ، وهو تحريف .

مبرتكم ، ويتولى تكرمتم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .  
كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبع مئة .  
فراجعته ابن الخطيب بما نصه :

رد ابن الخطيب  
على السلطان أبي  
سالم شاكرا

مولاي خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة  
والرحمة ، ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله على الدرجة في المنعمين ، وافر الحظ عند  
جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة بر أبيكم في البنين ، وصنع لكم في عدوكم الصنع  
الذي لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الآليم من أراد في مثابتم بالحاد .  
عبدكم الذي ملكتم رقه ، وآوتم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنتم رزقه ،  
وجبرتم قلبه ، يُقبَل موطىء الأخص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة  
بفضل الله لموقف النصر ، الفارعة هضبة العز ، المعملة الخطو في مجال السعد<sup>(١)</sup> ،  
ومسير<sup>(٢)</sup> الحظ ، ابن الخطيب من شالة التي توَكَّد بملككم الرضى احترامها ،  
وتجدد برعيكم عهدا ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها ، [١٩١]  
وقد ورد على العبد الجواب المولوى ، البر الرحيم ، المنعم المحسن ، بما يليق بالملك  
الأصيل ، والقدر الرفيع ، والهمة السامية ، والعزة القعساء ، من رعى الدخيل ،  
والنصرة<sup>(٣)</sup> للذمام ، والاهتزاز<sup>(٤)</sup> ابر الأب الكريم ، فثاب الرجاء ، وانبعث  
الأمل ، وقوى العضد ، وزار اللطف ، فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدم  
الكريمة ، وأعانكم على رضى ذمام الصالحين ، المتوسل إليكم أولا بقبورهم

(١) في ط : « السعة » .

(٢) كذا في السلاوى . ذا الأصلين : « وميسر » .

(٣) في ت : « والمعرة » .

(٤) في ت : « والاعتزاز » .

ومتعبداتهم ، و تراب أجدانهم ، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين ،  
الذى تسبب في وجودكم ، واختصكم بحبه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب  
الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهياتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة ،  
بعد طول المدى ، وانفساح البقاء ، وفي علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات  
عن العرب ، من النصرة<sup>(١)</sup> عن طائر داست أفرأخه ناقة في جوار رئيس  
منهم ، وما انتهى إليه الامتعاظ لذلك ، مما أهينت فيه الأنفس ، وهلكت  
الأموال ، وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم ، من  
عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم [ ابن الكريم ]  
فيمن لجأ أولاً إلى حماكم بالأهل والولد ، عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم  
الحرية على بذلها ، ثم فيمن حطَّ رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم ،  
دامع العين ، خافق القلب ، دامى القرحة<sup>(٢)</sup> ، يتغلى بردائه ، ويستجير بعليانه ،  
كأننى تراميتُ عليه في الحياة أمام الذعر الذى يُذهل العقل ، ويحجب عن  
التمييز ، بقصر داره ، ومضجع رقادته ، ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة :  
يا ليعقوب ، يا لمَرين ، نسأل الله ألا يقطع عنى معروفكم ، ولا يسلبنى عنايتكم ،  
ويستعملنى ما بقيت في خدمتكم ، ويتقبل دعائى فيكم ، ولحين وصول الجواب  
الكريم ، نهضت إلى القبر المقدس ، ووضعت به إزائه ، وقلت : يا مولاي ، يا كبير  
الملك ، وخليفة الله ، وبركة بنى مَرين ، صاحب الشهرة والذكور في المشرق  
والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المتراحم بين يدي قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى  
ولديك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاة ولديك ما يليق بمقامه ، من رعى وجهك ،  
[ والتقرب إلى الله برعيتك ] ، والاشتهار في مشرق الدنيا ومغربها ببرك ، وأنتم من

[١٩٢]

(١) كذا في ط والسلاوى . وفى ت : « النعرة » .

(٢) فى السلاوى بدل هذه العبارة : « واهى الفزعة » .

أتم ، من إذا صنع صنيعة كملها ، وإذا بدأ مِنَّة تَمَّها ، وإذا أسدى يدا أبرزها ،  
 طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة ، وأنا بعدُ تحت ذيل حرمتك ،  
 وظل دخيلك ، حتى يتم أملي ، ويخلص قصدي ، وتحف نعمتك بي ، ويطمئن  
 إلى مأمئك قلبي .

ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بيني وبينكم [ تلاوة ] كتاب الله منذ أيام ،  
 ومناسبة النحلة ، وأخوة التألف بهذا الرباط المقدس ، والسكنى بين أظهركم ،  
 فأمنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم ، واندفعت في الدعاء والتوسل ، الذي  
 نرجو أن يتقبله الله ولا يضيعه ، وخاطب العبد مولاه شاكرًا لنعمته ، مُشيدًا  
 بصنيعته ، مسرورا بقبوله ، وشأنه من التعلق والتطرح شأنه ، حتى يكمل القصد ،  
 ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان .

وفي يوم الخميس سابع عشر من شعبان ، من العام المؤرخ ، ورد كتاب فتح  
 تلمسان ، فأصدر ابن الخطيب إلى باب السلطان أبي سالم ما نصه :

[١٩٣]

مولاي فتاح الأقطار والأمصار ، فائدة الزمان والأعصار ، أثير هبات الله  
 الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولى الأيدي والأبصار ، ناصر الحق عند قعود  
 الأنصار ، وهي طويلة ، انظرها في الريحانة ، وبعدها قصيدة بديعة مطلعها :

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

ومن مخاطباته للحاجب ابن مرزوق .

سيدى ، بل مالكي ، بل شافعي ، ومنتشلي من الهفوة ، ورافعي وعاصمي  
 عند تجويد حروف الصنائع ، ونافعي الذي بجاهه أجزاء المنازل قرأى ، وفضلت  
 أولاي ، والمنة لله أخراى ، وأصبحتُ وقول الحسن هججراى :

تهنئته للسلطان  
 أبي سالم  
 بفتح تلمسان

من مخاطباته  
 لابن مرزوق

عَلَقْتُ بِحَبْلٍ مِنْ حَبَالِ مُحَمَّدٍ      أَمَنْتُ بِهِ مِنْ طَارِقِ الْحَدَثَانِ  
تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ      فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَوَيْسَ يَرَانِي  
فَلَوْ تَسَأَلُ الْأَيَّامُ مَا اسْمِي مَا دَرْتُ      وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

وصلت مكناسة ، حرسها الله تعالى ، تحت غيبِ حَدَانِي حَدُونَدَاك ، وسحائب  
لولا الخصال المبرة قُلْتُ يَدَاك ، وكان الوطن لاغتباطه بجواري ، وما رآه من  
انتياب زُوَارِي ، أو عن إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلق يده على التعريق ،  
وأشراق القوافل مع كثرة الماء بالريق ، فلم يسع إلا المُقَام أَيَّامًا ، قُعودًا في البر  
وقياما ، واختيارا لضروب الأنس واعتياما ، ورأيت بلدةً معارفها أعلام ،  
وهواؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها السنة وأقلام ، فحيا الله سيدي ، فلکم  
من فضل أفاد ، وأنس أحياء وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد ، كما  
مَلَّكَ زِمَامَ الكَمَالِ فاقْتَاد ، وأنا أطارح عليه في صلة تفقده ، وموالاته يده ، بأن  
يسهمني في فرض مخاطباته مهما خاطب ، معتبرا في هذه الجهات ، ويصحبني من  
مناجحته بكتوس مسرة ، يعمل فيها هاك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده  
موجود ، ومنهل السرور بسروره مورود ، والله عن وجل يبقية ببقاء الدهر ،  
[ ويجعل حبه وظيفة السر ، وحمده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه  
زين الدهر ] ويصل لنا تحت إيايته العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين . انتهى .

[١٩٤]

وقال رحمه الله :

حضرت يوما بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه ، لغرض  
الرسالة ، وجرى ذكر بعض أعدائه ، فقلت ما اعتقدت في اطراء ذلك العدو ،  
وما عرفته من فضله ، وأنكر على بعض الحاضرين ، ممن لا يحطِب إلا في حبل  
السلطان ، فصرفت وجهي وقلت : أيدكم الله ! تحقير عدو السلطان بين يديه

شيء من صراحة  
ابن الخطيب في  
مجلس السلطان  
أبي عنان

ليس من السيامسة في شيء ، بل غير ذلك أحق وأولى ، فإن كان السلطان غالبا عدوه كان قد غلب غير حقير ، وهو الأولى بفخره ، وجلالة قدره ، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير ، فيكون أشد للحسرة ، وأوكد للفضيحة . فوافق رحمه الله على ذلك ، واستحسنه ، وشكر عليه ، وخجل المعترض . انتهى .

ومن نظمه رحمه الله :

شعر له في  
مكناسة

مكناسةٌ جُمِعتَ بها زُمُرُ العِدا      فمدى بريدٍ فيه ألف بريد  
من واصلٍ للصوم لا لرياضة      أو مدمن للجوع غير مُريد  
فإذا سلكت طريقها متصوفا      فابن السلوك بها على التجريد

ولما دخل رحمه الله مدينة آنفي ، ومر منها على دار عظيمة ، تنسب إلى والي

شعر له في  
مدينة آنفي

جبايتها « عبو » من بني الترجمان ، قارون قومه ، وغنى صنفه ، قال :

قد مررنا بدار « عبو » الوالى      وهى ثكلى تشكوصروف اللىالى  
أقصدتُ ربها الحوادث لما      رشقته بصائبات نبال  
كان بالأمس واليا مستطيلا      وهو اليوم ما له من وال

ومن نظمه رحمه الله في الشيخ ابن بطان الصنهاجي :

شعر له في  
ابن بطان

[١٩٥]

لله درك يا ابن بطان فما      لشهير جودك في البسيطة جاحد  
إن كان في الدنيا كريم واحد      يزن الجميع فانت ذاك الواحد  
أجريت فضلك جعفرا يحيا به      ما كان من مجد فذكرك خالد  
فالقوم منك تجمعوا في مُفرد      ولد كما شاء العلاء ووالد  
وهي اللىالى لا تزال صروفها      يشقى بموقعها الكريم الماجد  
وبمستعين الله يصلح منك ما      قد كان أفسده الزمان الفاسد

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث :

زَحَفْتُ إِلَى رِكَابِ الْبُرْغُوثِ      نَمَّ الظَّلامُ بِرُكْبِهَا المَحْثُوثِ  
بِالحَبَّةِ السوداءِ قَابِلٍ مَقْدَمِي      لَهِ أَى قَرِيٍّ أَعَدَّ خَبِيثِ  
كَسَحَتْ بِهِن ذَبَابٌ سَرَحَ تَجَلَّدِي <sup>(١)</sup>      لَيْلًا فَحَبَّلَ الصَّبْرُ جِدًّا رَثِيثِ  
إِنْ صَابَرْتَ نَفْسِي أَذَاهُ تَعَبَّدْتِ      أَوْ صَحَّتْ مِنْهُ أَرْنَفْتُ مِنْ تَحْنِيثِ  
جَيْشَانِ مِنْ لَيْلٍ وَبُرْغُوثِ فَهَلْ      جَيْشِ الصَّبَاحِ لَصَرَخَتِي بِمُعِيثِ

شعر له  
في البرغوث

[ ومن نظمه رحمه الله في عثمان بن يحيى بن عمر بن روح :

أُسْمِي ذِي النُّورِينِ وَجْهَكَ فِي الوَغَى      شَمْسُ الضُّحَى حَلَّتْ بَلِيثَ عَرِينِ  
إِنْ تَفْتَخِرَ بِمَرِّينِ أَرْضِ العُدُوِّ المَقْصُوى فَإِنَّكَ أَنْتَ نَجْرَ مَرِّينِ ] <sup>(٢)</sup>

شعر له  
في ابن روح

وقال يخاطب الوالى محمد بن حَسُونِ بن أبى العلاء ، وصَدَّرَ بِهَا رسالة :  
لَمْ يُبْقِ لِي جُودُ الوِلايَةِ <sup>(٣)</sup> حَاجَةً      فِي الأَمْنِ أَوْ فِي الجِاهِ أَوْ فِي المَالِ  
بَعْدَ اللِّقَاءِ أَوْ لَوْ الفُضائلُ بَغِيثِي      وَرَأَيْتَ هَذَا القَصْدَ شَرَطَ كَمالِ  
أَجَلْتَهُ وَتَشَوَّفْتُ لِبيانِهِ      هِمَّ فَكُنْتُ مَفْسرَ الإِجْمالِ  
وَخَصَصْتُ بِالإِغْماءِ غَيْرَكَ غَيْرَةً      وَجَعَلْتُ ذَكَرَكَ شَاهدَ الأَعْمالِ  
أَلْبَسْتُ <sup>(٤)</sup> يَا بَنَ أبى العِلا قُشْبِ المِلا      وَتَرَكْتَ أَهْلَ الأَرْضِ فِي أَسْمالِ  
إِنْ دَوَّنَ الفُضلاءُ فَضلاً مُعَلِّمًا      فَلَقَدْ أَتَيْتَ عَلَيْهِ بِالإِكْمالِ  
تُثْنِي عَلَيْكَ رَعِيَّةَ آمالِها      فِي أَنْ تَفوزَ يَدَاكَ بِالْأَمالِ

شعر له صدر  
به رسالته إلى  
ابن حسون

(١) كذا في نفع الطيب والسلوى . وفي الأصلين : « به دباج » . وهو محرف  
صما أثبتناه .

(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت .

(٣) في الأصلين : « الخلافة » . وقد أثبتنا رواية نفع الطيب للملاءمها السياق .

(٤) في نفع الطيب : « للبت »

أُرْعِيْتَهَا هَمًّا فَلَمْ يَطْرُقْ لَهَا      بِمَنْعِ سُورِكَ طَارِقُ الْإِهْمَالِ  
 مِنْ كُنْتِ وَالِيهِ تَوْلَتْهُ الْعَمَلَا      وَمِنْ اطَّرَحْتَ فَمَا لَهُ مِنْ وَالِي

وقال رحمه الله عند وقوفه على مَرَاكَشَ ، واعتباره بما صار إليه أمرها (١)

شعر له في نذب  
 مراکش بعد  
 الموحدین

بَلَدٌ قَدْ غَزَاهُ صَرَفُ اللَّيَالِي      وَأَبَاحَ الْمَصُونِ مِنْهُ مُبِيحُ

فَالَّذِي خَرَّ مِنْ بِنَاهُ قَتِيلُ      وَالَّذِي خَرَّ مِنْهُ بَعْضُ جَرِيحُ

وَكَأَنَّ الَّذِي يَزُورُ طَيِّبٌ      قَدْ تَأْتَى لَهُ بِهَا النُّشْرِيحُ

أُعْجِمْتَ مِنْهُ أَرْبُعَ وَرُسُومِ      كَانَ قَدِيمًا بِهَا اللِّسَانَ الْفَصِيحِ

كَمْ مَعَانٍ غَابَتْ بِتِلْكَ الْمَغَايِ      وَجَمَالٍ أَخْفَاهُ ذَاكَ الضَّرِيحُ

وَمُلُوكٍ تَعَبَّدُوا الدَّهْرَ لِمَا      أَصْبَحَ الدَّهْرُ وَهُوَ عَبْدُ صَرِيحِ

دَوَّخُوا نَازِحَ الْبَسِيطَةِ حَتَّى      قَالَ مَا شَاءَ ذَابِلٌ وَصَفِيحِ

حَيْثُ (٢) شُبَّتْ لَهُمُ مِنَ الْبَأْسِ نَارُ      ثُمَّ هَبَّتْ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ رِيحُ

أَثَرُ يَنْبُذُ الْمُؤَثِّرَ لِمَا      طَالَ (٣) بَعْدَ الدَّنُوءِ مِنْهُ النَّزُوحُ

سَاكِنُ الدَّارِ رُوحَهَا كَيْفَ يَبْقَى      جَسَدٌ بَعْدَ مَا تَوَلَّى الرُّوحُ

وقال يخاطب عميد مَرَاكَشَ (٤) ، المتميز بالرأى والسياسة والهمة ، وإفاضة

طبه  
 عامر الهنتاني

العدل ، وكف اليد ، والتجاني عن مال الجباية ، عامر بن محمد بن علي الهنتاني :

تَقُولُ لِي الْأَطْعَانُ وَالشُّوقُ فِي الْحَشَى      لَهُ الْحُكْمُ يَمْضَى بَيْنَ نَاهٍ وَأَمْرِ

إِذَا جَبَلَ التَّوْحِيدَ أَصْبَحْتَ فَارَعَا      نَفِيحُ قَرِيرِ الْعَيْنِ فِي دَارِ عَامِرِ

(١) كذا في الأصلين وفي نفع الطيب . وفي السلاوي زيادة في هذه العبارة يتضح بها

المقام ، قال : « ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر

ما صار إليه أمرها بعد الموحدین قال » .

(٢) في ط : « حين » .

(٣) في ط : « كان » .

(٤) في السلاوي : « عميد البلاد المراكشية » .

وزر تربة المعلوم إن سزارها هو الحجج يُنفِضِي نحوَه كلُّ ضاصرٍ  
 سَتَلَقِي بِمُوسَى عامر بن محمد ثغورَ الأمانِي من ثنايا البشائر  
 والله ما تبلوه من سمد وجهه والله ما تلقاه من يُمن طائر  
 وتُسْتَعْمَلُ الأمثال في الدهر منكما بخير سزور أو بأغبط زائر

تعريف  
 بعاصر الهنتائي

أقول : عامر بن محمد هذا ، هو قريع<sup>(١)</sup> هنتائة ، وكانت له مع أبي الحسن  
 المريني في الوفاء أحاديث ، صحَّحت عند أبي عنان وغيره مُتاتِه ، ولم يزل في رياسته  
 مدة أبي عنان ومن بعده من ملوك بني مرين ، إلى زمن أبي فارس عبد العزيز  
 ابن أبي الحسن ، فنازله بجنوده ، وحاصره بمعتقه ، حتى استولى عليه وقتله .

وقد ساق أمره ابن خلدون واستوفاه ، ومنعني من الإتيان به ما حصل  
 من التطويل في هذه الترجمة ، وقد أشار إليه ابن الأحرر في « نثر فرائد الجان »  
 عند ما ذكر الشريف الشبوكي ، ونصه :

شيء عن الشريف  
 الشبوكي

[١٩٧] « صاحبنا الفقيه ، محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف ، يسكنني أبا  
 عبد الله ، ويعرف بالشبوكي ، رأيتُه وصحبته ، ونسبته حسبا نقلته من خطه على  
 متن كتاب ، وأخبرني هو به ، وسمعتُه أيضا بنفاس ، من بعض الناس ، وهو محمد  
 ابن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمران بن عبد الرحيم بن نوح بن  
 شعيب بن علي بن أبي محمد بن حيان بن فضل بن طاهر بن مطهر بن حمود بن زياد  
 ابن محمد بن الحسن<sup>(٢)</sup> بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ويعرف بالشبوكي .  
 وشبوكة : قرية بينها وبين مدينة فاس ثلاثة أميال<sup>(٣)</sup> ؛ وأخبرني أن جده عبد الرحيم

(١) القريع : السيد الرئيس .

(٢) في ط : « الحسين » .

(٣) في ت : « أيام » .

أتى من المشرق إلى المغرب ، واستوطن بشبوكة ، وهو شريف ؛ ويوسف أبوه كان رحمه الله جميل الوجه جدا ، شاعرا مجيدا فقيها ، وبرّز عدّلا في سِمَاطِ شهود فاس ، واستخدمه أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عِنان المريني شاهدا في دار صناعته ؛ وأحمد والد يوسف كان فقيها صوفيا ؛ ومحمد والد أحمد كان فقيها صالحا ؛ ويوسف والد محمد كان فقيها عالما صالحا مكاشفا بحجاب الدعوة ، من أهل الطبقة العليا في الصلاح ؛ وأبو عبد الله هذا كتب الوثيقة بشهود فاس .

هاله أكرم الله : هو فارس القريض ، وحامل لوائه الطويل العريض ، وله وجه وسيم ، وحياء جسيم ، وسموّ همته لم يبلغها إنسان ، ولم يُسمع بمثلها في سالف الأزمان ، ويؤثر غيرة نفسه على هواه ، ويختار مهيب السمو على ما سواه ، وأنشدني لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا فارس عبد العزيز المريني ، بعد قتله لوزيره المتغلب على أمره ، عمر بن عبد الله بن علي اليباني ، ويحرضه على قتال الشيخ أبي ثابت عامر بن محمد بن علي الهنتائي ، صاحب جبل هنتاتة ، من حوز مراکش ، حين خرج عليه به ، بالسلطان المعتمد على الله أبي الفضل محمد بن أخي السلطان عبد العزيز هذا :

شعر للشبوكي في  
مدح أبي فارس  
والتحريض على  
الهنتائي

أبان في حبّه ما قال عاذله  
دمعٌ جرى فوق صَفْح الخلد هامله  
فبات من وطأة التفريق ذا وجل<sup>(١)</sup>  
يستنجد الصبر عونا وهو خاذله  
صَبَّ إذا ما بدا بالرقمتين له  
وميض برق الحمي هاجت بلابله  
يبكي لمنزل أنس بان أهله  
وظاعن عنه قد شطت منازلته  
يا حسن عصر بهم قضيته زمنا  
رقت حواشيه إذ رقت أصائله

(١) في ط : « في وجل » .

كأنَّ صوبَ دموعي بعد بُعْدِهِمْ  
 عبد العزيز الذي عزت بدولته  
 وأصبح الملك في أمن وفي دعة  
 عادت بعبيد لنا منه نضارته  
 كالروض باكره ظل على ظمأ  
 هو الإمام الذي من أم ساحته  
 ومن تخلف جهلا عن إجابته  
 قل للذي عنه أقصته جرائمه  
 زُرَ حضرة الملك الميمون طالعه  
 فطبعه الصفح والمعروف شيمته  
 أبلغ جميع العدا أن سوف يشملهم  
 هذا المليك أتاها في كتابه  
 بكل خرق طويل الباع مُتَّئِد  
 وجحفل فيه سمر الخط مُشْرَعَةٌ  
 سيعلم العُمرُ عُقبِي ما جناه إذا  
 وحاط بالجبل البحر المحيط ولا  
 فأنهض إليهم أمير المسلمين فقد  
 من ذا يُنازل جيشًا أنت قائده

سيب المليك إذا وافاه سائله  
 مراتب الحق والتساحت دلائله  
 من الذي كان غالته غوائله  
 فعاد يافعه واشتد كاهله  
 وجاده بعد ذلك الطل وابله  
 جادت عليه بجذواها أنامله  
 سارت إليه على علم صواوله  
 وعقلته عن العليا معاقله  
 تحفظ بما أنت في دنياك آمله  
 والحلم والصون والتقوى شمائله  
 من الظبي كل ماضي الحد فاصله  
 لنسخ آجالهم تنضى رواحله  
 مقصّر عمر من تلقى مناصله (١)  
 قد حجبت أنجم الشعري قساطله  
 كلفت مواضيه وانقضت كلاكه  
 حت فوق رؤسهم منه جداوله  
 أعطيت كل المني فيما تحاوله  
 يوم الكريهة أو من ذا يناضله

[١٩٩]

(١) المناصل : السيوف ؛ الواحد : منصل ( بضم الميم وسكون النون مع ضم الصاد

. وفتحها ) .

ألا ترى المارق الرّعيديّ حين عتا  
 ظنّ الضنين بأن يسمو ويعلوّ في  
 ففادرتة الصّعاد الزُّرق منجدلاً  
 دنياه تضحك من أحواله عجبا  
 فليهنّ دين الهدى من بعد مدته  
 لم ينتصب قطّ في الدنيا لواء علّا  
 مولاي مولاي دُمّ ماعشت مصطجبا  
 إن سار جيشك فالتأييد يقدمه  
 وأضمر المكر صادته حباله  
 دنيا سمّت وعلت فيها بواطله  
 فوق الصّعيد تُناديه جنادله  
 به وفي الحقّ تبكيه أرامله  
 أن أنت يا ذا المحيّا الطلق كافله  
 إلّا ومن آل عبد الحقّ حامله  
 علّا ونفرا وعزّا لا تزايله  
 والنصر عاجله يقفوه آجله  
 انتهى كلام ابن الأحمر .

وأقرب هذا الشريف الشبوكيّ لم يزلوا إلى الآن ، ولم مصاهرة مع وليّنا  
 الفقيه الحدّث ، الحاج الرّحال البرّكة ، القدوة الصالح الناصح ، أبي عبد الله سيدي  
 محمد بن الوليّ الصالح سيدي أبي بكر بن محمد ، صاحب الدّلا<sup>(١)</sup> ، أبقى الله علاهم ،  
 وأعانهم على ما أولاهم .

ولنرجع إلى ابن الخطيب فنقول :

وقال رحمه الله ، وقد شاهد بجبل هنتاة محل وفاة السلطان أبي الحسن  
 المريني ، حيث أصابه طارق الأجل ، الذي فصل الخطّة ، وأصمت الدّعوة ،  
 ورفع المنازعة ، وعابنه مرفّها<sup>(٢)</sup> عن الابتدال بالسكنى ، مفترّشا بالحصباء ،  
 مقصودا بالابتهاال والدعاء ، فلم يبرح يوم زيارة محل وفاته أن قال :

شعر لابن الخطيب  
 على قبر السلطان  
 أبي الحسن المريني

(١) كذا وردت هذه الكلمة في الأصلين ، ولم تفهم المراد منها ، ولم نعر على مرجع

آخر لهذا الكلام المنقول عن ابن الأحمر ، لتعارض به هذا النص .

(٢) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب : « مرفعا » .

يا حسنَهَا من أَرْبُعٍ وديارِ  
وجيالِ عِزٍّ لا تَذِلُّ أنوفُهَا  
ومقرٍّ<sup>(١)</sup> توحيدٍ وأُسِّ خِلافةِ  
ما كنتِ أحسبُ أنَّ أنهارَ النَّدى  
ما كنتِ أحسبُ أنَّ أنوارَ الحِجَا  
مَجَّتْ جوانبُهَا البرودِ وإن تكن  
هدَّتْ بناها في سبيلِ وفائِهَا  
لما توَعَّدَها على المجدِ العِدا  
عمَّرتِ بِجِلَّةِ<sup>(٢)</sup> عامرٍ وأعرَّهَا  
فوسَّارِهانِ أحرزا قَصَبِ النَّدى  
وورثانِ عن النَّذْبِ الكَثيرِ أبيها  
وكذا الفروعِ تطولُ وهى شبيها  
أزرتِ وجوهُ الصَّيْدِ من هنتاتِ  
للهِ أى قبيلةٍ تركتِ لها النَّظراءِ دَعْوَى الفخرِ يومِ نِخارِ  
نصرتِ أميرَ المسامِينِ<sup>(٣)</sup> وملكهُ  
قَد أسلمته عزائمُ الأنصارِ  
وارتِ عليًّا عندما ذهبَ الرِّدى  
والرُوعُ بالأسماعِ والأبصارِ  
وتخاذلِ الجيشِ اللُّهَامِ وأصبحَ الأبطالِ بينَ تقاعُدِ وفِرارِ

[٢٠٠]

(١) فى ط : « ومحل » .

(٢) كذا فى نفع الطيب . وفى الأصلين والساوى : « بجلة » . ويريد بعاصم :

عامر بن محمد الهنتانى .

(٣) كذا فى ط ونفع الطيب . وفى ت : « الأقدار » .

(٤) فى ط : « المؤمنين » .

كُفِرَتْ صنائعه فيم دارها  
وأقام بين ظهورها لا يتقى  
فكأنها الأنصارُ لَمَّا آنت  
لما غدا لحظاً وهم أجفانه  
حتى دعاه الله بين بيوتهم  
لو كان يمنع من قضاء الله ما  
قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما  
ما كان يقنعه لو امتد المدى  
فيعيد ذاك الماء ذائباً فضة  
حتى تفوز على النوى أوطانها  
حتى يلوح على وجوه وجوههم  
ويُسَوِّغَ الأملَ القصيَّ كرامها  
ما كان يرخصي الشمس أوبدر الدجى  
أو أن يتوجج أو يقلد هامها  
حقاً على المولى ابنه<sup>(٤)</sup> إشاراً ما  
فلعلها ذخر الجزاء ومثله  
وهو الذي يقضى الديون وبره

مُسْتَظْهِراً منها بعز جوار  
وقع الردى وقد ارتقى بشرار  
فيما تقادم<sup>(١)</sup> غربة المختار  
نابت شيفارهم عن الأشفار  
فأجاب ممتثلاً لأمر البارى  
خلصت إليه نوافذ الأقدار  
أولوه لولا قاطع الأعمار  
إلا القيام بحقها من دار  
ويعيد ذاك التراب تبر<sup>(٢)</sup> نضار  
من ملكه بجلائل الأوطار  
أثرُ العناية ساطع الأنوار  
من غير ما ثنيا ولا استعصار<sup>(٣)</sup>  
عن درهم فيهم ولا دينار  
ونحوها بأهيلة ودراى  
بذلوله من نصر ومن إشار  
من لا يضيع صنائع الأحرار  
يرضيه فى علن وفى إسرار

(١) فى ط ونفع الطيب : « تقدم » .

(٢) فى نفع الطيب والسلاوى : « ذوب » .

(٣) الثنيا : الاستثناء . والاستعصار : استعمال من العصر بمعنى المنع . ولم ترد صيغة

« استعمل » من العصر فى المعاجم التى بأيدينا .

(٤) يريد بالمولى : ابنه السلطان أبا سالم بن أبى الحسن المرينى .

حتى تُحَجَّ مَحَلَّةً رَفَعُوا بِهَا عِلْمَ الْوَفَاءِ لِأَعْيُنِ الْفُطَارِ  
 فِيصِيرُ مِنْهَا الْبَيْتُ بَيْتًا ثَانِيًا لِلطَّائِفِينَ إِلَيْهِ أَيْ بِدَارِ  
 تَغْنِي قُلُوبَ الْقَوْمِ عَنْ هَدْيِ بِهِ وَدَمُوعُهُمْ تَكْفِي لِرُمَى جِمَارِ  
 حَيِّتِ مِنْ دَارِ تَكْفُلِ سَعِيهَا الْمَحْمُودِ بِالزُّنْفَى وَعُقْبَى الدَّارِ  
 وَضَفَّتْ عَلَيْكَ مِنَ الْإِلَهِ عُنَايَةً مَا كَرَّ لَيْلٌ فِيكَ إِثْرَ نَهَارِ

شعر  
 لابن الخطيب  
 على قبر المعتمد

وقال رحمه الله ، حين زار بخارج أغمات قبر المعتمد بالله أبي القاسم  
 ابن عَبَّاد ، أمير حِمص<sup>(١)</sup> وقرطبة والجزيرة ، وما إلى ذلك الصُّقْعِ الْعَرَبِيِّ ،  
 ونص كلامه الذي رتبته في ذلك أنه قال :

وقفت على قبر المعتمد بالله بمدينة أغمات ، في حركة راحة أعملتها إلى  
 الجهات المراكشية ، باعثها لقاء الصالحين ، ومشاهدة الآثار عام واحد وستين  
 وسبع مئة ، وهو بمقبرة أغمات ، في نشز من الأرض ، قد حَفَّتْ بِهِ سِدْرَةٌ ، وإلى  
 جنبه قبر اعتماد حَظِيَّتِهِ مَوْلَاةَ رَمِيكَ ، وعليهما هيئة<sup>(٢)</sup> التَّغْرِبِ ، ومعاناة الحول  
 من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ، فأنشدت في الحال :

قد زُرتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعِ بَأْغَمَاتِ رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْمَهْمَاتِ  
 لَمْ لَا أَزُورُكَ يَا أُنْدَى الْمُلُوكِ يَدَا وَيَا سِرَاجَ اللَّيَالِي الْمَدَاهِمَاتِ  
 وَأَنْتَ مَنْ لَوْ تَخَطَّى الدَّهْرُ مَضْرَعَهُ إِلَى حَيَاتِي لَجَادَتْ فِيهِ أَيْبَاتِي  
 أَنْفَ قَبْرِكَ فِي هَضْبٍ يَمِيزُهُ فَتَنْتَحِيهِ حَفِيَّاتِ التَّحِيَّاتِ  
 كَرُمْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَاشْتَهَرْتَ غَلًّا فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءِ وَأَمْوَاتِ

(١) يريد بحمص (هنا) : مدينة إشبيلية بالأندلس ، لأن العرب الذين نزلوها عند الفتح  
 أسموها باسم بلدكم في الصرق .  
 (٢) في نفح الطيب : « أثر » .

مارى،<sup>(١)</sup> مثلك في ماضٍ، ومُعتقدي أن لا يُرَى الدهرَ في حالٍ ولا آتِي  
وقال رحمه الله مخاطباً أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبي محمد  
صالح النائم في ظل صيدته ، رحمهم الله :

شعر له  
في مخاطبة  
ابن يوسف

يا حفيدَ الوليِّ يا وارثَ الفخْرِ الذي نال في مقالٍ<sup>(٢)</sup> وحالٍ  
لك يا أحمد بن يوسف جُبنا كل قفر<sup>(٣)</sup> يعي أكف الرجال  
ولما خرج رحمه الله من آسفي<sup>(٤)</sup> سار إلى منزل ينسب لأبي خدو<sup>(٥)</sup> ؛ فيه  
رجل من بني المنسوب إليه ، اسمه يعقوب ، قال في نقاضة الجراب ، فألطف  
وأجزل وآنس في الليل ، وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفته ، فكتبت له :

نزلنا على يعقوبَ نجل أبي خدو فعرّفنا الفضل الذي ماله حدُّ  
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم نلّه ولا زُبْد  
يحق علينا أن نقوم بحمقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد  
وقال يخاطب السلطان :

وله في مخاطبة  
السلطان

أنت للمسلمين خير عماد وملاذ وأئى حِرز حريز  
لو رأى ما شرعت للخلق فيه عمرُ الفاضل ابن عبد العزيز  
لجزى ملكك المبارك خيرا وقضى بالشفوف<sup>(٦)</sup> والتبريز  
فاشكر الله ما استطعت بفعل وبقول مُطوّل أو وجيز

(١) رىء : أصله (رئى) بالبناء للمجهول ، قدمت اللام على العين .

(٢) في ت : « مقام » .

(٣) في نفتح الطيب : « قطر » .

(٤) آسفي : من الثغور المرآ كشية .

(٥) في نفتح الطيب : « خدو » .

(٦) يريد بالشفوف ( هنا ) : الزيادة .

كل ملكٍ يُرى بصُحبة أهل العلم قد باء بالحل العزيز  
فإذا ما ظفرت منهم بإكسير ملأت البلاد من إبريز  
والبرايا تبيد والممالك يفنى أين كسرى الملوك مع أبرويز

وله في مخاطبة  
ابنه وقد وصل  
لزيارته

وقال : أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني ،  
حيث [ جرايته ووظيفته ، وانجر حديث ] <sup>(١)</sup> ما فُقد بفرناطة في شجون الكلام :

يا بنيَّ عهدَ الإله احتسابا      عن أثاثٍ ومنزلٍ وعقارٍ  
كيف يأتى على خسارة جزء      من يرى الكلَّ في سبيل الخسار  
هدف لا تنى سهامُ الليالي      عن سباقٍ تجاهه وبدار  
واحد طائشٍ وثابٍ مصيبٌ      ليس ينجى منها اشتمالُ حذار  
غير ذى الدار صُرفَ الهمُّ فيها      فمناخ الرحيل ليس بدار

وقال : أنشدته وأمرته بحفظه ، والتأدب به ، واللهج بحكمته :

إذا ذهبتُ يمينك لا تُضيّع      زمانك في البكاء على المصيبة  
ويُسراك اغتمم فالقوس ترمي      وما تدري أرشقتها قريبه  
وما بغريبة نوب الليالي      ولكن النجاة هي الغريبة

[٢٠٣]

وقال رحمه الله :

يأهل هذا القطر ساعده القطر      بليت فذلوني لمن يرفع الأمر  
تشاغلتم بالدنيا ونمت مفرطاً      وفي شغلي أو نومتي سرق العمر  
وقال رحمه الله :

مالي أهدبُ نفسي في مطالبها      والنفسُ تأنفُ تهديبي وتهدي بي

(١) ما بين القوسين تكلمة عن ت .

إذا استعنتُ على دهرى بتجربة تأبى المقاديرُ تجريبى وتجربى بى

وقال رحمه الله مَوْرِيَا حين أكل مُشرفِ الدارِ القابضِ<sup>(١)</sup> ، أى أخذ ماله :

وله فى مشرفِ  
الدارِ حين أكلِ  
القابضِ

مُشْرِفِ دارِ الملكِ ما باللهِ منتفخَ الجوفِ شكَا نافضَا

فقيل لى ليس به علة لكنه قد أكل القابضَا

وقال رحمه الله :

يا نفس لا تُصغى إلى سَلْوَةٍ كَم أَخْلَفَ الموعِدَ عُرْقُوبُ

وأنت يا قلبى وَصَّأكَ إبراهيمُ بالحزنِ ويعقوبُ

قال : وقلت فى رأسِ الغادرِ بالدولة حين عرض على :

وله فى رأسِ  
الغادرِ بالدولة

فى غيرِ حفظِ اللهِ مِنْ هامةِ هامِ بها الشيطانِ فى كلِ وادِ

ما تركتُ حمداً ولا رحمةِ فى فمِ إنسانِ ولا فى فؤادِ

وقال رحمه الله :

وله فى الغزلِ

يا كوكبَ الحسنِ يا معناه يا قمرَـةِ يا روضه المتناهى الرِّيحِ يا ثمرَـةِ

أمرتِنى بِسُـلُوكِ عِنكَ ممتنعِ مأمورِ حسنِكَ لَمَّا يَقْضِ ما أمرَـه

[ وقال رحمه الله فى السعيدِ أبى بكرِ ابنِ السلطانِ أبى عنانِ :

شعر له فى  
السعيدِ أبى بكرِ

أميراً كأن قُمَيْرِ الدجى أفاض الضياء على صفحتيه

تملاً قلبى من حبه غداة نظرت بعينى إليه

فلا بسط الدهر كفَّ الردى لذلِكَ الشُّخَيْصِ وذلِكَ الوُجَيْهِ<sup>(٢)</sup> ]

(١) القابض : من الألفاظ الأندلسية ، وهى هنا بمعنى المال المأخوذ .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ت .

وله في توديع  
ابنه لما انصرف  
عنه إلى فاس

وقال عند ما انصرف عنه ابنه إلى مدينة فاس ، لإقامة رسمه من الخدمة ،  
قال : وأشجاني انصرافه لوقوع قرحة على قرح ، والمستعان الله :

بان<sup>(١)</sup> يوم الخميس قرّة عيني      حسبي الله أي موقف بيني  
لو جنى موقف النوى حين حيّ      حان يوم الوداع والله حيني  
ضايقتني صروف هذى الليالي      وأطالت همي وألوت بديني  
وطن نازح وشمل شتيت      كيف يبقى مُعذّب بين ذين ؟  
يا إلهي أدرك بلطفك ضعفي      إن ما أشتكيه ليس بهين

[٢٠٤]

وله في السيادة  
الخطيبية

قال : وخاطبت السيادة الخطيبية<sup>(٢)</sup> مع طيفور طعام :

تعلّم طيفورى خِلال سمّيه<sup>(٣)</sup>      وإن كان منسوباً إلى غير بسْطام-  
وجاء فقير الوقت لابس خِرقة      فليس براض غير صحبة صَوّام  
فديتكَ لا ترده عنك محبباً      ودّرّسه يا مولاي قصّة بلعام<sup>(٤)</sup>

قال : وكتبت إلى السيادة الخطيبية ، ووصل ولدها إلى سلا ، ومنعني عن

لقاءه عذر من مرض ، وكان نزوله بزواية النساك :

صدّني عن لقاء نجلك عذر      يمنع الجسم عن تمام العبادة  
واختصرت القرى لأن حطّ رحلا      في محل الغنى ودار الزّهاده

(١) في ت : « فات » .

(٢) يريد بالسيادة الخطيبية ، الخطيب ابن مرزوق حاجب الدولة الغرناطية .

(٣) طيفورى : يريد طبقا عليه ما كول . وسميه : يريد به القطب طيفور بن عيسى  
ابن سروشان ، المكنى بأبي يزيد البسطامي ، شيخ الصوفية ، وصاحب الأحوال  
المشهوره . (انظر شرح القاموس) .

(٤) لعله يريد بلعام بن باعوراء من بني إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، وله قصة  
مشهوره .

وَلَوْ أَنِّي احْتَفَلْتُ لَمْ يُعِينِ الدُّهْرُ وَلَا نَبَتْ بَعْضَ بَعْضٍ أَرَادَهُ  
وعلى كل حالة فقُصُورِي عادة إذ قبُولك العذرَ عادة  
لا عدمتَ الرضا من الله والحُسْنِي كما نص وحيه والزيادة  
وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبي الحسن بشالة ، لاستنهاض غريمته  
في قضاء غرضه :

بزئتُ لله من حولي ومن حِيَلِي  
أصبحتُ مالي من عَطْفِ أُوْمَلِهِ  
ما كنتُ أَحْسِبُ أن أُرْمَى بقاصية  
من بعد ما خَلَصْتُ نحوى الشفاعة ما  
إن كنتُ لستُ بأهل للذى طمحتُ  
فكيف يُلغَى ولا تُرعى وسيلته  
من بعد ما اشتهرت حالي به وسرتُ  
والرسل تترى ولا تخفى نتائجها  
ولا لليلي من صُبحِ أطالعه  
لو أننى بابت مرزوق عقدتُ يدي  
لكان كربي قد أفضى إلى فرج  
ألممتُ<sup>(٢)</sup> بالعتب لم أهدرُ مواقعه  
ولستُ أجد ما خوئتُ من نعم  
ولستُ أياسُ من وعد وُعدتُ به

إن نام عنى ورايى فهو خير ولى  
من غيره فى مهمات ولا بدل  
للهجر أقطع فيها جانب الأمل  
بين الفلا<sup>(١)</sup> والدجى والبيض والأسل  
إليه نفسى وأهوى نحوه أملى  
دخيلُ قبر أمير المسامين على  
بها الركائب فى سهل وفى جبل  
عند التأمل من قول ولا عمل  
كان همى قد مد الشجنة لى  
وكان محتكبا فى خيرة الدول  
وكان حزنى قد أوفى على جدل  
« أنا الغريقُ فما خوفى من البلل »  
لكنها النفسُ لا تنفك عن أمل  
وإنما « خلق الإنسان من عجل »

[٢٠٥]

(١) فى نفع الطيب : « العلا » .

(٢) فى نفع الطيب : « ألحت » .

وقال رحمه الله يخاطب السلطان أبا الحجاج :

وله في مخاطبة  
السلطان  
أبي الحجاج

أمولاي إن الشعرَ ديوانُ حكمة  
وقد وُجدَ المختارُ في الحفلِ مُنصِتًا  
وفيما رواه الناقلون وأثبتوا  
بأن أبا بكر خليفته الرضا  
وأن عليا قدس الله جمعهم  
لهم في ضروب القول إذ هم فحولهُ  
وفاض على أهل القريض نوالهم  
وأنت أحق الناس أن تفعل التي  
فما زلت تهدي في البرية هديه  
وإن قيل قدر المرء ما هو محسنٌ

يفيد الغنى والعزَّ والجاه من كانا  
له وحبا كعبا عليه وحسانا  
بذلك ديوانًا صحيحًا فديوانا  
وفاروقه الأذى إليه وعثمانا  
وكرمنا بالقرب منهم وحيانا  
خطاب وشعر يستقران تبياننا  
فروض روض القول سحًا وتهتاننا  
بها<sup>(١)</sup> فعل المختار دينًا وإيماننا  
وتقضى بما يرضيه سرًا وإعلاننا  
فصنعة نظم القول أرفعه شاننا

وقال رحمه الله في فن التورية :

وله في التورية

بنفسى حبيب في ثنياه « بارق »  
إذا كان لي منه عن الوصل « حاجر »

ولكنها للواردين عذابُ  
فدمعى « عقيق » بالجفون مُذاب

وقال :

عذبت قلبي بالهوى فقيامه  
ولقد عهدت القلب وهو موحد

في نار هجرك دائماً وقعوده  
فعلام يُقضى في العذاب خلوده

وقال في التجنيس :

وله في التجنيس

دَعَوْتُكَ للود الذى جَنَّبَاتِهِ

تداعت مبانيها وهمت بأن تهى

(١) في نفع الطيب : « الذى به » .

وقلتُ لههد الوصل والقرب بعد ما  
تناءى أسلو عن حياتي (١) وأنت هي  
ومن شام من جو الشبيبة بارقا  
ولم تنه عنه النهى كيف ينتهى ؟  
وقال أيضاً :

ناديتُ دمعى إذ جدّ الرحيلُ بهم  
والقلبُ من فرّق التوديع قد وجبا  
سَقَطَتْ يادمعُ من عيني غداة نأى  
عنى الحبيبُ ولم تقض الذى وجبا  
وقال مؤزياً :

وله في التورية  
أيضاً

كتمتُ بدمع عيني صفحَ خدى  
وقد منّع الكرى هجرُ الخليل  
وراب الحاضرين فقلت هذا  
كتاب « العين » ينسب للخليل  
وتذكرت بهذا قول الشيخ أبي حيان :

سبقَ الدمع بالمسير المطايا  
إذ نوى من أحب عني نُقله  
وأجاد السطور في صفحة الخدِّ ولمْ لا يجيد وهو ابن مُقله  
والبيتَ الثانى أردت ، ولكن ابن الخطيب قد قصد تورية أخرى لم يقصدها  
أبو حيان ، وكلاهما قد أحسن في توريته .

وقال ابن الخطيب :

معض شعره

ولما رأت عزمى حثيثاً على الشرى  
وقد رابها صبرى على موقف البينِ  
أتت بصحاح الجوهرى دموعها  
فعارضتُ من دمعى بمختصر العين  
وقال أيضاً :

بحق ما بيننا يا ساكنى القصبه  
رُدُّوا على حياتى فهى مغتصبه  
ماذا جنيتم على قلبى بيئناكم  
وأتمُّ الأهلُ والأحباب والعصبه

(١) في نفع الطيب : « وهل أسلو حياتى » .

وقال عفا الله عنه :

مَضْجَعِي فِيكَ عَنْ قَتَادَةَ يَرَوِي      وَرَوَى عَنْ أَبِي الزِّنَادِ فُوَادِي  
وَكَذَا النُّومَ شَاعِرَ فِيكَ أَمْسَى      مِنْ دَمْعِي يَهِيمُ فِي كُلِّ وَادِي  
وقال رحمه الله :

حِينَ سَارُوا عَنِي وَقَدْ خَنَقْتَنِي      عَبْرَاتٍ قَدْ أَعْرَبْتَ عَنْ وُلُوعِي  
صَحَّتْ مِنْ يَنْصُرِ الْغَرِيبِ فَلَمَّا      لَمْ أَجِدْ نَاصِرًا بَلَغْتَ دَمْعِي  
وقال عفا الله عنه :

قَالَ لِي وَالِدِي وَالدَّمْعُ تَنْهَلُ سُجْبَا      فِي عِرَاضٍ (١) مِنَ الْخُدُودِ مُحْوَلِ  
بِكَ مَا بِي فَقُلْتَ مَوْلَايَ عَافَا      كَ الْمَعَايِ مِنْ عَبْرَتِي وَنُحْوَلِ  
أَنَا جَفْنِي الْقَرِيحُ يَرَوِي عَنْ الْأَعْمَشِ وَالْجَفْنُ مِنْكَ عَنْ مَكْحُولِ  
وقال ، وقد جلس السلطان في يوم شديد البرد للسلام :

جَلَسَ الْمَوْلَى لِتَسْلِيمِ الْوَرَى      وَتَقَصَّلَ الْبَرْدُ فِي الْجَوِّ احْتِكَامُ  
فَإِذَا مَا سَأَلُوا عَنْ يَوْمِنَا      قُلْتَ هَذَا الْيَوْمُ بَرْدٌ وَسَلَامُ  
وقال رحمه الله تعالى :

بِأَبِي بَدْرٍ (٢) غَزَانِي      مَسْتَبِيحًا سَرَحَ (٣) صَدْرِي  
فَأَنَا الْيَوْمَ شَهِيدُ السَّحْبِ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ

وقال :

أَشْكُو لِمَبْسِمِهِ الْحَرِيقَ وَقَدْ حَمَى      عَنِّي لِمَاءِ الشَّتْهِ وَرَحِيقَهُ  
يَا رَيْقَهُ حَيْرَتَنِي وَمَطْلَتَنِي      مَا أَنْتَ (٤) إِلَّا بَارِدٌ يَا رَيْقَهُ

(١) كذا في الأصلين ونفع الطيب ، ونميل إلى أن هذه الكلمة محرفة عن «عراس»

بالضاد المهملة ، فهي أليق بهذا المقام .

(٢) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : «ظي» .

(٣) كذا في ت . والسرْح : فناء الدار . وفي ط : «صرح» . والصرح : الفصر .

(٤) في ط : «ما كنت» .

وله في جلاوس  
السلطان في يوم  
برد للسلام

وله في الغزل

[٢٠٧]

أبيات له  
في المحسنات  
البيديعية

وقال فيمن ركب البحر وماد :

ركب السفينة واستقل بأفقها  
فكأنما ركب الهلال الفرقد  
وشكوا إلى بميدهم فأجبتهم<sup>(١)</sup>  
لا غرو أن ماد القضيب الأمد

وقال أيضاً :

يا مالكي بخلال تَهْدِي إلى الفكر<sup>(٢)</sup> حَيْرَة  
أضرت قلبي نارا يا مالك بن نُوَيْرَة

وقال عند ما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجهاً إلى الأندلس

لطلب حقه :

ولما حثت السيرَ والله حاكم  
حكي فرس الشطر نج طرفك لا يرى  
لملكك في الدنيا بعز وفي الأخرى  
يُنْقَل من بيضاء إلا إلى حمرا  
وقال رحمه الله تعالى :

تعبجت وخط الشيب في زمن الصبا  
فهما رأيت شيبة في مفارق<sup>(٣)</sup>  
لحوضي غمارَ الهم في طلب المجد  
وقال رضى الله عنه :

يا من تقلد للألاء سلوكا  
والفضل أضحى نهجه مسلوكا  
كاتبتي متفضلاً فلكتني  
لا زلت منك مكاتباً مملوكا

(١) كذا ورد هذا الشطر في ط . وفي ت : « وشكا إلى بميده فأجبتة » ؛ وفي نصح

الطيب : « وشكوا إليه بميدهم فأجبتهم » .

(٢) في نصح الطيب : « القلب » .

(٣) في نصح الطيب : « فوق مفارق » .

وقال عفا الله عنه :

أجاد يراع الحسن خَطَّ عِذارِهِ وأودعه السرَّ المصون الذي يَدْرِي  
ولم يفتقر فيهِه نَخم وطابع فبسمه أغناه عن طابع السر  
وقال في رجل حلف وأقسم أنه ذو مال وأمانة ، وطلب من السلطان الخدمة :

[٢٠٨]

حلفتَ لهم بأنك ذو يسار وذو ثقة وبر في اليمين  
ليستندوا إليك بحفظ مال فتأكل باليسار وباليمين  
وقال في الفخر :

ما ضرنى أن لم أكن<sup>(١)</sup> متقدما فالسيق يُعرف آخرَ المضارِ  
ولئن غدا رُبَّع البلاغة بلقعا فلرُبَّ كنزٍ في أساسِ جِدارِ  
وقال في مديح السلطان أبي الحجاج :

في مصر قلبي من خزائن يوسفِ حَبَّ وعيرُ مدايحى تمتاره  
حليت شمري باسمه فكأنه في كل قطر حَسَّله دينارُه  
وقال يخاطب ابنه السلطان أبا عبد الله :

قالوا لخدمته دعاك محمدُ فكرهتها وزهدتُ في التنويهِ  
فأجبتهم أنا والمهيمينِ كاره في خدمة المولى مُحِبِّ فيه  
ومن قوله في غرناطة :

أحْبُكِ يا مغني<sup>(٢)</sup> الكمالِ بواجب<sup>(٣)</sup> وأقطع في أوصافك الغرُّ أوقاتي  
تقسّم منك التربّ قومي وجيرتي ففي الظَّهر أحيائي وفي البطن أمواتي

(١) كذا في الأصلين ؛ وفي نفع الطيب : « أن لم أجي » .

(٢) في نفع الطيب : « أحبيك يا مغني » .

(٣) الواجب : القلب .

وقال في غرض ينحو به نحو المشاركة :

رموا بالشاؤ حليف الغرامِ وأدمعه كالحيا الماطلِ  
أعوذ بعزك يا سيدي لنلى من دعوة الباطلِ

وقال أيضاً :

يا ليل طلت ولم تجد بتبشم هلاً رحمت تغرّبي وتفرّقي  
وأريتني خلق العبوس النادمِ لله ما أقساك يا ابن الخادمِ

وقال في سكنين الأضاحي للسلطان أبي الحجاج رحمه الله :

لى الفضل أن شاهدتني واختبرتني على كل مصقول الغرارين مرهف  
كفاني فخراً أن تراني قائماً بسنة إبراهيم في كف يوسف

وله في سكنين  
الأضاحي

وقال في مروحة سلطانية :

كأنني قوس<sup>(١)</sup> الشمس عند طوعها وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر  
وإلا كما هبت بمحتدم الوغى بنصر<sup>(٢)</sup> ولسكن من بنود بني نصر

وله في مروحة  
سلطانية

وقال يخاطب شيخه ابن الجياب :

بين السهام وبين كتبك نسبة فيها يُصاب من العدو المقتل  
وإذا أردت لها زيادة نسبة هدى وهدى في الكنانة تجعل

وله يخاطب  
ابن الجياب

وقال يتغزل ، وفيه معنى غريب :

إن اللحاظ هي السيوف حقيقة ومن استراب فحجتي تكفيه  
لم يدع غمد السنيف جفناً باطلا إلا لشبه اللحظ يغمد فيه  
قيل : وأحسن منه قول غيره :

وله في الغزل

إن العيون التُّجّل أمضى موقعا من كل هندی وكل يمان

(١) في ت : « ظل » .

(٢) بنو نصر : هم بنو الأحمر ملوك غرناطة .

فضل العيون على السيوف بأنها<sup>(١)</sup> قَتَلَتْ ولم تخرُج من الأجفان  
وأصل ما قال ابن الخطيب قول الآخر :

بين السيوف وعينه مشاركة<sup>(٢)</sup> من أجلها قيل للأعماد أجفانُ

وله في البراغيث  
أيضا

وقال ابن الخطيب أيضا في البراغيث :

بِتْنَا نَكَابِدُ هَمَّ الْقَحْطِ لِيَلْتَنَا وَأَنْجِدَ الشَّهْدَ وَالكَرْبَ الْبِرَاغِيثَا<sup>(٣)</sup>

وَكَانَ يُحْمَلُ مَا كُنَّا نَكَابِدُهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ لَوْ أَنَّ الْبِرَاغِيثَا<sup>(٤)</sup>

وله في خالد البلوى

وقال في خالد البلوى صاحب الرحلة ، وقد استكثر من سرقة كتاب

« البرق الشامي » للعماد الأصهباني :

خَلِيلِيَّ إِنْ يُلْفَ اجْتِمَاعُ بِخَالِدٍ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا وَلَنْ تَعْدُوا الْحَقْمَا

سَرَقَتَ الْعِمَادَ الْأَصْبَهَانِيَّ بَرَقَهُ وَكَيْفَ تَرَى فِي شَاعِرِ سَرَقَ الْبِرَقَا؟

وله في المنجاة

وقال في المنجاة :

تَأْمَلِ الرَّمْلَ فِي الْمَنْجَانِ مَنْقَطَعًا يَجْرِي وَقَدَّرَهُ عَمْرًا مِنْكَ مِنْتَهِيَا

وَاللَّهِ لَوْ كَانَ وَادِي الرَّمْلِ يُنْجِدُهُ مَا كَانَ<sup>(٥)</sup> كَامِلُهُ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَا

وله في الغزل

وقال :

أَقُولُ لِمَا ذَلِي لِمَا نَهَانِي وَقَدْ وَجَدَ الْمَقَالَةَ إِذْ جَفَانِي

عَلِمْتَ بِأَنَّهُ مُسْرُّ التَّجْنِي وَفَاتَكَ أَنَّهُ حُلُوُّ اللِّسَانِ

(١) في ت : « لأنها » .

(٢) في ط : « بين الحاظ وعينه مناسبة » .

(٣) رواية هذا البيت في نفع الطيب :

بِتْنَا نَطَارِحُ هَمَّ الْقَحْطِ لِيَلْتَنَا وَأَيْدِ الْهَمِّ وَالسَّهْدِ الْبِرَاغِيثَا

(٤) البري : التراب . ورسمت ( البري ) بالألف ليم الجنس بين البيتين . وغيث :

أصابه الغيث .

(٥) في ت : « ما طال » .

وله في التصوف

وقال في غرض صوفي :

لا تنكروا أن كنتُ قد أُحِبَّبتُكم  
طوعاً وكرهاً ما ترون فإني  
أو أنتى استولى على هواكم  
طُفَّتُ الوجود فما وجدتُ سواكم

[٢١٠]

وقال يمدح وفيه تورية :

وإن نظرتَ إلى لألاءِ غُرَّتِه  
يوم الهياج رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

وله في المدح  
موريا

ونسب إليه الحافظ أبو عبد الله التنسي رحمه الله ، قصيدة يخرج منها أكثر  
من ثلاث مئة بيت ، ونسبها غير التنسي إلى بعض المشاركة ، فالله أعلم ، وهي :

شعر له يشك  
أنه للمشاركة

دلا نوى بفؤادى شفه ستم<sup>(١)</sup>

بأضلى لهب تذكرو<sup>(٢)</sup> شرارته

يوم النوى حل في قلبي له ألم<sup>(٤)</sup>

توجعي من جوى شبت حرارته

أصل الهوى ملبسى وجداه به عدم

تتبعي وجه<sup>(٥)</sup> من تزهو نضارته

مهدي الجوى مولع بالهجر منتقم

لمصرعي معتمد تحلو مزارته

قلبي كوى ملك في النفس محتكم

مروعي قمر تسمى بي إشارته

(١) في ت هنا : « ألم » .

(٢) في ط : « تبدو » .

(٣) في ت هنا : « ... الروح والجسد » .

(٤) في ت : « يوم النوى ظل في قلبي به ألم » .

(٥) في ت : « وجد » .

(٦) في ط : « يا قومنا » .

هَدَّ الْقُوَى حَسَنَ كَالْبَدْرِ مَبْتَسِمٍ لِفِتْنَتِي مُوهِنٍ عِنْدَ النَّوَى جَدِي  
 مُودِّعِي النَّارِ قَدْ شَبَّتْ زِيَارَتُهُ لِمَا جَنَى مُورَثِي وَجِدًا مَعَ الْأَبَدِ  
 قلت : وعندي أنها بعيدة من نفس ابن الخطيب ، مع أن الحافظ التنسي  
 نسبها له ، وغيره نسبها لبعض المشارقة ، وذكر التنسي أنه يخرج منها ثلاث مئة  
 بيت ونيف وستون بيتاً<sup>(١)</sup> ، والله ولي التوفيق .

ثم وقفت بعد هذا على كراسة من بعض تأليف الصَّفدي بخطه ، عبر<sup>(٢)</sup> فيها  
 أنها لبعض المشارقة ، وأورد القطعة مع تقديم وتأخير ، فأردت أن أذكره إتماماً  
 للفائدة ؛ ونصه :

صالح بن أحمد بن عثمان صلاح الدين القواس الشاعر الخِلاطِي ثم البعلبكي ،  
 توفي سنة ثلاث وعشرين وسبع مئة ، كان رجلاً خيراً متواضعاً ، صحب  
 الفقراء ، وسافر الكثير ، وكان يعبرُ الرؤيا ؛ قال الصَّفدي : أنشدني من [٢١١]  
 لفظه الشيخ الحافظ الذهبي ، قال : أنشدني المذكور قصيدته السائرة ذات  
 الأوزان ، وهي :

دَاءُ ثَوَى بِفَوَادِي شَفَّهَ سَقَمٌ لِمِحْنَتِي مِنْ دَوَاعِي الْهَمِّ وَالسَّكْدِ  
 بِأَضْلَعِي لَهَبٍ تَذَكُّو شَرَارَتَهُ مِنْ الضَّنْفِي فِي مَحَلِّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِي  
 يَوْمَ النَّوَى ظَلَّ فِي قَلْبِي بِهِ أَلَمٌ وَحُرْقَتِي وَبِلَائِي فِيهِ بِالرَّصَدِ  
 تَوْجَعِي مِنْ جَوِّي شَبَّتْ حَرَارَتُهُ مَعَ<sup>(٣)</sup> الْعِنَا قَدْ رَثِي لِي فِيهِ ذُو الْحَسَدِ  
 أَصْلُ الْهَوَى مُلْبَسِي وَجِدًا بِهِ عَدَمٌ لِمَهْجَتِي مِنْ رَشَا بِالْحَسَنِ مَنْفَرِدِ

(١) طريقة ذلك أن يؤخذ اشطر الأول من كل بيت كما هو أو مع تغيير في بعض كلماته ،  
 ثم يوضع مع ما يناسبه معنى من الشطور الثواني في القصيدة كلها ، فتخرج من ذلك  
 صور كثيرة للبيت الواحد .

(١) في ت : « عين » .

(٢) في ط : « من » .

تتبعني وَجْهٌ (١) من تزهو نضارته  
 هَدَّ القوى حَسَنَ كالبدر مبتسم  
 مُودِعِي قَمَرٍ تَشْبِي إِشارته  
 مُهْدِي الجوى مُولَعٌ بالهجر مُنتقم  
 لمصرعي مُعْتَدٍ تحاو مرارته  
 قلبي كوى مَلِكٌ في النفس محتكم  
 مولعي النار قد شَطَّتْ (٣) زيارته  
 لما جنى مُورثي وجدا مع (٢) الأبد  
 لفتنتي مُوهِن عند النوى جَلَدِي  
 إذا رنا ساطع الأنوارِ في البَلَدِ  
 ما حيلاتي قد كوى قلبي مع الكَبِدِ  
 يا قومنا آخذ نحو الردى بيدي  
 لقصتي وهو سُؤْلِي وهو معتمدِي  
 لما انثنى قاتلي عمداً بلا قَوَدِ

قال الصَّفدى : قلت : هذه القصيدة تتقرأ على ثلاث مئة وستين وجهاً .

[ وقال في المشيب :

وله في المشيب

إني لُمُبَلَى بالهوى من بعد ما  
 لبس البياض وحلَّ ذِرْوَةَ منبر  
 للوخط بالفودين أى ديبِ  
 منى ووالى الوعظَ فَعَلَ خطيب  
 وكتب ببعض الحيطان لما أجاز بِسَبْتَةِ :

وله وقد أجاز  
 بسبته

أقنا بُرْهَةٌ ثم ارتحلنا  
 وكل بداية فالى انتهاء  
 كذلك الدهرُ حالا بعد حالِ  
 وكل إقامة فالى ارتحال  
 ومن سام الزمانَ دوامَ أمر  
 فقد وقف الرجاء على المُحال

وقد قدّمنا بعض هذه المقطوعة على غير هذا الوجه [ (٤) ] .

وقال مما يكتب في طاق الماء بباب القبة :

وله في طاق الماء

أنا طاق تزهو بيَ الأيامُ  
 تعبت في بدائي الأفهامُ

(١) في ت : « متبعي وجد » .

(٢) في ت : « وجدى مدى » .

(٣) في ت : « مروعي سار لا شطت » .

(٤) ما بين القوسين جاء متأخراً في ط بعد قوله : « قلبي الثاني » .

وتبديت للنواظر محجرا  
واقف للصلاة حتى إذا ما  
وقال في ذلك أيضاً :

ياصانعي لله ما أحكمته  
أحكمت تاجي يوم صُغت رُقوشه  
وأقمت في محرابه فكانه  
فَلَانَتْ بين العالمين رئيسُ  
فصبت إليه مفارقاً وروس  
مَجَلَى (٢) إناء للماء فيه عروس

بين ابن الجباب  
وابن الخطيب

وكتب إليه شيخه ابن الجباب بقوله :

أيا كتابي إذا ما جئت ما لقة  
فلا تسلم على ربع بذي سلم  
دار المكارم من ثني ووحدان  
بها وسسلم على ربع لسلمان

فأجابه ابن الخطيب بقوله :

[٢١٢]

يا ليت شعري هل يُقضى تألفنا  
أو هل يحن علي نفسي معذبها  
ويثنى الشوق عن غاياته الثاني  
أو هل يرق لقلبي قلبي الثاني

بعض أبيات له

وقال رحمه الله :

عد عن كيت وكيت ما عليها غير ميت  
كيف تُرجى حالة البقيتيا لمصباح وزيت

وقال رحمه الله :

والله ما جان على ماله أو جاهه من زاد عن عرضيه (٣)

(١) في ط : « الإمام في قيام » .

(٢) في ط : « يحكي » .

(٣) في ط : « من حاط من عرضيه » .

والناس في خير وفي<sup>(١)</sup> ضده هم شهداء الله في أرضه  
وقال رحمه الله : ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون ،  
وطمس الآن رسمها :

موشحة له في مدح  
السلطان يوسف  
أبي الحجاج

رُبَّ لَيْلٍ ظَفَرْتُ بِالْبَدْرِ وَنَجُومِ السَّمَاءِ لَمْ تَدْرِ  
حَفِظَ اللَّهُ لَيْلَنَا وَرَعَى  
أَيُّ شَمَلٍ مِنَ الْهَوَى جَمَعَا  
غَفَلَ الدَّهْرُ وَالرَّقِيبُ مَعَا  
لَيْتَ نَهْرَ النَّهَارِ لَمْ يَجْرِ حَكَمَ اللَّهُ لِي عَلَى الْفَجْرِ  
عَلَّلَ النَّفْسَ يَا أَخَا الْعَرَبِ  
بِحَدِيثِ أَحْلَى مِنَ الضَّرْبِ  
فِي هَوَى مَنْ وَصَالُهُ أَرَبِي  
كَلَّمَا مَرَّ ذَكَرَ مِنْ تَدْرِي قَلْتُ يَا بَرْدَهُ عَلَى صَدْرِي  
صَاحِ لَّا تَهْتَمِّمْ بِأَمْرِ غَدِ  
وَأَجِزْ صِرْفَهَا يَدًا بِيَدِ  
بَيْنَ نَهْرٍ وَبَلْبَلِ غَرْدِ  
وَعَصُونَ تَمِيدَ مِنْ سُكْرِ أَغْلَنْتُ يَا غَمَامُ بِالشُّكْرِ  
يَا مِرَادِي وَمَنْتَهَى أَمَلِي  
هَاتَهَا عَسْجَدِيَةَ الْحُلَلِ  
حَلَّتِ الشَّمْسُ مَنْزِلَ الْحَمَلِ

وَبُنُودِ الرَّبِيعِ فِي نَشْرِ وَالصَّبَا عَنْ بَرِيَّةِ النَّشْرِ

غرةُ الصبح هذه وضحتُ  
 وقيان الغصون قد صدحتُ  
 وكان الصبا إذا نَمَحَتْ  
 وهفا طيبها عن الحُضْرِ مِدْحَة في علا بني نَصْرِ  
 مُهمُّ ملوك الورى بلا ثُنْيَا  
 مَهْدُوا الدين زَيْنُوا الدنيا  
 وَحَمَى اللهُ مِنْهُمُ الْعَلِيَا  
 بالإمام المرفَعِ الْخَطَرِ وَالنِّعَامِ الْمُبَارِكِ الْقَطْرِ  
 إِنَّمَا يَوْسُفُ إِمَامٌ هُدَى  
 حَازَ فِي الْمَعْلُوباتِ كُلِّ مَدَى  
 قَلْبٌ لِدَهْرٍ بِمُلْكِهِ سَعِدَا  
 افْتَخِرْ جَمَلَةً عَلَى الدَّهْرِ كَافْتَخِرَ الرَّبِيعَ بِالزَّهْرِ  
 يَا عِمَادَ الْعِلاءِ وَالْمَجْدِ  
 أَطْلَعِ الْعَيْدُ طَالِعِ السَّعْدِ  
 وَوَفَى الْفَتْحِ فِيهِ بِالْوَعْدِ  
 وَتَجَلَّتْ فِيهِ عَلَى الْقَصْرِ غُرْرٌ مِنْ طَلَائِعِ النَّصْرِ  
 فَتَهَنَّا مِنْ حُسْنِهِ الْبَهْجِ  
 بِحَيَاةِ النُّفُوسِ وَالْمُهَجِ  
 وَاسْتَمَعْنَا وَدَعَّ مَقَالَ شِجِي  
 قَسَمًا بِالْهَوَى لِنَدَى حَجْرٍ مَا لِلَّيْلِ الْمَشُوقِ نِنْ جَرِ  
 وَمَنْ بَدِيعَ مَوْشِحَاتِهِ رَحِمَهُ اللهُ قَوْلُهُ :

كم ليوم الفراق من غُصَّةٍ في فؤاد العميِّدِ  
 نرفع الأمر فيه والقِصَّةُ للوليِّ الحميِّدِ

رحل الركب يقطع البيدا بسفين النيباق  
 كل وجناء تتلع الجيدا وتبئذ الرفاق  
 حسبت ليلة اللقا عيداً فهي ذات اشتياق  
 صائمات لا تقبل الرخصة قبل فطر وعيد  
 فهي مذ أملمته مختصه بجهاد جهيد  
 ومنها وهو آخرها :

يا إمام الملا والفخر ذا السنا البهيج  
 ها كها لا عدمت في الدهر أملاً يرتجى  
 عارضت قول بائع التمر بمقال شج  
 غر بوك الجمال يا حفصه من مكان بعيد  
 من سجامسة ومن قفصه وبلاد الجريد

ومن بديع نظمه رحمه الله في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه القصيدة

وله في مدح  
 النبي صلى الله  
 عليه وسلم

المشهوره وهي :

سل ما سلمى بنار الهجر تكويني  
 وفي منأها تمنيت المعنى فغدا  
 وفي قباب قبا قامت لنا بقبا  
 لما انثنت في الحلى تزهو ببهجتها  
 لما تفننت في أفنان قامتها  
 ويحسب الصب يسليني محبتها  
 وحبها في الحشى من قبل تكويني  
 قلبى كئيباً ببلواه يناجيني  
 طرازها مذهب في حسن تزوين  
 وبالغزلة تزرى والسراحين  
 تفننت بفنون الصدد تفنيني  
 هيات لو أن جم النار يضليني  
 والقرب ينشرنى والبعد يطويني  
 والنار في كبدى والشوق يقلقني

تَمَكَّنَ الحُبُّ فِي أَيِّ تَمَكِّنٍ  
 وَالطَّرْفُ وَالطَّرْفُ يُبَكِّينِي وَيَكْوِينِي  
 بِالكَسْرِ عَلَّ بِرَشْفِ الضَّمِّ تُحِينِنِي  
 وَاَنْظُرِ اعْجَبْ أَثِيْلَاتِ البَسَاتِينِ  
 جَاذِرِ الحَيِّ بَيْنَ الخُرْدِ العَيْنِ  
 وَحَيِّ سَلَمًا وَسَلَّ عَنْ حَالِ مِسْكِينِ  
 وَاقرِّ السَّلَامَ عَلَى خَيْرِ النَّبِيِّينِ  
 آيَاتِهِ فَتَسَلَّى كُلُّ مَحْزُونِ  
 مَا نَالَهَا مُرْسَلٌ قَدْ جَاءَ بِالدِّينِ  
 شُهْبِ الدِّيَاجِي رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ  
 وَالمَاءِ مِنْ كَفِّهِ يَزْرِي بِمِجْنُونِ  
 بَرًّا رَهْوَفًا رَحِيمًا بِالمَسَاكِينِ  
 وَإِنْ عَلَا الصَّخْرَ عَادَ الصَّخْرُ كَالطَّيْنِ  
 شَوْقًا وَبِالصَّخْرِ مَا بِالرَّمْلِ مِنْ لِينِ  
 وَالعِدْقُ أَنْ إِلَيْهِ أَيُّ تَانِينِ  
 فِي مَنطِقِ مُفْصِحٍ مِنْ غَيْرِ تَلَكِينِ  
 لِأَشْيَاءٍ أَعْظَمَ مِنْ طِهٍ وَيَسِينِ  
 لَكِنَّ لِي قَبُولًا مِنْهُ يَكْفِينِي  
 وَالمِثْمُ التُّرْبَ عَلَّ الوَصْلَ يَحِينِنِي  
 مُنَادِيًا بِقَوَادٍ مِنْهُ مَحْزُونِ  
 وَأَحْسَنَ النَّاسِ مِنْ حُسْنٍ وَتَزِينِ

وَرُكْنٌ صَبْرِي تَخَلَّى فِي الغَرَامِ وَقَدْ  
 وَقَدْ رَأَيْتُ مَسِيرِي عَزْمًا مَطْلُبُهُ  
 نَصَبْتُ حَالِي لِرَفْعِ الضَّمِّ مِنْجَزَمِ  
 يَاصْحَاحِ عُجْبِ الحِمَى وَانزِلْ بِهِمْ سَحْرًا  
 وَفَوْقَ سَفْحِ عَقِيقِ الدَّمْعِ عُجْبٌ لَتَرَى  
 وَمِنْ عَلَى أَثْلَاتِ البَانِ مُنْعَطِفًا  
 ثُمَّ أَتِ جَزْعًا وَجُزْءًا عَنْ حَيِّ كَاطِمَةٍ  
 مُحَمَّدِ المِصْطَفَى المَخْتَارِ مَنْ ظَهَرَتْ  
 مِنْ خَصَّةِ اللَّهِ بِالقُرْآنِ مَعْجِزَةٌ  
 وَمِنْ شَهَابٍ بَدَأَ مِنْ نُورِهِ رُجِمَتْ  
 وَفَوْقَ رَاحَتِهِ صُمُّ الحَمَى نَطَقَتْ  
 وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ البَارِي وَأَرْسَلَهُ  
 إِنْ سَارَ فِي الرَّمْلِ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أُتْرُ  
 كَأَنَّ بِالرَّمْلِ مَا بِالصَّخْرِ مِنْ جَلْدٍ  
 وَفِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ الجِدْعَ حَنَّ لَهُ  
 وَقَدْ سَمِعْنَا بَأَنَّ الطَّيْرَ خَاطَبَهُ  
 وَالظَّبْيَ وَالضَّبَّ جَاءَ إِشْهَدَانِ بَأَنَّ  
 فَكَيْفَ أَحْسَنَ مَدْحًا فِي مَحَاسِنِهِ  
 أَقْبَلَ الأَرْضَ إِجْلَالًا لِهَيْبَتِهِ  
 وَقَدْ أَقُولُ ابْنَ سَمْدَانَ الغَرِيبُ أَنِّي  
 يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ

إِنِّي أَتَيْتُكَ فَاقْبَلْنِي وَخُذْ بِيَدِي  
 وَقَدْ مَدَّحْتُكَ فَارْحَمْنِي وَجُدْ فَعَسَى  
 وَكُنْ شَفِيعِي مِنَ النَّيِّرَانِ يَا أُمِّي  
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا صَدَّحَتْ  
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا غَرَّدَتْ  
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا وَفَدَتْ  
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا هَطَلَتْ  
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا ضَحَكَتْ  
 وَأَنْفُ أَلْفِ صَلَاةٍ لَا نَفَادَ لَهَا  
 عَلَيْكَ يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ قَاطِبَةً  
 وَآلِكَ الْغُرِّ وَالْأَصْحَابِ كُلِّهِمْ  
 مَا عَطَّرَ الرَّوْضَ فِي الْأَسْحَارِ عُرْفَ صَبَا  
 وَمَا شَدَّ مُنْشِدًا حَبَّ لِقَرَطِ جَوَى  
 [وقال رحمه الله :

وله في الرجوع  
إلى الله

يُتَابِعُ أَخْرَانَا عَلَى الْغَىِّ أَوْلَانَا  
 فَمَا كَانَ بِالرُّجْعَى إِلَى اللَّهِ أَوْلَانَا  
 فَمَا انْقَادَ لِلزُّجْرِ الْحَثِيثِ وَلَا لَنَا  
 فَلَمْ تَرَوْعَ مَا مِنْ سَابِقِ الْفَضْلِ أَوْلَانَا  
 مِنَ الْعَفْوِ وَاجْبُرْ صَدْعَنَا أَنْتَ مَوْلَانَا (٢)

انتهى .

(١) يريد : « أجرني » .

(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت .

ولنقتصر من نظمه على هذا القدر ، فإنه طويل عريض ، وإنما أطلت النفس في ترجمة ابن الخطيب ، رحمه الله ، علماً منى بأن الذين رغبوا في تأليف هذا الموضوع ، لهم تشوف إلى أبناء ابن الخطيب ، وكلامه وجلية أحواله ليست عندهم ، وإنما يحفظون بعض نظمه ونثره ، ولا يدرون ابتداء أمره وانتهاه ، وقد حكى غير واحد أنه رى رحمه الله بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بسبب بيتين ، وهما :

يا مصطفي من قبل نشأة آدم      والكون لم تفتح له أغلاق  
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما      أثنى على أخلاقك الخلاق

تخصيس للغسانی  
على بيتين  
لابن الخطيب

وقد رأيت على هذين البيتين تخصيماً لا بأس به ، لأبي عبد الله بن جابر الغسانی الكناسي ، رحمه الله ، وهو :

يا سائراً لضریح خير العالم      يُنهي إليه مقال صب هائم  
بالله نادِ وقلْ مقالة عالم      يا مصطفي من قبل نشأة آدم  
والكون لم تفتح له أغلاق  
بئناك قد شهدت ملائكة السماء      والله قد صلى عليك وسلماً  
يا مجتبي وم عظماً ومُكرماً      أيروم مخلوق ثناءك بعد ما  
أثنى على أخلاقك الخلاق

اتهى .

\*\*\*

أولاد  
ابن الخطيب

وأولاد ابن الخطيب رحمه الله ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلي . وكلهم حدث عن أبيه وعن ابن الجيّاب ، وعلي منهم هو صاحب السلطان أحمد المريني

وحُكي أنه حضر معه في بستان ، سحّ فيه ماء المذاكرة الهتّان ؛ وقد  
أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزعم النهار لما قدّم الليلُ على الفرار ؛  
فقال المستنصر<sup>(١)</sup> لما لان جانبه ، وسالت بين سَرَحات البستان جداوله  
ومذانبه :

على بن الخطيب  
والمستنصر  
في بستان

يا فاسُ إِنِّي وَأَيْمُ اللهِ ذُو شَعْفِ فِي كُلِّ رِبْعٍ لَهُ مَعْنَاهُ يَسْبِينِي  
وقد أَنِسْتُ بِقُرْبِ مَنْكَ يَا أَمَلِي وَنَظْرَةَ فَيْكُمْ بِالْأَنْسِ تَحْيِينِي

فأجابه علي بن الخطيب بقوله [العذب المصيب] (٢) :

لَا أَوْحَشُ اللهُ رَبْعاً أَنْتَ زَائِرُهُ يَا بَهْجَةَ الْمُلْكِ وَالدُّنْيَا مَعَ الدِّينِ  
يَا أَحْمَدَ الْحَمْدَ أَبْقَاكَ الْإِلَهَ لَنَا نَحْرَ الْمُلُوكِ وَسُلْطَانَ السُّلْطَانِ

وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين ، عن ملوك الحضرتين . وأما محمد فقد  
نال حظاً من التصوّف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوف .

شئ عن  
عبد الله ومحمد  
ابن الخطيب

ولا بد أن نُلمّ بوصية ابن الخطيب ، رحمه الله ، لأولاده المذكورين ، لما  
فيها من الحِكم والوصايا النافعة لمن عمل بها ، وهي :

وصية  
ابن الخطيب  
لأولاده

الحمد لله الذي لا يروعه الحِمَامُ المرقوب ، إذا شِيمَ نجمه المثقوب ، ولا يَبْغْتَهُ  
الأجل المكتوب ، ولا يَفْجُوهُ الفراق المعثوب ، مُلْهِمُ الهدى الذي تَطْمئنُ به  
القلوب ، وموضح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة في قِسمِ الوجوب ،  
لاسيما للولي المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل في كتابه المعجز الأسلوب ، « أُمُّ  
كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبُ » ، « وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بُنْيَاهُ وَيَعْقُوبُ » ؛ والصلاة

(١) في ط : « السلطان » .

(٢) زيادة عن ت .

والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زُرت على نوره جُيوب الغيوب ،  
 وأشرف من خلعت عليه حُلل المهابة والعصمة ، فلا تقمحه العيون ولا تصمه<sup>(١)</sup> [٢١٨]  
 العيوب ، والرضا عن آله وأصحابه الثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب ،  
 والأمل المسلوب ، والافتداء الموصل المرغوب ، والعز والأمن من اللغوب .

وبعد ، فإني لما علاني المشيب بغمته<sup>(٢)</sup> ، وقادني الكبر في رُمته ، وادّكرت  
 الشباب بعد أمته ؛ أسفت لما أضعت ، وندمت بعد الفطام على ما رَضعت ؛  
 وتأكد وجوب نصحي لمن لزمي رعيه ، وتعلق بسعي سعيه ، وأمّلت أن تتعدى  
 إلى ثمرات استقامته ، وأنا رهين فوات ، وفي برزخ أموات ؛ ويأمن<sup>(٣)</sup> العثور  
 في الطريق التي اقتضت عثاري ، إن سلك — وعسى ألا يكون ذلك — على  
 آثارى : فقلت أخاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد ؛ بعد الضراعة إلى الله  
 في توفيقهم<sup>(٤)</sup> ، وإيضاح طريقهم ، وجمع تفريقهم ؛ وأن يَمُنَّ على فيهم بحسن  
 الخلف ، والتلافي من قبل التلّف ، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف ؛  
 فهو وليّ ذلك ، والمهادى إلى خير المسالك .

اعلموا هداكم مَنْ بأنواره يهتدى الضلال ، وبرضاه ترفع الأغلال ، وبالتماس  
 قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفت الآمال ، وتبرأت من يمينها  
 الشمال ؛ أنى مودعكم وإن سلمنى الردى ، ومفارقكم وإن طال المدى ، وما عدا

(١) كذا في نفع الطيب ؛ وفي ط : « ولا تصفه » ، وهو تحريف .

(٢) في ط : « الهرم » .

(٣) كذا في نفع الطيب وفي الاصلين : وليأمن

(٤) في ط : « تفضيلهم » .

(٥) في نفع الطيب : « هداكم الله تعالى الذى بأنواره الخ

مما بدا<sup>(١)</sup> ؛ فكيف وأدوات السفر تُجمع ، ومنادى الرحيل يُسمع ؛ ولا أقل  
للحبيب المودع من وصية محتضّر ، وعُجالة مقتصر ؛ ورتيمة تُعقد في خنصر ،  
ونصيحة تكون نشيدة واعٍ ومُبصر ؛ تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى ،  
وتوضح لكم في الشفقة والحنو قصدي ، حسبا تضمن وعد الله من قبل وعدى ؛  
فهى أربكم الذي لا يتغيّر وقفه ، ولا ينالكم المكروه ما رَفَّ عليكم سقفه ؛ وكأني [٢١٩]  
بشبابكم قد شاخ ، وبراحلكم قد أناخ ؛ وبنشاطكم قد كسل ، واستبدل العصاب  
من العسل ، ونُصول الشيب ترُوع بأَسَل ، لا بل [السَّام]<sup>(٢)</sup> من كل حَدَب  
قد نَسَل ، والمعاد اللحد ولا تسَل ؛ فبالأمس كنتم فراخ حَجْر ، واليوم آباء<sup>(٣)</sup>  
عَسْكَر حَجْر ، وغدا شيوخ مَضِيعة وهَجْر ؛ والقبور فاغره ، [والنفوس عن المألوفات  
صاغره]<sup>(٤)</sup> ؛ والدنيا بأهلها ساخره ، والأولى تعقبها آخره ؛ والحازم من لم يُتَعَّظ  
به في أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ؛ فاقننوها من وصيته ، ومرام في النصيح قصيه ؛  
وخصّوها بها أولادكم إذا عقلوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ؛ وحسبي وحسبكم الله  
الذي لم يخلق الخلق هملا ، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا ؛ ولا رضى الدنيا  
منزلا ، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا ؛ وأتلقنوا تلقينا ، وتعلموا  
علما يقينا ؛ أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي ، ويفترش التراب جنبي ؛ ويسح  
انسكابي ، وتهرول عن المصلى ركابي ؛ أحرص مني على سعادة إليكم تجلب ،  
أو غاية كمال بسببكم تُرتاد وتطلب ؛ حتى لا يكون في الدين والدنيا أوزف

(١) ماعدا مما بدا : أى ما الذى يصرف الإنسان عن إتمام ما بدا منه . يريد أنه لا يمنعه

من الزحيل عن هذه الدنيا مانع .

(٢) زيادة عن نفع الطيب . والسام (بتخفيف الميم) : الموت .

(٣) في نفع الطيب : « أبناء » .

(٤) زيادة عن نفع الطيب .

منكم ظلاً ، ولا أشرف تحلاً ، ولا أغبط نهلاً وعلاً ؛ وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تُصيخوا إلى قولي الآذان ، وتلمحوا صُبح نصحي فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان :

أهوذ بالله من الشيطان الرجيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » . [٢٢٠]

وأعيد وصية خليل الله وإسرائيليه ، حسبما تضمنه محكم تنزيله : « يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . والدين الذي ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفاه ، وقرره مصطفاه ، من قبل أن يتوفاه ، إذا أُعمل فيه افتقاد ، فهو عمل واعتقاد ؛ وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ؛ والعقل متقدم ، وبنائه مع رفض أخيه مهتم ؛ فالله واحد أحد ، فرد صمد ، ليس له والد ولا ولد ؛ تنزهه عن المكان والزمان ، وسبق وجوده وجود الأكواف ؛ خالق الخلق وما يعملون ، والذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون ؛ الحى العليم المدبر القدير ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ؛ أرسل الرسل رحمة لتدعو العباد<sup>(١)</sup> إلى النجاة من الشقاء ، وتوجه<sup>(٢)</sup> الحجة في مصيرهم

(١) في ط : « توجب » .

(٢) في نفع الطيب : « الناس » .

إلى دار البقاء ، مؤيِّدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ؛ ثم ختم ديوانهم بنبيِّ ملتنا المرعية للهمل ، الشهادة على الملل ، فتأخّصت الطاعة ، وتبينت<sup>(١)</sup> له الإمرة المطاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعه ؛ ثم إن الله قبضه إذ كان بشرا ، وترك دينه يضم من الأمة نشرًا ؛ فمن اتبعه لحق به ، ومن حاد عنه تورّط في مُنتسبه<sup>(٢)</sup> ، وكانت نجاته على قدر سببه .

روى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم<sup>(٣)</sup> تضلوا بعدى : كتاب الله وسننى ، فعصوا عليهما بالنواجذ » .

[٢٢١]

فاعملوا يا بنيِّ بوصيةٍ من ناصح جاهد ، ومُشفق شفقة والد ؛ واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه ، وعُوا مرآشد هديه فيافوز واعيه ؛ وصلُّوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به مجلا [ أو مفصلا ]<sup>(٤)</sup> على حسبه ، وأوجبوا التجلّة لصحبه ؛ الذين اختارهم الله لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ؛ واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولى الفضل الشهير ؛ وتبرؤوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع ، ولا تع التشاجر بينهم أذنُ واع ؛ فهو عنوان السداد ، وعالمة سلامة الاعتقاد ؛ ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملّه ، وأتمتها الجِلّه ؛ فهم صقّلة نصولهم ، وفروع ناشئة عن أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم ؛ واعلموا أنى قطعت في البحث زمانى ، وجعلت النظر شانى ، منذ برانى الله وأنشاني ، مع نبيل يعترف به الشانى ، وإدراك يسامه العقل الإنسانى ؛ فلم أجد خابط ورق ، ولا مصيب عرق ؛ ولا

(١) كذا في ط . وفي ت : « تيقنت » . وفي نفح الطيب : « تعينت » .

(٢) كذا في الأصلين . وفي نفح الطيب : « ومن تركه نوط عنه في منسبه » .

(٣) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « لن تضلوا » .

(٤) زيادة عن نفح الطيب .

نازع خِطام ، ولا متكلف فِطام ، ولا مقتحم بحر طام ؛ إلا وغايته التي يقصدها  
 قد فضلتها الشريعة وسبقتها ، وفرّعت ثنيتها وارثتها ؛ فعليكم بالترام جادتها  
 السابله ، ومصاحبة رُفقتها الكافله<sup>(١)</sup> ، والاهتداء بأقمارها غير الآفله ؛ والله يقول وهو  
 أصدق القائلين : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ  
 مِنَ الْخَاسِرِينَ » ؛ وقد علت<sup>(٢)</sup> شرائعه ، وراع الشكوك رائعه ؛ فلا تستنزلكم  
 الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوس فعل المهتمدين ، فلن ينفع مَتَاعُ بَعْدِ الْخُلُودِ  
 فِي النَّارِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ ، ولا يضرّ مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ،  
 ومَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَخْسَرُ مَا وَرَثَ الْأَوْلَادُ عَنِ الْوَالِدِينَ ، اللهم قد بلغت ، فأنت  
 خير الشاهدين ؛ فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعى شوه  
 الوجوه ونُضْجِ الْجُلُودِ ؛ واستعيذوا<sup>(٣)</sup> برضا الله من سُخْطِهِ ، وارثوا بنفوسكم عن  
 غمطه ؛ وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم ، ولا تحمّدوا على  
 جيفة العرّض الزائل اثتلافكم ؛ واقنعوا منه بما تيسّر ، ولا تأسوا على ما فات  
 وتعدّر ؛ فإنما هي دُجْنَةٌ<sup>(٤)</sup> ينسخها الصباح ، وصفقة يتعقبها الخسار والرباح ؛  
 ودونكم عقيدة الإيمان ، فشدّوا بالنواجذ عليها ، وكفّفوا الشبه أن تدنو إليها ؛  
 واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه عمل ، وكل ما سوى الراعي  
 همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل ؛ وتمسكوا بكتاب الله حفظاً وتلاوه ،  
 واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوه ؛ وتمكروا في آياته ومعانيه ، وامتلوا  
 أوامره وانتهوا عن مناهيه ، ولا تتأولوه ولا تغلّوا فيه ؛ وأشربوا قلوبكم حب

[٢٢٢]

- (١) في نفع الطيب : « الكاملة » .  
 (٢) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « علمت » .  
 (٣) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « واستعتبوا » .  
 (٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « دجبة » .

من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ؛ وصونوا شعائر الله صَوْنِ  
المحترم ، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم .

الله في الصلاة ذريعة التجلّه ، وخاصة اللّه ، وحاقنة الدم ، وغنى  
المستأجر المستخدم ؛ وأم العباده ، وحافضة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ؛  
والناهية عن الفحشاء والمنكر مهما<sup>(١)</sup> عرض الشيطان عرضهما ، ووطأ للنفس  
الأمارة سماءها وأرضها ؛ والوسيلة إلى بلّ الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال  
تحفة الله إلى مريض الفكر ؛ وضابطة<sup>(٢)</sup> حسن العشرة من الجار ، وداعية المسألة

[٢٢٣] من الفجّار ؛ والواسمة بسمة السلامه ، والشاهدة للعقد برفع الملامه ؛ وغاسول الطبع  
إذا شأنه طبع ، والخير الذي كل خير له تبع ؛ فاصبروا النفس على وظائفها بين  
إبداء وإعاده ، [فالتحير عاده] <sup>(٣)</sup> ؛ ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنيه ، [وتؤثروا  
على العلية الدينيه] <sup>(٤)</sup> ؛ فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تنبئ<sup>(٥)</sup> ، والفلك بها من  
أجلكم لا يحبس ؛ وإذا قرنت<sup>(٦)</sup> بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي  
لا يغيره الغدو ولا الأصيل ؛ والوظائف بعد أدائها لا تقوت ، وأين حق من  
يموت ، من حق الحى لا يموت ؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها ، وأتبعوها  
النوافل ما أطقتموها ؛ فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استحق<sup>(٧)</sup> الكمال ،

(١) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب : « وإن » .

(٢) في نفع الطيب : « ضامنة » .

(٣) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٤) زيادة عن نفع الطيب .

(٥) تنبئ : تسرع .

(٦) في ط : « قورنت » .

(٧) في نفع الطيب : « استحققت » .

ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال ؛ وثابروا<sup>(١)</sup> عليها في الجماعات ، وبيوت الطاعات ؛ فهو أرفع للسلام ، وأظهر لشرائع الإسلام ؛ وأبرّ بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تمصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطها محصل ؛ فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ؛ والحُجُول والغُرُّ فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ؛ فالبناء بأساسه ، والسيف برئاسه<sup>(٢)</sup> . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ؛ تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المنفرقات ؛ فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال ، وكان في درجة الرجولة ذا انتقال<sup>(٣)</sup> ، واستعاض صدأه بصقال ؛ وإن تراخى تهقر الباع ، وسرقتة الطباع ، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولدتها القريية ؛ مفتاح الساحة بالعرض الزائل ، وشكران المسئول على الضد من درجة السائل ؛ وحق الله في مال من أغناه ، لمن أجهده في المعاش وعناه ؛ من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه ، [٢٢٤] ولا علة القدر الذي يخفيه ، وما لم ينله حظ الله فلا خير فيه ؛ فاسمحوا بتفرقتها للحاضر لإخراجها ، واختيار عرضها ونتاجها ؛ واستحيوا من الله أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عدل ؛ واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرون أين تسلكون ؛ فوهب وأقدر ، وأورد

(١) العبارة عن قوله : « وثابروا » إلى قوله : « وأبر » ساقطة في نفع الطيب .

(٢) في نفع الطيب : « برأسه » .

(٣) هذه الجملة ساقطة في نفع الطيب .

بفضله وأصدر ؛ ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ؛ فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نواله .

وصيام رمضان عبادة السر المقرّبة إلى الله زُلفى ، المحفوظة لمن يعلم السر وأخفى ؛ مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ؛ والاجتهاد ، وإيثار السهاد على المهاد ؛ وإن وسّع الاعتكاف فهو من سننه [ المرعيه ، ولوأحقه ]<sup>(١)</sup> الشرعيه ؛ فبذلك تحسّن الوجوه ، وتحصل النفوس من الرقة على ما ترجوه ؛ وتهذب الطباع ، ويمتد في ميدان الوسائل إلى الله الباع .

والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ؛ وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسنّه ، وقال : ليس له جزاء عند الله إلا الجنة .

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ؛ فكونوا ممن يسمع نفيّره ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .

هذه عمُد الإسلام وفروضه ، ونقود مهّره وعروضه ؛ فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يُناوئكم ظاهرين ، وتلقوا الله لا مبدلين ولا مغيرين ، ولا تضيّعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أنّ بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب ، وتُجلى محاسنها من

بعد الانتقاب ؛ فعليكم بالعلم النافع ، دليلا بين يدي الشافع ؛ فالعلم مفتاح هذا [٢٢٠] الباب ، والموصّل إلى اللباب ؛ والله عز وجل يقول : « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » . والعلم وسيلة النفوس

(١) التكملة عن ت ونفع الطيب .

الشريفه ، إلى المطالب المُنِيفه ، وشرطه الخشية لله والخيفه ؛ وخاصة الملا  
الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تُتلى ؛ والسبيل في الآخرة إلى السعادة ،  
وفي الدنيا إلى التَّجِلَّة عاده ؛ والدُّخْر الذي قليله يشفع وينفع ، وكثيره يُعْلِي  
ويرفع ؛ لا يغصبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ؛ ولا يبتزه الدهر إذا مال ،  
ولا يستأثر به البحر إذا هال ؛ من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل  
وإن جَمَّ ماله ؛ وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ؛ فالتسوه  
لبنيكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ؛ واحملوهم على جمعه ودرسه ،  
واجعلوا طباعهم ثرَى لغرسه ؛ واستسهاوا ما ينالهم من تعب من جزاءه ، وسهر يهجر  
له الجفن كراه ؛ تعقدوا لهم ولاية عز لا تُعزل ، وتحلِّوهم مثابة رفعة لا يُحط فارعا ،  
ولا يستنزل ؛ واختاروا من العلوم التي يُنْفِقها الوقت ، ما لا يناله في غيره المقت ؛  
وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابتها القريه ؛ من علوم لسان لا تستغرق  
الأعمار فصولها<sup>(١)</sup> ، ولا يضايق ثمرات المعاد محصولها ؛ فإنما هي آلات لغيره ،  
وأسباب إلى خير منها وخير ؛ فمن كان قابلا منها لازدياد ، وألني فهمه ذا انقياد ؛  
فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه ؛  
ثم الشروع في أصول الفقه ، فهو العلم العظيم المتنه ، المهدى كنوز الكتاب  
والسنة ؛ ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجله ، والتدرب في طرق النظر وتصحيح  
الأدله ، وهذه هي الغاية القصوى في الله ؛ ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ،  
وتقاعد عن التي هي أسمى ؛ فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ،  
وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ؛ وإياكم والعلوم القديمه ، والفنون  
المهجورة النميمه ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا ، ورأيا ركيكا ؛ ولا يشرف في

[٢٢٦]

العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ؛ وتطويق الاحتقار ، وصمة الصغار ،  
 وخول الأقدار ، والحسف من بعد الإبدار ؛ وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال ،  
 وأوفق<sup>(١)</sup> من قطع العمر في الجدل ؛ هذا ابن رشد قاضي مصر<sup>(٢)</sup> ومفتيه ، وملتمس  
 الرشد ومؤتبه ؛ عادت عليه بالسخطه الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ؛ فلا سبيل  
 إلى اقتحامها ، والتورط في ازدحامها ، ولا تخلطوا سامكم بحامها ؛ إلا ما كان من  
 حساب ومساحه ، وما يعود بجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم  
 براحه ؛ وما سوى ذلك فحججور ، وضرم مسجور ، ومقوت مهجور .

وأمروا بالمعروف أسراً رقيقاً ، وانهوا عن المنكر نهياً حرياً بالاعتدال حقيقاً ،  
 واغبطوا من كان من سنة الغفلات مفيقاً ، واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا  
 منه طريقاً ؛ وأطيعوا أمر من ولّاه الله من أموركم أمراً ، ولا تقرّبوا من الفتنة  
 جراً ، ولا تداخلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين ؛  
 وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شيء عرف به . وإياكم والكذب  
 فهو العورة التي لا توارى ، والسوءة التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتارى ؛ وأقل  
 عقوبات الكذاب ، بين يدي ما أعد الله له من العذاب ، ألا يُقبل صدقه إذا  
 صدق ، ولا يعول عليه إن كان بالحق قد نطق .

[٢٢٧]

وعليكم بالأمانة فالخيانة لوم ، وفي وجه الديانة كُوم ؛ ومن الشريعة التي

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « وأشفق » .

(٢) كان ابن رشد قاضي الجماعة بقرطبة .

(٣) يقال : أضره بالشيء إذا أضره به وعوده إياه ، وكأنه ضمن الفعل معنى : صرته

على الشيء .

لا يُعَدَّرَ بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ؛ وحافظوا على الحِشمة والصيانة ، ولا تَجْزُوا من أقرضكم دين الخيانة ؛ ولا توجدوا للغدر قبولا ، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً ؛ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستولاً ؛ ولا تستأثروا بكنز ولا خزن ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا خزن ، ولا تَبْخَسُوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن ؛ والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ؛ واعلموا أن الإنسان في فُسحة ممتدّه ، وسبيل الله غير منسدّه ؛ ما لم يَنْبِذْ إلى الله بأمانه ، ويغمس في الدم الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سنناً قويمًا ، وجلى من الجهل والضلال ليلا بهيما : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » .

واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه ، وامتمد في سبيل السعادة باعه ، ولو لم تتلق (١) نور الله الذي لم يهد (٢) شعاعه ، فالخلال لم تضق عن الشهوات أنواعه ، ولا عدم إقناعه ؛ ومن غلبت عليه غرائز جهله ، فليمنظر هل يجب أن يُزنى بأهله ؟ والله قد أعد للزاني عذاباً وبيلاً ، وقال : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » .

والخُرَام الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ؛ واللهم لم يجعله الله في الحياة شرطاً ، والمحرم قد أغنى عنه بالخلال الذي سَوَّغ وأعطى ؛ وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرّضة [٢٢٨]

(١) في ط : « تتلو » .

(٢) في ت : « يهد » .

الأجساد ، والله قد جعلها رجساً محرماً على العباد ، وقرنتها بالأنصاب والأزلام في مباينة السداد .

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهى الدين ، والله تعالى يقول : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وقال : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » في الكتاب المبين . ولا تأكلوا مال أحد [ بغير حق يبيحه ]<sup>(١)</sup> ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ؛ والتمسوا الحلال يسمى فيه أحدكم على قدمه ، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تلجئوا إلى المتشابه إلا عند عدمه ؛ فهو في السلوك إلى الله أصل مشروط ، والحفاظ عليه مغبوط .

وإياكم والظلم ، فالظالم ممقوت بكل لسان ، مجاهر لله بصريح العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان ؛ والنميمة فساد وشتمات ، لا يبقى عليه متات ، وفي الحديث : « لا يدخل الجنة قتات » . واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغيبة فباب الخير عنها مسدود ، والبخل فما رثى البخيل وهو مودود<sup>(٢)</sup> ؛ وإياكم وما يعتذر منه ، فواقف الخزي لا تستقال عثراتها ، ومظنات الفضائح لا تؤمن غمراتها ؛ وتفقّدوا أنفسكم مع الساعات ، وأفسوا السلام في الطرق والجماعات ، ورفقوا على ذوى الزمانات والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يُربحكم في البضاعات ؛ وعولوا عليه وحده في الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نصبتم الموائد ؛ وتقربوا إليه باليسير من ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ؛ وازعوا حقوق الجار ،

[٢٢٩]

(١) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٢) كذا في نفع الطيب وفي الأصلين : « إلا وهو مردود » .

واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار ؛ وتعاهدوا أولى الأرحام ، والشايج البادية  
 الالتحام ؛ واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر ، وتفسد السر والجرم ؛  
 والرشا فإنها تحط الأقدار ، وتستدعى المذلة والصغار ؛ ولا تسامحوا في لعبه  
 قمر ، ولا تشاركوا أولى البطالة في أمر ؛ وصونوا المواعد من الإخلاف ،  
 والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف ، وحقوق الله من الازدراء والاستخفاف ،  
 ولا تلهجوا بالآمال العجاف ، ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف ؛ واجعلوا العمر  
 بين معاش ومعاد ، وخصوصية وابتعاد ، واعلموا أن الله بمرصاد ، وأن الخلق  
 بين زرع وحصاد<sup>(١)</sup> ؛ وأقلوا بغير الحالة الباقية لهموم ، واحذروا القواطع عن  
 السعادة كما تحذر السموم ، واعلموا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم ؛  
 وقابلوا بالصبر أذية المؤذنين ، ولا تقارضوا<sup>(٢)</sup> مقالات الظالمين ، فالله لمن بُغى  
 عليه خير الناصرين ؛ ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت ، ولا تضيعوا<sup>(٣)</sup>  
 للأمراض إذا أعضلت ؛ فكل منقرض حقير ، وكل منقض وإن طال  
 فقصير ؛ وانظروا الفرَج ، وانتشقوا من جناب الله الأرج ؛ وأوسعوا بالرجاء  
 الجوامح ، [ واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح ]<sup>(٤)</sup> ،  
 وتضرعوا إلى الله بالدعاء ، واجتموا إليه في البأساء والضراء ؛ وقابلوا نعم الله  
 بالشكر الذي يقيد منها الشارد ، ويعذب الموارد ؛ وأسهموا منها للمساكين ،  
 وأفضلوا عليهم وعينوا الحفظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثار : « يا عائشة أجسني جوار

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « وأن الخلق زرع حصاد » .

(٢) في نفع الطيب : « ولا تعارضوا » .

(٣) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « تضيعوا » .

(٤) زيادة عن نفع الطيب .

نِعَمَ اللهُ ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم . « ولا تَطْغَمِكم النعم فتقصرُوا في<sup>(١)</sup> » [٢٣٠] شكرها ، وتلفمكم الجمالة بسكرها ؛ وتنوهموا أن سعيكم جَلَبها ، وجِدَّكم حَلَبها ؛ فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا الله إذا نظر بعين اليقين . والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تُذهبوا نذابه زَيْنكم ؛ وَايَلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ؛ بما أمكنه من إخلاص وبر ، وسراعاة في علانية وسر ؛ وللإنسان مزية لا تُجْهَل ، وحق لا يُهْمَل ؛ وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصلُّوا التعاهد والتزاور ؛ تُرغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ؛ ولا تنافسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تَهَارَشُوا تَهَارِشَ السباع على الجيفة ؛ واعلموا أن المعروف يُكَدَّرُ بالامتنان ، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان ؛ فإذا أسديتم معروفًا فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمرًا فاحتقروه ؛ والله الله لا تنسوا مقارضة سَجَلِي ، وبرُّوا أهل مودتي من أجلي ؛ ومن رُزِقَ منكم ما لا يهذأ الوطن القَلِقُ المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ؛ فلا يستهلكه أجمع في العمار ، فيصبح عرضة المذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ؛ ومُعَوِّقًا عن الانتقال ، أمام الثوب الثقال ؛ وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ؛ وازهدوا جُهدكم في مصاحبة أهل الدنيا ، نخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يفي بضرها ؛ وأعقاب من تقدم شاهده ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضده ؛ ومن بُلِي منكم بها فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقليل من المال ، ويحذر مُعاداة الرجال ، ومزلات الإذلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العميال ؛ وإفشاء الأسرار ، وسكر الاغترار<sup>(٢)</sup> ؛ [٢٣١]

(١) في نفع الطيب : « ولا تطغوا في النعم فتقصرُوا عن شكرها » .

(٢) في نفع الطيب : « وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، فإنه دأب الفر » .

وليضن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلزم الأمانة ، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ؛ وليقف في التماس أسباب الجلال ، وسمو القدر ورفعة الحال دون الكمال ، فمابعد الكمال غير النقصان ، والزعازع تسالم اللدن اللطيف من الأغصان . وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الحظوظ<sup>(١)</sup> وغلاباً ؛ فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، داع إلى الفضح<sup>(٢)</sup> والعار ؛ ومن امتحن منكم بها اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً ؛ فليتلق وظائفها بسعة صدره ، وليبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ؛ فالولايات فتنة ومحنة ، وأسر وإحنة ؛ وهي بين إخطاء سعادته ، وإخلال بعاده ؛ وتوقع عزل ، وإدالة رخاء بأزل ، وبيع جد من الدنيا بهزل ؛ ومزلة قدم ، واستنباع ندم ؛ ومآل العمر كله فووت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ؛ جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها ، وتجارتي التي لربحكم أدرتها ؛ فتلقوها بالقبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صباحها ؛ وبقدر ما أمضيت من فروعها ، واستغشيت من دروعها ؛ اقتنيت من المناقب الفاخرة ، وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة ؛ وبقدر ما أضعت من لآلئها النفيسة القيم ، استكثرت من بواعث الندم ؛ ومهما سئمت إطالتها ، واستغزرت مقالتها ؛ فاعلموا أن تقوى الله فذلك الحساب ، وضابط هذا الباب ؛ كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا منأخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ؛ فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ؛

[٢٣٢]

(١) في نفع الطيب : « الخطوب » .

(٢) في نفع الطيب : « الفضيحة » .

جعلها<sup>(١)</sup> الله من وراء خُطّة<sup>(٢)</sup> النجاء ، وتَفَقَّ بضائعها المُرْجَاه ، بلطائفه المرتجَاه ؛  
والسلام عليكم من حبيبكم المودّع ، والله يَلْأُمُهُ<sup>(٣)</sup> حيث شاء من شمل متصدّع ؛  
والدِّم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته .

انتهت الوصية ، وهي غريبة في معناها .

قلت : ولأجل ذلك كان شيخ شيخنا الفقيه الإمام القاضي العلامة سيدي  
عبد الواحد الوائشريشي رحمه الله ، كثيراً ما يُدْخِلُ منها في خطبه ، على ما لا  
يخفى على من طالعها ، وإلى الله ترجع الأمور .

وإذ بلغنا في ترجمة ابن الخطيب إلى هذا الحد الذي يستطيله الناظر فيه ،  
وهو والله لا يتم التعريف بابن الخطيب ولا يوفيه ، فلنذكر القاضي النباهي  
والكاتب ابن زمرّك ، اللذين كان لهما مع ابن الخطيب أول الأمر مصافاة  
ومُتّات ، ثم استحالتا إلى ما علمت من العداوة ذات البتات .

انتهى الجزء الأول من أزهار الرياض في أخبار عياض  
ويليه الجزء الثاني ، وأوله : أخبار القاضي النباهي

(١) في ط : « جعله » ، وفي نفتح الطيب : « جعل » .

(٢) في نفتح الطيب : « خطته » .

(٣) كُتِبَ في نفتح الطيب . ولأم الصدع من باب منع ، أصله . وفي الأصيلين : « يله » .